الأخلاق الإسلاميّة

سلسلة المعارف التعليميّة

الآداب المعنوية للصلاة

في ضوء فكر الإمام الخمينيّ قدس سره

دار المعارف الإسلاميّة الثقافيّة

إعداد مركز نون للتأليف والترجمة

سِلْسِلَةُ المَعَارِفِ التَعْلِيمِيَّة

الآداب المعنويّة للصلاة

في ضوء فكر الإمام الخمينيّ قُدِّسَ سِرُّه

اسم الكتاب:	الآداب المعنويّة للصلاة في ضوء فكر الإمام الخمينيّ قدس سره
إعداد:	جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة - مركز نون للتأليف والترجمة
نشر:	دار المعارف الإسلاميّة الثقافيّة
الطبعة الأولى:	2016م - 1438هـ

© جميع حقوق الطبع محفوظة

سِلسِلةُ المَعَارِفِ التَعليميّة

الآداب المعنويّة للصلاة

في ضوء فكر الإمام الخمينيّ قُدِّسَ سِرُّهُ

دار المعارف الإسلاميّة الثقافيّة
إعداد مركز نون للتأليف والترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

المقدّمة 17

الدرس الأوّل: الحياة المعنويّة في ظلّ التوجّهات القلبيّة 21

التمهيد 23

أهميّة التوجّه القلبيّ 23

إلامَ نتوجّه بقلوبنا؟ 24

مانع التوجّه إلى عزّ الربوبيّة 26

لا سير وسلوك مع الإنّيّة 27

أعظم ثمار التوجّه إلى عزّ الربوبيّة 27

العبوديّة المطلقة من أعلى مراتب الكمال 28

الدرس الثاني: عبور المراتب والمقامات إلى الغاية 31

تمهيد 33

مقام العلم 33

موانع هذه المرتبة ومخاطرها 34

كيف ننجو من هذا الحجاب؟ 35

مقام الإيمان 36

مقام الطمأنينة 36

مقام المشاهدة 37

ما هي آثار هذا المقام وعلائمه؟ 38

ما هي حقيقة العرفان 38

هل يوجد مخاطر في هذا المقام؟ 39

ما هو طريق النّجاة؟ 39

الدرس الثالث: الخشوع 41
تمهيد 43
ما هو الخشوع؟ 43
أنواع الخشوع 44
مراتب الخشوع 45
الخشوع من علائم الإيمان 46
ما الفرق بين العلم والإيمان؟ 46
كيف نوصل العلم إلى القلب؟ 47
ضرورة المداومة والمثابرة 48
ضرورة الالتفات إلى المانع 48

الدرس الرابع: الطمأنينة 51
تمهيد 53
ما هي الطمأنينة؟ 53
أهمّيّة الطمأنينة 54
آثار عدم الطمأنينة 54
آثار الطمأنينة في النفس 56
أهمّيّة مرحلة الشباب في تحصيل الطمأنينة 58

الدرس الخامس: التفهيم 61
تمهيد 63
ما هو التفهيم؟ 63
أهمّيّة التفهيم 64
التكرار طريق تحصيل التفهيم 64
مراتب التفهيم بحسب درجات المعرفة 66
آثار التفهيم ونتائجه 66
علامة حصول التفهيم 67

الدرس السادس: النشاط والبهجة 71
تمهيد 73
ما الذي يمكن أن يحصل من عبادة بلا نشاط؟ 73
أهمّيّة رعاية النشاط والبهجة 74

ما هو سرّ ذلك؟ 75
دور النشاط والبهجة في العبادة 76
شواهد على أهمّيّة النشاط والبهجة 76
الرعاية أهمّ عمل لتحصيل الإقبال 77
أصول الرعاية 79

الدرس السابع: الاستعاذة من الشّيطان 83
تمهيد 85
أهمّيّة الحفاظ على العبادة من تصرّف إبليس 85
دور الإنسان في هذا الصراع 86
ما هو إبليس؟ وما هي حقيقة تصرّفه؟ 87
أدوات إبليس وحبائله 89
عواقب إهمال الاستعاذة 90
نماذج من ضحايا إبليس 92
ضرورة مواجهة إبليس 93

الدرس الثامن: مراتب الاستعاذة 97
تمهيد 99
من هو المستعيذ الحقّيقي؟ 99
مراتب الاستعاذة 102
حقيقة الاستعاذة من الشيطان 104

الدرس التاسع: شروط الاستعاذة 109
تمهيد 111
ما هية الاستعاذة 111
شروط الاستعاذة 112

الدرس العاشر: حضور القلب 121
تمهيد 123
أهمّيّة حضور القلب 123
آثار غفلة القلب 125
أحاديث في الترغيب في حضور القلب 126

عوامل ضعف حضور القلب 128

الدرس الحادي عشر: طريق تحصيل حضور القلب 133
تمهيد 135
التّفكّر 135
الجدّ والاجتهاد 136
اليقظة 136
رفع الموانع 137
محاربة الخواطر والخيالات الفاسدة 137
منشأ العامل الباطنيّ لتشتّت الخاطر 138

الدرس الثاني عشر: ضبط قوّة الخيال 141
تمهيد 143
طبيعة الخيال الفرّارة 144
إمكانية ترويض الخيال 144
كيفية الترويض 145
ما هو الدافع الأكبر لمثل هذه الرياضة؟ 146
ما هو سبب التكاسل عن الرياضة؟ 146
ترك الاعتماد على النفس 147
علاج ناقص 147

الدرس الثالث عشر: حبّ الدنيا مانع من حضور القلب 151
تمهيد 153
الحبّ أساس التوجّه والحركة 153
أنواع المحبين بحسب المحبوب 154
ما هي حال صلاة محبّي الدنيا؟ 155
الخلط بين عمارة الدنيا وجعلها غاية 156
آثار حبّ الدنيا 157
علاج حبّ الدنيا 159
العزم على ترك الدنيا 160

الدرس الرابع عشر: البيان الإجمالي للطهور 163
تمهيد 165
ضرورة الطّهارة الباطنيّة 165
طهارة الظاهر من المعاصي وآثارها 166
طهارة الخيال من الأخلاق الفاسدة 169
طهارة القلب من التعلّق بما سوى الله 172
الطهارة من الجهل المركّب 174

الدرس الخامس عشر: تطهير الفطرة 177
تمهيد 179
درجات النّاس بحسب الفطرة 179
ضرورة الجهاد لاستعادة الفطرة 181
كيفيّة العودة إلى الفطرة 181
أعظم مظاهر الرحمة المطلقة في الحياة البشريّة 182
التوجّه المعنويّ إلى الرّحمة 183
التراث مظهر الرحمة الإلهية في عالم الطّبيعة 183
الاعتماد على النّفس أساس الهلاك 184

الدرس السادس عشر: الآداب القلبيّة للطهارة المائية 187
تمهيد 189
نصّ شريف حول سرّ الماء 189
مثال الماء ورمزيّته في عالم الوجود 191
مراتب الطّهارة بحسب تجليّات الرحمة 191
أبعاد الطّهارة 192

الدرس السابع عشر: آداب الوضوء بحسب الباطن والقلب 197
تمهيد 199
علّة الأمر بالوضوء 199
مراعاة آداب الوضوء الظاهرية والباطنية 200
الطهارة الظاهرية مقدّمة للطهارة الباطنية 200
حقيقة الوضوء 201
الخطوط العامّة للسّير والسّلوك 204

الدرس الثامن عشر: الغسل وآدابه القلبيّة 207
تمهيد 209
حقيقة الجنابة والغسل منها 209
آداب الغسل القلبيّة 210
أصل أصول الجنابة 211
بأيّ ماء يتحقّق الغسل الباطني؟ 211
شواهد من الأحاديث 211
منطلق السفر بغسل القلب من حبّ الدنيا 212

الدرس التاسع عشر: الآداب الباطنية لإزالة النجاسة 215
تمهيد 217
ما هي حقيقة الحدث؟ 217
علامة الطّهارة من الحدث؛ شهود التوحيد 218
آداب الحدث 219
أسرار التخلّص من النّجاسة 220
أهميّة تحصيل حظوظ الرّوح 221
معرفة باطن عالم الطّبيعة 222
التفرّغ من عالم الطّبيعة 222
طريق التفرّغ هو التقوى 222

الدرس العشرون: آداب مطلق اللباس 225
تمهيد 227
ما هي العلاقة بين كل مرتبة؟ 228
أمثلة حول التأثير والتأثّر بين المراتب 229
ما هو تأثير اللباس على قلوبنا؟ 230
إلى أيّ مدى يمكن أن تصل هذه الآثار؟ 232
ضرورة الاعتدال 233
موعظة للإمام قدس سره 234

الدرس الواحد والعشرون: سرّ طهارة اللباس 237
تمهيد 239
لا بد من الحضور 240

مراتب الستر بحسب مراتب النّفس........ 240
الستر بحسب العورة........ 242

الدرس الثاني والعشرون: الاعتبارات القلبيّة لستر العورة........ 247
تمهيد........ 249
حقيقة الارتباط بين المخلوق والخالق........ 249
كيفيّة الوصول إلى حقيقة الإيمان ونوره........ 250
ما هو أثر هذه الحقيقة في السّلوك؟........ 251
فما هي العورات الباطنيّة؟........ 251
أصل جميع العورات........ 251
لا ساتر إلا الله........ 252
كيفية الوصول إلى ستر الله الأعظم........ 252
حديث حول اللباس المعنويّ........ 253

الدرس الثالث والعشرون: معرفة المكان وآدابه........ 257
تمهيد........ 259
ما هي الأمكنة؟ وما هي العوالم؟........ 260
المكان الأول: الطبيعة........ 260
المكان الثاني: البدن الملكي........ 261
المكان الثالث: الجسم المثالي........ 262
المكان الرابع: المسجد الملكوتي........ 263
المكان الخامس: النفس بحقيقتها الوجودية........ 263
آداب عامّة في جميع النشآت........ 264
في بعض آداب إباحة المكان........ 264
آداب المسجد........ 266

الدرس الرابع والعشرون: الآداب القلبيّة للوقت........ 269
تمهيد........ 271
مراتب المصلّين بحسب مراعاتهم لأوقات الصلاة........ 271
بعض مراتب المصلّين!........ 272
آداب الوقت........ 274
المعرفة وأثرها على المصلّي........ 274

قطع الاشتغالات القلبيّة 276
أحوال المعصومين عليهم السلام عند حضور وقت الصلاة 276
ميقات الإنسان الكامل الخليفة الأعظم 277

الدرس الخامس والعشرون: السرّ الإجماليّ للاستقبال 279
تمهيد 281
ما هو باطن الاستقبال وسرّه؟ 281
درجات الاستقبال 282
في بعض الآداب القلبيّة للاستقبال 284
وصيّة الإمام للمحجوبين 286

الدرس السادس والعشرون: سرّ الأذان والإقامة الإجمالي وآدابهما 289
تمهيد 291
ما هو سرّ الأذان وأدبه؟ 291
ما هو سرّ الإقامة وأدبها؟ 292
أنواع القلوب في الحضور 293
العلاقة بين أنواع التجلّيات الإلهيّة وأنواع القلوب 293
المحجوبون ووظائفهم القلبيّة 294

الدرس السابع والعشرون: آداب الشهادة بالرسالة والولاية 299
تمهيد 301
ضرورة التمسّك بهداة الطريق 301
الدليل العلميّ على ضرورة الواسطة 303
الرسالة الختمية وأثر الشهادة بها 304
لماذا هذه الشهادة في الأذان؟ 305
الصلاة كشف محمّدي 305
ما هي علامة صدق الشهادة؟ 306
بين الشهادة بالولاية والشهادة بالرسالة 307

الدرس الثامن والعشرون: آداب الحيعلات 311
تمهيد 313
وما هو مصداق هذه السعادة؟ 313

متى تحين الصّلاة؟ 314
ما هو سرّ تكرار الدعوة إلى الصلاة؟ 314
آداب السالك حين إطلاق الدعوة إلى الصلاة 314
ما هو سرّ تكرار التكبيرات؟ 315
العلاقة بين الصلاة والدعوة إلى الفلاح 316
قد قامت الصلاة 316
مسؤولية الإمامة ودورها في عمارة الملكوت 318

الدرس التاسع والعشرون: سرّ النية وآدابها 321
تمهيد 323
النية وملازمتها للعمل الاختياري 323
وسوسة الشيطان ودورها في تخريب النية 324
الشخصية الوسواسية 325
علاج الوسوسة 327

الدرس الثلاثون: الإخلاص 331
تمهيد 333
معنى الإخلاص 334
الفرق بين الإخلاص في العمل والإخلاص في الذات 334
أهمّ مانع للإخلاص 336
إمكانية حصول الإخلاص الحقيقي 337
علامات الإخلاص 338
خطورة إنكار مقامات الإخلاص 338
أنواع المنكرين ومرضى القلوب 339

الدرس الواحد والثلاثون: مراتب الإخلاص 345
تمهيد 347
مراحل السير نحو الإخلاص 348
بعض درجات الإخلاص وما يقابلها 352

الدرس الثاني والثلاثون: آداب القيام وأسراره 359
تمهيد 361

السرّ الاجمالي للقيام 361
معنى النظر إلى محلّ السّجود 363
آداب القيام 363
النتائج والآثار 365
الاستفادة من مقامات أئمّة الهدى عليهم السلام 365
اكتشف الحياة الحقيقية 368
التحذير من قطّاع الطرق 369

الدرس الثالث والثلاثون: آداب الركوع وأسراره 373
تمهيد 375
معنى التكبير قبل الرّكوع 375
آداب التكبير قبل الركوع 376
معنى رفع اليدين أثناء التكبير 376
معنى ذكر الركوع 377
رفع الرأس من الرّكوع 378
الآداب العامّة للركوع 379
شواهد من النصوص 380

الدّرس الرابع والثلاثون: أسرار السجود وآدابه 383
تمهيد 385
أسرار السّجود 385
آداب السجود 386
آداب السجود عند الإمام الصادق عليه السلام 386
بعض أسرار الاسم العليّ 387
معاني سجود المتوسّطين 388
سجود الأولياء 390
الفرق بين تسبيح الرّبّ في الركوع والسجود 391
العلاقة بين التوحيد وأفعال الصلاة الثلاث 392
ضرورة المراقبة الشديدة 394
التحذير من خطر الادّعاء 395

الدرس الخامس والثلاثون: آداب التشهُّد 397
تمهيد 399
معنى الشهادة بأن لا إله إلا اللّه 399
الشهادة بأنّ محمدًا رسول اللّه 400
الفرق بين الشهادتين 401
خطر الشهادة 401
كيف ننجو من هذا الخطر؟ 402
آداب التشهّد في حديث الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ 402

الدرس السادس والثلاثون: آداب السلام 407
تمهيد 409
حقيقة السلام 409
السلام ومظهرية الوحدة في الكثرة 410
السلام الحقيقي 411
حديث في معنى السّلام ومراتبه 413

الدرس السابع والثلاثون: التسبيحات الأربعة وأسرارها وآدابها 419
تمهيد 421
التّسبيح 421
التحميد 423
التهليل 423
التكبير 424
الآداب القلبيّة للقنوت والدعاء 426
آداب القنوت 429
في التعقيب وآدابه القلبيّة 429
بعض التعقيبات المأثورة 430
خصوصية استحباب بعد تعقيب صلاة الصبح 431

الدرس الثامن والثلاثون: منهج الاعتدال 435
تمهيد 437
الأمّة الوسط ومنهج الاعتدال 437
الإفراط عند بعض الصوفية 438

التفريط من أهل الظّاهر.......... 439
منهج الاعتدال.......... 439
خطورة إنكار الظاهر.......... 441
خطورة إنكار المقامات 441
تطهير القلب من الأوهام.......... 441
اختتام ودعاء 442

المقدّمة

الحمد للّه ربّ العالمين، وصلّى اللّه على سيّدنا محمد ﷺ، وعلى آله الطاهرين عليهم السلام، وبعد...

إنّ الانجذاب نحو العرفان والمعنويّات يُعتبر أحد النزعات الفطرية في الإنسان التي لا يُمكن تجاهلها أو التساهل إزاءها. وما أكثر الذين دخلوا قديماً وحديثاً في هذا الوادي! متعطّشين للمعنويّات، ولكنّهم هلكوا فيه، أو احتاروا في النهاية بسبب اتّباع بعض المفاهيم والسلوكيات العرفانيّة الخاطئة.

والإمام الخميني، الذي يُعدّ بحقّ مجدّداً للإسلام المحمديّ الأصيل بكلّ تعاليمه السامية في هذا العصر، قد أزال الشبهات النظرية والعملية عن العرفان، بالاستفادة من القرآن الكريم ومن معارف مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

فأحيا الإمام قدس سره العرفان الإسلامي الأصيل بكلّ أبعاده، وكان رائداً في تنقيح هذه الحقيقة السامية من جميع الانحرافات التي لحقت بها طوال التاريخ، وقام بإظهار وجه العرفان الحقيقي المشرق، معلناً بشكل واضح وصريح أنّ العرفان الإسلامي الأصيل لا ينسجم على الإطلاق مع الانعزال واللامبالاة، بل لا ينفصل أبداً عن العبادة والشريعة، ولا عن القرآن والسنّة الشريفة، ولا عن السياسة والجهاد.

ولقد أحيا الإمام العرفان الأصيل بكلّ أبعاده التي تمسّ حقيقة الدّين، أيضاً بكلّ أبعاده. فجذب إليه قلوب الكثيرين وربّى من خلال هذا العرفان رجالاً ونساءً كانوا مستعدّين للتضحية بكلّ ما يملكون في سبيل الدّين والمجتمع البشري الفاضل والقيم الإنسانية السامية.

وإنّ تعريف الشباب، الباحث عن الحقيقة اليوم، بهذا العرفان الأصيل، خطوة ضرورية في طريق تحقيق الحضارة الإسلامية الكبرى؛ فهم نواة المجتمع وباكورة مستقبله.

في الحديث المروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**أفضل النّاس من عشق العبادة، فعانقها، وأحبّها بقلبه، وباشرها بجسده، وتفرّغ لها، فهو لا يبالي على ما أصبح من الدّنيا، على عُسْرٍ أم على يُسْرٍ**»[1]. ونحن لو نظرنا إلى الإمام الخميني قدس سره لرأيناه مصداقاً حقيقيّاً لمن أحبّ العبادة وعشقها، وعانقها من شبابه، وحتى شيخوخته، فلم يفتر عنها لحظة، ولم يخمد توهّجها في نفسه يوماً، بل كانت تسمو به، وتقرّبه أكثر فأكثر من المحبوب الأوحد للأنبياء والأولياء والكمّل.

وأحد مظاهر تعبُّد الإمام قدس سره واهتمامه الشديد بالعبادة، تجلّى وظهر في حرصه الشديد على القرآن والصلاة والدعاء، وتمسُّكه بها، وملازمته لها، وتأكيده الشديد عليها، لما لها من معانٍ عميقة تربط الإنسان قلبيّاً ومعنويّاً بالله تعالى، لتغدو هذه العبادات وسائل عروجٍ الروح نحو الله بشكل أقوى وأسرع.

ومن أهمّ آثار العبادة نشوء العُلقة المعنوية بين العابد والمعبود، هذه الرابطة القلبيّة التي يُمكنها، فيما لو قُدّر لها الثبات والتكامل، أن تُفني أفعال العابد وصفاته وحتى ذاته في المعبود؛ فتغدو أفعاله أفعال الحقّ، وقدرته قدرة الحقّ، وصفاته صفات الحقّ تعالى... فعندما يفنى وجود الإنسان كلّه في الله تعالى يُصبح المتصرّف في مملكة وجود الإنسان هو الله، وهؤلاء هم أولياء الله عزّ وجلّ، كما ورد في الحديث المروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**قال الله عزّ وجلّ: من أهان لي وليّاً فقد أرصد لمحاربتي، وما تقرّب إليّ عبد بشيء أحبّ إليّ ممّا افترضت عليه، وإنّه ليتقرّب إليّ بالنّافلة حتّى أحبّه؛ فإذا أحببته، كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الّذي ينطق به، ويده التي يبطش بها، إن دعاني أجبته، وإن سألني أعطيته**»[2]. وهذا هو باختصار إمامنا الخميني، قدّس الله نفسه الزكية!

يصف لنا الإمام الخامنئي دام ظله فناء الإمام الخميني قدس سره، فيقول: «إنّ الإمام الخميني الراحل قدس سره، اكتسب كلّ هذه الصفات من جرّاء التقوى والتمسّك بالدِّين والامتثال لأمر

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص83.
(2) م.ن، ص352.

اللّه، وقد بيّن شخصيّاً هذا المعنى في طيّات كلامه، مشيراً إلى أنّ كلّ ما هو موجود إنّما هو من اللّه، وكنتيجة للذوبان في الإرادة الإلهية، وأنّ اللّه هو الذي نصر الثورة، وهو الذي حرّر خرّمشهر، وهو الذي ألّف بين قلوب أبناء الشعب. فكان ينظر إلى كلّ شيء من وجهة نظر إلهية، وفي مقابل ذلك فتح اللّه أمامه أبواب رحمته»[1].

فالعبادة الخالصة للّه مقدّمة للفناء فيه تعالى، والفناء في اللّه مقدّمة لرؤية وجهه الكريم الذي عَنَت له جميع الوجوه، وخشعت له جميع الأصوات، فلم يبقَ في محضره أحد إلا كبّره وسبّحه وقدّسه. واستشعاراً منّا لدور العبادة ومركزيّتها في العلاقة الباطنية والظاهرية بين الخالق والمخلوق، وانطلاقاً من محورية الصلاة في المنظومة العبادية التي تصل عالم الإمكان بعالم الوجوب، كان لا من بدّ من الوقوف عند مدرسة الإمام العبادية الباطنية التي تجلّت في كتابه الموسوم بـ «**الآداب المعنوية للصلاة**»، من أجل استخراج كنوزه الدفينة واستنباط أصوله البنّاءة، لتكون مدرسة في صناعة الإنسان الكامل وبوّابة عروجه إلى الخالق. وكان الهدف الأساس من هذا الكتاب السعي إلى تحويل كتاب الآداب المعنوية للصلاة إلى متن تدريسي يُستفاد منه في الحقول والمجالات الدراسية والتعليمية كلّها. وبذلك، نكون قد وضعنا حجراً في طريق بناء صرح الإمام الخميني قدس سره العلمي والفكري، من أجل صناعة أجيال تعي فكره المعنوي، وتطّلع على أصول مدرسته السلوكية والعرفانية. وإنّ مركز نون للتأليف والترجمة، إذ يقدّم لأساتذتنا الكرام وطلّابنا الأعزّاء مثل هذا المتن التعليمي، على أمل أن يساهم بقوّة في تفعيل تناول الموضوعات الأخلاقية والعرفانية بشكل أصيل ومنهجي، وهو يرحّب بكلّ ملاحظة أو انتقاد يتقدّم بهذا العمل نحو المزيد من الدقّة والعلمية والروح التعليمية.

والحمد للّه ربّ العالمين

مركز نون للتأليف والترجمة

(1) الإمام الخامنئي دام ظله من كلمة ألقاها في 19 صفر 1420هـ.

الدرس الأوّل

الحياة المعنويّة في ظلّ التوجّهات القلبيّة

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يبيّـن أهميّة الحضـور القلبيّ وتأثيره على سـلوك الإنسان.
2. يشـرح كيفيّة حصول التوجّه القلبي، ويتعرّف إلى الحجاب الأساس أمام تحصيله.
3. يبيّن الآثار المختلفة للتوجّه القلبيّ.

التمهيد

إنّ الحياة الحقيقيّة التي خُلق الإنسان لأجلها، إنّما تتجلّى في الحياة المعنويّة أو القلبيّة. وجميع الأعمال الصّالحة والعبادات تُوجِّه الإنسان لكي يكتشف هذه الحياة، ثمّ يعيشها بكلّ وجوده. وبداية هذه الحياة هي في توجّه القلب نحو حقائق الوجود. ولأنّ الحياة كلّها من الله وبالله، ولأنّ كلّ الجمال من الله وإلى الله، فإنّ الحياة المعنويّة تتحقّق في ظلّ التوجّه إلى الله عزّ وجل. وبالتأكيد، إنّ الله ليس مجرّد كلمة نتوجّه إليها بخيالاتنا، بل إنّه الحقيقة المطلقة التي تجمع عالم المعاني التي لا نهاية لها، عالم الكمال المطلق.

أهميّة التوجّه القلبيّ

ما من إنسان إلّا ويعيش في كلّ حالاته وأوقاته توجّهًا قلبيًّا. ومن بين جميع الناس يتميّز السالك إلى الله بأنّه يجعل الحقيقة هدف توجّهاته وأحواله القلبيّة، ويعتبر اجتناب الوهم والباطل أمرًا أساسيًّا في حياته. وبهذه الطريقة يتّصل قلبه بمصدر الكمال.

ويقدّم الإسلام من خلال نظامه العباديّ فرصة عظيمة لتحقيق هذا التوجّه. ففي كلّ عبادة هناك أسرار وحقائق، إذا توجّه القلب إليها اكتسبت روحًا وحقّقت آثارها وأعطت ثمارها. من هذه الحقائق، التوجّه القلبيّ نحو عزّ الربوبيّة وذلّ العبوديّة.

يقول الإمام الخمينيّ قدّس سرّه: «من الآداب القلبيّة في العبادات والوظائف الباطنيّة لسالك طريق الآخرة التوجّه إلى عزّ الربوبيّة وذلّ العبوديّة، وهو بالنسبة للسّالك من منازل السلوك المهمّة، بحيث تكون قوّة سلوك أيّ إنسان بحسب قوّة هذا التوجّه والنظر، بل الكمال والنقص في الإنسانيّة يكون تابعًا لنقصانه وكماله»[1].

---

(1) الإمام الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ترجمة السيّد عبّاس نورالدّين، لبنان، بيت الكاتب للطباعة والنشر، 2009 م، ط 1، ص 22. وطبع الكتاب طبعة لبنانية أخرى تحت عنوان: الآداب المعنوية للصلاة، لكن لمترجم آخر.

والواضح من نصوص الإمام قدّس سرّه أنّه قد جعل قوّة السّلوك تابعة لقوّة التوجّه القلبيّ نحو هذه الحقيقة، التي هي أساس معرفة الإنسان بربّه وبنفسه. إنّها حقيقة الربوبيّة التي يكتشفها الإنسان في ظلّ معرفة نفسه بحقيقة العبوديّة. فعندما تحضر هذه المعرفة في النفس ويتوجّه إليها القلب، فإنّ قوّة السلوك واندفاع السالك في سيره إلى الغاية المنشودة سيتحدّد تبعًا لمستوى هذا التوجّه ودرجته؛ لهذا يقول الإمام قدّس سرّه:

«وكلّما قوي هذا النظر زادت روحانيّته في العبادة، وكانت روح العبادة أقوى»[1].

إلامَ نتوجّه بقلوبنا؟

تُختصر المعارف النافعة والحقائق الكبرى في جملة واحدة، وهي «**من عرف نفسه، فقد عرف ربَّه**»[2]، أو «**اعرف نفسك، تعرف ربّك**»؛ لهذا فإنّ معرفة الوجود، كما هو حقّه، تكمن في معرفة الإنسان لنفسه، إنّه خلاصة الأكوان، وفيه انطوى العالم الأكبر. ولا يمكن للإنسان أن يعرف العالم على حقيقته ما لم يعرف حقيقة نفسه التي هي عين الفقر والعجز والذلّة والربط باللّه تعالى، وفي ذلك يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**فإنَّ الْجَاهلَ بِقَدْرِ نَفْسه، يَكُونُ بِقَدْرِ غَيْرِه أَجْهَل**»[3]. ولا يمكن معرفة أيّ شيء معرفة واقعيّة إلّا بمعرفة سَببه وعلّته؛ ولهذا قيل في الحكمة: «**ذوات الأسباب لا تُعرف إلا بأسبابها**». ولهذا، فإنّ علامة معرفة الإنسان بنفسه، التي تؤدّي إلى أن يرى الأشياء كما هي، أن يعرف ربّه؛ لأنّه تعالى سبب كلّ شيء وأصله وعلّته، واللّه تعالى هو الغنيّ المطلق ذو العزّة اللامتناهية. فمن شهد فقر الممكنات وغنى الواجب، أدرك أصل جميع الحقائق!

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**العبوديّة جوهرة كنهها الربوبيّة، فما فُقد في العبوديّة وُجد في الربوبيّة، وما خَفي من الربوبيّة أُصيب في العبوديّة**»[4]. فمَن سعى بخطوة العبوديّة ووسم ناصيته بسِمة ذلّها سيجد سبيل الوصول إلى عزّ الربوبيّة، وطريق الوصول

(1) الإمام الخميني، روح اللّه الموسوي، معراج السالكين، ص 23.

(2) الإمام الصادق، جعفر بن محمد عليه السلام (منسوب)، مصباح الشريعة، بيروت، مؤسسة الأعلمي، 1400 هـ، ط 1، ص 13.

(3) السيد الرضي، محمد بن حسين، نهج البلاغة خطب الإمام علي عليه السلام، تحقيق وتصحيح صبحي الصالح، قم، دار الهجرة، 1414هـ.، ط 1، من عهد له إلى الأشتر النخعي، ص 437.

(4) الامام جعفر الصادق عليه السلام، مصباح الشريعة، ص 453.

إلى الحقائق الربوبيّة هو السير في مدارج العبوديَّة، فما فقد من الإنّيّة والأنانيّة في عبوديّته يجده في ظّل حمى الربوبيّة، حتى يصل إلى مقام يكون الحقّ تعالى سمعه وبصره ويده ورجله، كما ورد في الحديث الصحيح المشهور عند الفريقين»[1].

إنّ العلاقة الدلاليّة بين عزّ الربوبيّة وذلّ العبوديّة هي أعمق من الدلالة التضمّنيّة أو الالتزاميّة؛ إنّها دلالة لا توجد إلّا في عالم الحقائق الكبرى، والتي يُعبَّر عنها بالحقيقة والرقيقة[2]. وكأنّ شهود الإنسان للحقيقة لا يتطلّب منه أكثر من النظر مجدّدًا إليها حتى يدركَ رقيقتها. فمن شهد ربوبيّة الحقّ لكلّ العوالم كيف لا يمكن أن يراها جميعًا في عين العبوديّة والفقر والتعلّق؟!

ويقول الإمام قدس سره: «وهذان المقامان؛ أعني مقام عزّ الربوبية الذي هو الحقيقة ومقام ذلّ العبودية الذي هو رقيقته، مرموزان في جميع العبادات، وبالأخصّ في الصلاة التي لها مقام الجامعيّة، ومنزلتها بين العبادات منزلة الإنسان الكامل ومنزلة الاسم الأعظم، بل هي عينه»[3].

وأمّا الحديث حول انطواء الصّلاة على مقام الجامعيّة وعلى الاسم الأعظم، وكونها عينه، فسوف يأتي مفصّلًا إن شاء الله تعالى.

وإذا كانت منزلة الاسم الأعظم بين الأسماء الحسنى هي منزلة الجامعيّة، حيث انطوت فيه جميع الأسماء والكمالات، فإنّ الصّلاة قد جمعت كافّة المعاني الجليلة والآثار الجميلة التي أودعها الله في العبادات ونشرها فيها.

فلو كان في الصيام درجات وأسرار، ولو كان في الحجّ حكم ومعانٍ وأسرار، ولو كان في الجهاد فوائد وحظوظ معنويّة، وهكذا في كلّ عبادة، فإنّ الصلاة قد جمعت كلّ ما في هذه العبادات.

---

(1) الإمام الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 23.

(2) يقول العرفاء: «لكلّ حقيقة رقيقة»، أي لكلّ حقيقة نبعها ومددها، فالنبع الذي يمدّها هو الرقيقة؛ فالمصباح مثلاً حقيقة، ومدده أو نبعه هو الطاقة الكهربائيّة.

(3) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 24.

ولهذا، لا يمكن مقارنة أيّ فريضة بالصلاة؛ فهي التي إن قُبِلت قُبِل ما سواها من الطاعات، وهي التي جعلها الله قائدة للأعمال.

فمن عرف هذه الحقيقة أدرك أنّ صلاته هي الميزان الحقّ لسلوكه وأعماله. فإذا أراد أن يعلم رضا الله عنه في جهاده أو مساعيه، فعليه أن ينظر إلى صلاته في روحانيّتها والأنس بها وإقبال القلب عليها.

إنّ الله إذا قَبِل من عبده عملًا أورثه فيضًا، فيه من المعاني الجميلة ما لا يتناهى. والصلاة هي المحلّ الذي يستشعر فيه الإنسان هذا الفيض الجميل.

مانع التوجّه إلى عزّ الربوبيّة

هناك أمور تمنع الإنسان من التوجّه إلى حقيقة الربوبيّة، وأهمّ هذه الأمور وأساسها هو الإنّيّة التي ينشأ منها الأنانية. أمّا الإنّيّة فهي عبارة عن رؤية النفس مستقلّة في وجودها وبقائها، واعتبارها مصدر كمالاتها. وينشأ من هذه الإنّيّة حبّ النفس أو الأنانيّة؛ لأنّ الإنسان عاشق للكمال، وعندما يظنّ أنّ وجوده منشأ للآثار ومنبع للكمال، فسوف يحبّ وجوده ويتعلّق به، غافلًا عن حقيقة فقره واحتياجه في أصل وجوده. ومن كان كذلك، يستحيل أن يكون منشأً لأيِّ أثر على نحو الاستقلال، وما تشاؤون إلا أن يشاء الله.

وبسبب هذا الحبّ، يتعلّق القلب بالوهم بدل الحقيقة، ويفقد التوجّه إلى المنشأ الواقعيّ للكمال، فيبتعد عن المقام الربوبيّ المقدّس.

يقول الإمام الخميني قدس سره: «كلّما كان النظر إلى الإنّيّة والأنانيّة ورؤية النفس وحبّها في الإنسان غالبًا، كان بعيدًا عن كمال الإنسانيّة ومهجورًا من مقام القرب الربوبيّ»[1].

ويقابل هذه النظرة الخاطئة رؤية النفس - بل جميع الكائنات - مستظلّة لا مستقلّة؛ أي قائمة بالله. وعلامة الخروج من الإنّيّة، التي هي الحجاب الأكبر والصنم الأعظم وأصل جميع الحجب، أن يرى السالك نفسه وكلّ ما حوله عين الربط والتعلّق بالله، ويراها فقيرة، بل عين الافتقار إلى الله عزّ وجلّ.

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 22.

لا سير وسلوك مع الإنّيّة

بناءً على ما تقدّم، يبدأ السلوك الحقيقيّ عندما يسافر السالك من بيت النفس ويخرج من التعلّق بذاته وإنّيّته. ولهذا، فإنّ السلوك قبل هذه المرحلة لا يُعدّ سلوكًا إلى الله، بل يُطلق عنوان السلوك عليه على نحو المسامحة. فما دام في الإنسان بقايا من التعلّق بنفسه، وكانت دوافعه في السير المعنويّ والمجاهدة النفسيّة هي تحصيل حظوظ النفس، فهو ليس بسالك ولا مجاهد.

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: «وإنّ حجاب رؤية النفس وعبادتها لَأضخم الحجب وأظلمها، وخرق هذا الحجاب أصعب من خرق جميع الحجب التي يُعدّ خرقها مقدّمة له، بل إنّ مفتاح مفاتيح الغيب والشهادة وباب أبواب العروج إلى كمال الروحانيّة هو خرق هذا الحجاب والخروج من هذا المنزل هو أوّل شرط للسّلوك إلى الله، بل هو الميزان في حقّانيّة الرياضة وبطلانها»[1].

ويقول الإمام قدس سره: «فكلّ سالك يسلك بقَدَم الأنانيّة ورؤية النفس ويطوي منازل السلوك في حجاب الإنّيّة وحبّ النفس تكون رياضته باطلة، ولا يكون سلوكه إلى الله»[2].

فالسلوك يكون بالتوجّه إلى الكمال الواقعيّ، وما دام السعي إلى النفس فهو سير إلى الوهم؛ لأنّ النفس لا يمكن أن تكون منشأ الكمال، وهي في عين الفقر».

أعظم ثمار التوجّه إلى عزّ الربوبيّة

ليس المانع من وصول الإنسان إلى الربّ وتحقّقه بحقائق القرب إلا نظره لنفسه وتعلّقه بذاته. وعندما يتحرّر السالك من هذين القيدين ويفكّ هذين الغلّين، يتّصل ببحر الكمال المطلق، وتجري في نفسه كلّ معانيه. وهو ما أشار إليه حديث قرب النوافل[3] الذي روته فرق المسلمين من السنّة والشيعة.

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 22.
(2) م. ن. ص 22.
(3) النوافل: هي الأعمال المستحبة التي لم يلزم بها الشارع المكلّف بل ترك له الخيار باتيانها مع وعده بالثواب الجزيل عليها.

فلا ينال مقام قرب الربوبيّة إلا بقَدم العبوديّة. وإذا أراد اللّه لعبده مقام قربه خلع عليه من خِلع الكرامة، وألبسة الكمال ما يليق بهذا القرب؛ لأنّ اللّه تعالى لا يرضى من الكمال إلا كماله.

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: «فإذا أسقط العبد تصرّفاته، وسلّم مملكة وجوده كلّها إلى الحقّ، وخلّى بين البيت وصاحبه، وفني في عزّ الربوبية، فحينئذ يكون المتصرّف في الدار صاحبها، فتصير تدبيراته تدبيرات إلهيّة، فيكون بصره بصراً إلهيًّا، وينظر ببصر الحقّ، ويكون سمعه سمعاً إلهيّاً فيسمع بسمع الحقّ. وبمقدار ما تزداد ربوبيّة النفس ويكون عزّها غاية في نظره، ينقص من عزّ الربوبية؛ لأنّ هذين متقابلان «الدنيا والآخرة ضرّتان»[1]»[2].

العبوديّة المطلقة من أعلى مراتب الكمال

شرف الإنسان أن يتّصل باللّه وأن يرتبط به. ولا رابطة بين الخالق والمخلوق سوى رابطة العبوديّة، فهو المالك لنا ونحن عبيده المملوكون. وكلّ رابطة أخرى، إن لم تنبع من حالة العبوديّة، فهي قطيعة وليست رابطة. وفي ظلّ هذا الاتّصال ينال المرء كلّ كمال ويبلغ ما فوق منتهاه، ولا كمال في الحقيقة إلا بعد العبوديّة.

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: «وليُعلم أنّ العبوديّة المطلقة من أعلى مراتب الكمال وأرفع مقامات الإنسانيّة، وليس لأحد فيها نصيب بالأصالة سوى الأكمل من خلق اللّه محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، ولأولياء اللّه الكمّل بالتبعيّة. وأمّا بقيّة العباد، فهم في طريق العبادة عُرج، وعبادتهم وعبوديّتهم عليلة. ولا يُنال المعراج الحقيقيّ المطلق إلا بقدَم العبوديّة، ولهذا قال اللّه تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾[3]، فقد أسرى اللّه سبحانه بتلك الذات المقدّسة إلى معراج القرب والوصول بقدَم العبوديّة والجذبة الربوبيّة»[4].

---

(1) ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن هبة اللّه، شرح نهج البلاغة، تحقيق وتصحيح محمد أبو الفضل إبراهيم، قم، نشر مكتبة آية اللّه المرعشي النجفي، 1404هـ، ط 1، ج 19، ص 292.

(2) الخميني، روح اللّه الموسوي، معراج السالكين، ص23.

(3) سورة الإسراء، الآية 1.

(4) الخمينيّ، روح اللّه الموسوي، معراج السالكين، ص 24.

فكلّما ازداد العبد قربًا وازداد كمالًا، ازداد إحساسه بفقره ولا شيئيّته، لا كما يتصوّر الجاهل بأنّ وصول الإنسان إلى الكمال المطلق يعني استغناءه عن ربّه وصيرورته إلهًا وربًّا! ففي عين الاتّصال ببحر الكمال المطلق، هناك الفقر المطلق وهو العبوديّة المطلقة أيضًا.

والإنسان الكامل الذي وصل إلى الكمال المطلق، لا يغفل قلبه عن حالة الشعور بحقيقة فقره وعجزه وجهله. وما يشعر به من كمال فليس إلّا من قوّة شعوره بذاك الاتّصال.

وإذا كان السجود قمّة الاعتراف بالذلّ، فإنّه أبرز حالة من أحوال الاتّصال بالله تعالى؛ لأنّ الساجد هو أقرب ما يكون إلى الله تعالى. وفي ظلّ السجود وبواسطته تُخرق الحجب السبعة، بشرط المعيّة مع الإنسان الكامل والهادي إلى الله تعالى؛ ولهذا يقول الإمام الخمينيّ قدس سره:

«وفي التشهّد الصلاتيّ الذي هو رجوع من الفناء المطلق الذي يحصل للمصلّي في السجدة، نجد التوجّه إلى العبوديّة أيضاً قبل التوجّه إلى الرسالة. ويمكن أيضًا أن يكون إشارة إلى أنّ مقام الرسالة هو نتيجة لجوهرة العبوديّة»[1].

---

(1) الخمينيّ، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 24.

المفاهيم الرئيسة

1. التوجّه القلبيّ أساس سلوك طريق اللّه.
2. التوجّه القلبيّ ينبغي أن يكون إلى عزّ الربوبيّة وذلّ العبوديّة.
3. رؤية النّفس وحبّها هما المانع الأكبر في التوجّه القلبيّ.
4. جميع الحجب تنبع من حجاب الإنّيّة والأنانيّة.
5. إذا كان الدّافع تحصيل حظوظ النّفس فلا يكون السّفر إلى اللّه.
6. العبوديّة مقدّمة للوصول إلى حصن الرّبوبيّة.
7. في ظلّ حمى الرّبوبيّة يتّصل السالك بالكمال المطلق.
8. كلّما خطى السّالك نحو العبوديّة ارتقى نحو القرب.
9. العبوديّة أعلى صفة تُعطى للأولياء.

الدرس الثاني

عبور المراتب والمقامات إلى الغاية

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يتعرّف إلى المراتب الأساسية الأربع التي يقطعها السّالك للوصول إلى الحقيقة.

2 . يبيّن علامات هذه المراتب، ومخاطرها، ودورها في سلوك الانسان.

3 . يوضّح معنى الاستدراج، ويبيّن كيفيّة الاحتراز من الوقوع فيه.

تمهيد

بعد أن اتّضحت الغاية من السّير والسّلوك، وتبيّن لنا أنّ الذي يعيش اليقين بحقيقة الرّبوبيّة وتتجلّى هذه الحقيقة في نفسه بحالة العبوديّة، فإنّه سينال مقام القرب وتظهر فيه تجلّيات الكمال اللامتناهي، نسأل ما هي المراحل التي يقطعها السّالك للوصول إلى هذه الغاية العظيمة؟

وهنا يبيّن الإمام الخمينيّ قدّس سرّه أنّ المراتب والمقامات التي يقطعها السّالك للوصول إلى الغاية لا تُحصى؛ لأنّ مقام الربّ المتعال أعظم من كلّ ما يمكن أن يتصوّره إنسان أو يحيط به كائن، لكن بالإمكان ذكر المراتب على النّحو الكلّيّ، بحيث يمكن أن تجمع كلّ مرتبة عددًا من المقامات الكثيرة.

يقول الإمام الخمينيّ قدّس سرّه: «وأمّا الإحاطة بجميع الجوانب وإحصاء جميع المراتب فخارج عن عهدتي أنا اللاشيء؛ فإنّ «الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق»[1].

مقام العلم

يعتبر الإمام الخميني قدّس سرّه الحركة العلميّة والجهد العلميّ اللذين يصدران عن السالك من أفعال السير والسلوك. وهذا المجهود العلمي يتمثّل بالسعي للوصول إلى الحقائق وتثبيتها في النفس. ففي حديثه عن مراتب ومقامات السالكين، يقول قدّس سرّه: «فمن تلك المراتب مرتبة (العلم)؛ وهي أن يُثْبِت بالسلوك العلميّ والبرهان الفلسفيّ ذلّة العبوديّة وعزّة الربوبيّة»[2]. ويرى الإمام أنّ هذا المقام هو من أوائل مقامات الإنسانيّة. ويعني هذا الأمر في عرف العارفين ومسلكهم أنّ أيّ مخلوق، ما لم يتحقّق بالعلم البرهانيّ، لن يكون

---

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 25.

(2) م. ن. ص 25.

له حظّ أو نصيب من الإنسانيّة. ولا يخفى بأنّ الإنسانيّة هي صراط البشر المستقيم الذي ينتهي إلى مقام الإنسان الكامل.

«فسالك طريق الحقيقة ومسافر سبيل العبوديّة، إذا قطع هذا المنزل بالسلوك العلميّ ومركب السير الفكريّ، يقع في حجاب العلم، ويكون قد وصل إلى المقام الأوّل للإنسانيّة»(1).

أمّا لماذا يدور العلم حول موضوع ذلّ العبوديّة وعزّ الربوبيّة؟

فيقول الإمام قدس سره: «وهذا من لُباب المعارف، حيث اتّضح في العلوم العالية والحكمة المتعالية أنّ كلّ ما في دار التحقّق وتمام دائرة الوجود إنّما هو صرف الرّبط والتعلّق ومحض الفقر والفاقة. أمّا العزّة والملك والسلطان فمختصّة بذاته المقدّس الكبريائيّ، وليس لأحد نصيب من حظوظ العزّة والكبرياء»(2).

وبعبارة أخرى، إذا تمكّن السّالك من تثبيت هذا المبدأ الجوهريّ في نفسه، يكون قد حصل على لبّ المعارف، فيتمكّن حينها من تثبيتها واحدة تلو الأخرى في نفسه بيسرٍ وسهولة. أمّا لو لم يبدأ من هذه النقطة بالذّات، فإنّ سيره العلميّ ومساره التكامليّ سيكون صعباً ومشوّشاً.

ويمكننا أن نجد التّفصيل والشّرح لهذا المبدأ في «العلوم العالية والحكمة المتعالية»، بحسب تعبير الإمام الخمينيّ قدس سره، والذي يشير إلى فلسفة صدر المتألّهين وإلى كتابه المشهور بالأسفار الأربعة بالخصوص، وقد اختصره وبيّنه العلّامة الطّباطبائيّ في نهاية الحكمة. وصارت حكمته مهيمنة على غيرها من الفلسفات بين أهل العلوم العقليّة.

موانع هذه المرتبة ومخاطرها

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: «فسالك طريق الحقيقة ومسافر سبيل العبوديّة، إذا قطع هذا المنزل بالسلوك العلميّ ومركب السير الفكريّ، يقع في حجاب العلم... وهذا الحجاب من الحجب الغليظة، وقد قالوا إنّ العلم هو الحجاب الأكبر؛ وعلى السالك ألا يبقى في هذا الحجاب، بل يخرقه»(3).

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 25.
(2) م. ن، ص 25.
(3) م. ن، ص 25 - 26.

فما هو حجاب العلم هذا؟ يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: «ولعلّه إذا اقتنع بهذا المقام، وسجن قلبه في هذا القيد يقع في الاستدراج. والاستدراج في هذا المقام هو أن يشتغل بالتفريعات العلميّة الكثيرة، ويشغل فكره في البحث عن البراهين الكثيرة لهذا المقصد، فيُحرم من المنازل الأخرى، ويتعلّق قلبه بهذا المقام، ويغفل عن النتيجة المطلوبة، وهي الوصول إلى فناء الله، ويصرف عمره في حجاب البرهان وشعبه. وكلّما كثرت الفروع يزداد الحجاب، ويشتدّ الاحتجاب عن الحقيقة»[1].

فعندما يصبح مقصد السالك تخزين المعلومات وجمع المصطلحات والإكثار من القيل والقال بدل التطبيق والأفعال، يكون قد انحرف عن صراط الإنسانيّة المستقيم، الذي ينبغي أن ينتهي إلى العبوديّة المطلقة لله ربّ العالمين؛ ولهذا نجد الإمام الصادق عليه السلام في وصيّته المشهورة لعنوان البصري، ينصحه قائلاً: «**ليس العلم بالتعلّم، إنّما هو نور يقع في قلب من يريد الله تبارك وتعالى أن يهديه، فإن أردت العلم فاطلب أوّلاً في نفسك حقيقة العبوديّة، واطلب العلم باستعماله**»[2]. فالحجاب ينشأ من اعتبار الكثرة العلميّة شأناً للنفس وزينة لها، والعبوديّة تقتضي أن يكون طلب العلم لأجل القيام بوظائف العبوديّة وحقوق الربوبيّة.

كيف ننجو من هذا الحجاب؟

إنّها اليقظة التي لا يمكن لأحد أن يطوي منزلًا دونها، ولا يوجد من حجاب أشدّ على السالك من الغفلة؛ ففي ظلّ الغفلة يتمكّن الشيطان من اصطياد البشر، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**فإنّ الغفلة مصطاد الشيطان**»[3].

يقول الإمام قدس سره: «فعلى السالك ألّا يغترّ بمكايد الشيطان في هذا المقام، فيحتجب بكثرة العلم وغزارته وقوّة البرهان عن الحقّ والحقيقة ويتأخّر عن السير في الطلب، بل يشمّر ذيل همّته، ولا يغفل عن الجدّ في طلب المطلوب الحقيقيّ حتى ينال المقام الثاني»[4].

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 26.
(2) العاملي، زين الدين بن علي، منية المريد في أدب المفيد والمستفيد، تحقيق رضا مختاري، قم، مكتب الإعلام الإسلامي، 1409هـ.، ط1، ص 149.
(3) الامام جعفر الصادق عليه السلام، مصباح الشريعة، ص 99.
(4) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 26.

مقام الإيمان

يقول الإمام قدس سره: «وهو أن يكتب كلّ ما أدركه عقله بقوّة البرهان والسلوك العلميّ بقلم العقل على صحيفة قلبه، ويوصل حقيقة ذلّ العبوديّة وعزّ الربوبيّة إلى القلب، ويتحرّر من القيود والحجب العلمية... فنتيجة المقام الثاني إذًا هي حصول الإيمان بالحقائق»[1].

وباختصار، فإنّ الإيمان بالله تعالى يعني سريان تلك الحقائق، التي أثبتها بالبرهان وثبّتها في نفسه بالعمل بمقتضاها، إلى كلّ مملكة النفس وقواها. وعلامة ذلك أن تكون الجوارح عاملة بما تقتضيه العقيدة وتمليه من موقف بحسب كلّ مورد أو شأن من شؤون الحياة وابتلاءاتها. فإن كان يعتقد بالتوحيد في الرازقيّة ولا يرى رازقاً إلا الله تعالى، ودخلت هذه العقيدة إلى قلبه وتحوّلت إلى إيمان لن يهلك نفسه في طلب الرّزق، ولن يبخل بماله وإن قلّ، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**من أيقن بالخلف جاد بالعطيّة**»[2].

وإن كان يؤمن بأنّ الله ينصره، فلن يخاف من الأعداء. وإن كان يؤمن بأنّ الله يدافع عنه، فلن يخشى لومة اللائمين. وإن كان يؤمن بأنّ الله هو الذي يرفع ويخفض فإنّه لن يطلب العزّة من الناس. وإن كان يؤمن بأنّ الله تعالى يعلّم، لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾[3]، فإنّه لن يتوقّف عند حدّ في طلب العلم، ولن يجد لأيّ شيء قدرة على منعه من الوصول إلى العلم الإلهيّ والحكمة الربّانيّة.

فالمؤمن هو الذي يستحضر وجود الله بحسب تجلّياته وأسمائه في كلّ ما يرد عليه في هذه الحياة.

مقام الطمأنينة

وعندما يستقرّ الإيمان في القلب تبدأ رحلته التكامليّة، فيصل في الإيمان إلى الطمأنينة.

يقول الإمام قدس سره: «والمقام الثالث هو مقام الاطمئنان وطمأنينة النفس، وهو في

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 26.
(2) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج 18، ص 336.
(3) سورة البقرة، الآية 282.

الحقيقة المرتبة الكاملة من الإيمان، قال تعالى مخاطبًا خليله ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[1]،[2].

فإذا ارتقى الإيمان وازداد قوّة في القلب، وصل إلى حالة لا يعود صاحبها محتاجًا إلى الدليل، بل لا يفكّر بالرّجوع إلى الدّليل وإلى العلم البرهانيّ؛ لا لأنّ ما وصل إليه مخالف للدليل، بل لأنّ يقينه يصبح أقوى من الدّليل العقلي، وصار معلومه شديد الحضور في النّفس؛ فلا تطالبه النفس بالدليل، وإن كانت قادرة عليه متضمّنة إيّاه.

وعلامة الطمأنينة هي تمركز القلب في توجّهه إلى مبدأ الوجود وأصل الكمال، وكذلك عدم تقلّبه وتزلزله أثناء هبوب عواصف البلاءات وشدائد الحياة.

مقام المشاهدة

وإذا ارتقى في العلم من الإيمان إلى الطمأنينة، وباتت النفس تحت حكومة العقل، استعدّ السالك للتجلّيات الإطلاقيّة والحقائق المطلقة. وما كان يراه قبل هذا المقام في التحديد والتقييد سيشهده فيه مطلقًا.

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: «المقام الرابع هو مقام المشاهدة؛ وهو نور إلهيّ وتجلٍّ رحمانيّ يظهر في سرّ السالك تبعًا للتجلّيات الأسمائيّة والصفاتيّة، وينوّر جميع قلبه بنورٍ شهوديّ، ولهذا المقام درجات كثيرة لا تتّسع هذه الأوراق لذكرها»[3].

وأقلّ ما يمكن أن يُقال عن المشاهدة، إنّ ما يدركه السّالك من حقائق بواسطتها يكون عنده أشدّ حضورًا وأقوى ظهورًا من مشاهداته الحسيّة. فهل سمعت أحداً يطلب دليلًا على وجود الطاولة التي يراها بعينيه أمامه؟! لا لأنّه جاحد بالدليل، بل لأنّ مشاهدته هذه أغنته عن الدليل.

ولا ينبغي أن ننسى أنّ المشهود في هذا المقام هو تجلّيات الأسماء الإلهيّة. أمّا شهود الحقائق الكونيّة والمستقبليّات وبواطن النفوس والضمائر، فليس داخلًا في حقيقة هذا المقام، وإن كان يتبعه. فالأصل في الشهود هو أن يكون متعلّقه الكمالات الإلهيّة المطلقة.

---

(1) سورة البقرة، الآية 260.

(2) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 26.

(3) م.ن، ص 26.

فإذا كنّا نرى آثار الحياة الإلهيّة أو القدرة الربّانيّة في الكائنات على نحو محدود، فإنّ مقام الشهود هذا يجعلنا نشاهد مظهر القدرة الإلهيّة المطلقة أو الحياة الربّانيّة التي لا حدّ لها ولا انعدام فيها أو فناء.

ما هي آثار هذا المقام وعلائمه؟

لا شكّ بأنّ لاتّصال الإنسان المستعدّ بهذا المقام آثاراً لا تُعدّ ولا تُحصى. وقد عبّرت الأحاديث والرّوايات عن العديد من هذه الآثار. وأجمل ما جاء هو صيرورة العبد مظهر كمالات الربّ؛ بمعنى أن تتجلّى فيه وعلى يديه الكمالات المطلقة.

يقول الإمام الخمينيّ قدّس سرّه: «وفي هذه المقام يبرز نموذج من قرب النوافل، المعبَّر عنه بـ «كنت سمعه وبصره»[1].

ولأنّ مقام القرب هو مقام المطلق من كلّ شيء، فإنّه لا نهاية لهذا المقام. فمن ظنّ أنّ الواصل إلى الكمال المطلق يتوقّف أو يجمد فقد جهل معناه؛ لأنّ معنى الإطلاق ألّا يكون لسير الإنسان أيّ منتهى.

يقول الإمام الخمينيّ قدّس سرّه: «ويرى السالك نفسه مستغرقًا في البحر اللامتناهي، ومن ورائه بحرٌ عميق في غاية العمق تتكشف له فيه نبذة من أسرار القدر»[2].

وقد أشار العارفون إلى معاني أسرار القدر وفصّلوا فيها؛ لعلّ الله يفتح على قلوبنا بعض هذه المعاني في طيّات الفصول اللاحقة، إن شاء الله تعالى.

ما هي حقيقة العرفان

العرفان عنوان للمعرفة العميقة الواضحة الخالية من القيود؛ ولهذا قالوا إنّ مشاهدة الحقيقة من وراء الحجاب أو بعد كشف الحجاب هو اليقين. والحقيقة عند العارف هي أصل كلّ شيء وعلّته الأولى. وما لم يدرك السالك حقيقة الرابطة بين الخلق والخالق لا يكون قد أدرك العرفان، يقول الإمام الخمينيّ قدّس سرّه في بيان حقيقة العرفان:

«إنّما حقيقة العرفان والشهود ونتيجة الرياضة والسلوك هي رفع الحجاب عن وجه

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 26.

(2) م.ن، ص 26 - 27.

الحقيقة ورؤية ذلّ العبوديّة وأصل الفقر والتدلّي في النفس وفي جميع الموجودات، ولعلّ في الدّعاء المنسوب إلى سيّد الكائنات صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهمّ، أرني الأشياء كما هي!»، إشارة إلى هذا المقام؛ بمعنى أنّه صلى الله عليه وآله وسلم سأل الله سبحانه أن يُشهِده ذلّ العبوديّة المستلزم لشهود عزّ الربوبيّة»[1].

هل يوجد مخاطر في هذا المقام؟

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: «ولكلٍّ من هذه المقامات استدراج يختصّ به، وللسالك فيه هلاك عظيم»[2]. والاستدراج ينشأ من تعلّق السالك بالمقام الذي وصل إليه واعتباره الغاية النهائيّة، فينسى بسبب ذلك مسيره ويغفل عنه؛ فيؤدّي هذا إلى سلوكه طريقاً آخر، وهو يحسب أنّه يُحسِن صنعا.

ما هو طريق النّجاة؟

وما لم يصبح المقام الرابع راسخًا، وما لم تثبت النفس عليه، فإنّ خطر الخسارة والسقوط والتراجع يبقى ماثلاً. وقد قيل: إنّه لا أمان إلّا بعد يوم الفزع الأكبر، حيث يتحدّد المصير النهائيّ لكلّ إنسان، وطريق النجاة من هذا التراجع والسقوط هو تخليص النفس من الإنّيّة والأنانيّة، يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: «ولا بدّ للسالك في جميع هذه المقامات من تخليص نفسه من الأنانيّة والتخلّص من رؤية نفسه وحبّها؛ فإنّهما منبع أكثر المفاسد ولاسيّما للسالك[3].

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص25.
(2) م.ن، ص 27.
(3) م. ن، ص27.

المفاهيم الرئيسة

1. لا بدّ من عبور المراتب للوصول إلى الغاية المنشودة.
2. يمكن الحديث عن المراتب على نحوٍ كلّيّ، والإحاطة متعذّرة.
3. جميع المراتب تدور حول قوّة حضور الحقيقة في النّفس.
4. المرتبة الأولى هي مرتبة العلم الاستدلاليّ.
5. المرتبة الثانية هي مرتبة العلم القلبيّ أو الإيمان.
6. المرتبة الثّالثة هي مرتبة استقرار العلم في القلب.
7. المرتبة الرّابعة هي مرتبة مشاهدة الحقائق بالقلب.
8. لكلّ مرتبة حجاب أو موانع لا بدّ من اختراقها.
9. أسوأ ما يصيب السّالك هو الاغترار بالمقام الذي وصل إليه والرّكون إليه، المعبّر عنه بالاستدراج.
10. منشأ الاغترار وسبب الاستدراج هو حبّ النّفس ورؤيتها.

الدرس الثالث

الخشـوع

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يتعرّف إلى معنى الخشوع، ويميّز بين أنواعه.

2 . يبيّن منشأ الخشوع وعلاماته.

3 . يشـرح دور العلـم والإيمان في تحصيل الخشـوع، ويذكر الفرق بين العلم والإيمان.

تمهيد

يعبّر الخشوع في العبادة عن حالة التّوجّه القلبيّ السّليم. فعندما يتوجّه القلب إلى الله على أساس المعرفة، فإنّ آيات الجمال والجلال ستتراءى له، ويحصل من جرّاء هذه التجلّيات حالة نفسيّة قلبيّة هي الخشوع.

وعليه، يكون الخشوع علامة مؤكّدة على السّير الصّحيح في مراتب السّلوك.

إنّ أفضل عبادة معينة على كشف هذا الأمر وتحقيقه هي الصّلاة، «التي هي رأس العبادات، ولها مقام الجامعيّة»[1]، كما يُعبّر الإمام الخمينيّ قدس سره، ويعني هذا الكلام أنّ الصّلاة هي أفضل وأعظم محلّ للتجلّيات الرّبوبيّة، سواء كانت تجلّيات عظمة الجمال أو هيبة الجلال.

ولهذا، نجد في الأولياء من له قلب يعيش حالة الفرح والانبساط في العبادة، نتيجة تجلّي مظاهر الجمال وآياته عليها؛ وقلبًا يعيش حالة الخوف والانقباض نتيجة تجلّي مظاهر الجلال وآياته.

هذا حال القلوب الصافية التي تنعكس فيها تجلّيات الحقّ المتعال، وتتفاعل معها بيسر وسهولة؛ فما هو حال قلوبنا؟ وكيف يمكن لنا أن نتفاعل مع مظاهر الحقّ المتعال؟

ما هو الخشوع؟

يقول الإمام قدس سره في معنى الخشوع وحقيقته: «إنّه الخضوع التامّ الممزوج بالحبّ أو الخوف، وهو يحصل من إدراك عظمة الجلال والجمال وسطوتهما وهيبتهما»[2].

---

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 27.

(2) م.ن، ص 27.

فالخضوع هو أوّل آثار الخشوع في الجوارح، والإدراك هو منشأ الخشوع؛ لهذا نسمع قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ﴾[1].

أنواع الخشوع

هناك نوعان من الخشوع، الأوّل يحصل من إدراك عظمة الجمال، والثّاني يحصل من إدراك عظمة الجلال. ولا يخفى أنّ الجمال شامل لكلّ مظاهر الرّحمة والغفّاريّة والعطوفة والودّ وأمثالها. وأنّ الجلال شامل للقاهريّة والنّقمة والشدّة. والمقصود بالإدراك هو ما يسبق إلى القلب من معاني التجلّي الإلهيّ، أو ما تفسّره القلوب من تجلّيات الحقّ تعالى في العوالم.

فالله تعالى يتجلّى بجميع أسماء الجمال والجلال، لكنّ القلوب تختلف بحسب الجبلّة والفطرة، فيختلف تلقّيها وتفاعلها مع هذه التجلّيات، يقول الإمام الخمينيّ قدس سره:

«وتفصيل هذا الإجمال هو أنّ قلوب أهل السلوك بحسب الجِبِلّة والفطرة متنوّعة:

فبعضٌ منها عشقيٌّ ومن مظاهر الجمال، وتتوجّه إلى جمال المحبوب بحسب الفطرة. فهؤلاء، إذا أدركوا في سلوكهم ظلّ الجميل، أو شاهدوا أصل الجمال، تمحوهم العظمة المختفية في سرّ الجمال، فتصعقهم؛ لأنّ في كلّ جمال جلالًا مختفيًا، وفي كلّ جلال جمالًا مستورًا. ولعلّه إلى ذلك أشار مولى العارفين وأمير المؤمنين والسالكين عليه السلام، حيث قال: «**سبحان من اتّسعت رحمته لأوليائه في شدّة نقمته، واشتدّت نقمته لأعدائه في سعة رحمته**»[2]، فتغشاهم هيبة الجمال وعظمته، ويأخذهم الخشوع حيال جمال المحبوب. وهذه الحالة، في أوائل الأمر، توجب تزلزل القلب والاضطراب، وبعد التمكين تحصل للسالك حالة الأنس، وتتبدّل حالة الوحشة والاضطراب المتولّدة من العظمة والسطوة إلى الأنس والسكينة، وتحصل له حالة الطمأنينة، كما كانت حالة قلب خليل الرحمن.

وبعض القلوب خوفيٌّ ومن مظاهر الجلال، وهي تدرك على الدوام العظمة والكبرياء والجلال، وخشوعها يكون من الخوف، ومن تجلّي الأسماء القهريّة والجلاليّة عليها؛ كما

(1) سورة فاطر، الآية 28.
(2) صدر الدين الشيرازي، محمد بن إبراهيم، شرح أصول الكافي، تحقيق وتصحيح محمد الخواجوي، طهران، نشر مؤسسة الأبحاث الثقافية، 1425 هـ، ط 1، ج 1، ص 177.

كان حـال يَحيى، على نبيّنا وآله وعليه السـلام. فالخشـوع يكـون ممزوجًا تارةً بالحبّ وأخرى بالخوف والوحشة، وان كان في كلّ حبّ وحشة، وفي كلّ خوف حبّ»[1].

وليس المقصـود بالفطـرة هنـا أصلهـا؛ لأنّ أصلها واحـد عند الجميـع. لكنّ تنـزّل هذه الفطرة في النفوس يخضع لطبيعة تكوّن النفس، وعلى هذا الأساس تنقسم القلوب بحسب الفطرة إلى جماليّة وجلاليّة.

مراتب الخشوع

يقول الإمام الخمينيّ قُدِّسَ سِرُّهُ: «ومراتب الخشوع تكون بحسب مراتب إدراك العظمة والجلال والحسـن والجمال، وحيث إنّ أمثالنا على هذه الحال من الحرمان من نور المشـاهدات، فلا بدّ أن نكون بصدد تحصيل الخشوع عن طريق العلم أو الإيمان»[2].

ويُعلم من هذا الكلام أنّ الخشوع مراتب ودرجات بحسب إدراك التجلّيات والتفاعل معها؛ فلأنّ للقلوب مدخليّة أساسيّة في الإدراك والتفاعل، ولأنّ قلوب العباد تختلف بحسـب السعة والتوجّه، فإنّ تفاعلهم مع التجلّيات الإلهية يكون مختلفًا جدًّا. والكثير من القلوب لا تفقه ولا تعقـل، لقولـه تعالـى ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا﴾[3]. والحرمان مـن نور العقل يحرم القلب من إدراك هذه التجلّيات.

ولا شـكّ بأنّ لكلّ إنسـان دورًا محوريًّا في تشـكيل قلبه من حيث الصفاء والتوجّه والسّـعة والتقبّل. حتّى لو كان قد ورث قلبًا ضيّقًا مكدّرًا مظلمًا.

فأعمـال الإنسـان الاختياريّـة هـي التي تشـكّل قلبه في نهايـة المطـاف. وإذا كان «**الْقَلْبُ مُصْحَفُ الْبَصَرِ**»[4]، كما قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ - فهذا يعني أنّ كلّ ما ينظر إليه الإنسان سـوف ينعكـس بصورة نقوش وكتابات في قلبه، وهذا الأمر ينطبق على كلّ ما يَرِد عن طريق الحواس.

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 27 - 28.
(2) م. ن، ص28.
(3) سورة الأعراف، الآية 179.
(4) السيد الرضي، نهج البلاغة، ص 548.

الخشوع من علائم الإيمان

علمنا أنّ الخشوع القلبيّ ينشأ من حالة الإدراك العميق لتجلّيات الحقّ تعالى. وعليه، فإذا أدركنا السبب في عدم تحقّق الخشوع لم يعد للسؤال المطروح من محلّ.

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: «قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[1]، فجعل الخشوع في الصلاة من حدود الإيمان وعلائمه. فمن لم يكن خاشعًا في الصلاة فهو خارج زمرة أهل الإيمان، طبقًا لما قاله ذات الحقّ المقدّس تعالى شأنه، قال الإمام الصادق عليه السلام: «**إذا دخلت في صلاتك فعليك بالتخشّع والإقبال على صلاتك**»؛ **فإنّ الله تعالى يقول:** ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[2]. وبما أنّ صلواتنا ليست مشفوعة بالخشوع، فإنّ ذلك ناجم إمّا عن نقص الإيمان أو فقدانه»[3].

ما الفرق بين العلم والإيمان؟

ولأنّه قد يشتبه الأمر على بعضهم فيظنّ أنّ العلم هو الإيمان، ويعجز عن تفسير سبب عدم الخشوع، كان لا بدّ من التمييز بينهما. فالعلم قبل مرحلة الإيمان يصعب أن يكون منشأً للأثر؛ ولهذا لا يخشع المرء بمجرّد أن يعلم.

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: «ولأنّ الاعتقاد والعلم مغايران للإيمان، فالعلم بالله وأسمائه وصفاته وسائر المعارف الإلهيّة الظاهرة منها، مغاير للإيمان، وليس بإيمان. والدليل على ذلك أنّ الشيطان، كما شهد له الحقّ المقدّس، عالمٌ بالمبدأ والمعاد، ومع ذلك فهو كافر، لأنّه يقول: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾[4]، فهو إذًا يعترف بالحقّ تعالى وخالقيّته، ويقول أيضاً: ﴿أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[5] ويعتقد بالمعاد، وهو أيضًا عالم بالكتب والرسل والملائكة، ومع ذلك كلّه فقد خاطبه الله سبحانه بلفظ الكافر، وأخرجه من زمرة المؤمنين. فإذًا، يمتاز أهل العلم عن أهل الإيمان، وليس كلّ من هو من أهل العلم هو أهلٌ للإيمان»[6].

(1) سورة المؤمنون، الآيتان 1 – 2.
(2) الكليني، محمد بن يعقوب بن إسحاق، الكافي، تحقيق وتصحيح علي أكبر الغفاري، طهران، نشر دار الكتب الإسلامية، 1407هـ.، ط 4، ج 3، ص 300.
(3) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 28.
(4) سورة الأعراف، الآية 12، سورة ص، الآية 76.
(5) سورة الأعراف، الآية 14.
(6) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 28 – 29.

كيف نوصل العلم إلى القلب؟

قد تبيّن ممّا سبق أنّ الإيمان يأتي بعد العلم وينشأ منه بشرط عدم الاستغراق فيه. وإذا كان العلم يحصل من خلال توجّه القلب إلى القضايا، فإنّ الإيمان يحصل من خلال إمعان التوجّه القلبيّ إلى الحقائق مع العمل بمقتضاها. وللإمام الخمينيّ الكثير من الكلمات والنصوص التي يتحدّث فيها عن الفارق بين العلم والإيمان، وكيفيّة إيصال العلم إلى القلب وتثبيته فيه، وممّا قاله قدس سره:

«فيلزم للسالك أن يدخل نفسه في سلك المؤمنين بعد سلوكه العلميّ، ويوصل إلى قلبه عظمة الحقّ وجلاله وبهائه وجماله - جلّت عظمته - كي يخشع قلبه، فمجرّد العلم لا يوجب خشوعًا، كما ترون في أنفسكم، فمع كونكم معتقدين بالمبدأ والمعاد، ومع اعتقادكم بعظمة الله وجلاله، ليست قلوبكم خاشعة»[1].

وبالمداومة على الذكر والتوجّه القلبيّ يبدأ الخشوع بالدخول شيئًا فشيئًا إلى القلب.

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: «إذا علم الإنسان بالبرهان أو ببيان الأنبياء عليهم السلام عظمة الله وجماله وجلاله، فلا بدّ أنّ يذكّر القلب بها حتى يدخل الخشوع شيئًا فشيئًا إلى القلب بواسطة التذكُّر والتوجّه القلبيّ والمداومة على ذكر عظمة الله وجلاله، وتحصل النتيجة المطلوبة»[2].

ويضيف الإمام قدس سره: «وبالجملة، على سالك طريق الآخرة-وخصوصًا من يسلك بقَدم المعراج الصلاتيّ- أن يجعل قلبه خاشعًا بنور العلم والإيمان، وأن يثبّت هذه الرقيقة الإلهيّة والبارقة الرحمانيّة في قلبه بمقدار ما يمكنه؛ فلعلّه يستطيع أن يحافظ على هذه الحالة في كلّ الصلاة. وإنّ حالة التمكّن والاستقرار، وإن كانت لا تخلو في أوّل الأمر من صعوبة وإشكال لأمثالنا، ولكنّها مع الممارسة والارتياض القلبيّ أمرٌ ممكن جدّاً»[3].

(1) الخمينيّ، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 29.
(2) م. ن، ص 30.
(3) م. ن، ص 29.

ضرورة المداومة والمثابرة

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: «عزيزي، إنّ تحصيل الكمال وزاد الآخرة يستدعي طلبًا وجدًّا، وكلّما كان المطلوب أعظم فهو أحرى بالجدّ.

ومن الواضح أنّ معراج القرب الألوهيّ ومقام جوار ربّ العزّة، لا يتيسّر مع هذا التراخي والفتور والتساهل، فيلزمك القيام بفتوّة حتى تصل إلى المطلوب. وطالما أنّك تؤمن بالآخرة، وتعلم بأنّ النشأة الآخرة لا يمكن أن تُقاس بهذه النشأة من حيث السعادة والكمال أو من حيث الشقاء والوبال. لأنّ تلك النشأة عالمٌ أبديّ دائم لا موت فيه ولا فناء، والسعيد فيه في راحة وعزّة ونعمة أبديّة، وهي راحة لا يوجد لها شبيه في هذا العالم، وعزّة وسلطنة إلهيّة ليس لهما نظير في هذه النشأة، ونِعَمٌ ما خطرت على مخيِّلة أحد؛ وكذلك الأمر في جانب الشقاوة، فإنّ عذابها ونقمتها ووبالها ليس لها في هذا العالم مثيل ولا نظير. وبما أنّك تعلم أنّ طريق الوصول إلى السعادة إنّما هو إطاعة ربّ العزّة، وأنّه ليس في العبادات ما يضاهي هذه الصلاة، فإنّها مرهم إلهيّ جامع يتكفّل بسعادة البشر (وإنْ قُبِلت قُبِلت جميع الأعمال)؛ فلا بدّ لك من الجدّ التامّ في طلبها، وألّا تتضايق من السعي إليها وتحمّل المشاق في سبيلها. مع أنّه ليس فيها مشقّة، بل إنّك إذا واظبت عليها مدّة يسيرة، وحصل لقلبك الأنس بها لتجدنَّ، وأنت في هذا العالم من المناجاة مع الحقّ تعالى شأنه، لَذّات لا يُقاس بها لذّة من لذّات هذه الدنيا، كما يظهر من السير في أحوال أهل المناجاة مع الله سبحانه»[1].

ضرورة الالتفات إلى المانع

طالما أنّ منشأ جميع الحجب والموانع هو النفس، وطالما أنّ النظر إلى النفس بعين الاستقلال هو المشكلة الكبرى التي تنشأ منها جميع المعيقات والمشاكل، فإنّ إدراك عيوب النفس ونقائصها سيكون بداية اكتشاف عجزها وفقرها ولاشيئيّتها.

عندما نجد في أنفسنا نفورًا من الانتقادات التي توجّه إلينا، ونسعى لتبرير ذلك بأعذار واهية، فلنعلم أنّ حبّ النفس ما زال مستفحلًا فينا، فلا يبحث عن عيوب نفسه ولا يشتاق لإصلاحها إلّا من خرج من الأنانيّة.

---

(1) الخمينيّ، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 30.

وعندما نشتاق إلى النقد، وإن لم يكن بنّاءً، ونتقبّل الانتقادات مهما كانت جارحة، فهذا علامة على رسوخ مبدأ عجز النفس.

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: «ولا بدّ للسالك ألّا يقنع في حال من الأحوال بالمقام الذي هو فيه، فإنّه مهما كانت المقامات لأمثالنا، فلا تساوي أصغر نقد في سوق أهل المعرفة، ولا تقابل في سوم أصحاب القلوب ومعاملاتهم مثقال حبّة خردل. فليتذكّر السالك في جميع حالاته نقائصه ومعايبه، فلعلّه ينفتح له طريق إلى السعادة من هذه السبيل، والحمد لله»[1].

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص30 - 31.

المفاهيم الرئيسة

1. الخشوع علامة مؤكّدة على صحّة التوجّه القلبيّ.
2. حالة الخشوع ندركها بالفطرة، وهي التي تظهر بخضوع الجوارح.
3. منشأ الخشوع إدراك القلب لعظمة الله تعالى.
4. للخشوع مراتب، وهو عند أصحاب القلوب على نوعين بحسب تلقّيهم للتجلّيات الإلهيّة.
5. تتنوّع القلوب بحسب الفطرة، وإن كانت في النّهاية ستصل إلى مقام تجلّي الاسم الأعظم.
6. يجب علينا أن نحصّل الإيمان، لأنّه أساس الخشوع.
7. يختلف الإيمان عن العلم، لأنّه حالة أرقى، وإن كان بحاجة إلى العلم.
8. التذكّر الدّائم لعظمة الله تعالى هو السّبيل في جعل الإيمان مستقرًّا في القلب.

الدرس الرابع

الطمأنينة

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يتعرّف إلـى معنى الطّمأنينـة، ويبيّن أهميتها في تثبيت الإيمان.
2. يوضّح الآثار المختلفة للطمأنينة في النفس.
3. يذكر أهميَّة مرحلة الشباب في تحصيل الطمأنينة.

تمهيد

الطمأنينـة القلبيّـة تعنـي اسـتقرار القلب فـي توجّهه نحـو المقصد الأصلـيّ. واضطراب القلـب وتزلزلـه يعني أنّه ما زال تابعًا لأمور متقلّبة ومتّصلًا بأشـياء غير ثابتة. فعندما يتعلّق القلب بهذه الدنيا، من المتوقّع أن يصبح متزلزلًا مضطربًا؛ لأنّ شـؤون الدنيا تبقى في حال الإقبال والإدبار.

وعندما يرتبط القلب بالوجه الدائم الباقي، يستقرّ ويعطي لصاحبه الوقار؛ لأنّ وجه الله لا يمكن أن يزول، ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾[1]. وعند ثبات القلب يمكن لصاحبه أن يوجّهه نحو المقصد دون أن يزول عنه.

وبهـذه الطريقـة يسـتقبل فيوضـات عالـم القدس والملكوت. وإذا تكـرّر اسـتقباله لهـا، استقرّت فيه واتّحدت معه، وصار مشعّا بهذه الفيوضات ومظهرًا لها.

ما هي الطمأنينة؟

يقـول الإمام الخمينيّ قُدِّسَ سِرُّهُ: «من الآداب القلبيّـة المهمّة للعبادات، وخصوصًا العبادات الذكريّـة، الطمأنينـة. وهـي غير الطمأنينة التي اعتبرها الفقهـاء - رضوان الله عليهم - في خصوص الصـلاة. فهـي عبارة عـن أن يأتـي السـالك بالعبادة مع سـكون القلـب واطمئنان الخاطر»[2].

ولقد ذُكرت طمأنينة الجسـد في كتب الفقه والأحكام. كما أنّ اضطراب الجسـد لا ينشـأ بالضـرورة مـن اضطراب القلب وتزلزله، بل قد ينشـأ من عوامل خارجيّة، كحال الراكب في

(1) سورة البقرة، الآية 115.
(2) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 31.

سفينة وسط أمواجٍ عاتية. وما هو مهمّ وأساسيّ أن يحقّق السالك طمأنينة القلب في العبادة. لماذا؟

أهمّيّة الطمأنينة

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: «لأنّ العبادة إذا أُتي بها حال اضطراب القلب وتزلزله، فلا ينفعل القلب بها، ولا يحصل أثر منها في ملكوت القلب، ولا تصير حقيقة العبادة صورة باطنيّة له»[1].

الهدف هو صيرورة النفس متّحدة بحقيقة العبادة. ولا يمكن لمثل هذا الاتّحاد أن يتحقّق، مع ما فيه من آثار لا تعدّ ولا تحصى، إلا إذا استقرّت النفس بطمأنينة القلب، وعندها يظهر ما في العبادة من خيرات وكمالات، يقول الإمام الخمينيّ قدس سره:

«في حين أنّ من إحدى نكات تكرار العبادات وتكثير الأذكار والأوراد أن يتأثّر القلب بها وينفعل، حتّى يتشكّل باطن السالك شيئاً فشيئاً من حقيقة الذكر والعبادة، ويتّحد قلبه بروح العبادة. وطالما لم يكن للقلب اطمئنان وسكون وطمأنينة ووقار، لا يكون للأذكار والنسك فيه تأثير، ولا يسري أثر العبادة من ظاهر البدن وملكه إلى ملكوته وباطنه، ولا يؤدّي إلى القلب حظوظه من العبادة» وهذا من الأمور الواضحة التي لا تحتاج إلى بيان، ويُعلم بأدنى تأمّل»[2].

آثار عدم الطمأنينة

إنّ عدم تحصيل الطمأنينة ينعكس سلباً على الإيمان في القلب؛ ولهذا فإنّ الاستخفاف والتهاون بتحصيل الطمأنينة القلبيّة، والاعتقاد أنّه طالما يؤدّي العبادات فهو على خير، وأنّ هذه العبادات سوف يكون لها النتيجة المطلوبة، قد يؤدّي إلى إضعاف الإيمان القلبيّ في نهاية المطاف.

في حين أنّ من ثمار العبادة وآثارها الطيّبة في النفس رسوخ الإيمان وحقائق التوحيد في القلب. ويُعلم عظمة ذلك وضرورته عند الشدائد والأهوال التي تزلزل القلوب. ففي مثل هذه الابتلاءات التي لا بدّ منها بحكم السنّة الإلهيّة، إذا كان ما في القلب من معارف واعتقادات

---

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص31.

(2) م.ن، ص 31.

غير مستقرّ، بل مستودع، فسوف يخرج منه ويزول. وهذا يدلّ على أنّ صاحبه لم يعمل على تحصيل الطمأنينة والاستقرار.

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره:

«وإذا كانت العبادة بكيفيّة لا يشعر القلب بها أصلًا، ولا يظهر منها أثر في الباطن، وهي غير محفوظة في سائر العوالم، ولا تصعد من نشأة الملك إلى نشأة الملكوت، فمن الممكن أن تُمحى صورتها بالكلّيّة عن صفحة القلب. ونعوذ بالله عند شدائد مرض الموت وسكراته المهيبة والأهوال والمصائب التي تكون بعد الموت، فإنّ صورة العبادة قد تُمحى بالكامل من على صفحة القلب، ويقدم الإنسان على الله صفر اليدين»(1).

فالقلب الذي استقرّ الإيمان به واطمأنّ حقًّا لا يمكن أن يتخلّى عن إيمانه عند الشدائد، بل إنّ إيمانه سيظهر في الشدائد والأهوال أكثر، يقول الإمام الخمينيّ قدس سره:

«وأمّا إذا قال هذا الذكر الشريف «لا إله إلا الله»، بلا سكون في القلب ولا طمأنينة منه، ومع العجلة والاضطراب وتشتّت الحواس، فلا يكون منه أيّ تأثير في القلب، ولا يتجاوز حدّ اللسان والسّمع الحيوانيّ الظاهريّ إلى الباطن والسّمع الإنسانيّ، ولا تتحقّق حقيقته في باطن القلب، ولا يصير صورة كماليّة له غير ممكنة الزوال. فإنْ أصابته الأهوال والشدائد، وبالخصوص أهوال الموت وسكراته وشدائد نزع الروح الإنسانيّ، ينسَ الذكر كليًّا، وينمح الذكر الشريف عن صحيفة قلبه، وعند سؤال القبر لا يحير جوابًا، ولن يكون التلقين مفيدًا لحالته؛ لأنّه لا يجد في نفسه عندها، من حقيقة الربوبيّة والرسالة وسائر المعارف أثرًا. وما قاله بلقلقة لسانه، ممّا لم يكن له صورة في القلب، قد انمحى من ذاكرته، فلا يكون له نصيب من الشهادة بالربوبيّة والرسالة وسائر المعارف.

وفي الحديث: إنّ طائفة من أمّة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، إذا أوردوهم النار ونظروا إلى مالك خازن جهنّم نسوا اسم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من هيبته، مع إنّهم عُدّوا في نفس الحديث من أهل الإيمان وقلوبهم ووجوههم كانت ساطعة ومتلألئة بالإيمان»(2).

---

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 31 - 32.

(2) م.ن، ص 32 - 33.

آثار الطمأنينة في النفس

1. رسوخ الذكر في النفس:

إنّ طمأنينة القلب تؤدّي إلى سريان الحقائق وفاعليّتها في النفس، وصيرورة القلب المؤمن قائد المملكة الإنسانيّة وقواها. يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: «فمثلاً، إذا قال أحدٌ هذا الذكر الشريف: «لا إله إلّا الله محمّد رسول الله» بسكينة القلب واطمئنانه، وراح يعلّم القلب هذا الذكر الشريف، فإنّ لسان القلب ينطق بالتدريج، حتى يصبح لسان الظاهر تابعًا للسان القلب. ففي البداية يكون القلب ذاكراً ثمّ يتبعه اللسان، وإلى هذا المعنى أشار الإمام الصادق عليه السلام، على ما في رواية مصباح الشريعة، قال:

«**فاجعل قلبك قبلةً للسانك، لا تحرّكه إلا بإشارة القلب وموافقة العقل ورضى الإيمان**»[1].

ففي أوّل الأمر، ما لم ينطق لسان القلب، فعلى سالك طريق الآخرة أن يعلّمه النطق ويلقّنه الذكر مع طمأنينة وسكون، فإذا انفتح لسان القلب بالنطق يكون القلب قبلة للّسان ولسائر الأعضاء. فإذا شرع القلب في الذكر تكون مملكة وجود الإنسان بأسرها ذاكرة»[2].

2. تفتّح الحواس الباطنيّة:

وبهذه الطمأنينة تتوجّه قوى النفس إلى عالم الملكوت بعد أن هيمنت على عالم الدنيا بالانعتاق منها. وهناك تتفتّح القوى المتماثلة مع العوالم العليا، يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: «قال المحدّث العظيم الشأن المجلسي رحمه الله في مرآة العقول في شرح الحديث الشريف: «**كنت سمعه وبصره**»[3] ما حاصله أنّ من لم يصرف بصره وسمعه وسائر أعضائه في سبيل

(1) الامام جعفر الصادق عليه السلام، مصباح الشريعة، ص 55.

(2) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 32.

(3) الشيخ الكليني، الكافي، ج 2، ص 352. (عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: لَمَّا أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم قَالَ يَا رَبِّ مَا حَالُ الْمُؤْمِنِ عِنْدَكَ، قَالَ يَا مُحَمَّدُ مَنْ أَهَانَ لِي وَلِيّاً فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ وَأَنَا أَسْرَعُ شَيْءٍ إِلَى نُصْرَةِ أَوْلِيَائِي وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ كَتَرَدُّدِي عَنْ وَفَاةِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ وَإِنَّ مِنْ عِبَادِيَ الْمُؤْمِنِينَ مَنْ لَا يُصْلِحُهُ إِلَّا الْغِنَى وَلَوْ صَرَفْتُهُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ لَهَلَكَ وَإِنَّ مِنْ عِبَادِيَ الْمُؤْمِنِينَ مَنْ لَا يُصْلِحُهُ إِلَّا الْفَقْرُ وَلَوْ صَرَفْتُهُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ لَهَلَكَ وَمَا يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَيَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّافِلَةِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ إِذاً سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَلِسَانَهُ الَّذِي يَنْطِقُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا إِنْ دَعَانِي أَجَبْتُهُ وَإِنْ سَأَلَنِي أَعْطَيْتُهُ).

إطاعة الحقّ تعالى لم يكن له بصر وسمع روحانيّ، وهذا البصر والسّمع الملكيّ الجسمانيّ لا ينتقل إلى ذاك العالم، ويكون الإنسان في عالم القبر والقيامة بلا سمع ولا بصر، والميزان في السؤال والجواب في القبر تلك الأعضاء الروحانيّة (انتهى ملخّصاً)»[1].

فإذا حصلت الطمأنينة أنتجت العبادة. وهكذا تكون الطمأنينة وسيلة أساسيّة لولادة الحواس الباطنيّة. ففي ظلّ توجّه القلب إلى حقائق عالم الغيب والملكوت، تنعكس أنوارها في النفس، فتبعث فيها حياة جديدة.

جميع حواس الإنسان الظاهرة والباطنة لا يمكن لها أن تتفعّل ما لم تتفاعل مع ما يناسبها. والقلب المطمئنّ هو الذي يؤمّن لباطن النفس وملكوته هذه الحياة المعنوية.

فإذا أراد الإنسان أن يكون من أهل الآخرة، وأن يتنعّم بنعمها وإمكاناتها، فعليه أن يؤسّس لتلك الاستفادة وهو في هذا العالم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾[2].

3. ثبات الحقائق إلى الآخرة:

لا تحصل الطمأنينة التامّة إلا بتعلّق القلب بما لا يزول، وتمرين النفس على التوجّه إلى هذه الحقيقة من خلال تكرار ذكرها.

وإنّما شرّعت العبادة لأجل تحقيق هذا الذكر القلبيّ، كما قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾[3].

فعندما يواظب السالك على هذه التوجّهات، فمن المرجوّ أن تحصل له هذه الحالة، ويثبت معها قلبه على التوجّه المعنويّ دون اضطراب أو تزلزل، مهما اشتدّت الأهوال وعصفت به الشدائد، يقول الإمام الخمينيّ قدس سره:

«وبالإجمال، فإنّ الأحاديث الشريفة في هذا النحو من الطمأنينة وآثارها كثيرة، ومن هذه الجهة أُمر بترتيل القرآن الشريف، وفي الحديث، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال سمعته يقول: «**من نسي سورة من القرآن مُثّلت له في صورة حسنة ودرجة رفيعة، فإذا رآها، قال:**

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 33.
(2) سورة الإسراء، الآية 72.
(3) سورة طه، الآية 14.

من أنت؟ ما أحسنك! ليتك لي، فتقول: أما تعرفني؟! أنا سورة كذا وكذا، لو لم تنسني رفعتك إلى هذا»[1][2].

أهمّيّة مرحلة الشباب في تحصيل الطمأنينة

من المهمّ أن يغتنم الشباب هذه المرحلة من العمر؛ لأنّها أعظم فرصة لتثبيت القلب. وبالرغم من أنّ للشباب بلاءاته وهمومه، لكنّ اضطراب القلب فيه يكون أقلّ؛ فعلائق الدنيا لا تكون قد استحكمت في النفس مثلما يحصل للكهول والشيب. وما لم يسارع العبد إلى اغتنام هذه المرحلة من خلال العبادة والتوجّه المعنويّ، فلن يكون له مثل هذه الفرصة السهلة فيما بعد.

«وفي الحديث، قال: «**من قرأ القرآن وهو شابٌّ مؤمن اختلط القرآن بدمه ولحمه**»[3]؛ والسّر في ذلك أنّ اشتغال القلب وتكدّره في أيام الشباب أقلّ؛ لذا يتأثّر بالقرآن أكثر وأسرع، ويكون أثره أيضاً أبقى... وفي الحديث الشريف: «**ما من شيء أحبّ إلى الله عزّ وجلّ من عمل يداوم عليه، وإن قلّ**»[4]؛ ولعلّ السرّ العمدة فيه أنّه مع المداومة يصبح العمل صورة باطنيّة للقلب كما ذكرنا»[5].

---

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص608.
(2) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 33.
(3) الشيخ الكليني، الكافي، ج 2، ص 603.
(4) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 33.
(5) م.ن، ج2، ص82.

المفاهيم الرئيسة

1. الطمأنينة القلبيّة شرط لتحقق المأمول من العبادة.
2. بحصول الطمأنينة تنتفي حالة التزلزل والاضطراب من القلب.
3. باستقرار القلب يحصل التوجّه والتمركز نحو الفيض الإلهيّ.
4. كلّما زاد التوجّه استقرّت معاني الفيض الإلهيّ في القلب.
5. لتكرار العبادة الدور الأبرز في تحقيق نتائج العبادة.
6. دور العبادة الأساسيّ هو تحقيق الاتّصال بحقائق الفيض.
7. إذا لم يؤدِّ السالك العبادات مع طمأنينة القلب تزول آثارها.
8. بلاءات الدنيا والآخرة هي التي تزلزل القلب، إلّا إذا كان مطمئنا.
9. أهمّ مرحلة في تحصيل الطمأنينة هي مرحلة الشباب.

الدرس الخامس

التفهيم

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يتعرّف إلى أدب التّفهيم ومراتبه.

2 . يبيّن أهميّة ودور التفهيم في سلوك الإنسان.

3 . يشرح كيفيّة حصول التفيهم، ويبيّن آثاره ونتائجه على سلوك الانسان.

تمهيد

إنّ تفاعل الإنسان مع الحقائق لا يحصل بمجرّد اطّلاعه عليها أو إدراكه لها؛ لأنّ العلم والإدراك قد يواجها نفسًا مشغولة بأمور الدنيا وقلبًا مقبلاً على متاعها. وإذا كان القلب وعاء الفيض الإلهيّ، فإنّه يستلزم أن يتوجّه إلى هذا الفيض بكلّ ما يحمله من كمالات ومعانٍ لكي يناله. وكما أنّه لا يمكن تعبئة الوعاء إلّا بتوجيهه إلى المصدر، فكذلك القلوب.

ولكي تُقبِل القلوب على الحقائق العظيمة للوجود وتتوجّه إليها وتتفاعل معها لا بدّ من أن تذوق منها شيئًا. وما لم تذق ذائقة قلوبنا طعم المعاني الروحيّة فإنّها ستكتفي بما ذاقته من حلاوة هذه الدنيا الزائلة الفانية.

وإنّ أفضل طريق لتحقيق هذه التجربة المعنويّة هو ما يُعبَّر عنه بالتفهيم، وهو أشبه بعملية إيصال المعاني إلى القلب بواسطة التلقين.

ما هو التفهيم؟

التفهيم[1] عمليّة يقوم بها السالك من أجل تثبيت الحقائق في القلب، حيث يشرحه الإمام الخمينيّ قدس سره قائلًا:

«ومن الآداب القلبيّة للعبادات ـ وخصوصاً العبادات الذكريّة ـ التفهيم، وكيفيّته:

أن يعتبر الإنسان قلبه في أوّل الأمر كطفل ما انفتح لسانه، وهو يريد أن يعلّمه كلاًّ من الأذكار والأوراد والحقائق وأسرار العبادات بكمال الدقّة والعناية، ويفهّمه الحقيقة التي أدركها في أيّ مرتبة كان فيها»[2].

(1) التزمنا في هذا الدرس والدروس اللاحقة ترتيب الإمام الخمينيّ قدس سره في كتابه الآداب المعنويّة للمطالب، وإن تراءى هنا أنّ التفهيم مرتبة متقدّمة.

(2) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 42.

فالتفهيم أو التلقين إذًا، هو عبارة عن نقل المعاني إلى القلب، سواء حصلت هذه المعاني عن طريق البرهان أو بمجرّد التعبّد. فعندما تحصل القناعة الفكريّة بأيّ مبدإ أو حقيقة، لا يمكن للإنسان أن يستفيد منها أو أن يعمل بمقتضاها ما دام القلب غافلًا عنها أو غير مقتنع بها. ولأنّ القلب أمير البدن وسلطانه، فإنّ الجوارح لن تعمل بمقتضى الحقائق ما دامت صفحة القلب خالية منها.

أهمّيّة التفهيم

التفهيم هو الباب الأوّل لتحصيل حالات القلب؛ ولهذا عدّه الإمام وسيلة أساسيّة للذّكر ولكلّ التوجّهات القلبيّة، يقول الإمام الخميني قدس سره: «وسيأتي في أحاديث حضور القلب أنّه يُقْبَل من الصّلاة بقدر ما أقبل بقلبه. وكلّما كان القلب غافلًا يقلّ نصيبه من نتائج الصّلاة وثمارها بمقدار الغفلة، وما لم يلاحظ الأدب المذكور لا يحصل الذّكر القلبيّ، ولا يخرج القلب من السّهو والغفلة.

وفي الحديث أنّ الإمام الصادق عليه السلام، قال: «**فاجعل قلبك قبلةً للسانك؛ لا تحرّكه إلّا بإشارة القلب**»[1]. ولا يتحقّق كون القلب قبلة، وتبعيّة اللسان وسائر الأعضاء له، إلا بملاحظة هذا الأدب. وإن اتّفق في مورد ما حصول الأمور المذكورة بدون هذا الأدب فهو من النوادر، ولا يجوز للإنسان أن يغترّ به»[2].

فما لم يعامل أصحاب القلوب قلوبهم وفق هذا الأدب توشك هذه التّوفيقات أن تخرج من القلب عند أدنى زلزلة.

التكرار طريق تحصيل التفهيم

يكون السالك في تفهيم القلب كمن يلقّنه معنًى. وهو يتعامل معه على أساس أنّه طفلٌ صغير لم يَعْتَدْ على تلك المعاني ولم يأنس بها بعد؛ ولأجل ذلك كان لا بدّ من التفهيم بعد التلقين حتى يحصل للقلب فهمٌ وإدراك. فَمِنَ السالك التفهيم، وَمِنَ القلب الفهم والاستيعاب. وهذا معنًى آخر لتكرار توجّه القلب لو دقّقنا، يقول الإمام الخمينيّ قدس سره:

(1) الامام جعفر الصادق عليه السلام، مصباح الشريعة، ص 55.
(2) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 44 - 45.

«وليُعلم أنّ من نكات تكرار الأذكار والأدعية ودوام الذكر والعبادة أن ينفتح لسان القلب، فيكون ذاكرًا وداعيًا وعابدًا. وما دام هذا الأدب المذكور غير ملحوظ لا ينفتح لسان القلب. وقد أشير إلى هذا المعنى في الأحاديث الشريفة، كما في الكافي الشريف، عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ عليّاً عليه السلام قال في ضمن بيان بعض آداب القراءة: «**ولكن اقرعوا به قلوبكم القاسية، ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة**»[1]، وفيه أيضًا أنّ أبا عبد الله الصادق عليه السلام قال لأبي أسامة: «**يا أبا أسامة، اوعوا قلوبكم بذكر الله، واحذروا النكت**»[2][3].

«وحتى الكمّل من أولياء الله، كانوا يلاحظون هذا الأدب أيضًا، كما في الحديث أنّ مولانا جعفر بن محمد الصادق عليه السلام كان في صلاته، فغُشي عليه، فلمّا أفاق سُئل عن سببه، فقال: «**ما زلت أردّد هذه الآية على قلبي حتى سمعتها من المتكلّم بها، فلم يثبت جسمي لمعاينة قدرته**»[4].

وروي عن أبي ذرّ - رضي الله عنه - أنّه قال: «قام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلةً، يردّد قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[5]»[6].

وبالجملة، فحقيقة الذكر والتذكّر هي الذكر القلبيّ. أمّا الذكر اللساني بدونه فهو بلا لبّ وساقط عن درجة الاعتبار تمامًا. كما أشير إلى ذلك في الأحاديث الشريفة في غير مرّة، فعن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال لأبي ذرّ: «**يا أبا ذرّ، ركعتان مقتصدتان في تفكّر، خير من قيام ليلة والقلب لاه (ساه)**»[7].

وروي عنه صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً: «**إنّ الله سبحانه لا ينظر إلى صوركم، بل ينظر إلى قلوبكم**»[8][9].

(1) الشيخ الحر العاملي، محمد بن حسن، تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، قم، مؤسسة آل البيت عليهم السلام، 1409هـ.، ط 1، ج 6، ص 207.
(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج 8، ص 167.
(3) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 43 - 44.
(4) الفيض الكاشاني، محمد محسن بن مرتضى، الوافي، أصفهان، مكتبة الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام، 1406 هـ، ط 1، ج 8، ص 699.
(5) سورة المائدة، الآية 118.
(6) المجلسي، محمد باقر بن محمد تقي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، بيروت، نشر دار إحياء التراث العربي، 1403هـ.، ط 2، ج 16، ص 293.
(7) الشيخ الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 4، ص 74.
(8) راجع: العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 67، ص 248.
(9) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 44.

مراتب التفهيم بحسب درجات المعرفة

إنّ التفهيم تابعٌ لدرجة المعرفة تصوّرًا وتصديقًا، وقوّة الفهم تتبّع مستوى القناعة التي تحصل في النفس.

بعض الناس ليس لهم من العلوم والمعارف سوى المجمل العام. وبعضهم يكتفي بالظواهر، والقليل من له نصيب من المكاشفات. ومع ذلك فإنّ لكلٍّ من هؤلاء نصيب من التفهيم؛ لهذا يقول الإمام الخمينيّ قدس سره:

«فإذا لم يكن من أهل فهم معاني القرآن والأذكار، وليس له نصيب من أسرار العبادات، فيفهّم القلب المعنى الإجماليّ، وهو أنّ القرآن كلام الله والأذكار مذكِّرات بالحقّ تعالى والعبادات إطاعة لأمر الربّ، ويفهم القلب هذه المعاني الإجماليّة.

وإن كان أهل فهم المعاني الصوريّة للقرآن والأذكار، فيفهّم القلب المعاني الصوريّة من الوعد والوعيد والأمر والنهي وعلم المبدأ والمعاد بالمقدار الذي أدركه. وإن كشفت له حقيقة من حقائق المعارف، أو كشف له سرّ من أسرار العبادات، فيعلّم القلب ذاك المكشوف بجدّ واجتهاد»(1).

آثار التفهيم ونتائجه

لا ننسى بأنّ من أهمّ معاني القلب هو التوجّه والذكر والحضور والانشغال، فجميع انشغالاتنا واهتماماتنا تنبع من قلوبنا؛ ولهذا يجب أن نعتني بالقلب أشدّ العناية؛ لأنّه يرسم توجّهاتنا الكبرى في الحياة، وقد جاء في الحديث ما يبيّن أنّ مصير الإنسان تابع لتوجهاته القلبيّة، كقوله عليه السلام: «**يُحشر المرء يوم القيامة مع من أحبّ**»(2)، وقوله عليه السلام: «**لو أحبّ أحدكم حجراً لحُشر معه**»(3).

ويكفينا قوله تعالى ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾(4).

---

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 42.

(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج66، ص 81.

(3) الهاشمي الخوئي، الميرزا حبيب الله، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة وتكملة منهاج البراعة، ترجمة: حسن حسن زاده الآملي، ومحمد باقر كمرئي، تحقيق وتصحيح: إبراهيم ميانجي، طهران، المكتبة الإسلامية، 1400 هـ، ط 4، ج 14، ص 281.

(4) سورة الشعراء، الآيتان 88 - 89.

ولا يخفى بأنّ توجّهات القلوب تنبع من شـدّة رسـوخ ما يُتوجّه إليه فيها. فلا يكفي لتوجّه القلب إلى معنى ما أن يكون حضور هذا المعنى في القلب عابرًا أو سـطحيًّا؛ لأنّه سـرعان ما يزول؛ ولهذا كان التفهيم وسيلة لاستقرار المعاني وتثبيتها في القلب، وعلى أثر ذلك، ينهض القلـب إلـى مداومة الذكر. وليس الذّكر سوى شـدّة حضـور الحقائـق الإلهيّة، يقـول الإمام الخمينيّ قدس سره:

«ونتيجـة هـذا التفهيـم هو أنّـه بعد مدّة من المواظبة، ينفتح لسـان القلـب ويصبح القلب ذاكـرًا ومتذكّـرًا؛ ففـي أوّل الأمر كان القلب متعلّمًا واللسـان معلّمًـا، وكان القلب ذاكرًا بذكر اللسان وتابعًا له في الذكر. وأمّا بعدما انفتح لسان القلب يصبح الأمر معكوسًا، فيكون القلب ذاكرًا أوّلاً، ويتبعه اللسان في الذكر والحركة.

بل ربّما يتّفق للإنسـان في حالة النوم أن يكون لسـانه ذاكرًا تبعًا للذكر القلبيّ؛ لأنّ الذكر القلبيّ لا يختصّ بحال اليقظة. فإذا كان القلب متذكّرًا، يكون اللسـان التّابع له أيضاً ذاكرًا، ويسري الذكر من ملكوت القلب إلى الظاهر ﴿ قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾[1].

وبالجملـة، ففـي أوّل الأمـر لابدّ أن يلاحظ الإنسـان هذا الأدب؛ أي التفهيـم، حتّى ينفتح لسان القلب الذي هو المطلوب الحقيقيّ»[2].

علامة حصول التفهيم

هل يكفي أن يقول الإنسـان: إنّني متأكّد ممّا أسـمع وواثق بما أعتقد؟ أم أنّ عليه أن يعتني بحالات قلبه ليعرف منه الصحيح من السـقيم؟ وإذا كان القلب دليل الحقيقة، فما هو دليل القلب؟

القلـب هـو الحـبّ، والحبّ هـو الإقبال بفرح وسـرور، فما هـي علامة اسـتقرار الفهم في القلب؟

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره:

«وعلامـة انطـلاق لسـان القلـب أن يرتفع تعب الذكر ومشـقّته ويحصل النشـاط والفرح،

(1) سورة الإسراء، الآية 84.
(2) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 43.

ويرتفع الملل والألم، كشأن الإنسان إذا أراد أن يعلّم طفلًا لم يشرع في التكلّم، فما دام الطفل لم يتعلّم النطق، فإنّ المعلّم يكون في تعب وملالة، فإذا انفتح لسان الطفل وأدّى الكلمة التي علّمه إيّاها ارتفعت ملالة المعلّم، بل نجد المعلّم يؤدّي الكلمة تبعًا لأداء الطفل من دون ألم وتعب.

فالقلب أيضًا في أوّل الأمر هو طفلٌ ما انفتح لسانه بالكلام، ولا بدّ له من التعلّم وتلقّن الأذكار والأوراد. فإذا انفتح لسان القلب، يكون تابعًا له وترتفع مشقّة الذّكر وملالته وتعب التعليم. وهذا الأدب بالنسبة إلى المبتدئين ضروريّ جدّاً»[1].

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 43.

المفاهيم الرئيسة

1. يعدّ التفهيم من الآداب المعنويّة المرتبطة بتحقيق التوجّه القلبيّ.
2. بدون التوجّه القلبيّ إلى الحقائق لا يتحقّق السير المعنويّ.
3. أداء الإنسان للعبادة بدون التوجّه القلبيّ لا ينتج الثمرة المطلوبة.
4. التفهيم عبارة عن إدخال المعاني والحقائق إلى القلب.
5. مع تكرار التفهيم تستقرّ الحقائق في القلب.
6. إذا استقرّت الحقائق في القلوب توجّهت إليها دوما.
7. الذكر هو الذي يكون منشأ جميع الخيرات والبركات.
8. يشبه التفهيم عمليّة تلقين الطفل معاني الكلمات.
9. في البداية قد لا يكون الطفل مدركًا لمعنى ما يقول.
10. مع التكرار يحصل المطلوب، ويصبح اللسان بعدها تابعاً للقلب.

الدرس السادس

النشاط والبهجة

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يتعرّف إلى دور النشاط والبهجة وأهمّيّتها في تأدية العبادات.

2 . يبيّن الثّمار الطيّبة للنّشاط والبهجة.

3 . يتعرّف إلى أدب الرعاية ودوره في تحصيل الإقبال على العبادات.

تمهيد

لا تحصل النتائج الطيّبة للعبادة التي هي ركن السّير المعنويّ والتّكامل الرّوحانيّ إلا بإقبال النفس إليها وانعطاف القلب عليها.

وإنّ التوجّه القلبيّ إلى الفيض الرحمانيّ شرطٌ أساس لنيله والاستفادة منه. وعندما تكون القلوب منكوسة ويكون أعلاها أسفلها وتكون وجهتها إلى هذه الدنيا الدنيّة، فإنّها ستصاب بالملل والكسل والتعب والفتور لكثرة ما يعرض عليها من تقلّب، ولشدّة ما يصيبها من حرمان. وكيف تكون القلوب المتوجّهة إلى الفاني الزائل مسرورة، وحظّها قليل من متاع قليل؟!

أمّا إذا أقبلت القلوب على حظوظ الآخرة وفيوضات رحمة الحقّ الواسعة، فسوف تنشط وتعمر لكثرة ما يرد عليها من بهجات الأنس وحظوظ القدس.

وإنّ مراقبة السالك لهذا الأصل واعتباره شرطًا أساسيًا في رحلته المعنويّة يدلّ على أنّه عارف بأصل الكمال ومعدنه. فالنشاط دليل الاستفاضة، والفيض علّة النشاط. وما بين الاستفاضة والفيض قصّة لها تفاصيل مهمّة، نذكر بعضها في هذا الدرس.

ما الذي يمكن أن يحصل من عبادة بلا نشاط؟

صحيح أنّ النشاط والإقبال على العبادة والاندفاع إليها والشوق أمور قلبيّة، لكن مقدّماتها بيدنا. وأوّل هذه المقدّمات أن نلتفت إلى خطورة القيام بالعبادات دونها؛ لهذا يقول الإمام الخمينيّ قدس سره:

«لأنه إذا حمل النفس على العبادة في حين الكسل والتعب، يمكن أن تترتّب عليه آثار سيئة، منها:

أن يتضجّر الإنسان من العبادة، ويزيد تكلّفه وتعسّفه، ويوجب ذلك بالتدريج تنفّر طباع النفوس منها. وهذا، مضافاً إلى أنّه من الممكن أن يصرف الإنسان بالكامل عن ذكر الحقّ، ويؤذي الروح من مقام العبوديّة التي هي منشأ جميع السعادات، ينتج عنه ألّا يحصل للعبادة مع هذه الحالة نورانيّة القلب، ولا ينفعل باطن النفس منها، ولا تصير صورة العبوديّة صورة باطنيّة للقلب. وقد ذكرنا من قبل أنّ المطلوب في العبادات هو أن ينطبع باطن النفس بصورة العبوديّة»[1].

فمن أعظم ثمار العبادة تحقّق العبوديّة. والعبوديّة عبارة عن إدراك حقيقة الارتباط بالله تعالى. وكلّ من أدرك الغاية من العبادة وجد في نفسه حقيقة القرب؛ لأنّ العبوديّة جوهرة كنهها الربوبيّة. وفي مقام القرب لا يوجد سوى الخير والكمال والسعادة والهناء واللذّة والسرور.

وعندما يسير الإنسان في العبادة ولا يرى في نفسه هذه الآثار، فهذا يعني أنه يسير على صراط خاطئ. فكلّما حثّ الخطى، وأكمل السير، لم يزدد من الله إلا بعدًا، وللغاية إلا هجرًا!

أهمّيّة رعاية النشاط والبهجة

لا يبدو أنّنا بحاجة إلى تعريف معنى النشاط والبهجة، فهما معنيان وجدانيّان. وما هو مهمّ، أن نعرف دورهما وأهمّيّتهما في عباداتنا التي هي وسيلة تقرّبنا إلى الله. ولا شكّ بأنّ جانبًا من هذه المعرفة يرتبط بالالتفات إلى خطورة إهمالهما.

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: «من الآداب القلبيّة للصلاة وسائر العبادات، وله نتائج حسنة، بل هو موجب لفتح بعض الأبواب وكشف بعض أسرار العبادات، أن يجتهد السالك في أن تكون عبادته عن نشاط وبهجة في قلبه، وفرح وانبساط في خاطره، ويحترز احترازًا شديدًا من الإتيان بالعبادة مع الكسل وإدبار النفس»[2].

والاحتراز لا يعني ترك العبادة، بل يقتضي تأمين المقدّمات اللازمة؛ فلو أنّ عبدًا أصرّ على نفسه أن تقوم بأعباء العبادة دون الاهتمام بإقبال القلب ونشاط النفس وبهجة الروح،

---

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص37 - 38.

(2) م.ن، ص 37.

فهذا يعني أنّه يتعمّد حرمان نفسه من ثمار العبادة الطيّبة، وهو بوجه آخر دليل على وجود خلل وعيوب في سيره المعنويّ وفي مسار حياته.

ما هو سرّ ذلك؟

لمزيد توضيح حول أهمّيّة هذا الأدب القلبيّ، يقول الإمام الخمينيّ قدس سره:

«إن من أسرار العبادات والرياضات ونتائجهما:

1. أن تنفذ إرادة النفس في ملك البدن، وتصبح أقاليم النفس منقهرة ومضمحلّة في كبريائها، فتسيطر الإرادة على القوى المبثوثة والجنود المنتشرة في ملك البدن وتمنعها من العصيان والتمرّد والأنانيّة، وتكون القوى مسلّمة لملكوت القلب وباطنه، بل تصير جميع القوى بالتدريج فانية في ملكوت النفس، ويطبق أمر الملكوت في الملك وينفذ فيه» (ويعني هذا الأمر ألّا تكون النفس منقادة للأعضاء والجوارح وتابعة لرغباتها).
2. وتقوى إرادة النفس (وفي ظلّ الحكومة الواحدة يزداد الرئيس قوّةً واقتدارًا).
3. ويفلت زمام المملكة من يد الشيطان والنفس الأمّارة (وهذا ما يمنح النفس نوعًا من الاستقلاليّة عن أعدائها؛ لأنّه في ظلّ الاقتدار يحصل الاستقلال الفعليّ).
4. وتُساق جنود النفس من الإيمان إلى التسليم، ومن التسليم إلى الرضا، ومن الرضا إلى الفناء (فتبدأ النفس بإسراء نتائج العبادة من القلب إلى جميع الأقاليم المنقادة).
5. وفي هذه الحالة تجد النفس رائحة من أسرار العبادة، ويحصل لها شيء من التجلّيات الفعليّة»[1].

وفي هذا النصّ الجليل ذكر الإمام مراحل تأثير العبادة في النفس، فبدأ بما يمكن أن نعبّر عنه بتوحيد الإرادة، ثمّ انتقل إلى قوّة الإرادة، وبعدها يصبح بالإمكان التفلّت من تأثير وساوس الشيطان والنفس الأمّارة بفعل قوّة نور العقل في القلب. وهناك تبدأ النفس بتحصيل الكمالات في ظلّ الاتّصال بالله تعالى.

---

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 38.

دور النشاط والبهجة في العبادة

وحول دور النّشاط والبهجة في حصول هذه الآثار للعبادة في النفس، يقول الإمام قدس سره: «وما ذكرنا لا يتحقّق إلّا بأن تؤدّى العبادات عن نشاط وبهجة، ويحترز فيها من التكلّف والتعسّف والكسل احترازًا تامًّا، كي تحصل للعابد حالة المحبّة والعشق لذكر الحقّ ولمقام العبوديّة، ويحصل له الأنس والتمكّن.

وإنّ الأنس بالحقّ وذكره من أعظم المهمّات، ولأهل المعرفة بهما عناية شديدة، وفيها يتنافس المتنافسون من أصحاب السير والسلوك. وكما أنّ الأطبّاء يعتقدون بأنّ الطّعام إذا أكل بالسرور والبهجة يكون أسرع في الهضم، كذلك يقضي الطبّ الروحانيّ بأنَّ الإنسان إذا تغذّى بالأغذية الروحانيّة بالبهجة والاشتياق محترزًا من الكسل والتكلّف، يكون ظهور آثارها في القلب وتصفية باطنه بها أسرع»[1].

شواهد على أهمّيّة النشاط والبهجة

يستدلّ الإمام قدس سره على هذا الأدب من القرآن الكريم، ويتبعه بمجموعة من الأحاديث الشريفة للتأكيد على أهمّيّته، فيقول: «وقد أشير إلى هذا الأدب في الكتاب الإلهيّ الكريم والصحيفة الربوبيّة القويمة، حينما قال تعالى في مقام تكذيب الكفار والمنافقين: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾[2]، وقد فُسِّرت آية ﴿ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾[3] في حديث، بأنّ المراد من سكارى كسالى.

وأشير في الرّوايات أيضًا إلى هذا الأدب، ونحن نذكر بعضًا منها كي تفخر هذه الأوراق به.

محمد بن يعقوب باسناده عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «**لا تُكْرِهوا إلى أنفسكم العبادة**»[4].

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 38.
(2) سورة التوبة، الآية 54.
(3) سورة النساء، الآية 43.
(4) الشيخ الكليني، الكافي، ج 2، ص 86.

وعن أبي عبد الله عليه السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**يا عليّ، إنّ هذا الدين متين، فأوغل فيه برفق، ولا تبغض إلى نفسك عبادة ربّك**»(1).

وفي الحديث عن العسكريّ عليه السلام: «**إذا نشطت القلوب فأودعوها، وإذا نفرت فودّعوها**»(2).

وهذا دستور جامع منه عليه السلام بأن أودعوا في القلوب في وقت نشاطها، وأمّا في وقت نفارها. فلا بدّ في كسب المعارف والعلوم أيضاً من رعاية هذا الأدب، وألّا يحمل القلوب على الكسب مع الكراهة والنفور «فعليه أن يختار وقت العبادة بحيث يكون للنفس إقبال ونشاط وحيويّة، بعيدًا عن التعب والفتور»(3).

ولا يتعارض هذا الكلام مع أهمّيّة وضرورة الصلاة في أوّل الوقت؛ لأنّ من شأن هذه الرعاية أن تحبّب الصلاة والعبادة إلى القلب، فيطلبها بحبّ، ويشتاق إليها بوَجد؛ ومن كانت هذه حاله، لا يتحمّل مرور الوقت حين الأذان، فيسرع إلى الصلاة بفرح وابتهاج.

الرعاية أهمّ عمل لتحصيل الإقبال

بعد أن علمنا أهمّيّة الإقبال بنشاط وبهجة على العبادة، فما الذي ينبغي القيام به بالدرجة الأولى لجعل القلب مستعدًا لهذه الحالات؟ هنا يأتي الإمام على ذكر أدب آخر، هو بمنزلة المقدّمة لتلك التوجّهات القلبيّة بعد أن استشهد بهذه الأحاديث الشريفة، فيقول قدس سره:

«ويُستفاد من هذه الأحاديث وأحاديث أُخَر أدب آخر، وهو أيضاً من المهمّات في باب الرياضة المعنويّة، وهو أدب الرعاية.

وكيفيته أن يراعي السالك في أيّ مرتبة كان فيها، سواء في الرياضات والمجاهدات العلميّة أم النفسانيّة أم العمليّة، حاله، ويتعامل مع نفسه بالرفق والمداراة، ولا يحمّلها أزيد من طاقتها وحالها.

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج 2، ص 87.
(2) الميرزا النوري، حسين بن محمد تقي، مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، تحقيق وتصحيح: مؤسسة آل البيت عليهم السلام، قم، مؤسسة آل البيت عليهم السلام، 1408 هـ، ط 1، ج 1، ص 144.
(3) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص37.

والاهتمام بالرعاية بالنسبة إلى الشباب وحديثي العهد من المهمّات، فإنّه إذا لم يعامل الشباب أنفسهم بالرفق والمداراة، ولم يؤدّوا الحظوظ الطبيعيّة إلى أنفسهم بمقدار حاجتها من الطرق المحلّلة، يوشك أن يقعوا في خطر عظيم لا يتيسّر لهم جبرانه، وهو أنّ النفس ربّما تصير بسبب الضغط عليها وكفّها عن مشتهياتها أكثر من العادة مطلقة العنان في شهواتها، ويخرج زمام الاختيار من يد صاحبها. واقتضاءات الطبيعة إذا تراكمت، ونار الشهوة الحارّة إذا وقعت تحت ضغط الرياضة الزائدة عن الحدّ، فإنّها تستعر لا محالة، وتحرق كلّ المملكة. وإذا صار السالك - لا سمح الله - مطلق العنان، أو أصبح الزاهد بلا اختيار، فإنّه يقع في هاوية لا يرى وجه النجاة منها أبداً، ولا يعود إلى طريق السعادة والفلاح بتاتًا.

فعلى السالك أن يجسّ نبضه في أيّام سلوكه كطبيب حاذق، ويعامل نفسه على أساس مقتضى الأحوال وأيّام السلوك. وفي أيّام اشتعال نار الشهوة وغرور الشباب لا يمنع طبيعته من حظوظها كلّيًّا. وعليه أن يخمد نار الشّهوة بالطرق المشروعة. فإنّ في إطفاء الشهوة بطريق الأمر الإلهيّ إعانة كاملة على سلوك طريق الحقّ؛ فلينكح وليتزوج، فإنّه من السنن الإلهيّة الكبرى؛ ومضافًا إلى أنّه مبدأ بقاء النوع الإنسانيّ، فإنّ له دورًا كبيرًا أيضاً في سلوك طريق الآخرة؛ ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**من تزوّج فقد أحرز نصف دينه**»(1)، وفي حديث آخر: «**من أحبّ أن يلقى الله طاهرًا مطهّرًا، فليلقه بزوجة**»(2)، وروي أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال: «**أكثر أهل النار العزّاب**»(3).

وعن الإمام عليّ عليه السلام، قال: «**إنّ جماعة من الصحابة كانوا حرّموا على أنفسهم النساء والإفطار بالنهار والنوم بالليل، فأخبرت أمّ سلمة رسول الله، فخرج إلى أصحابه، فقال: أترغبون عن النساء؟ إني آتي النساء، وآكل بالنهار، وأنام بالليل، فمن رغب عن سنّتي فليس مني، وأنزل الله** ﴿لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ

(1) الطوسي، محمد بن الحسن، الأمالي، قم، دار الثقافة، 1414 هـ، ط 1، ص 518.
(2) الشيخ الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 20، ص 18.
(3) ابن بابويه، محمد بن علي، من لا يحضره الفقيه، تحقيق وتصحيح علي أكبر غفاري، قم، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم، 1413 هـ، ط 2، ج 3، ص 384.

﴿ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٨٧ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾[1]»[2].

وبالجملة، على سالك طريق الآخرة (رعاية) حالات إدبار النفس وإقبالها، فكما أنّه لا يجوز له الكفّ عن الحظوظ مطلقاً، فإنّه منشأ لمفاسد عظيمة، لا ينبغي له أن يحمّل نفسه ما لا تطيقه من العبادات والرياضات العمليّة، وألّا يجعلها تحت الضغوط، خصوصاً في أيّام الشباب وابتداء السلوك؛ فإنّه أيضاً يكون منشأ لتضجّر النفس ونفورها، وربّما ينصرف الإنسان بسببه عن ذكر الحقّ»[3].

«والإشارة إلى هذا المعنى في الأحاديث كثيرة، ففي الكافي الشريف، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «**اجتهدت في العبادة، وأنا شابّ، فقال لي أبي: يا بنيّ، دون ما أراك تصنع؛ فإنّ الله عزّ وجلّ إذا أحبّ عبداً رضي منه باليسير**»[4].

وعن أبي جعفر عليه السلام، قال: قال رسول الله: «**إنّ هذا الدين متين، فأوغلوا فيه برفق، ولا تُكْرهوا عبادة الله إلى عباد الله، فتكونوا كالراكب المنبتّ الذي لا سفراً قطع ولا ظهراً أبقى**»[5].

وفي حديث آخر: «**ولا تبغّض إلى نفسك عبادة ربّك**»[6]»[7].

أصول الرعاية

فإذا عرفنا أهمّيّة الرعاية ودورها في تحصيل النشاط والبهجة، وأدركنا كيفيّتها، فاللازم أن نلتفت إلى الضابطة الأساسيّة فيها، نظرًا لإمكانيّة وقوع السالك في الإفراط أو التفريط؛ لهذا يقول الإمام قدس سره:

«وبالجملة، الميزان في باب المراعاة أن يكون الإنسان ملتفتاً إلى أحوال النفس، ويسلك معها بحسب قوّتها وضعفها. فإذا كانت النفس قويّة في العبادات والرياضات، وتقدر على

---

(1) سورة المائدة، الآيتان 87 – 88.
(2) البروجردي، آغا حسين، جامع أحاديث الشيعة، طهران، منشورات فرهنك سبز، 1428هـ، ط 1، ج 25، ص 102.
(3) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص39 – 41.
(4) الشيخ الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 1، ص 108.
(5) الشيخ الكليني، الكافي، ج 2، ص 86.
(6) م.ن، ص 87.
(7) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص41.

المقاومة، فليجدّ ويسعى في العبادة. وأمّا الذين طووا أيام عنفوان الشباب، وانطفأت نائرة الشهوات شيئاً ما فيهم، فالمناسب لهم أن يجدّوا في الرياضات النفسانيّة أكثر، ويدخلوا في السلوك والرياضة بفتوّة. فكلّما عوّدوا النفس على الرياضات، فتح لهم باب آخر، إلى أن تغلب النفس القوى الطبيعيّة، وتصير القوى الطبيعيّة مسخّرة تحت كبرياء النفس.

وما ورد في الأحاديث الشريفة، من الأمر بالجدّ والسعي في العبادة، وما ورد فيها من مدح الذين يجتهدون في العبادة والرياضة، وما ورد في عبادات أئمّة الهدى عليهم السلام من جهة، وما ورد من هذه الأحاديث الشريفة المادحة للاقتصاد في العبادة من جهة أخرى، مبنيّ على اختلاف أهل السلوك ودرجات النفوس وأحوالها، والميزان الكلّيّ هو نشاط النفس وقوّتها، أو نفورها وضعفها»[1].

---

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص41 - 42.

المفاهيم الرئيسة

1. أداء العبادة بنشاط وبهجة شرط لتحصيل ثمارها الطيّبة.
2. إذا أدّى العبد العبادة بملل وتعب يحصل النفور منها.
3. إذا نفر القلب من العبادة حرم من نورها وثمارها.
4. أداء العبادة بملل وضجر يؤدّي إلى عواقب وخيمة جداً.
5. يجب اختيار الأوقات المناسبة لأداء العبادة.
6. يجب تأمين المقدّمات اللازمة لتحقيق النشاط في العبادة.
7. تشبه القلوب الأبدان في الاستفادة من الغذاء.
8. أهمّ أغذية القلوب تحصل من العبادة.
9. يجب مراعاة حالة القلوب في الإقبال والإدبار.
10. تأمين الحظوظ الأساسيّة للأبدان شرط أساسيّ لإقبال القلوب.
11. إهمال حاجات البدن الأساسيّة يؤدّي إلى نفور القلوب من العبادة.

الدرس السابع

الاستعاذة من الشّيطان

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يشرح أهميّة حفظ العبادة من تصرّف الشيطان، وخطورة إهمال هذا الأمر.
2. يتعرّف إلى حقيقة إبليس، وتصرّفاته، ويبيّن تأثيره على سير الإنسان وسلوكه.
3. يوضّح معنى الاستعاذة، ويبيّن دورها في الاحتراز من مكائد إبليس.

تمهيد

لا معنى للحياة الدّنيا سوى أن تكون سفراً إلى اللّه تعالى، وفيها الزّاد والمسير والغاية، وكذلك تجاوز الموانع. ومن أشدّ الموانع على الإنسان ذلك العدوّ المسمّى إبليس، وجنوده من الجنّ والإنس، الذين لا همّ لهم سوى منعه من إكمال المسير، ومن ثمّ إسقاطه في لجّة الضياع واليأس، حتى ينتهي الأمر به إلى أودية جهنّم البعد والفراق والعذاب والشّقاء.

ولا شكّ بأنّ لوجود هذه العداوة في حياتنا فلسفة عميقة، أقلّ ما يُقال فيها أنّها تساهم في تعرّفنا إلى سرائرنا وما تخفيه نفوسنا؛ ففي مصارعة الشّيطان يدرك الإنسان الكثير من مكامن النفس وخباياها، ويتعرّف إلى عمق نواياه وغاياته. وكلّ هذا مشروط بأمرٍ أساسيّ، وهو الاستعاذة باللّه تعالى من هذه الشّرور المخفيّة والمعلنة. ولهذه الاستعاذة مراتب وشروط سوف نتعرّف إليها في هذه الدّروس إن شاء اللّه تعالى.

أهمّيّة الحفاظ على العبادة من تصرّف إبليس

إنّ أوّل ما ينبغي أن نلتفت إليه هو خطورة هذا العدوّ ومدى ما يتمتّع به من إمكانات لغواية الإنسان وإضلاله، حيث إنّ الغفلة عن هذه العداوة وعواقبها هي السّبب الأوّل في السقوط والخسران؛ ولهذا يعمد الشيطان الرجيم إلى إخفاء ما يضمره للإنسان وإسباغ الخير والنصيحة عليه لكي يتمكّن منه؛ ولهذا أيضًا كان التحذير المتكرّر من اللّه تعالى في كتابه العزيز وعلى لسان أوليائه من الشّيطان ومكائده.

ولا شكّ بأنّ التعرّف إلى مكائد إبليس وحبائله ومكره وخُدَعه وحقيقة ما يضمره يساهم كثيراً في فتح العيون والبصائر على مسؤوليّة كبيرة تندرج تحت عنوان الاستعاذة باللّه من الشّيطان الرجيم.

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: «من الآداب القلبيّة المهمّة للصّلاة وسائر العبادات، الحفاظ عليها من التصرّفات الشّيطانيّة، وهو في الوقت نفسه من أمّهات الآداب القلبيّة، والقيام به من عظائم الأمور وأدقّ الدقائق. ولعلّ الآية الشريفة في وصف المؤمنين الذين هم على صلواتهم يحافظون إشارة إلى جميع مراتب الحفظ التي تكون إحداها، بل أهمّها، الحفاظ عليها من تصرّفات الشّيطان»[1].

ويقول الإمام الخمينيّ قدس سره:

«من الآداب المهمّة للقراءة، وخصوصًا القراءة في الصّلاة التي هي السّفر الروحانيّ إلى الله والمعراج الحقّيقيّ ومرقاة وصول أهل الله، الاستعاذة من الشّيطان الرّجيم، الذي هو شوكة طريق المعرفة ومانع السير والسلوك إلى الله، كما أخبر الله سبحانه وتعالى عنه في سورة الأعراف المباركة، حيث قال: ﴿ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾[2]، فإنّه أقسم أن يسدّ الطّريق على أبناء آدم ويمنعهم عنه.

ففي الصلاة التي هي الصراط المستقيم للإنسانيّة ومعراج الوصول إلى الله، لا يتحقّق الوصول من دون الاستعاذة من هذا القاطع للطّريق، ولا يحصل الأمان من شرّه من دون الاستعاذة بحصن الألوهيّة الحصين»[3].

ويقول قدس سره: «فلا بدّ أن نعلم بأنّ تأخّرنا عن هذا السّير الملكوتيّ والسّلوك الإلهيّ بسبب إغواء الشيطان والوقوع تحت السلطنة الشيطانيّة هو من قصورنا أو من تقصيرنا، حيث لم نقم بآدابه المعنويّة وشرائطه القلبيّة، كما إنّ عدم نيلنا في جميع الأذكار والأوراد والعبادات نتائجها الروحيّة والآثار الظاهريّة والباطنيّة فهو بسبب هذه المسألة الدقيقة»[4].

دور الإنسان في هذا الصراع

إنّ إرجاع جميع النواقص والمشكلات المعنويّة وكلّ أنواع الشّقاء والآثام إلى الشّيطان الرّجيم لا يعني عدم تحمّل الإنسان للمسؤوليّة الكاملة عن مصيره؛ فالأمر لا يدور بين إلقاء

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص34.
(2) سورة الاعراف، الآية 16.
(3) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص229 - 230.
(4) م.ن، ص230.

اللوم على الإنسان أو على الشّيطان؛ لأنّ من يسمح لكلّ الآثار الشّيطانيّة بالنفوذ إلى النفس هو الإنسان نفسه، وهو الذي يقبل بسريان الإلقاءات الشيطانية والوساوس الإبليسيّة إلى عمق قلبه.

لكنّ هذا الإرجاع يساعد الإنسان على أمرٍ أساس هو غاية في الأهمّيّة، ولا يمكن معرفة أهمّيّته إلّا إذا عرفنا أمرين أساسيين، وهما:

1. إنّ بلوغ أيّ كمال غير ممكن ولا متيسّر إلّا في ظلّ الرّجوع إلى الله والاستفاضة التامّة منه.
2. وإنّ الإنسان في سيره هذا ليس سوى العجز والضعف والفقر. وما لم يدرك هذه الحقيقة لا يمكن له أن ينال ثمار الحقيقة الأولى. ومن كان عين الضعف فأنّى له الانتصار على مثل هذا العدوّ المبين؟!

لهذا يقول الإمام الخمينيّ قُدِّسَ سِرُّهُ:

«اللهمّ، إنّك تعلم ضعفنا ومسكنتنا، وتعلم أنّنا لا نستطيع الفرار من هذا العدوّ القويّ القدير الذي طمع في التسلّط على الأنبياء العظام والكمّل من الأولياء الرفيعي المقام، فإن فقدنا بارقة لطفك ورحمتك أوقعنا هذا العدوّ القويّ في مصارعتنا إيّاه أرض الهلاك والبوار، وصيّرنا تائهين في الظلمة والشقاوة، فأسألك بالخاصة في جنابك والمحارم في حضرتك أن تأخذ بيدنا نحن المتحيّرين في وادي الضلالة، والحائرين في صحراء الغواية، وأن تطهّر قلوبنا من الغلّ والغشّ والشّرك والشكّ، إنّك وليّ الهداية!»[1].

ما هو إبليس؟ وما هي حقيقة تصرّفه؟

لكي نقترب أكثر من فهم القضيّة يجب أن نعرف ما هي حقيقة إبليس، وأن نتصوّر أهمّ ما يحدث مع السالك في سيره إلى الله تعالى. فحبائل إبليس الخبيث وتصرّفاته العدوانيّة ومكائده تستهدف نتائج السلوك المعنويّ في جميع مراتبه ومقاماته، وتسعى لتبديل الثمار الطيّبة إلى أخرى خبيثة، ليتمكّن معها من التحكّم بالإنسان وجعله عبدًا طائعًا له. وكلّ هذا من أجل أن يثبت هذا اللعين انتصاره المزعوم على ربّ العالمين!

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص37.

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: «فكلّ ما كان مانعًا له (للإنسان) من هذا السّفر وشوكًا في طريقه، فهو شيطانه، سواء أكان من القوى الرّوحانيّة الشّيطانيّة أم من الجنّ والإنس؛ لأنّ الجنّ والإنس أيضًا إذا كانوا شوك الطريق ومانعي السّلوك إلى الله، فإنّهم من أعوان الشيطان وتصرّفه، كما أشار إليه سبحانه وتعالى في سورة النّاس المباركة، حيث يقول: ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾[1]، فإن كان الشّيطان جنّاً، يُستفاد من الآية الشريفة أنّ الوسواس الخنّاس الذي هو الشيطان جنٌّ وإنس، أحدهما بالأصالة والآخر بالتبعيّة، وإن كان الشيطان حقيقة أخرى شبيهة بالجنّ فيُعلم من الآية الشريفة أنّ هذين النوعين، يعني الجنّ والإنس، أيضاً تمثّلات شيطانيّة ومن مظاهره. وقد أشار إلى هذا المعنى في آية أخرى أيضاً، حيث يقول: ﴿ شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ﴾[2]، وقد أشار سبحانه في هذه السورة المباركة إلى الأركان الأربعة المذكورة كما هو ظاهر»[3].

ويقول قدس سره:

«وهو إبليس اللعين والشّيطان الرّجيم، الذي يمنع الإنسان بحبائله المتنوّعة من الوصول إلى المقصد، وحصول المقصود. وما ذكره بعض أعاظم أهل المعرفة من أنّ حقيقة الشيطان عبارة عن جميع العالم بجنبته السوائيّة فليس بتام لدى الكاتب[4]، لأنّ الجنبة السوائيّة التي هي عبارة عن الصورة الموهومة العارية عن الحقيقة الخالية عن التحقّق والواقعيّة (هي) من حبائل إبليس التي يشغل الإنسان بها. ولعلّه إلى هذا المعنى أشير في قوله تعالى: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾[5]، وإلّا فنفس إبليس حقيقة ذات تجرّد مثاليّ[6]، والحقيقة الإبليسيّة الكلّيّة التي هي رئيس الأبالسة والإبليس الكلّ أيضًا، كما أنّ الحقيقة العقليّة المجرّدة الكلّيّة، وهي آدم الأوّل، هي عقل الكلّ. وإنّ القوى الواهمة الجزئيّة

(1) سورة الناس، الآيات 4 - 6.
(2) سورة الأنعام، الآية 112.
(3) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص237 - 238.
(4) الكاتب: هو الإمام الخمينيّ قدس سره.
(5) سورة التكاثر، الآيتان 1 - 2.
(6) التجرد المثالي هو التجرّد الخيالي ويصطلح عليه أيضا بالتجرّد البرزخي. وهو مرتبط بعالم الصورة لا عالم المادة.

الملكيّة من مظاهر إبليس وشؤونه، كما أنّ العقول الجزئيّة شؤون العقل الكلّيّ ومظاهره. وتفصيل هذا المقام وتحقيقه خارج عن مجال هذه الرسالة»(1).

«وبالجملة، ما منعك عن الحقّ وحجبك عن جمال المحبوب الجميل فهو شيطانك، سواء أكان في صورة الإنسان أم الجنّ»(2).

أدوات إبليس وحبائله

إنّ لإبليس من المكائد ما لا يُحصى. وقد أعدّ لكلّ إنسان بحسب مرتبته وحالاته مكيدة قد تأخذ العمر كلّه حتى تعطي نتيجتها وهي السقوط في قعر جهنّم. وإنّ التعرّف إلى بعض المكائد الخفيّة والدقيقة ممّا يساعد على تحقيق الاستعاذة؛ ولهذا يقول الإمام الخمينيّ قدّس سرّه: «... وكلّ ما يمنعك به الشياطين عن المقصد والمقصود فهو حبائل الشيطان، سواء كان من سنخ المقامات والمدارج أو العلوم والكمالات أو الحرف والصنائع أو العيش والراحة أو المشقّة والذلّة أو غيرها، وهذه عبارة عن الدنيا المذمومة؛ وبعبارة أخرى: إنّ تعلّق القلب بغير الحقّ هو الذي يمثّل الدنيا المذمومة، ومنها تنشأ حبائل الشيطان، ولا بدّ من الاستعاذة منها. وما نقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه كان يقول: «**أعوذ بوجه الله الكريم، وبكلمات الله التي لا يجاوزهنّ برٌّ ولا فاجر، من شرّ ما ينزل من السماء وما يعرج فيها، ومن شرّ ما ينزل من الأرض وما يخرج منها، ومن شرّ فتن الليل والنهار، ومن شرّ طوارق الليل والنهار، إلّا طارقًا يطرق بخير**»(3)؛ فلعلّ المقصود منه هذا المعنى»(4).

ويقول قدّس سرّه:

«... وبالجملة، ما كان في هذا السّلوك الإلهيّ والسير إلى الله مانعًا من السّير وشوكًا في الطريق فهو الشيطان أو مظاهره التي أعمالها هي عمل الشّيطان أيضًا. وما كان من عوالم الغيب والشّهود والعوارض الحاصلة للنفس وحالاتها المختلفة حجابًا لجمال المحبوب، سواء أكان من العوالم الملكيّة الدنيويّة كالفقر والغنى والصحّة والمرض والقدرة والعجز والعلم والجهل والآفات

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 239.
(2) م.ن، ص240.
(3) راجع: العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج60، ص329.
(4) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 240.

والعاهات وغيرها، أم كان من العوالم الغيبيّة التجرّديّة والمثاليّة، كالجنّة وجهنم، والعلم المتعلّق بها حتّى العلوم العقليّة البرهانيّة الراجعة إلى توحيد الحقّ وتقديسه كلّ ذلك من حبائل إبليس التي تمنع الإنسان عن الحقّ والأنس به والخلوة معه وتشغله بذلك، حتى الاشتغال بالمقامات المعنويّة والوقوف في المدارج الروحانيّة الذي ظاهره الوقوف في الصراط الإنسانيّ، وباطنه الوقوف في صراط الحقّ، الذي هو الجسر الروحانيّ لجهنّم الفراق والبعد، وينتهي إلى جنّة اللقاء. وهذا الجسر مخصوص بطائفة قليلة من أهل المعرفة وأصحاب القلوب، وهو من الحبائل العظيمة لإبليس الأبالسة، ولا بدّ من الاستعاذة منه بذات الحقّ المقدّسة جلّ شأنه»[1].

عواقب إهمال الاستعاذة

فإلى أيّ مدى يمكن أن يؤول أمر الإنسان الذي يهمل هذه الاستعاذة، ولا يحافظ على عبادته وسيره المعنويّ من تصرّف الشيطان؟ يشير الإمام قدس سره، بعد مقدّمة طويلة حول أنواع الأغذية الروحيّة التي هي أساس التكامل المعنويّ، إلى أنّ إبليس اللعين له القدرة على التصرّف والتأثير بهذه الأغذية، فتكون النتيجة أن تتشكّل الشخصيّة المعنويّة للإنسان بواسطة غذاء إبليسيّ، وما كان أمره كذلك فعاقبته أن يصبح موجودًا إبليسيّاً شيطانيّاً.

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره:

«وتفصيل هذا الإجمال، إنّ من الواضح عند أصحاب المعرفة وأرباب القلوب، كما أنّ للأبدان غذاءً جسمانيًا تتغذّى به، ولا بدّ أن يكون الغذاء مناسبًا لحالها وموافقًا لنشأتها حتى تتيسّر لها التربية الجسمانيّة والنموّ النباتي، كذلك فإنّ للقلوب والأرواح غذاءً لا بدّ أن يكون مناسبًا لحال كلّ منها وموافقًا لنشأتها، كي تتربّى به وتتغذّى منه وتنمو نموّاً معنويّاً وتترقّى ترقّيًا باطنيّاً. والغذاء المناسب لنشأة الأرواح هو المعارف الإلهيّة، اعتبارًا من مبدأ مبادئ الوجود إلى منتهى نهاية نظام الوجود، كما قال أعاظم أرباب الصناعة الفلسفيّة في تعريف الفلسفة «هي صيرورة الإنسان عالماً عقليّاً مضاهياً للعالم العينيّ في صورته وكماله». وهذا القول يشير إلى هذا التغذّي المعنويّ، في حين أنّ تغذّي القلوب يُستمدّ من الفضائل والمناسك الإلهيّة.

---

(1) الخمينيّ، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص239 - 240.

وليُعلم أنّ كلًا من هذه الأغذية إذا خلُص من تصرّف الشيطان وأعدّ بيد الولاية للرسول الخاتم ووليّ اللّه الأعظم (صلوات اللّه عليهما وآلهما)، يتغذّى الروح والقلب منه ويناﻻ الكمال اللائق بالإنسانيّة ومعراج القرب إلى اللّه...؛ لأنّ الأغذية الروحانيّة إذا لم تكن خالصة من تصرّف الشيطان وتدخّلت يده في إعدادها، فمضافًا إلى أنّه لا تتربّى بها الأرواح والقلوب، ولا تصل إلى الكمال اللائق بها، يحصل لها النقصان الفاحش أيضًا، ولعلّها تجعل صاحبها منسلكًا في سلك الشياطين والبهائم والسباع. وما كان سببًا للسعادة ورأسمال كمال الإنسانيّة والوصول إلى المدارج العالية، لَيعطي النتيجة المعكوسة ويسوق الإنسان إلى هاوية الشقاء المظلمة»[1].

ويقول الإمام الخمينيّ قُدِّسَ سِرُّهُ:

«فعلى سالك طريق الآخرة لزومًا حتمًا أن يخلّص معارفه ومناسكه من تصرّف الشيطان والنفس الأمّارة... فربّما تتغلّب عليه إذا تسامح معها وتصرعه وتسوقه إلى الهلاك والفناء»[2].

ويضيف الإمام قُدِّسَ سِرُّهُ: «... فواه لنا يوم نُعطى صور أعمالنا وصحيفة أفعالنا في ذلك العالم بأيدينا، ويقال ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[3] وانظر، هل تليق تلك العبادات بالقبول من جنابه؟ وهل هذه الصلاة مع هذه الصورة المشوّهة الظلمانيّة مقرّبة لك إلى بساط الحضرة الكبريائيّة؟ وهل ينبغي لك أن تسلك مع هذه الأمانة الإلهيّة ووصيّة الأنبياء هذا السلوك؟ وهل يجوز أن تسمح ليد خيانة الشيطان الرجيم الذي هو عدوّ اللّه أن يتدخّل فيها؟ ولماذا صارت الصلاة التي هي معراج المؤمن وقربان المتّقين مبعدة لكم عن الساحة المقدّسة وعن جناب القرب الإلهيّ؟ فهل لنا في ذلك اليوم سوى الحسرة والندامة والشقاوة والخجلة من نصيب؟ يا لها من حسرة وندامة ليس لها في هذا العالم شبيه!

ويا لها من خجلة وندامة لا نقدر أن نتصوّر لها نظيرا! فإنّ الحسرات في هذا العالم مهما بلغت ممزوجة بآلاف أنواع الرجاء، وكذلك الندامات في هذه النشأة سريعة الزوال؛ وهذا

(1) الخميني، روح اللّه الموسوي، معراج السالكين، ص34 - 35.
(2) م.ن، ص35.
(3) سورة الإسراء، الآية 14.

بخلاف ذلك العالم، فإنّه يوم بروز الحسرة والندامة كما قال تعالى ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾[1]... فالأمر المنقضي لا يُجبر، والعمر التالف لا يُستعاد؛ فواحسرتاه على ما فرّطت في جنب الله!

«فيا أيّها العزيز، اليوم يوم الإمهال والعمل، وقد جاء الأنبياء وأتوا بالكتب والدعوات مع كلّ هذه المقدّمات والترغيبات، ومع تحمّلهم الآلام والشدائد كي يوقظونا من نوم الغفلة وينبّهونا من سكر الطبيعة، ويوصلونا إلى عالم النور ونشأة البهجة والسرور، وإلى الحياة الأبديّة والنعم السرمديّة واللذائذ الدائمة، وينجونا من الهلاك والشقاوة والنار والظلمة والحسرة والندامة، وكلّ ذلك لأجلنا ومن دون أن تعود عليهم - سلام الله عليهم - نتيجة، ومن دون أن تكون لتلك الذوات المقدّسة حاجة لإيماننا وأعمالنا. ومع ذلك ما أثّرت فينا دعوتهم، وقد أخذ الشيطان بمسامع قلوبنا وتسلّط على باطننا وظاهرنا، بحيث لم يؤثّر فينا شيء من مواعظهم أيّ أثر، بل لم يصل إلى سمع قلوبنا شيء من الآيات والأخبار، وما تجاوز ظاهر السمع الحيوانيّ»[2].

نماذج من ضحايا إبليس

كم هو مهمّ أن نتعرّف على صرعى إبليس؛ فإنّهم هم أناس لسنا عنهم ببعيدين، بل قد تكون أحدهم أيضاً، ولسان حالنا سيقول بعد هذا الكلام: إنّ كلّ واحد منّا في معرض السقوط الإبليسيّ. ولعلّ هذا هو الهدف العمدة من ذكر هذه النماذج لكي تتحقّق الاستعاذة بتمامها، يقول الإمام الخمينيّ قدس سره:

1. كما رأينا في بعض أهل العرفان الاصطلاحيّ أشخاصًا انتهت بهم هذه الاصطلاحات والغور فيها إلى الضلالة، وجعلت قلوبهم منكوسة وبواطنهم مظلمة، وصار الاشتغال في المعارف موجبًا لقوّة أنانيّتهم وإنّيّتهم حتى صدرت منهم الدعاوى غير اللائقة والشطحات غير المناسبة.

(1) سورة مريم، الآية 39.
(2) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص47 - 50.

2. وكذلك رأينا في أرباب الرياضات والسلوك أفرادًا أدّت رياضتهم واشتغالهم بتصفية النفس إلى جعل قلوبهم أكدر وباطنهم أظلم؛ وكلّ ذلك لم يكن إلّا لأنّهم لم يحافظوا على سلوكهم المعنويّ الإلهيّ ومهاجرتهم إلى اللّه، وكان سلوكهم العلميّ وارتياضهم بتصرّف الشّيطان والنفس وإلى الشّيطان والنفس.
3. وكذلك رأينا في طلاب العلوم النقليّة الشرعيّة أفرادًا أثّر فيهم العلم الأثر السيئ، وزاد في مفاسدهم الأخلاقيّة. والعلم الذي لا بدّ أن يكون موجبًا لفلاحهم ونجاتهم، صار سببًا لهلاكهم ودعاهم إلى الجهل والمماراة والاستطالة.
4. وكذلك في أهل العبادة والمناسك والمواظبين على الآداب والسنن أشخاص جعلت العبادة والنسك - التي هي رأسمال إصلاح الأحوال والنفوس - قلوبهم كدرة ومظلمة، وحملتهم على العجب ورؤية النفس والكبر والتغمّز وسوء الخلق وسوء الظنّ بعباد اللّه، وهذا كلّه أيضاً من عدم المواظبة على هذه المراهم الإلهيّة.

ومن المعلوم أنّ مرهماً هُيِّئ وأعدّ بيد العفريت الخبيث وبتصرّف النفس الطاغية، لا يتولّد منه إلّا الخلق الشيطانيّ. وحيث إنّ القلب يتغذّى من تلك الأغذية على أيّ حال، وتصير الأغذية صورة باطنية للنفس، فبعد أن يداوم عليها مدّة يصير الإنسان من مواليد الشيطان، وقد تربّى على يديه، ونشأ ونما تحت تصرّفه. فإذا أغمض عينه الملكيّة وانفتحت عينه الملكوتيّة، يرى نفسه من الشياطين، فلا نتيجة في تلك الحال سوى الخسران، ولا تغني عنه الحسرات والندامات شيئاً[1].

ضرورة مواجهة إبليس

لقد عرفتَ ما لهذا العدوّ المبين من خطر على سلوكك ومصيرك، وعلمت أنّ التخلّص منه صعب جدًّا ومستحيل طالما أنّنا نعتمد على أنفسنا ونثق بها؛ فلا سبيل للنجاة إلا بالاستعاذة التامّة بالحقّ المتعال[2]؛ لهذا يقول الإمام قدّس سرّه:

«فعلى سالك طريق الآخرة لزومًا حتمًا أن يخلّص معارفه ومناسكه من تصرّف الشيطان

(1) الخميني، روح اللّه الموسوي، معراج السالكين، ص35 - 36.
(2) سيتّضح أكثر كيفيّة مواجهة إبليس والتخلّص منه في الدروس اللاحقة.

والنفس الأمّارة مهما بلغ من الجهد، وأن يغوص في حركاته الباطنيّة وتغذياته الروحيّة، ولا يغفل عن حيل النفس والشيطان وحبائل النفس الأمّارة وإبليس، وأن يسيء الظنّ بشكل كامل في جميع حركاته وأفعاله، ولا يدع نفسه على رسلها آنًا ما...»[1].

ويقول قدس سره:

«فعلى سالك طريق الآخرة في كلّ فرع من الفروع الدينيّة، وفي كلّ طريق من الطرق الإلهيّة:

أولاً: أن يراقب حاله بكمال الانتباه والدقة، كطبيب رفيق ورقيب شفيق، ويفتّش بالدقّة عن عيوب سيره وسلوكه.

ثانياً: ألّا يغفل خلال هذه المراقبة والتفتيش عن الاستعاذة بالذات المقدّسة الحقّ جل وعلا في خلواته والتضرّع والاستكانة إلى جنابه الأقدس ذي الجلال»[2].

---

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص35.

(2) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص36 - 37.

المفاهيم الرئيسة

1- طالما أنّنا في هذه الحياة الدنيا، فإنّ عباداتنا معرّضة لخطر الضياع.

2- من مظاهر ضياع العبادة تحوّلها إلى عامل لسقوط الإنسان.

3- تؤدّي العبادة إلى سقوط الإنسان إذا وقعت بيد إبليس اللعين.

4- يدمّر الشيطان عبادة الإنسان من خلال تحويلها إلى الأهداف النفسانيّة.

5- للشيطان تسلّط على الإنسان في جميع مراحل سيره وتكامله.

6- من لا يواجه إبليس، فإنّ إبليس سيتمكّن منه.

7- لا يمكن للإنسان أن يواجه إبليس بقدراته وحوله وقوّته.

8- لا سبيل لمواجهة إبليس إلّا بالاستعاذة بالله تعالى.

9- لا يرضى إبليس للإنسان بأقلّ من العذاب الأبديّ.

الدرس الثامن

مراتب الاستعاذة

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يبيّـن ماهيّة المسـتعيذ الحقيقـي، ويحدّد مراتب الاستعاذة بحسب مقامات السالكين ومراتبهم.

2 . يبيّـن في كلّ مرتبة من هو المسـتعيذ والمُسـتعاذ منه والمُستعاذ به.

3 . يشرح حقيقة الاستعاذة من الشيطان الرجيم.

تمهيد

الإنسان مستهدف بإنسانيّته.

فالشيطان لا يريد لهذه الحقيقة الإنسانيّة أن تظهر في عالم التحقّق.

وبظهورها على الدين كلّه سوف يأتي يوم الوقت المعلوم؛ لأنّ ظهورها يعني تحقّق الخلافة الإنسانيّة على الأرض.

ولهذا، يسعى هذا العدوّ المبين إلى تغيير خلقة اللّه الأصيلة، وجعل الإنسان شيطانًا مثله.

فالشيطان يكره صورة الإنسانيّة، فكيف بمحتواها؟!

ويعلم أنّ إنسانيّة الإنسان بفطرته، وأنّ الإنسان إذا وصل إلى الفطرة التامّة صار إنسانًا بكلّ ما للكلمة من معنى؛ أي صار إنسانًا كاملًا.

لهذا، فإنّه يصدّ عن صراط هذه الإنسانيّة في جميع مراحلها، لكنّه لن يقدر على الإنسان الكامل، وحده هذا الإنسان يتفوّق على إبليس؛ لأنّه صار في حصن اللّه الحصين.

قال اللّه تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾[1].

وفيما يلي مجموعة من الدروس المهمّة حول الاستعاذة، نستفيدها من كلام الإمام الخمينيّ قُدِّسَ سِرُّهُ.

من هو المستعيذ الحقّيقي؟

خطوة أخرى نخطوها مع الإمام الخمينيّ قُدِّسَ سِرُّهُ لمعرفة حقيقة الاستعاذة، وكيفيّة الحفاظ على العبادة وعلى السير والسلوك والمقامات والفيوضات الإلهيّة من تصرّف

(1) سورة النحل، الآيات 98 - 100.

يد إبليس المجرمة. وأهمّ ما ينبغي أن نعرفه هنا هو ما يستهدفه هذا اللعين من وراء كلّ إغواءاته، يقول الإمام الخمينيّ قدّس سرّه بشأن ما ينبغي أن نعيذه من شرّ إبليس: «هو الحقيقة الإنسانيّة من أوّل منزل السلوك إلى الله إلى منتهى النهاية للفناء الذاتيّ، وإذا تمّ الفناء المطلق هلك الشيطان وتمّت الاستعاذة»[1].

ويقصد الإمام قدّس سرّه بالفناء المطلق انتفاء جميع التعيّنات الخلقيّة، وهي اعتبار الشأن للقيود والحدود التي تنشأ من جرّاء غلبة الوهم. فما دام الإنسان تحت سلطان الوهم، ويرى للكائنات وجودًا مستقلًّا أو كمالًا ذاتيًّا أو تأثيرًا منفصلًا، فهو تحت تأثير الشيطان. وعندما تزول القيود بغلبة العقل، يدخل الإنسان في حصن الله الأعظم ويهلك شيطانه.

وعلى هذا الأساس، نعرف من هو المستعيذ الحقيقيّ من خلال حالنا تجاه السير والسلوك. وللأسف، فإنّ بعض الناس ينظر إلى السير والسلوك على أنّه أمرٌ مستحبّ أو خاصّ ببعض الناس. بينما يريد الإمام قدّس سرّه بكلامه هذا أن ينبّهنا إلى أنّ الاستعاذة هي في كوننا مسافرين إلى الله، بل فارّين إليه، فيقول قدّس سرّه:

«وبالجملة، الإنسان قبل شروعه في السلوك والسير إلى الله ليس مستعيذاً، وبعد نهاية السير، وعدم بقاء أيٍّ من آثار العبوديّة ونيل الفناء الذاتيّ المطلق، لا يبقى أثر من الاستعاذة والمستعاذ منه والمستعيذ، ولا يكون في قلب العارف شيء سوى الحقّ والسلطنة الإلهيّة، وليس له خبر عن قلبه وعن نفسه أيضًا.

وأعوذ بك منك أيضًا ليس في هذا المقام. فإذا حصل له الصحو والأنس والرجوع تكون الاستعاذة حقيقية أيضًا، ولكن لا كاستعاذة السالك؛ ولهذا أُمر الرسول الخاتم صلّى الله عليه وآله وسلّم أيضاً بالاستعاذة، كما قال الله تعالى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾[2] و﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾[3]. و﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ﴾[4].

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 237.
(2) سورة الفلق، الآية 1.
(3) سورة الناس، الآية 1.
(4) سورة المؤمنون، الآية 97 - 98.

فالإنسان لا يكون مستعيذًا في مقامين، أحدهما قبل السلوك وهو حالة الاحتجاب المحض تحت تصرّف الشيطان وسلطنته، والآخر بعد ختم السلوك وحصول الفناء المطلق؛ لأنّه لا يكون ثمّة خبر عن المستعيذ والمستعاذ له والاستعاذة.

والإنسان مستعيذ في مقامين، أحدهما حال السلوك إلى الله، وهو يستعيذ من أشواك الوصول التي قعدت على الصراط المستقيم للإنسانيّة، كما حكى سبحانه من قول الشيطان: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[1]، والآخر في حال الصحو والرجوع من الفناء المطلق، حيث يستعيذ من الاحتجابات التلوينيّة وغيرها»[2].

الحياة في فلسفتها الإلهيّة سفرٌ إلى الله، وما لم يسافر الإنسان فهو خارج عن صراط الإنسانيّة. وعندما يخرج من هذا الصراط فسوف يقع في حضن إبليس، ولن تكون استعاذته عندها إلا لقلقة لسان أو ما يشبه السخرية والاستهزاء.

ولأنّ الشيطان يستهدف الإنسان في مراحل سيره، فإنّ من يصل إلى الغاية ويتمّ السفر وتثبت له الإنسانيّة، لن يجد الشيطان إليه سبيلا، ويعلن عن يأسه منه. فما يُطمع الشيطان بالإنسان هو أنانيّة هذا الإنسان وحبّه لنفسه، وما دام في النفس هوى متّبع فهو دعوة مفتوحة للشيطان وجاذب.

إنّ الشيطان ينجذب إلى القذارات وينفر من الطهارات. وجميع القذارات ترجع إلى رؤية النفس وحبّها؛ أي إلى رؤية القيود والحدود والتعيّنات الخلقيّة. والتعيّن الخلقيّ عبارة عن شهود الحدّ. وما دام الحدّ موجودًا بنظر الإنسان، فالربّ محجوب عنده؛ لأنّ مقام الربّ المتعال هو مقام الإطلاق واللاتعيّن.

عندما يصل السالك إلى مقام البقاء بالله، فإنّ كل ما سيراه لن يكون إلا شعاع وجه الله ومظهر أسمائه وصفاته؛ ولأنّ للشيطان في هذه المرحلة نوعًا من الغواية فإنّ على السالك الواصل أن يستعيذ من رؤية بعض المظاهر في حال الاستقلال. وهذا ما يُعبّر عنه بالاحتجابات التلوينيّة. والتلوين في عرف العارفين هو الذي يقابل التمكين.

---

(1) سورة الاعراف، الآية16.

(2) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص238 – 239.

مراتب الاستعاذة

وعلى هذا الأساس، إذا عرفنا مراتب سير الإنسان ومقاماته، فسوف نقترب من فهم أنواع غواية الشيطان وضلالته. فقد أعدّ هذا الخبيث لكلّ مرتبة أو مقام نوعًا من الضلالة بحسب ذاك المقام.

هذا، وإنّ كل الكلّ يرجع إلى أمرٍ واحد وهو أن يحتجب الإنسان بما وصل إليه، ويراه منتهى سيره وغاية مراده؛ لهذا ذكر الإمام أنّ الركون إلى المنازل من أعظم أسباب الهلكة، بل هو الهلكة بعينها، يقول الإمام الخمينيّ قدّس سرّه:

«اعلم أنّ ما هو المطلوب بالذات للإنسان المستعيذ فهو من نوع الكمال والسعادة والخير، ويتفاوت ذلك على حسب مراتب السالكين ومقاماتهم تفاوتًا كبيرًا:

- فالسالك ما دام في بيت النفس وحجاب الطبيعة تكون غاية سيره حصول الكمالات النفسانيّة والسعادات الطبيعيّة الخسيسة، وهذا في مبادئ السلوك...
- فإذا خرج من بيت النفس، وذاق شيئًا من المقامات الروحانيّة والكمالات التجرديّة، فيصير مقصده أعلى ومقصوده أكمل، فيلقي المقامات النفسانيّة وراء ظهره وتكون قبلة مقصوده حصول الكمالات القلبيّة والسعادات الباطنيّة.
- فإذا أفلت عنان السير في هذا المقام أيضًا، ووصل إلى منزل السرّ الروحيّ تبرز في باطنه مبادئ التجلّيات الإلهيّة ويكون لسان باطنه في بادئ الأمر: وجّهت وجهي لوجه اللّه، ثمّ بعد ذلك، وجّهت وجهي لأسماء اللّه أو للّه، ثمّ بعد ذلك، وجّهت وجهي له.

وبالجملة، فإنّ غاية السّالك الحقيقيّة في كلّ مقام هي حصول الكمال والسعادة بالذات، وحيث إنّ مع السعادة والكمالات في كلّ مقام شيطان قرين وفخّ من أفخاخه مانع من الحصول، فلا بدّ للسالك أن يستعيذ بالحقّ تعالى من ذلك الشيطان وشروره وحبائله لحصول المقصود الأصليّ والهدف الذاتيّ.

ففي الحقيقة، غاية الاستعاذة للسالك حصول ذلك الكمال المترقّب والسعادة المطلوبة، والحقّ تعالى جلّت عظمته غاية الغايات ومنتهى الطلبات. وفي هذا المقام أو ما بعده يُمحى

كلّ شـيء، إلّا هـو جلّ وعلا، وتقع الاستعاذة من الشيطان بالتبع وفي حـال الصحو. والحمد لله أوّلاً وآخراً»[1].

ويقول قُدِّسَ سِرُّهُ:

«اعلـم أنّ حقيقـة الاسـتعاذة حيـث إنّها متحقّقة في السـالك إلى الله وحاصلة في السـير والسـلوك إلى الحقّ؛ أي إنّ الاسـتعاذة تختصّ بالسـالك في مراتب السلوك، فتختلف حقيقة الاسـتعاذة والمسـتعيذ والمسـتعاذ منـه والمسـتعاذ بـه بحسـب مقامـات ومراتب السـائرين ومدارج ومنازل السالكين.

ويمكن أن تكون إشـارة إلى ذلك سـورة الناس الشريفة، حيث يقول تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾[2].

1. فيستعيذ السالك بمقام الربوبيّة من مبادئ السلوك إلى حدود مقام القلب، ويمكن أن تكون هذه الربوبيّة الربوبيّة الفعليّة، فتطابق أعوذ بكلمات الله التامّات.

2. فـإذا انتهى سـير السـالك إلى مقـام القلب يظهـر في القلب مقـام السـلطنة الإلهيّة، فيستعيذ في هذا المقام بمقام ملك الناس من شرّ تصرّفات إبليس القلبيّة وسلطنته الباطنيّة الجائرة، كما يسـتعيذ في المقام الأوّل من شـرّ تصرّفاته الصدريّة، ولعلّ ما قاله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ مع أنّ الوسوسة في القلوب والأرواح أيضًا من الخنـاس، لأجل أنّ الأنسـب في مقام التعريف أن يكون التعريف بالشـأن العموميّ والصفة الظاهرة عند الكلّ.

3. فإذا تجاوز السالك مقام القلب أيضًا إلى مقام الروح، الذي هو من النفخة الإلهيّة، واتّصالـه بالحقّ أشـدّ من اتّصال شـعاع الشمـس بالشمـس، يشـرع في هـذا المقام مبادئ الحيرة والهيمان والجذبة والعشـق والشـوق، ويسـتعيذ في هـذا المقام أيضًا بإله الناس.

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص242.
(2) سورة الناس، الآيات 1 - 3.

4. فإذا ترقّى من هذا المقام، وكانت الذات بلا مرآة الشؤون نصبَ عينيه، وبعبارة أخرى: إذا وصل إلى مقام السرّ، فالمناسب له أعوذ بك منك. وفي هذه المقامات تفصيل لا يناسب هذه المقالة.

واعلم أنّ الاستعاذة بالاسم الله، من حيث جامعيّته تناسب جميع المقامات، وهي في الحقيقة الاستعاذة المطلقة، وسائر الاستعاذات استعاذات مقيّدة»[1].

حقيقة الاستعاذة من الشيطان

إنّ الاستعاذة الحقيقية لا تحصل بتمامها إلا بمعرفة المستعاذ به، وهو الله سبحانه ولأنّ معرفة السالك بالله تتكامل بحسب مراتب سيره وسلوكه، فإنّ استعاذته تتكامل أيضًا.

وقد أشار الإمام إلى مراتب المعرفة من خلال الإشارة إلى مراتب الأسماء أو تجلّيات الذات.

لأنّ درجات تجلّي الذات والهويّة الغيبيّة إنّما تكون بحسب قلوب السالكين وسعتها. وإنّما تتّسع القلوب مع ارتقاء السالكين في مراتب الكمال.

فإذا علم السالك خطورة هذا العدوّ، وجب عليه أن يستعيذ منه بحسب شعوره بهذا الخطر. وهنا يأتي الإمام ليدلّنا على حقيقة الاستعاذة، فيقول قدس سره:

«ولا تتحقّق هذه الاستعاذة بلقلقة اللسان والصورة الفاقدة للروح، والدنيا بلا آخرة، كما هو مشهود في أشخاص نطقوا بهذا اللفظ لمدّة أربعين أو خمسين سنة، وما نجوا من شرّ هذا القاطع للطريق، ويتبعون الشيطان في الأخلاق والأعمال، بل في العقائد القلبيّة»[2].

«ولو كنا مستعيذين حقّاً من شرّ هذا الخبيث، لأعاذنا الحقّ تعالى بذاته المقدّسة وهو الفيّاض المطلق وصاحب الرحمة الواسعة والقدرة الكاملة والعلم المحيط والكرم البسيط، وأصلح إيماننا وأخلاقنا وأعمالنا»[3].

الاستعاذة الحقّيقية هي التي تخرج من القلب ويصدّقها اللسان. ولا يمكن أن يكون شعور القلب حقيقيًّا راسخًا دون العلم والمعرفة. ولا يكون العلم متّحدًا مع القلب إلّا أن يكون عن

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص241 - 242.
(2) م.ن، ص230.
(3) م.ن، ص230.

تصديق لا مجرّد تصور. ولا علم نافعًا في هذا المقام إلا العلم بانحصار التأثير باللّه تعالى. فالذي يظنّ أنّ الشيطان قادر على غوايته أو التأثير عليه على نحو الاستقلال فقد أشرك، ولم يعرف من التوحيد شيئًا؛ لأنّ الشيطان وغوايته وكلّ ما فيه ليس إلّا من اللّه؛ ولهذا فإنّ الشيطان (لعنه اللّه) عبارة عن ظهور الاسم الإلهيّ المضلّ.

ولقد نسب اللّه تعالى لنفسه الإضلال، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾[1]؛ لهذا يقول الإمام الخمينيّ قدس سره:

«قد عُلم من مطالب الفصل السابق أنّ حقيقة الاستعاذة عبارة عن حالة وكيفية نفسانيّة تحصل من العلم الكامل البرهانيّ بمقام التوحيد الفعليّ للحقّ والإيمان به.

أي إنّه بعدما فُهم من طريق العقل المنوّر بالبرهان المتين الحكميّ والشواهد النقلية المستفادة من النصوص القرآنيّة وإشارات الكتاب الإلهيّ والأحاديث الشريفة وبدائعها أنّ السلطنة الإيجادية والاستقلال في التأثير، بل أصل التأثير منحصر بالذات الإلهيّة المقدّسة، وليس لسائر الموجودات فيها شركة - كما قُرّر في محلّه - لا بدّ له من تنبيه القلب إليها، وأن يكتب بقلم العقل على لوح القلب حقيقة لا إله إلّا اللّه، ولا مؤثّر في الوجود إلّا اللّه. فإذا آمن القلب بهذه اللطيفة الإيمانيّة والحقيقة البرهانيّة تحصل حالة انقطاع والتجاء.

وإذا وجد الشيطان قاطع طريق الإنسانيّة وعدوّه القويّ تحصل له حالة الاضطرار، وهذه الحالة القلبيّة هي حقيقة الاستعاذة، وحيث إنّ اللسان ترجمان القلب يظهر بلسانه تلك الحالة القلبيّة مع كمال الاضطرار والاحتياج، ويقول بالحقيقة: أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم.

وإذا لم يكن في القلب أثر من هذه الحقائق، وكان المتصرّف في القلب وسائر مملكته الوجودية هو الشيطان، كانت استعاذته أيضًا بتصرّف الشيطان وتدبيره. وفي التلفّظ ينطق بالاستعاذة باللّه من الشيطان، ولكن في الحقّيقة، حيث إنّ التصرّف شيطانيّ تقع الاستعاذة بالشيطان من اللّه تعالى، وتحقّق هذه الاستعاذة عكس المطلوب، ويستهزئ الشيطان بقائلها. وتتبيّن نتيجة هذه السخرية بعد كشف الغطاء وانطواء حجاب الطبيعة.

---

(1) سورة الجاثية، الآية 23.

ومثل هذا الشخص الذي استعاذته لفظيّة فقط، كمثل من يريد أن يستعيذ من شرّ العدوّ الجرّار بحصن منيع، ولكنّه يعدو بنفسه نحو العدوّ، ويولّي الوجه عن الحصن، ويقول لفظاً: إنّي أعوذ من شرّ هذا العدوّ بهذا الحصن. هذا الشخص، مضافًا إلى أنّه يُبتلى بشرّ العدوّ، يكون مورد سخريته أيضًا»[1].

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص236 - 237.

المفاهيم الرئيسة

1. لا تتحقّق الاستعاذة بالله من الشيطان بمجرّد لقلقة اللسان.
2. إذا كان الإنسان مستعيذًا بلسانه فقط قد يكون مقبلًا على الشيطان.
3. يجب أن تتحقّق حالة الاستعاذة القلبيّة ليأمن الإنسان من حبائل إبليس.
4. حقيقة الاستعاذة ترجع إلى الاعتقاد بأنّه لا مؤثّر في الوجود إلّا الله.
5. يجب إعاذة النفس في جميع مراتب السير إلى الله تعالى.
6. يجب إعاذة النفس من الشيطان في جميع مراتبها ومقاماتها.
7. عند الوصول إلى مقام المخلَصين لا تبقى حاجة إلى الاستعاذة.
8. لا يطلق على من لا يسلك إلى الله معنى الاستعاذة.
9. الطريق الوحيد للاستعاذة هو بالفرار إلى الله تعالى.
10. جوهر السلوك إلى الله، هو هارب منك إليك.

الدرس التاسع

شروط الاستعاذة

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يتعرّف إلى أهم الشروط اللازمة للاستعاذة.

2 . يدرك أهمية الإخلاص ودوره في الاستعاذة.

3 . يشرح العلاقة بين التوكّل والاستعاذة.

تمهيد

لا بدّ للسّالك أن يلتفت إلى مدى نفوذ الشيطان في مملكة وجوده وفي سفره المعنويّ ورحلته السلوكيّة. وبما أنّ للسلوك مراتب ودرجات، فإنّ للتصرّفات الشيطانيّة والإغواءات الإبليسيّة درجات ومراتب أيضًا.

وهذه المراتب هي بأحد الوجوه والحيثيّات مراتب الوجود الإنسانيّ وبواطن النفس البشريّة. ففي كلّ مرتبة من مراتب النفس والذات، كما أنّه يوجد كمالات ومقامات إلهيّة معنويّة، يوجد تصرّفات وأهداف إبليسيّة، يجب على السالك التفطّن لها؛ لأنّ الخلاص منها هو سبيله لإكمال السير والوصول إلى الغاية المنشودة.

وعندما ينهض السالك لتحمّل مهمّة الاستعاذة، يحتاج إلى رعاية مجموعة من المطالب تُعدّ بمنزلة شروط الاستعاذة، وهي أيضًا شروط السير إلى الله تعالى.

أجل، إنّ هذه الشروط جميعًا يمكن إدراجها تحت عنوان كبير هو السير والسلوك، فما دام الإنسان بعيدًا عن هذا المعنى، فلا يمكنه الخلاص من شرّ الشيطان وغوايته، بل إنّ تركه للسفر المعنويّ ليس سوى أحد آثار العداوة الإبليسيّة.

ما هية الاستعاذة

إنّ استشعار عداوة إبليس ونتيجة هذا العداء وماهيّة الخسارة وحجمها هو الشرط الأول لتحقيق الاستعاذة. فما لم يدرك الإنسان ماهيّة شرّ الشيطان، أنّى له أن يستشعر حقيقة الخطر؟ لهذا ذكر الإمام هذا الشرّ على نحو كلّيّ، بأنّه كلّ ما يمنع من الاستغراق في بحر جمال الله وجلاله.

يقول الإمام الخمينيّ قُدِّسَ سِرُّهُ: «والاستعاذة بوجه الله وبكلمات الله هي الاستغراق في بحر

الجمال والجلال، وما منع الإنسان منه[1] فهو من الشرور ومرتبط بعالم الشيطان ومكائده، ولا بدّ من الاستعاذة منه[2] بوجه الله، سواء أكان من الحقائق السماويّة الكاملة أم من الأرضيّة الناقصة[3]، إلّا أن يكون طارقًا بخير، وهو الطارق الإلهيّ الذي يدعو إلى الخير المطلق، وهو الحقّ تعالى»[4].

وإنّ جميع شروط الاستعاذة التي هي بمنزلة الكيفيّة أو الوسيلة للتخلّص من شرّ الشيطان اللعين ترجع إلى أمر واحد، وهو اللجوء إلى الله تعالى. فالشيطان له من التأثير والغواية والإضلال ما لا يقدر الإنسان على مواجهته؛ وذلك لأنّ الإنسان عندما يعتمد على نفسه ويركن إلى حوله وقوّته يكون قد اعتمد على السراب، وركن إلى العجز والضعف؛ ولهذا نقول: لا حول ولا قوّة إلّا بالله.

وليس الشيطان في أحد معانيه سوى هذا الركون الذي يرجع إلى الشرك. فمن كان يرى لنفسه قوّةً أو تأثيرًا سيقول إنّني قادر على مواجهة هذا العدوّ البغيض بمفردي، ولن يتمكّن من السيطرة عليّ. أمّا الذي عرف حقيقة التوحيد وأدرك معنى عجز الكائنات وفقر الممكنات، فلا يمكن أن يرى نفسه منتصرًا في هذه المعركة المصيريّة إلّا بالاستعاذة التامّة بالله تعالى، واللجوء إلى حصنه الحصين الذي هو حصن التوحيد الخالص.

فعندما يرى السالك الأشياء مستقلّة عن ربّها، يكون قد احتجب عنه تعالى. وليست هذه الرؤية إلّا من تسويلات إبليس اللعين وحبائله.

شروط الاستعاذة

للاستعاذة آداب وشرائط، على المتسعيذ الالتزام والتقيّد بها فيما لو أراد أن يكون من أهل هذا المقام. ويذكر الإمام الخمينيّ قدس سره آداب الاستعاذة وشروطها، وهي:

1. الإخلاص:

«ويستفاد من الآيات القرآنيّة والأحاديث الشريفة للمعصومين عليهم السلام آداب كثيرة،

(1) من الاستغراق في بحر جمال الله وجلاله.
(2) من منع الإنسان من الاستغراق في بحر جمال الله وجلاله.
(3) فالحقائق السماويّة والأرضيّة إذا كانت مانعة من الاستغراق في بحر الجمال الجلال الإلهيّ تصبح مذمومة.
(4) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص240.

وتعدادها كلّها يحتاج إلى الفحص الكامل وإطالة الكلام، ونحن نكتفي بذكر بعضها.

من مهمّات آداب الاستعاذة الخلوص كما نقل سبحانه عن الشيطان أنّه قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[1].

وهذا الإخلاص، كما يظهر من الكريمة الشريفة، أعلى من الإخلاص العمليّ، سواء في العمل الجوانحيّ أم الجوارحيّ؛ لأنّ المخلَص جاء بصيغة المفعول، ولو كان المنظور هو الإخلاص العمليّ لكان التعبير بصيغة الفاعل.

فالمقصود من هذا الإخلاص هو خلوص الهويّة الإنسانيّة بجميع الشؤون الغيبيّة والظاهريّة، حيث الإخلاص العمليّ من رشحاته.

وهذه الحقيقة واللطيفة الإلهيّة، وإن كانت لا تحصل للعامّة في ابتداء السلوك إلّا بشدّة الرّياضات العمليّة، وخصوصًا الرّياضات القلبيّة التي هي أصلها، كما أشير إليه في الحديث المشهور: «**من أخلص لله أربعين صباحًا جرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه**»[2]، فمن أخلص نفسه أربعين صباحًا لله، وأخلص أعماله القلبيّة والقالبيّة للحقّ تعالى، يصبح قلبه إلهيًّا، ولا ينفجر من القلب الإلهيّ سوى عيون الحكمة، فيكون لسانه الذي هو أكبر ترجمان للقلب ناطقًا بالحكمة.

ففي أوّل الأمر يكون إخلاص العمل موجبًا لخلوص القلب، فإذا صار القلب خالصًا، تظهر على مرآة القلب أنوار الجلال والجمال التي أودعت بالتخمير الإلهيّ في الطينة الآدميّة، وتتجلّى وتسري من باطن القلب إلى ظاهر ملك البدن»[3].

ويتابع الإمام الخمينيّ قُدِّسَ سِرُّهُ كلامه حول شرط تحقّق الإخلاص، فيقول:

«وبالجملة، فإنّ ذاك الخلوص الذي يوجب الخروج من تحت السلطنة الشيطانيّة هو خلوص هويّة الرّوح وباطن القلب لله تعالى، وإلى هذا الخَلوص يشير أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في المناجاة الشعبانيّة: «**إلهي، هب لي كمال الانقطاع إليك...**»[4]، فإذا وصل القلب إلى

(1) سورة ص، الآيتان 82 - 83.
(2) راجع: العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج67، ص242.
(3) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص230 - 231.
(4) راجع: العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج91، ص99.

هذه المرتبة من الإخلاص، وانقطع بالكامل عمّا سوى اللّه، ولم يكن في مملكة وجوده وسرّ قلبه سوى الحقّ، فإنّ الشيطان - الذي يتسلّل إلى الإنسان من غير طريق الحقّ - لن يجد طريقًا إليه؛ ويقبله الحقّ تعالى في معاذه، ويقع في الحصن الحصين للألوهيّة، كما قال تعالى: «**كلمة لا إله إلّا الله حصني، فمن دخل في حصني أمن من عذابي...**»[1] وللدخول في حصن لا إله إلّا اللّه مراتب، كما أنّ للأمن من العذاب أيضاً مراتب.

فمن دخل بباطنه وظاهره وقلبه وقالبه في حصن الحقّ، وصار في معاذه، فقد أمن من جميع مراتب العذاب، وأعلى مراتبها عذاب الاحتجاب عن جمال الحقّ والفراق عن وصال المحبوب جلّ وعلا. فالمولى أمير المؤمنين يقول في دعاء كميل: «فهبني صبرت على عذابك، فكيف أصبر على فراقك». ويدنا عن الوصول إليه قاصرة. فمن حصل له هذا المقام فهو عبد اللّه على الحقيقة، ويقع تحت قباب الربوبيّة، ويكون الحقّ تعالى متصرّفًا في مملكته، ويخرج من ولاية الطاغوت.

... وبالجملة، التخلّص بهذه المرتبة الكاملة، وإن كان لا يتحقّق لغير الكمّل من الأولياء والأصفياء عليهم السلام، بل المقام الكامل لهذه المرتبة من مختصّات النبيّ الخاتم والقلب الخالص النورانيّ الأحديّ الأحمديّ الجمعيّ المحمّديّ صلى الله عليه وآله وسلم بالأصالة، وللكمّل والخلّص من أهل بيته بالتبعيّة، ولكن لا يجوز للمؤمنين والمخلصين أيضًا أن يصرفوا النظر عن جميع مراتبه ويقنعوا بالإخلاص الصوريّ العمليّ والخلوص الظاهريّ الفقهيّ؛ لأنّ الوقوف في المنازل من الأعمال العبقريّة لإبليس، الذي قعد على صراط الإنسان والإنسانيّة، لمنعه بأيّ وسيلة ممكنة من العروج إلى الكمالات والوصول إلى المدارج. فلا بدّ من علوّ الهمّة وتقوية الإرادة، فلعلّ هذا النور الإلهيّ واللطيفة الربّانيّة تسري من الصورة إلى الباطن، ومن الملك إلى الملكوت.

والإنسان إذا نال أيّ مرتبة من الإخلاص يكون بمقدارها في لواذ الحقّ، وتتحقّق الاستعاذة، وتقصر يد تصرّف العفريت الخبيث والشيطان عنه»[2].

فمن أخلص أعماله للّه، انفتحت عليه أبواب معرفة الباطن، فيشهد حينها ما في النفس

(1) الإربلي، علي بن عيسى، كشف الغمة في معرفة الأئمة، تحقيق وتصحيح هاشم رسولي محلاتي، تبريز، نشر بني هاشمي، 1423 هـ، ط 1، ج 2، ص 308.

(2) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص231 - 233.

من جهات، ويعلم أنّه من دون تخليص الذات لا يمكن أن يأمن من غواية إبليس اللعين. ومن المهمّ في طريق الإخلاص الالتفات إلى أمرين في غاية الأهمّيّة، هما بمثابة علامات الإخلاص الحقيقيّ في النفس، وهما:

أ. عدم إنكار المقامات:

ولأن البعض يسرع إلى إنكار هذا الكلام لأسباب شتّى، يحذّر الإمام الخمينيّ قدس سره من نتائج هذا الانكار، ويقول:

«وهذا المقام (الخلوص الذاتيّ) من أعزّ مقامات الأولياء وأخصّ مدارج الأصفياء، وليس لسائر الناس منه حظّ، بل لعلّ القلوب القاسية للجاحدين والنفوس الصلبة للمجادلين البعيدة عن هذه المرحلة بمراحل تنكر هذه المقامات، ويحسبون الكلام في أطرافها باطلاً، بل ينسبون - والعياذ بالله - هذه الأمور، التي هي قرّة عين الأولياء والكتاب والسنّة مشحونة بها، إلى اختراعات الصوفيّة وأراجيف الحشويّة.

ونحن أيضًا، إن ذكرنا هذه المقامات التي هي في الحقيقة مقام الكمّل، فليس من جهة أنّ لنا فيها حظًّا أو أنّنا نمدّ اليها عين الطمع، بل من جهة أنّنا لا نجوّز إنكار المقامات، ونرى ذكر الأولياء ومقاماتهم دخيلًا في تصفية القلوب وتخليصها وتعميرها؛ لأنّ ذكر خير أصحاب الولاية والمعرفة يوجب المحبّة والتواصل والتناسب، وهذا التناسب يوجب التجاذب، وهذا التجاذب يؤدّي إلى التشافع الذي ظاهره الإخراج من ظلمات الجهل إلى أنوار الهداية والعلم، وباطنه الظهور بالشفاعة في عالم الآخرة؛ لأنّ شفاعة الشافعين لا تكون من دون تناسب وتجاذب باطنيّ، ولا تكون من الجزاف والباطل»(1).

ب. التوجه التام نحو التوحيد:

«وفي هذا المقام، بل جميع المقامات، إنّ من مهمّات السلوك وأركان العروج التوجّه التامّ إلى التوحيد الحقّ الفعليّ، وتذكير القلب بهذه اللطيفة الإلهيّة والمائدة السماويّة، وإذاقة القلب حقيقة مالكيّة الحقّ تعالى للسماوات والأرض والباطن والظاهر والملك والملكوت حتى يرتاض القلب بالتوحيد في الألوهيّة ونفي الشريك في التصرّف ويخمّر بالتخمير الإلهيّ

(1) الخمينيّ، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 232.

ويربّى بالتربية التوحيديّة، فلا يرى القلب ولا يعلم في هذه الحالة مفزعًا ولا ملجأً ولا ملاذاً ولا معينًا سوى الحقّ، ويستعيذ بالحقّ ومقام الألوهيّة المقدّس بالطوع والحقيقة، وما لم يمنع القلب عن تصرّف سائر الخلق ولم يغمض عين الطّمع عن الموجودات لا يلوذ بالله على الحقيقة، وتكون دعواه كاذبة، وينسلك بحسب مسلك أهل المعرفة في زمرة المنافقين ويُنسب إلى الخدعة والخديعة»[1].

وإنّ أفضل طرق تحصيل المعرفة بالتوحيد بكلّ مراتبه، هي دراسته وتعلّمه عند حكيم ربّانيّ أو عارف نورانيّ، ورث علمه من أئمّة الطهر والعصمة الذين لهم المعرفة الكاملة.

ولا يخفى كم لهذه المعرفة من أثر طيّب ولذيذ في النفس، ولهذا قد تصبح المعرفة هنا هدفاً نهائيًّا فتصير حجابًا. وما يمكن أن ينقذ السالك هو أن يعلم أنّ المعارف مهما ارتقت وسمت فإنّما هي من أجل تحقيق العبوديّة وأداء التكليف الإلهيّ، يقول الإمام الخمينيّ قدس سره:

«وفي هذا الوادي المهيب والبحر العميق المهول، فإنّ استفادة التوحيدات الثلاثة[2] استفادة علميّة من نفخة حكيم ربّانيّ أو عارف نورانيّ يتّصل علمه بالأولياء الكاملين يعين باطن القلب إعانة لائقة؛ ولكن شرط هذه الاستفادة أن يشتغل بها بنظر الآية والعلامة والسير والسلوك إلى الله، وإلّا كان نفسه شوكة الطريق وحجاب رؤية جمال المحبوب... كما وصف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذا العلم في حديث الكافي الشريف بـ: «**آية محكمة**»»[3].

ج. طلب الحقّ تعالى والسير إليه:

ولتعميق مبدأ الإخلاص، يؤكّد الإمام قدس سره على ضرورة توجيه النفس نحو أمر واحد يظهر في نمط الحياة التي سينتهجها الإنسان. وهذا النمط هو الذي يعبّر عنه بالسير والسلوك إلى الله، فيقول الإمام قدس سره:

«ولا يحصل الخلاص من تصرّف الشيطان الذي هو مقدمة للإخلاص بحقيقته إلّا أن يكون السالك في سلوكه طالباً لله»[4].

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص233 - 234.
(2) التوحيد الأفعاليّ، والصفاتيّ، والذاتيّ.
(3) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص234.
(4) م.ن، ص 35.

«وبالجملة، فالإنسان قبل شروعه في السلوك والسير إلى الله لا يكون مستعيذا...»[1].

« فالإنسان ما دام مقيمًا في بيت النفس والطبيعة ولم يشتغل بالسفر الروحاني والسلوك إلى الله، فهو تحت السلطنة الشيطانيّة بجميع شؤونها ومراتبها، ولم يتلبّس بحقيقة الاستعاذة. ولقلقة لسانه تكون بلا فائدة، بل هي تثبيت وتحكيم للسلطنة الشيطانيّة إلّا بالتفضّل والعناية الإلهيّة»[2].

هـ. التخلّص من الأنانيّة:

وهكذا يجد السالك الطالب للحقّ أنّ أنانيّته هي التي ستقف أكبر عائق أمام سيره، وهي التي تستجلب كلّ وساوس الشيطان وغواياته؛ لهذا يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: «... ويضع حبّ النفس وعبادتها، الذي هو منشأ المفاسد كلّها وأمُّ الأمراض الباطنيّة تحت قدميه. وهذا لا يتيسّر بتمام معناه في غير الإنسان الكامل وبتبعه في خُلّص أوليائه عليهم السلام، وأما سائر الناس فغير ميسّر لهم هذا الخلاص. ولكن على السالك ألّا ييأس من الألطاف الباطنيّة للّه سبحانه؛ فإنّ اليأس من روح الله رأس كلّ برودة وفتور، ومن أعظم الكبائر. وما هو ممكن من الإخلاص لصنف الرعايا هو أيضاً قرّة العين لأهل المعرفة»[3].

2. الإيمان:

أمّا الشرط الثاني فهو عبارة عن ترسيخ الحقائق الكونيّة في القلب، وهو الإيمان؛ لهذا يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: «ومن الآداب والشرائط للاستعاذة التي أشير إليها في الآية الشريفة التي ذكرناها في أوّل الفصل هو الإيمان، وهو غير العلم، حتى العلم الذي حصل بالبرهان الحكميّ (قَدَم الاستدلاليّين خشبيّة).

الإيمان حظّ القلب الذي يحصل من شدّة التذكّر والتفكّر والأنس والخلوة مع الحقّ. فإنّ الشيطان، مع أنّ له العلم بالمبدأ والمعاد بنصّ القرآن، محسوب في زمرة الكفّار، فلو كان الإيمان عبارة عن هذا العلم البرهانيّ يلزم أن يكون الواجدون لهذا العلم بعيدين

(1) الخمينيّ، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 238.
(2) م.ن، ص 237.
(3) م.ن، ص35.

عن تصرّف الشيطان ويتلألأ فيهم نور هداية القرآن، مع أنّنا نرى أنّ هذه الآثار لا تحصل بالإيمان البرهانيّ.

فإن أردنا أن نخرج من تصرّف الشيطان ونقع تحت عوذة الحقّ لا بدّ وأن نوصل الحقائق الإيمانيّة إلى القلب بالارتياض القلبيّ الشديد ودوام التوجّه أو كثرته وشدّة المراودة والخلوة حتى يصبح القلب إلهيًّا، فإذا صار القلب إلهيًّا يخلو من تصرّف الشيطان، كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾[1].

فالمؤمنون الذين يتصرّف الحقّ تعالى ويتولّى ظاهرهم وباطنهم وسرّهم وعلانيّتهم خالصون من تصرّفات الشيطان، وداخلون في سلطان الرحمان، ويخرجهم من جميع مراتب الظلمات إلى النور المطلق فينتقلون من:

ظلمة المعصية والطغيان، ومن ظلمة كدورات الأخلاق الرذيلة، وظلمة الجهل والكفر والشرك، ورؤية النفس وحبّ النفس والعجب، إلى نور الطاعة والعبادة، وأنوار الأخلاق الفاضلة، ونور العلم وكمال الإيمان والتوحيد ورؤية الله وطلب الله وحبّ الله»[2].

3. التوكّل:

ويتشعّب من الإيمان، أو يظهر منه في الحياة حالة نفسيّة قلبيّة يعبّر فيها صاحبها عن نوع من الثقة بالنتائج والعاقبة طالما أنّه يقوم بما عليه تجاه ربّه. ومثل هذه الحالة سيكون لها أكبر الأثر في الاستعاذة؛ لأنّ جلّ عمل الشيطان يكمن في بثّ القلق وتصوير الحياة في البؤس والحرمان؛ لهذا يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: «كما أنّ من آداب الاستعاذة التوكّل، وهو أيضًا من شعب الإيمان ومن الأنوار الحقيقيّة للّطيفة الإيمانيّة، وهو تفويض الأمور إلى الحقّ الذي يحصل من إيمان القلب بالتوحيد الفعليّ، وتفصيله خارج عن نطاق هذه الأوراق.

فإذا لم يرَ العبد السالك مفزعًا وملاذاً غير الحقّ تعالى، وعلم أنّ التصرّف في الأمور منحصر بالذات المقدّسة، تحصل في القلب حالة الانقطاع والالتجاء والتوكّل، وتصير استعاذته حقيقيّة، فإذا لجأ بالحقيقة إلى حصن الربوبيّة والألوهيّة الحصين، يجعله لا محالة في كنف فضله الواسع ورحمته الكريمة، إنّه ذو فضل عظيم»[3].

(1) سورة البقرة، الآية 257.
(2) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص235.
(3) م.ن، ص235 - 236.

المفاهيم الرئيسة

1. للاستعاذة بالله من الشيطان شروط لا بدّ من مراعاتها.
2. الشرط الأول للاستعاذة هو الإخلاص لله تعالى.
3. حركة الإنسان نحو الإخلاص هي السير مقابل إبليس.
4. الإيمان بالله تعالى هو الذي يطهّر قلب الإنسان من آثار إبليس.
5. التوكّل على الله تعالى والاعتماد عليه شرط في هذه الحرب الكبرى.
6. الإخلاص يعني طلب الله والوصول إليه كغاية نهائيّة.
7. جميع آثار الشيطنة في القلب ترجع إلى الكفر والشرك.
8. من آثار الشيطان في القلوب الأخلاق الرذيلة والمعاصي.
9. رعاية شروط الاستعاذة هي بمنزلة رعاية شروط السير والسلوك إلى الله.

الدرس العاشر

حضور القلب

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يتعرّف إلى معنى حضور القلب، ويبيّن أهميته.

2 . يوضّح آثار غفلة القلب على النفس الإنسانية وتكاملها.

3 . يبيّن العوامل المختلفة لضعف حضور القلب.

تمهيد

إنّ حضور القلب يعني اهتمامه وتوجّهه إلى العالم المعنويّ. وإنّ العالم المعنويّ الذي يمثّل حياة القلوب يتجلّى بالمعارف الإلهيّة.

فإذا وصل القلب مع هذه الحقائق إلى درجة اليقين والشهود، يصبح صاحبه من أهل تلك العوالم وسكّانها.

لهذا كان التوجّه إلى الحقّائق هو بداية السّير نحو العوالم الغيبية[1].

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: «من الآداب القلبيّة المهمّة الذي يمكن أن يكون كثير من الآداب مقدّمة له، والعبادة بدونه ليس لها روح، وهو بنفسه مفتاح قفل الكمالات وباب أبواب السّعادات، وقلّما ذُكر في الأحاديث الشّريفة شيء بهذه المثابة، وقلّما اهتُمّ بشيء من الآداب كهذا الأدب، حضور القلب»[2].

أهمّيّة حضور القلب

يغفل البعض عن أهمّيّة حضور القلب في العبادات عندما يتصوّر أنّ تحصيله صعب وثقيل. ولأنّهم لم يعرفوا معنى العبادة وحقيقتها، ظنّوا أنّ مجرّد أداء بعض الحركات والتلفّظ ببعض الكلمات يمكن أن يعطي نتيجته المرجوّة؛ ولهذا يقوم الإمام الخمينيّ قدس سره بتشريح تفصيليّ لمعنى العبادة من خلال الإشارة إلى نتائجها والتي تحصل وفق المراحل الآتية:

---

(1) ونحن، وإن ذكرنا في رسالة سرّ الصلاة، وكذلك في كتاب «الأربعون» قدراً مستوفًى منه، وبيّنا درجاته ومراتبه، ولكن نذكر في هذا المقام أيضاً شيئاً منه، تتميماً للفائدة وتحرّزاً عن الإحالة [معراج السالكين، ص 45].

(2) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص45.

1. توحيد سلطة النفس:

«كما ذكرنا سابقًا، بأنّ العبادات والمناسك والأذكار والأوراد إنّما تنتج نتيجة كاملة إذا صارت صورة باطنيّة للقلب، وتخمّر باطن ذات الإنسان بها، وتصوّر قلب الإنسان بصورة العبوديّة، وخرج عن الهوى والعصيان. وذكرنا أيضًا أنّ من أسرار العبادات وفوائدها أن تتقوّى إرادة النفس وتتغلّب النفس على الطبيعة، وتكون القوى الطبيعية مسخّرة تحت قدرة النفس وسلطنتها، وتكون إرادة النفس الملكوتيّة نافذة في ملك البدن، بحيث تكون القوى بالنسبة إلى النفس كملائكة الله بالنسبة إلى الحقّ تعالى ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾(1)، ﴿وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾(2).

2. خضوع إرادة النفس لإرادة الله:

«ونقول الآن: إنّ من أسرار العبادات وفوائدها المهمّة التي تكون بقيّة الفوائد مقدّمة لها، أن تكون مملكة البدن بجميعها، ظاهرها وباطنها، مسخّرة تحت إرادة الله، ومتحرّكة بتحريك الله تعالى، وتكون القوى الملكوتيّة والملكيّة للنفس من جنود الله، وتكون كلّها كملائكة الله. وهذه من المراتب النازلة لفناء القوى والإرادات في إرادة الحقّ»(3).

3. تبدّل الهويّة إلى الربّانيّة:

«ويترتّب على هذا بالتدريج النتائج العظيمة، ويصبح الإنسان الطبيعيّ إلهيًّا، وتكون النفس مرتاضة بعبادة الله، وتنهزم جنود إبليس بشكل نهائيّ وتنقرض، ويكون القلب مع قواه مسلّماً للحقّ، ويبرز الإسلام ببعض مراتبه الباطنيّة في القلب، وتكون نتيجة هذا التسليم لإرادة الحقّ في الآخرة أنّ الحقّ تعالى ينفّذ إرادة صاحب هذا القلب في العوالم الغيبيّة، ويجعله مثلًا أعلى لنفسه. فكما أنّه تعالى وتقدّس يُوجد كلّ ما أراد بمجرّد الإرادة، يجعل إرادة هذا العبد أيضًا كذلك، كما روى بعض أهل المعرفة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في وصف أهل الجنّة أنّه يأتيهم ملك فيستأذن للدخول عليهم، وبعد الاستئذان يدخل فيبلّغ السلام من الله

(1) سورة التحريم، الآية 6.
(2) سورة الأنبياء، الآية 27.
(3) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 45 - 46.

تعالى عليهم، ويعطي كلّاً منهم رسالة مكتوباً فيها: من الحيّ القيّوم الذي لا يموت إلى الحيّ القيّوم الذي لا يموت، أمّا بعد، فإنّي أقول للشيء كن فيكون، وقد جعلتك تقول للشيء كن فيكون، فقال ﷺ: «**فلا يقول أحد من أهل الجنّة للشيء كن، إلّا ويكون**»[1][2].

وبعد ذكر هذه النتائج والثمار وما يحصل في رحلة السالك العباديّة يبيّن الإمام قدس سره أنّ كلّ ذلك موقوف على أمر واحد، وهو حضور القلب، فيقول قدس سره:

«وهذه هي السلطنة الإلهيّة التي تعطى للعبد لأجل تركه إرادة نفسه وترك سلطنة الأهواء النفسانيّة وإطاعة ابليس وجنوده، ولا تحصل كلٌّ من هذه النتائج المذكورة إلّا بالحضور الكامل للقلب»[3].

آثار غفلة القلب

في مقابل حضور القلب هناك الغفلة والسّهو عن العبادة وعن أسرارها ومعانيها. فما الذي يمكن أن يحصل في حال أهمل العابد قضية تحصيل حضور القلب، يجيب الإمام الخمينيّ قدس سره قائلًا:

«وإذا كان القلب في وقت العبادة غافلًا وساهيًا، لا تكون عبادته حقيقيّة، بل تشبه اللهو واللعب، ولا يكون لمثل هذه العبادة أثر في النفس البتّة، ولا تتجاوز العبادة من الصورة والظاهر إلى الباطن والملكوت، كما أشير إلى ذلك في الأحاديث، ولا تكون القوى النفسانيّة بمثل تلك العبادة مسلمة للنفس، ولا تظهر سلطنة النفس لها، كذلك القوى الظاهريّة والباطنيّة لا تكون مستسلمة لإرادة الله، ولا تنقهر المملكة تحت كبرياء الحقّ كما هو واضح جدًّا.

ولذا، ترون أنّه بعد مضيّ أربعين أو خمسين سنة لا يحصل أثرٌ في أنفسنا، بل تزداد يومًا فيومًا ظلمة القلب، ويزيد اشتياقنا إلى الطّبيعة وإطاعتنا للأهواء النفسانيّة والوساوس الشيطانيّة آناً فآناً. وليس هذا كلّه إلّا من جهة أنّ عبادتنا قشور بلا لبّ، وفاقدة للشرائط الباطنيّة والآداب القلبيّة. هذا، في حين أنّنا نرى كتاب الله سبحانه قد نصّ على أنّ الصلاة

(1) راجع: الفيض الكاشاني، علم اليقين، ج2، ص1061، باختلاف السير.
(2) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 45 - 46.
(3) م.ن، ص 45 - 46.

تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهذا النهي ليس صوريًا البتّة، بل لا بدّ من مصباح يزهر في القلب، ويضيء نور في الباطن يهدي الإنسان إلى عالم الغيب، ويوجِد زاجرًا إلهيًّا ينهى الإنسان عن العصيان والتمرّد.

وها نحن أولاء نحسب أنفسنا في زمرة المصلّين، وقد مضت علينا سنون ونحن مشتغلون بهذه العبادة العظيمة، ومع ذلك لا نرى في أنفسنا هذا النور، ولا نجد في باطننا هذا الزاجر والمانع...»[1].

أحاديث في الترغيب في حضور القلب

لا شكّ أنّ الإنسان يحتاج إلى وجود دافع قويّ في نفسه من أجل السعي على طريق تحصيل حضور القلب، لما ذكرنا من أنّه أمر صعب وثقيل لمن كان قلبه غافلًا رَدَحًا من الزمن، وقضى عمره بعيدًا عن هذه التوجّهات. وهنا تأتي الأحاديث الشريفة لترغيبنا وحثّنا على الاهتمام بحياتنا المعنويّة. وقد ذكر الإمام بعض هذه الأحاديث، فقال قدس سره:

«في ذكر باقة من أحاديث أهل البيت العصمة والطهارة عليهم السلام في الترغيب في حضور القلب، ونحن نكتفي هنا بذكر بعضها:

فعن الرسول الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم: «**اعبد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك**»[2].

يستفاد من هذا الحديث مرتبتان من مراتب حضور القلب:

الأولى: أنّ السالك يكون مشاهدًا جمال الجميل، ومستغرقًا في تجلّيات حضرة المحبوب على نحو تكون جميع مسامع قلبه مسدودة عن سائر الموجودات، وتكون بصيرته مفتوحة على جمال ذي الجلال الطاهر ولا يشاهد غيره. وبالجملة، يكون مشغولًا بالحاضر وغافلًا عن المحضر والحضور.

وإلى هذا أشير في الحديث الذي رواه أبو حمزة الثمالي (رضي الله عنه)، قال: «رأيت عليّ بن الحسين عليه السلام يصلّي، فسقط رداؤه عن منكبه، فلم يسوّه حتى فرغ من صلاته، قال: فسألته عن ذلك، فقال: «**ويحك، أتدري بين يديّ من كنت؟!**»[3].

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 46 - 47.
(2) الامام جعفر الصادق عليه السلام، مصباح الشريعة، ص 8.
(3) الشيخ الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 5، ص478.

والثانية: التي هي دون تلك المرتبة، أن يرى السالك نفسه حاضرًا في محضره، ويلاحظ أدب الحضور والمحضر.

فكأن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم يقول: إن كنت تستطيع أن تكون من أهل المقام الأوّل، وتأتي بعبادة الله على ذلك النحو فافعل، وإلّا فلا تغفل عن أنّك في المحضر الربوبيّ. ولمحضر الحقّ تعالى أدب، تكون الغفلة عنه لا محالة بعدًا عن مقام العبوديّة.

في حديث أيضاً عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنّ الرجلين من أمّتي يقومان في الصلاة، وركوعهما وسجودهما واحد، وإنّ ما بين صلاتهما ما بين السماء والأرض**»[1].

وقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «**أما يخاف الذي يحوّل وجهه في الصلاة أن يحوّل الله وجهه حمارا**»[2].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**من صلّى ركعتين، ولم يحدّث فيهما نفسه بشيء من الدنيا غفر الله له ذنوبه**»[3].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنّ من الصلاة لما يقبل نصفها وثلثها وربعها وخمسها إلى العشر، وإنّ منها لما يلفّ كما يلفّ الثوب الخلق، فيضرب بها وجه صاحبها، وإنّما ليس لك من صلاتك إلّا ما أقبلت عليه بقلبك**»[4].

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إذا قام العبد المؤمن في صلاته، نظر الله إليه، أو قال أقبل الله عليه حتى ينصرف، وأظلّته الرحمة من فوق رأسه إلى أفق السماء، والملائكة تحفّه من حوله إلى أفق السماء، ووكّل الله به ملكاً قائماً على رأسه، يقول له: أيّها المصلّي، لو تعلم من ينظر إليك، ومن تناجي ما التفتّ، ولا زلت من موضعك أبدًا**»[5].

---

(1) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج 4، ص98.

(2) م.ن، ص101.

(3) ابن أبي جمهور، محمد بن زين الدين، عوالي اللئالي العزيزية في الأحاديث الدينية، تحقيق وتصحيح مجتبى العراقي، قم، دار سيد الشهداء للنشر، 1405هـ.، ط 1، ج 1، ص322.

(4) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج 3، ص59.

(5) الشيخ الكليني، الكافي، ج 3، ص265.

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «**لا تجتمع الرغبة والرهبة في قلب إلّا وجبت له الجنّة. فإذا صلّيت فأقبل بقلبك إلى الله عزّ وجلّ؛ فإنّه ليس من عبد يقبل بقلبه على الله عزّ وجلّ في صلاته ودعائه إلّا أقبل الله عليه بقلوب المؤمنين، وأيّده مع مودّتهم إيّاه بالجنّة**»(1).

وعن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام أنّهما قالا: «**ما لك من صلاتك إلّا ما أقبلت عليه فيها، فإن أوهمها كلّها أو غفل عن أدائها لفّت، فضرب بها وجه صاحبها**»(2).

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «**إنّ العبد ليرفع له من صلاته نصفها أو ثلثها أو ربعها أو خمسها، فما يرفع منها له إلّا ما أقبل عليه منها بقلبه، وإنّما أمرنا بالنافلة ليتمّ لهم بها ما نقصوا من الفريضة**»(3).

وعن الإمام الصادق عليه السلام «**إذا أَحْرَمْتَ في الصَّلاة فَأَقْبِلْ عَلَيْهَا فَإنَّكَ إذا أَقْبَلْتَ أَقْبَلَ الله عَلَيْكَ، وَإِذَا أَعْرَضْتَ أَعْرَضَ الله عَنْكَ، فَرُبَّمَا لَمْ يُرْفَعْ مِنَ الصَّلاة إلَّا الثُّلثُ أو الرُّبُعُ أو السُّدُسُ عَلَى قَدْرِ إقْبَالِ الْمُصَلِّي عَلَى صَلاته، وَلَا يُعْطِي اللهُ الْغَافِلَ شَيْئًا**»(4).

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**يا أبا ذر، ركعتان مقتصدتان في تفكّر، خير من قيام ليلة والقلب ساه (لاه)**(5)**، والأحاديث في هذا الباب كثيرة، وهذا المقدار كافٍ لأرباب القلوب اليقظة وأصحاب الاعتبار**»(6).

عوامل ضعف حضور القلب

1. الانخداع بالتسويف:

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: «وبالجملة، أيها القارئ، المحترم، الذي تطالع هذه الأوراق، لا تكن ككاتبها خاليًا من جميع الأنوار وصفر اليد من جميع الأعمال الصالحة، ومبتلىً بالأهواء النفسانيّة... وارحم نفسك واكتسب من عمرك نتيجة، وانظر بعين الدّقّة

(1) الشيخ الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج5، ص477.
(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج81، ص260.
(3) الشيخ الكليني، الكافي، ج3، ص363.
(4) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج3، ص57.
(5) الشيخ الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج4، ص74 - 75.
(6) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 51 - 53.

في حال الأنبياء والأولياء الكمّل، وارم الرغبات الكاذبة والوعود الشيطانيّة وراء ظهرك، ولا تغترّ بغرور الشيطان، ولا تنخدع بخدعَ النفس الأمّارة، فإنّ تدليسات الشيطان والنفس دقيقة للغاية، وإنّهما ليعميان على الإنسان كلّ أمر باطل فيراه بصورة الحقّ، ويخدعانه أحياناً بصورة الأمل بالتوبة في آخر العمر حتى ينتهي أمر الإنسان إلى الشقاوة، مع أنّ التوبة في آخر العمر، وعند تراكم ظلمات المعاصي، وكثرة مظالم العباد، وكثرة حقوق الله، أمر صعب للغاية.

ففي هذا اليوم تكون إرادة الإنسان قويّة والقوى الشبابيّة على حالها وشجرة العصيان لم تشتدّ بعد، وسلطنة الشيطان في النفس لم تستحكم، والنفس جديدة العهد بالملكوت وقريبة الأفق إلى فطرة الله، وشرائط حصول التوبة وقبولها سهلة، فهما لا يدعان الإنسان يقدم على التوبة ويقتلع هذه الشجرة الواهنة من جذورها، ويقضي على هذه السلطنة غير المستقلّة، ويعدانه بالتوبة في أيام الشيب التي تكون الإرادة فيها ضعيفة والقوى هزيلة والأشجار المختلفة للمعاصي ذات جذور عميقة وقويّة وسلطنة إبليس في الظاهر والباطن مستقلّة ومستقرّة، وألفة الإنسان للطبيعة شديدة، والبعد عن الملكوت أزيد ونور الفطرة خافتاً ومنطفئًا، وشرائط التوبة صعبة ومرّة. وليس هذا إلا الغرور والافتتان»[1].

2. الانخداع بالشفاعة:

«وحيناً آخر يبعدان الإنسان بوعد شفاعة الشافعين عليهم السلام عن ساحة قدسهم، ويجعلانه من شفاعتهم محرومًا. فإنّ الانغماس في المعاصي يجعل القلب بالتدريج مظلمًا ومنكوسًا، ويجرّ أمر الإنسان إلى سوء العاقبة. وإنّما طمع الشيطان في أن يسرق إيمان الإنسان، وهو يجعل التوغّل في المعاصي مقدّمة لذلك، حتى يصل إلى غايته. فهذا الإنسان، إن كان طمعه في شفاعة الشافعين، فلا بدّ له أن يسعى ويجتهد في هذا العالم للحفاظ على الرابطة بينه وبين الشافعين، وأن يتفكّر في حال شفعاء يوم الحشر، كيف كان حالهم في العبادة والرياضة. ولو فرضنا أنّكم ترتحلون من هذه الدنيا مع الإيمان بالله، ولكن مع أثقال من

(1) الإمام الخميني، معراج السالكين، ص48.

الذنوب والمظالم كثيرة فيمكن ألا يُشفع فيكم في أنواع الذنوب عند البرزخ والقبر؛ كما نقل عن الصادق عليه السلام من أنّ «**البرزخ على عهدتكم**»[1]. وعذاب البرزخ لا يقاس بعذاب هذه الدنيا، وطول مدّة البرزخ لا يعلمه إلا الله، ولعلّه يمتدّ لملايين السنين.

ومن الممكن أن ننال تلك الشفاعة يوم القيامة، ولكن بعد فترات مديدة وأنواع العذاب التي لا تطاق، كما ورد مثل هذا المعنى في الأحاديث أيضاً. فهذا الغرور من الشيطان يمنع الإنسان من العمل الصالح، ويخرجه من الدنيا، إمّا بلا إيمان أو مع أثقال ذنوب كثيرة، ويبتليه بالشقاوة والخسران»[2].

3. الانخداع بالرحمة الواسعة:

«وربما يعد الشيطان الإنسان بالرحمة الواسعة لأرحم الراحمين، وبنفس هذا الوعد يقطع الشيطانُ يد الإنسان عن ذيل الرحمة. وهذا الإنسان غافل عن أنّ بعث الرسل وإرسال الكتب وإنزال الملائكة والوحي والإلهام على الأنبياء والهداية إلى طريق الحقّ كلّ ذلك من شؤون رحمة أرحم الراحمين، وقد اتّسعت الرحمة الواسعة لجميع العالم، ونحن على شفا عين الحياة نهلك من الظمأ.

هذا القرآن هو أكبر رحمة إلهيّة. فإن كنت تطمع في رحمة أرحم الراحمين وتأمل رحمته الواسعة فاستفد من هذه الرحمة. فإنّه قد فتح طريق الوصول إلى السعادة وبيّن طريق الهداية من الضلالة، وأنت تلقي بنفسك في بئر الهلاك وتنحرف عن الطريق المستقيمة، فأين النقصان في الرحمة؟!

ولو كان من الممكن أن يُري الله الإنسان طريق الخير والسعادة بطريقة أخرى لكان سبحانه أراه إيّاه بمقتضى سعة رحمته. ولو كان من الممكن أن يوصل الإنسان إلى السعادة إكراهاً لكان الأنبياء يوصلونه. لكن هيهات، إنّ طريق الآخرة لا يمكن أن يُسعى فيها إلّا بقَدم الاختيار، وإنّ السعادة لا تحصل بالجبر، وإنّ الفضيلة والعمل الصالح بلا اختيار ليسا فضيلة ولا عملاً صالحًا، ولعلّ هذا معنى الآية الشريفة ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾[3]. نعم، ما يمكن

---

(1) راجع: العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج8، ص362.

(2) الإمام الخمينيّ قدس سره، معراج السالكين، ص49.

(3) سورة البقرة، الآية 256.

أن يُعمل فيه الإكراه والإجبار هو صورة الدين الإلهيّ لا حقيقته، وإنّ الأنبياء عليهم السلام كانوا مأمورين أن يفرضوا على الناس صورة الدين ما استطاعوا وبأيّ نحو ممكن، حتّى تصبح صورة العالم صورة العدل الإلهيّ. ولكنّهم بالنسبة إلى الباطن ليس لهم إلا مجرّد الإرشاد، حتّى يمشي الناس في هذه الطريق بأنفسهم وينالوا السعادة باختيارهم. وبالجملة، فإنّ هذا الوعد بالرحمة الواسعة لأرحم الراحمين هو أيضاً من غرور الشيطان ليقطع يد الإنسان عن الرحمة بطمع الرحمة»[1].

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص47 - 50.

المفاهيم الرئيسة

1. من أهمّ الآداب المعنويّة في العبادات حضور القلب.
2. حضور القلب يعني حضور معاني العبادة في القلب أثناء أدائها.
3. جميع معاني العبادة ترجع إلى معنى كبير هو الله تعالى.
4. حضور القلب يعني توجّهه نحو أسرار العبادة والعمل.
5. جميع آثار العبادة موقوفة على توجّه القلب وحضوره.
6. يتحقّق حضور القلب من خلال مراعاة جميع الآداب السابقة.
7. لا يمكن تحقيق حضور القلب دون الشعور بالحاجة الماسّة إلى الحياة القلبيّة.
8. ينال الإنسان من أثر العبادة بمقدار حضور القلب وإقباله فيها.
9. ذهول الإنسان عن حضور القلب يعني خسارة الحياة المعنويّة.

الدرس الحادي عشر

طريق تحصيل حضور القلب

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يتعرّف إلى دور التفكّر في تحصيل حضور القلب.

2 . يبيّـن أهميّة الجدّ والاجتهاد فـي تحصيل حضور القلب.

3 . يدرك منشأ الخواطر والخيالات الباطلة.

تمهيد

إذا أدرك الإنسان أهميّة الحياة المعنويّة، وعلم أنّ مصيره معلّق بقلبه يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون، والتفت إلى أنّ للحياة المعنويّة آثاراً عديدة لا يتمتّع بأيٍّ منها، قد يحصل في نفسه يقظة باعثة على التغيير؛ فإنّ ﴿ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾[1].

وفي الوسط الدينيّ، فإنّ أهم ما نحتاج إلى تغييره هو نظرتنا إلى المعنويّات وإلى دور العلم في حياتنا. فالعلم يمثّل أصل جميع الأمور الروحيّة، ويستحيل أن يكتسب الإنسان شيئاً من عالم المعنى بعيدًا عن العلم إلّا إذا كان أمرًا طارئًا، لا يلبث في النفس، وسرعان ما يرتحل ويزول.

وبعد العلم يأتي العمل، لأنّه بدونه لن يكون هناك أيّ آثار أو ثمار. وهنا يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: «إذا عرفت الآن فضيلة حضور القلب وخصائصه عقلاً ونقلاً، وفهمت الأضرار الكبيرة من تركه، فلا يكفي العلم وحده، بل هو يجعل الحجّة عليك أتمّ؛ فشمّر ذيل الهمّة، وكن بصدد تحصيل ما علمته، وأخرج علمك إلى مرحلة العمل، كي تستفيد منه وتربح»[2]. وفيما يلي نذكر المراحل الأساسيّة لتحصيل حضور القلب، وهي:

التّفكّر

لا خير للإنسان إلّا إذا عمل، ولا عمل إلّا بالإرادة، ولا إرادة إلّا بالمعرفة، ولا تحصل المعرفة إلّا بالتفكّر. وفي مجال تحصيل حضور القلب فإنّ ما نحتاج إليه في البداية هو التفكّر، لهذا يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: «فتفكر قليلًا في أنّ قبول الصّلاة شرط لقبول

(1) سورة الرعد، الآية 11.

(2) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 53.

سائر الأعمال بحسب أحاديث أهل بيت العصمة عليهم السلام الذين هم معادن الوحي، وأقوالهم وعلومهم من الوحي الإلهيّ والكشف المحمّديّ صلى الله عليه وآله وسلم، وإنّ الصلاة إذا لم تكن مقبولة فلا يُنظر إلى سائر الأعمال أصلًا، وإنّ قبول الصلاة بإقبال القلب. فلو لم تكن الصلاة مشتملة عليه فهي ساقطة من درجة الاعتبار ولا تليق بمحضر الحقّ تعالى ولا تُقبَل، كما عُلم من الأحاديث السابقة. فمفتاح خزينة الأعمال وباب أبواب جميع السعادات هو حضور القلب؛ فيه يفتح باب السعادة للإنسان، ومن دونه تسقط جميع العبادات من درجة الاعتبار»(1).

الجدّ والاجتهاد

فإذا أنتج التفكّر علمًا احتاج السالك إلى العمل وفق ذلك العلم لكي يعطي الأثر المطلوب؛ لهذا يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: «فالآن تفكّر قليلًا معتبرًا، وانظر بعين البصيرة إلى أهمّيّة المقام وعظمة الموقف، وقم بالأمر بجدّ تامّ. فإنّ مفتاح باب السعادة وأبواب الجنّة ومفتاح باب الشقاوة وجهنّم لفي جيبك، وأنت في هذه الدنيا، فتستطيع أن تفتح أبواب الجنّة والسعادة لنفسك، وتستطيع أن تكون على خلاف ذلك؛ فزمام الأمر بيدك ولله الحجّة البالغة قد هدى سبيل السعادة والشقاوة، وأعطى التوفيقات الظاهريّة والباطنيّة. فما منه تعالى ومن أوليائه قد تمّ، وقد حان الآن دورنا في الإقدام؛ فإنّهم الهادون إلى الطّريق ونحن السائرون فيه. وقد قضوا ما عليهم على الوجه الأحسن، ولم يتركوا لنا عذرًا، ولم يقصّروا ولو للمحة...»(2).

اليقظة

ولأنّ السالك يمكن أن يبتلى بالغفلة نتيجة كثرة انشغالاته، فلا بدّ له من رعاية أدب اليقظة والتأكيد عليها؛ لهذا يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: «فانتبه أنت أيضاً من نومك، واطوِ طريق السعادة، واستفد من عمرك وقوّتك؛ فإنّ الوقت إذا انقضى وفاتك العمر الحاضر والشباب الموجود وفقدت كنز القدرة والقوّة، فلا مجال للجبران أبدًا. فإن كنت الآن في عهد الشباب، فلا تؤخّر أمرك إلى الشيب، فإنّ للشيّب مصائب لا يعلمها إلا الشُيّب، وأنت في

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 53.
(2) م.ن، ص54.

غفلة عنها. إنّ الإصلاح في حال الشيب والضعف لمن الأمور الصعبة جدًّا. وإن كنت شابيًا فلا تدع بقيّة العمر تفوت منك، فإنّك مادمت في هذا العالم فلك طريق إلى السعادة، ولك منها باب مفتوح... فلا سمح الله، إذا أغلق هذا الباب، وانسدّ هذا الطريق، يخرج زمام الاختيار من يدك، ولا يبقى لك نصيب سوى الحسرة والندامة والأسف على ما مضى»[1].

رفع الموانع

بعد حصول التوجّه في النفس، وعقد العزم على الجدّ والاجتهاد ومواجهة الموانع، لا بدّ من العمل على رفعها وإزالة أسبابها من النفس؛ لهذا يقول الإمام قُدِّسَ سِرُّهُ: «فأنت أيّها العزيز، إن كنت تؤمن بما ذكر من قول الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وهيّأت نفسك لتحصيل السعادة وسفر الآخرة، وعلمت بلزوم حضور القلب الذي هو مفتاح كنز السعادة، فقم بتحصيله... وطريقه أن ترفع أوّلًا موانع حضور القلب، وتقتلع أشواك طريق السلوك من جذورها. وبعد رفع الموانع تُقدم على تحصيل حضور القلب»[2].

محاربة الخواطر والخيالات الفاسدة

يعتبر الإمام الخمينيّ قُدِّسَ سِرُّهُ الخيالات والخواطر الباطلة من العوائق الأساسيّة التي تحول دون تحقّق حضور القلب في العبادة، كما يقول: «أمّا مانع حضور القلب في العبادات فهو تشتّت الخواطر وكثرة الواردات القلبيّة».

ولأجل ذلك ينبغي أن نعرف من أين تنشأ هذه الخواطر والخيالات المشتّتة المانعة من تحصيل حضور القلب وتوجّهه إلى المقصد والمقصود. وقد حدّد الإمام قُدِّسَ سِرُّهُ عاملين أساسيّين، هما العامل الخارجيّ والعامل الباطنيّ، فيقول قُدِّسَ سِرُّهُ:

1. التواصل الحسّيّ مع العالم الخارجيّ:

«وهذه ربّما تحصل من الأمور الخارجيّة، ومن طرق الحواس الظاهريّة؛ كأن يسمع في حال العبادة شيئاً فيتعلّق ذهنه به، ويكون مبدأً للتخيّلات والتفكّرات الباطنيّة، وتتصرّف فيه الواهمة والمتصرّفة، فيطير خياله من غصن إلى غصن، أو أن ترى عين الإنسان شيئاً؛

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 54.
(2) م. ن، ص54.

ويكون منشأ تشتّت الخاطر، وتصرُّف المتصرّفة أو أنّ سائر حواس الإنسان تدرك شيئاً، فتحصل منه انتقالات خياليّة»[1].

2. **انبعاث الخواطر من الباطن:**

«وربّما يكون تشتّت الخاطر والمانع من حضور القلب من الأمور الباطنيّة»[2].

منشأ العامل الباطنيّ لتشتّت الخاطر

والعامل الباطنيّ له أسباب، وأهمّ هذه الأسباب هي طبيعة الخيال الفرّارة والمتحرّكة، والتي ينبغي أن تلجم وتضبط. والسبب الآخر هو حبّ الدنيا الذي يوجد للخيال مادّة خصبة ليتحرّك بصورة عشوائيّة وسريعة تمنع القلب من التوجّه إلى معبوده الأوحد؛ لهذا يقول الإمام قدس سره:

«ولهذا (العامل الباطنيّ) على نحو كلّيّ منشآن أساسيان، ترجع معظم الأسباب إليهما:

الأول: إنّ طائر الخيال هو بنفسه فرّار، كعصفور يقفز من غصن إلى غصن، ويطير من إفريز إلى إفريز. وهذا ليس مرتبطاً بحبّ الدنيا والتوجّه إلى الأمور الدنيّة والمال الدنيويّ، بل كون الخيال فرّاراً مصيبة يُبتلى بها حتى التارك للدنيا. وتحصيل سكون الخاطر وطمأنينة النفس وتوقّف الخيال من الأمور المهمّة التي يحصل بإصلاحها العلاج القطعيّ، ونحن نشير إليه بعد ذلك.

الثاني: المنشأ الآخر هو حبّ الدنيا، وتعلّق الخاطر بالحيثيّات الدنيويّة التي هي رأس الخطايا وأمّ الأمراض الباطنيّة، وهو شوك طريق أهل السلوك ومنبع المصيبات. وما دام القلب متعلّقاً، ومنغمساً في حبّ الدنيا، فالطريق لإصلاح القلوب مسدود، وباب جميع السعادات في وجه الإنسان مغلق. وسوف نشير إلى رفع هذين المنشأين العظيمين والمانعين القويّين ضمن فصلين إن شاء الله»[3].

---

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 54 - 55.
(2) م. ن، ص55.
(3) م.ن، ص 55 - 56.

ويمثّل الخيال العدسة المتوسّطة بين عدسة الظاهر وعدسة الباطن. فإذا كان لا بدّ للإنسان أن يدرك حقائق الغيب ومظاهر الملكوت، فلا يمكنه أن يحقّق هذا اليقين إلّا إذا فتح عين القلب.

لكن فتح هذه العين لا يمكن أن يحصل دفعة واحدة من شدّة نور الملكوت؛ فلا بدّ أن يتدرّج السالك من الظاهر إلى البرزخ والمثال، ثمّ إلى الملكوت والباطن.

لكن المشكلة تكمن في أنّ أكثر الناس لا يلتفتون إلى أنّ العين البرزخيّة أو القوى المثاليّة والخياليّة هي لأجل تحصيل هذا الغرض. وبدلاً من توجيهها نحو الحقّائق الغيبيّة نجد أنّهم يشغلونها بعالم الظاهر والمادّة والحسّ؛ وهذا ما يشتّت عليهم حواسهم.

المفاهيم الرئيسة

1. لكي يتحقّق حضور القلب لا بدّ من رفع الموانع أوّلاً.
2. موانع حضور القلب هي تشتّت الخواطر وكثرة الواردات.
3. تنشأ الخواطر من قوّة الخيال في النفس.
4. يُنشئ الخيال خواطره بالاستفادة والاستمداد من عالم الحسّ.
5. الاتّصال بعالم الطبيعة سبب من أسباب نشوء الخيالات.
6. الانشغال والاهتمام الزائد بأمور الطبيعة يؤدّي إلى كثرة الخيالات.
7. حبّ الدنيا يؤدّي إلى انصراف الخيال إليها.
8. يؤدّي حبّ الدنيا إلى تشتّت الخيال وكثرة الخواطر.
9. معالجة الخيال بالانصراف عن الطبيعة لا يعطي النتيجة المطلوبة.
10. ضبط الخيال مقدّمة مهمّة لرفع هذا المانع.
11. يحتاج السالك إلى اقتلاع حبّ الدنيا من قلبه لضبط الخيال أيضاً.

الدرس الثاني عشر

ضبط قوّة الخيال

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يتعرّف إلى حقيقة الخيال المانعة من حضور القلب.

2 . يبيّن كيفيّة ضبط الخيال وترويضه.

3 . يشرح أسباب التكاسل والفتور في ترويض الخيال.

تمهيد

إنّ الخواطر والخيالات التي تطرق مسامع قلوبنا وأبصارها تمثّل مانعًا كبيرًا من حصول التوجّه والإقبال والحضور في الصّلاة وفي غيرها من العبادات التي تستلزم الذكر؛ فالتوجه إلى الحقّائق يعتمد على تمركز القلب نحوها.

ولأجل التخلّص من هذا المانع الثقيل، نحتاج قبل أيّ شيء إلى الاقتناع بإمكانيّة ترويض الخيال والسيطرة عليه سيطرة تامّة يصبح معها مسخّرًا بإمرة القلب وسلطان العقل.

وبالرغم من كون هذه العمليّة شاقة جدًّا وصعبة للغاية، إلا أنّها أمر ممكن إذا عملنا بنصائح الإمام الخمينيّ قدس سره، وخصوصًا إذا جعلنا وجهة حياتنا على أساس الوصول إلى الغاية المنشودة؛ ففي هذا صلاح عام لمسيرنا، وهو يجعل هذه الرياضة ميسّرة وسهلة مع مرور الزمان.

فالخواطر تنشأ من أمرين أساسيّين؛ أحدهما هو الطبيعة المذبذبة لهذه القوّة، والتي يفترض أن تكون عنصر قوّة للإنسان؛ لأنّ سرعة انتقال الخيال يُعدّ أمرًا مهمًّا على صعيد تحقيق الكثير من شؤون الحياة الدنيا ومقدّمات الآخرة. لكنّ المشكلة أنّ هذه السرعة دون ضبط وانضباط تصبح وبالًا على صاحبها.

والأمر الثاني، إنّ توجّه القلب إلى الدنيا ينقل إلى قوّة الخيال الكثير من الصّور التي تشغله وتمنع تمركزه، نظرًا لكثرة الاهتمام بها.

ولهذا، كان لا بدّ من النهوض بعزم وإرادة لترويض هذا الخيال من أجل تحصيل حضور القلب وإقباله.

طبيعة الخيال الفرّارة

ذكر الإمام بأنّ الخيال نفسه هو قوّة تشبه العصفور في كثرة انتقالاتها التي تتسبّب بكثرة الصور الخياليّة والخواطر النفسانيّة، وما لم يتمّ ضبط هذه القوّة والإمساك بزمامها، فإنّها ستبقى حرّة طليقة تعبث بنا، وخصوصًا أثناء العبادة والذكر.

إنّ ضبط الخيال أمر صعب جدًّا، حتى قال بعضهم إنّه مستحيل؛ لهذا ينبغي مراعاة الأمور الآتية أثناء مجاهدة النفس في ضبط الخيال، وهي:

1. الاعتقاد بأن ترويض الخيال وضبطه أمر ممكن.
2. تطبيق برنامج دقيق يعتمد على مخالفته ومعاندته.
3. تقوية الدافع والإحساس بضرورة ترويضه.
4. مجانبة اليأس والابتعاد عن كلّ ما يُضعف الإرادة.
5. ترك الاعتماد على النفس بالتوكّل على اللّه.
6. الاكتفاء بحدّ الضرورة من التعامل مع العالم المادّيّ الحسّيّ.

إمكانية ترويض الخيال

وحول إمكانية ضبط الخيال والسيطرة على حركته وانتقالاته يقول الإمام الخمينيّ قدس سره:

«فاعلم أنّ كلّاً من القوى الظاهريّة والباطنيّة من النفس قابل للتربية والتعليم بارتياض خاصّ. فعين الإنسان مثلًا لا تقدر أن تنظر إلى نقطة معيّنة أو إلى نور شديد كنور عين الشمس مدّة طويلة من دون أن تغمض، ولكن إذا درّبها، كبعض أصحاب الرياضات الباطلة لأغراض ما، فيمكن أن تنظر إلى عين الشمس لساعات مديدة من دون أن تغمض، أو يجد فيها تعبًا. وكذلك يمكن له أن ينظر إلى نقطة معيّنة ساعات عدّة من دون أيّ حركة، وكذلك سائر القوى، حتى حبْس النفس، فإنّ في أصحاب الرياضات الباطلة أفرادًا يحبسون أنفاسهم مدّة زائدة عما هو متعارف عليه.

ومن القوى التي تقبل التربية قوّة الخيال وقوّة الواهمة. فإنّهما قبل التربية كطائر فرّار ومتحرّك بلا حدّ، يطير من غصن إلى غصن، ويتحرّك من شيء إلى شيء آخر، بحيث إنّ الإنسان إذا تابعه دقيقة واحدة يرى أنّه انتقل من شيء إلى شيء متسلسلًا إلى أشياء

بمناسبات ضعيفة جدًّا وأسباب غير مترابطة، حتّى ظنّ الكثيرون أنّ حفظ طائر الخيال وترويضه من الأمور الخارجة عن حيّز الإمكان وملحق بالمحالات العاديّة. ولكن الأمر ليس كذلك، ويمكن تطويعه بالرياضة والتربية والمواظبة مدّة، بحيث يكون طائر الخيال في قبضته لا يتحرّك إلّا بإرادته واختياره، فيحبسه متى ما أراد في أيّ مقصد أو أيّ مطلب، بحيث يبقى في ذلك المقصد ساعات»(1).

كيفية الترويض

فإذا آمنّا بإمكانية هذا الترويض، رغم صعوبته في البداية، وجب أن ننهض للعمل على ذلك، مهما تطلّب الأمر. وفي هذا المجال يقدّم لنا الإمام النصائح الآتية: «والطريق العمدة لهذا التطويع هو العمل على الخلاف. وطريقه أنّ الإنسان عندما يريد أن يصلّي يعد نفسه بأن يحفظ خياله في الصلاة ويحبسه في العمل، وبمجرّد أن يريد هذا الخيال الفرار من قبضة الإنسان، يسترجعه فورًا، ويلتفت إلى حاله في جميع حركات الصلاة وسكناتها وأذكارها وأعمالها، ويترصّده، ولا يدعه بحاله.

وهذا في أوّل الأمر ربّما يبدو أمرًا صعبًا، ولكنّه بعد مدّة من السعي والدقّة والعلاج يصير طائعًا حتمًا ويرتاض.

فلا تتوقع أن تتمكّن في أوّل الأمر من حفظ طائر الخيال في كلّ الصلاة؛ فإنّ هذا أمر غير ممكن ومحال البتّة. ولعلّ الذين ادّعوا استحالة هذا الأمر كانوا يتوقّعون ذلك.

ولكن هذا الأمر لا بدّ أن يكون بكمال التدريج والتأنّي والصبر والتأمّل. فيمكن أن يحبس الخيال في أوّل الأمر في عُشر الصلاة، ويحصل حضور القلب في هذا العشر، وهكذا بالتدريج، إذا كان الإنسان بصدد العلاج، ويرى نفسه محتاجاً إليه يحقّق نتيجة أكبر. وشيئاً فشيئًا يتغلّب على شيطان الوهم وطائر الخيال، حتى يمسك بزمامهما في معظم الصلاة.

ولا ينبغي للإنسان أن ييأس في كلّ أحواله؛ فإنّ اليأس هو منبع كلّ ضعف ووهن، ونور الرجاء هو الذي يوصل الإنسان إلى كمال سعادته»(2).

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 56 - 57.
(2) م.ن، ص57.

ما هو الدافع الأكبر لمثل هذه الرياضة؟

إنّها رياضة شاقّة بالنسبة للكثيرين؛ ولهذا يتركها أغلبهم. إنّها رياضة تحتاج إلى دافع كبير، وكلّ دافع ينشأ من الاحتياج؛ لهذا يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: «ولكن العمدة في هذا الباب هو حسّ الاحتياج الذي هو فينا قليل، وإنّ قلوبنا لم تؤمن بأنّ رأس المال في سعادة العالم الآخر ووسيلة العيش في الأيّام غير المتناهية هو الصلاة. نحن نحسب أنّ الصلاة حملاً مفروضاً علينا، ونراها تكليفاً وثقلا.

إنّ حبّ الشيء يحصل من إدراك نتائجه؛ فنحن نحب الدنيا لأنّنا أدركنا نتيجتها، وآمنت قلوبنا بها؛ ولهذا لا نحتاج في اكتساب الدنيا إلى الدعوة والوعظ والاتّعاظ.

وبالجملة، نحن لمّا شعرنا بالاحتياج إلى الدنيا ووجدناها رأسمال الحياة ومنبع اللذّات، توجّهنا إليها وسعينا إلى تحصيلها. فإذا آمنّا بالحياة الآخرة، وشعرنا أنّا محتاجون إلى عيشها، وأدركنا أنّ العبادات كلّها، والصلاة خصوصاً، هي رأسمال العيش في ذلك العالم وأصل سعادة تلك النشأة، فسنسعى لا محالة في تحصيلها، ولن نجد في أنفسنا من هذا السعي والاجتهاد أيّ تعب أو مشقّة أو تكلّف، بل نكون في صدد تحصيله مع الاشتياق والشوق الكامل، ونحصّل شرائط حصوله وقبوله بإقبال من أرواحنا وقلوبنا»[1].

ما هو سبب التكاسل عن الرياضة؟

ومن أين ينشأ التكاسل عن المجاهدة؟ يكشف الإمام الخمينيّ قدس سره عن السبب الأوّل لهذا التكاسل، فيقول: «إنّ هذه البرودة الموجودة فينا، إنّما هي من برودة أشعّة الإيمان، وهذا الوهن الذي نجده، إنّما هو من وهن أساس الإيمان. ولو أحدثت أخبار الأنبياء والأولياء عليهم السلام وبراهين الحكماء والعرفاء (عليهم الرضوان) في أنفسنا مجرّد الاحتمال، لكان اللازم علينا أن نقوم بالأمر ونجتهد في تحصيله بأحسن ممّا نحن فيه. ولكن مع آلاف التأسّفات، إنّ الشيطان قد تسلّط على باطننا وتصرّف بمجامع قلوبنا ومسامع باطننا، وهو لا يدع كلام الحقّ وأنبيائه وكلمات العلماء ومواعظ الكتاب الإلهيّ تصل إلى سمعنا، فسمعنا

(1) الخمينيّ، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 57 - 59.

الآن إنّما هو السمع الحيوانيّ الدنيويّ، ومواعظ الحقّ تعالى لا تتجاوز الحدّ الظاهر، ولا تصل إلى الباطن، وذلك لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد»[1].

ترك الاعتماد على النفس

لا ينبغي أن نغفل عن أنّ سرّ الرياضة والمجاهدة في الحياة يرتبط بسرّ وجودنا فيها. فقد خلق الإنسان ليعرف ربّه، ولا يُعرف الله تعالى إلا بالوحدانيّة الخالصة. وإنّ من أهمّ معاني التوحيد انحصار التأثير بالله تعالى؛ فمن كان يعيش في نفسه وجود مؤثّرين آخرين إلى جانب الله، فهو ليس بموحّد، وهو بعيد عن المقصد؛ لهذا يؤكّد الإمام الخمينيّ قُدِّسَ سِرُّهُ على أن لا نقع في الشيء الذي نسعى للخروج منه كنتيجة لسلوكنا ومجاهداتنا، فيقول قُدِّسَ سِرُّهُ: «ومن الوظائف المهمّة للسالك إلى الله والمجاهد في سبيل الله أن يرفع اليد تماماً أثناء مجاهدته وسلوكه عن الاعتماد على نفسه، ويتوجّه بجبلّته إلى مسبّب الأسباب، ويتعلّق بفطرته بمبدأ المبادئ، ويطلب من ذاته المقدّسة العصمة والحفظ، ويعتمد على تأييد ذاته الأقدس، ويتضرّع في خلواته إلى حضرته، ويطلب إصلاح حاله، مع كمال الجدّ في الطلب منه تعالى؛ فإنّه لا ملجأ دون ذاته المقدّسة والحمد لله»[2].

علاج ناقص

يتعرّض الإمام الخمينيّ قُدِّسَ سِرُّهُ لبعض العلاجات الناقصة التي يمكن أن يكون لها نوع من التأثير في ترويض الخيال، لكنّها لن تكون مفيدة في حلّ أصل المشكلة، ويقول قُدِّسَ سِرُّهُ: «وقيل إنّ طريق علاج هذه الأمور، برفع هذه الأسباب، كأن يصلّي في غرفة مظلمة أو مكان خالٍ ويغمض عينيه، ولا يصلّي في المواضع التي تشدّ النظر، كما نقل الشهيد السعيد (رضوان الله عليه): «كان المتعبّدون يتعبّدون في بيت صغير مظلم، سعته بقدر ما يمكن الصلاة فيه، ليكون أجمع للهمّ...» ولكن من المعلوم أنّ هذا لا يرفع المانع ولا يقتلع المادّة؛ لأنّ العمدة هي تصرّف الخيال، الذي يعمل لأدنى سبب، بل ربما يكون تصرّف الخيال والواهمة في البيت المظلم والصغير، وفي حال الوحدة أكثر، فيتمسّكا لأجل الدعابة واللهو بأسباب أخرى.

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص59.

(2) م.ن، ص59.

فيتوقّف حينئذ قلع المادّة كلّيّاً على إصلاح الخيال والوهم، ونحن نشير بعد ذلك إليه.

أجل، هذا النحو من العلاج ربّما لا يكون في بعض النفوس بلا تأثير وخالٍ من الإعانة. ولكنّنا بصدد العلاج القطعيّ وقلع السبب الحقيقيّ، وهو لا يحصل بما ذكر»[1].

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص55.

المفاهيم الرئيسة

1. أهمّ عنصر في ضبط الخيال هو الاعتقاد بإمكانيّة ذلك.
2. اعتقد بعضهم باستحالة ضبط الخيال نظراً لصعوبة الأمر.
3. كلّ شيء ممكن بالرياضة والتمرين، حتّى ضبط الخيال.
4. ضبط الخيال يعتمد على طريقة المخالفة.
5. طريقة المخالفة تقضي بأن نُرجع الخيال كلّما أراد أن يطير.
6. من خلال منع الخيال من الانتقال يحصل الانضباط بعد مدّة.
7. الاقتصار على تقليل التواصل مع عالم الحسّ لا يؤتي النتيجة المطلوبة.
8. الخيال بحدّ ذاته فرّار، كالعصفور ينتقل من صورة إلى صورة لأقلّ مناسبة.
9. لا شكّ بأنّ الاقتصار على الحدّ الضروريّ من التواصل مع عالم الحسّ مؤثّر.

الدرس الثالث عشر

حبّ الدنيا مانع من حضور القلب

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يتعرّف إلى أهميّة الحبّ ودوره في الحركة والفعل.
2. يبيّن الآثار الوخيمة لحبّ الدّنيا.
3. يشرح العلاج العلمي والعملي لحب الدنيا.

تمهيد

إنّ ترويض الخيال وضبطه أمر ضروري لتحصيل حضور القلب؛ لأنّ حضور القلب شرط لنيل الكمالات المعنوية والحصول على الآثار الطيبة للعبادة. وإنّ إطلاق العنان للخيال يؤدّي إلى تشتّت الخاطر وتكثّر الخيالات، وهذا بدوره يؤدّي إلى صعوبة تمركز التوجّه القلبي. ومن أهمّ أسباب كثرة الخواطر حبّ الدنيا الذي يجعل القلب منشغلاً بها وبصورها ومتعلّقاتها التي لا حدّ لها.

بيد أنّ قضية حبّ الدنيا هي من الأهمّية بمكان يتجاوز قضية ضبط الخواطر؛ لأنّها قضية هدف الحياة ووجهة المسير. فمسار حياتنا إنّما ينبع من هدفنا وتوجهنا، وعلى أساسه تتشعّب أفكارنا وتنبعث خيالاتنا؛ فما نحبه ونطلبه سيكون مادّة الفكر والخيال.

ولأنّ الإنسان لا يمكن أن يكون صاحب توجهين، فهو ليس صاحب قلبين، كما قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ ﴾[1]، فلا يمكن أن يكون سالكاً طريق الدنيا وطريق الآخرة معا. الدنيا والآخرة ضرّتان لا تجتمعان، وعدوّان متفاوتان كما وصفهما أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ[2]؛ فمن طلب الدنيا لا يمكن أن يسلك طريق الآخرة، ومن طلب الآخرة لا يمكن أن يسلك طريق الدنيا.

وبهذا نعرف الحلّ الإجمالي لأهمّ أسباب كثرة الخواطر وتشتّتها.

الحبّ أساس التوجّه والحركة

ما يهمنا هو المسار العام لحياتنا؛ لأنّ مصيرنا يتحدّد على أساسه. وما يحدّد المسار

(1) سورة الأحزاب، الآية 4.

(2) راجع: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج19، ص292.

العام هو مطلوبنا وغايتنا، وبحسب المطلوب تتوجّه القلوب، فالحبّ أساس التحركات؛ لهذا يقول الإمام الخميني قدس سره:

«فليُعلم أنّ القلب، بحسب فطرته، إذا تعلّق بشيء وأحبّه، يكون ذاك المحبوب قبلة لتوجّهه. وإنْ شغله أمر ومنعه من التفكر في حال المحبوب وجمال المطلوب، فبمجرّد أن يخفّ الاشتغال ويرتفع ذلك المانع، يطير القلب شطر محبوبه فورا ويتعلّق بذيله»(1).

أنواع المحبين بحسب المحبوب

ومثلما أنّ المحبوب يحدّد وجهة السير، فإنّ درجة المحبة ومستواها يحدّدان سرعة السير. ويعرض الإمام الخميني قدس سره عدّة طوائف من المحبين في جانبي الدنيا والآخرة، وهم:

1. أهل المعارف أصحاب القلوب القوية:

«فأهل المعارف وأرباب الجذبة الإلهيّة، إذا كانت قلوبهم قوية وكانوا متمكّنين في الجذبة والحبّ الإلهيّين، يشاهدون في كلّ مرآة جمال المحبوب، وفي كلّ موجود كمال المطلوب، ويقولون: «ما رأيت شيئًا، إلّا ورأيت الله فيه ومعه»(2).

2. أهل المعارف أصحاب القلوب الضعيفة:

«وإذا كانت قلوبهم غير قوّية، وكان الاشتغال بالكثرات مانعًا من الحضور، فبمجرّد أن يقلّ الاشتغال تطير قلوبهم إلى وكر قدسه، وتتعلّق بجمال الجميل»(3).

3. محبّو الدنيا العاشقون لها:

«وبالنسبة لطلاب غير الحقّ، الذين هم عند أهل المعرفة طلاب دنيا، فإنّ كلّ ما يطلبونه يتوجّهون إليه ويتعلّقون به. فهؤلاء، إن كانوا مفرطين في حب محبوبهم، وكان حب الدنيا آخذاً بمجامع قلوبهم، فلا يُسلبون عن التوجّه إليه في أيّ وقت، ويعيشون مع جمال محبوبهم في كلّ حال، ومع كلّ شيء»(4).

---

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 60.
(2) راجع: صدر الدين الشيرازي، شرح أصول الكافي، ج 1، ص 250.
(3) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 60.
(4) م. ن، ص 60.

4. محبّو الدنيا على نحو ضعيف:

«وأمّا إذا كان حبّهم قليلاً، فإنّ قلوبهم في وقت الفراغ سترجع إلى محبوبها. أولئك الذين يكون في قلوبهم حبّ المال والرياسة والشرف، فإنّهم يشاهدون مطلوبهم في المنام أيضاً، ويتفكّرون في محبوبهم في يقظتهم. وما داموا مشغولين بالدنيا فهم في عناق مع محبوبهم»[1].

ما هي حال صلاة محبّي الدنيا؟

فكيف سيكون حال من تعلّق قلبه بالدنيا إذا فرغ من انشغاله بها؟ وما الذي ينبغي أن نحذر منه في هذا المجال؟ يقول الإمام الخميني قدّس سرّه:

«فإذا حان وقت الصلاة وحصل للقلب فراغ، فإنّه يتعلّق بمحبوبه فورا. فكأنّما تكبيرة الإحرام هي مفتاح دكان أو رافعة للحجاب بينه وبين محبوبه، فيتنبّه وقد سلّم في صلاته وما توجّه اليها أصلا، وقد كان في تمام الصلاة معانقاً همّ الدنيا.

فلهذا نرى صلاتنا على مدى أربعين أو خمسين سنة لم تؤثّر في قلوبنا غير الظلمة والكدورة... وما هو معراج قرب جناب الحقّ ووسيلة الأنس بذلك المقام المقدس قد صار سبباً لهجرنا ساحة القرب، وأبعدنا عن العروج إلى مقام الأنس مسافات طويلة. ولو كان في صلاتنا رائحة من العبودية، لكانت ثمرتها المتربة والتواضع، لا العجب والكبر والافتخار، التي يكون كلّ واحد منها سبباً مستقلّاً لهلاك الإنسان وشقاوته.

وبالجملة، فإنّ قلوبنا لمّا كانت مختلطة بحبّ الدنيا، وليس لها مقصد ولا مقصود غير تعميرها، فلا محالة أن يكون هذا الحبّ مانعاً من فراغ القلب وحضوره في ذلك المحضر القدسي»[2].

بالنسبة لمحبّي الدنيا تكون الصلاة وقت فراغ القلب من هموم الحياة، فتكون بذلك فرصة الرجوع إلى المحبوب ومعاشقته. وبدل أن تكون الصلاة وقت الانقطاع إلى الله والتوجّه إليه واكتشاف لذّة محبّته، تصبح محلّاً لزيادة حبّ الدنيا!

---

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 60 - 61.

(2) م.ن، ص 61.

الخلط بين عمارة الدنيا وجعلها غاية

وقد وُجِد في المسلمين تيّارات فكرية كانت تفسّر الإسلام على طريقتها. ومن جملة الشبهات الكبرى التي روّجت لها أنّ حبّ الدنيا وطلبها لا يتعارضان مع روح الدين. وهكذا، وبدل أن يكتشف هؤلاء أصل جميع المشكلات التي ابتلي بها المسلمون وتسبّبت بكلّ الكوارث التي نزلت بهم، تراهم يمعنون في المصيبة. فلا بدّ قبل أيّ شيء من توضيح موقف الإسلام الأصيل من قضية الدنيا التي تُعدّ من أكثر القضايا التباسًا في حياة المسلمين؛ ولهذا يقول الإمام الخميني قدس سره: «وإنّ الذين يظنّون أنّ لدعوة النبيّ الخاتم والرسول الهاشميّ صلى الله عليه وآله وسلم جهتين دنيوية وأخروية، ويحسبون هذا فخرًا لصاحب الشريعة وكمالًا لنبوّته، ليس لديهم معرفة بالدين، وهم عن مقصد النبوّة ودعوتها في تمام البعد.

- إنّ الدعوة إلى الدنيا خارجة عن مقصد الأنبياء العظام بالكلّية، ويكفي في الدعوة إلى الدنيا حسّ الشهوة والغضب والشيطان الباطن والظاهر دون حاجة إلى بعث الرسل. إنّ إدارة الشهوة والغضب لا تحتاج إلى القرآن والنبي صلى الله عليه وآله وسلم، وإنّما بعث الأنبياء لينهوا الناس عن الدنيا، ولتقييد إطلاق الشهوة والغضب، وتحديد موارد المنافع. والغافل يظنّ أنّهم يدعون إلى الدنيا. إنّ الأنبياء يقولون: إنّ المال لا يجوز تحصيله كيفما كان، ونار الشهوة لا يجوز إطفاؤها بأيّ نحو، بل لا بدّ من إطفائها من طريق النكاح، وتحصيل المال بواسطة التجارة والصناعة والزراعة، مع أنّ في أصل الشهوة والغضب إطلاقا؛ فالأنبياء يقفون بوجه إطلاقهما، لا إنّهم يدعون إلى الدنيا. فروح الدعوة إلى التجارة هو التقييد والنهي عن التكسّب الباطل، وروح الدعوة إلى النكاح هي تحديد الطبيعة والنهي عن الفجور وعن إطلاق قوّة الشهوة.
- أجل، هم عليهم السلام ليسوا مخالفين بشكل مطلق؛ لأنّ هذا مخالف للنظام الأتمّ»[1].

---

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 58.

آثار حبّ الدنيا

مهما عدّدنا من آثار ونتائج لحبّ الدنيا، فلا شيء يضاهي خسارة الآخرة مع ما تعنيه هذه الخسارة من العذاب الأبدي. كثيرة هي النصوص الدينية، من آيات وروايات، التي تحدّثت عن عواقب حبّ الدنيا. ونحن نكتفي هنا بمقطع من كلمات الإمام الخميني حول آثار حبّ الدنيا، حيث يقول:

«فبقليل من التأمّل يُعلم أن جميع المفاسد الخُلقية والعملية تقريباً من ثمرات هذه الشجرة الخبيثة؛ فما أُسّس في العالم دين كاذب ولا مذهب باطل، وما حدث في هذه الدنيا من فساد إلا بواسطة هذه الموبقة العظيمة.

وإنّ القتل والنهب والظلم والتعدّي هي نتائج هذه الخطيئة، وإنّ الفجور والفحشاء والسرقة وسائر الفجائع وليدة هذه الجرثومة المفسدة.

والإنسان الذي وقر فيه هذا الحبّ مجانب لجميع الفضائل المعنوية، وإنّ الشجاعة والعفّة والسخاء والعدالة التي هي مبدأ جميع الفضائل النفسانية لا تجتمع مع حبّ الدنيا.

وإنّ المعارف الإلهيّة والتوحيد في الأسماء والصفات والأفعال والذات وطلب الحقّ ورؤية الحقّ متضادّة مع حبّ الدنيا.

وإنّ طمأنينة النفس وسكون الخاطر واستراحة القلب التي هي روح السعادة في العالمين لا تجتمع مع حبّ الدنيا، وإنّ غنى القلب والكرامة وعزّة النفس والحرية، كلّها من لوازم عدم الاعتناء بالدنيا؛ كما إنّ الفقر والذلّة والطمع والحرص والاستعباد والتملّق من لوازم حبّ الدنيا.

وإنّ العطف والرحمة والتواصل والمودّة والمحبّة متعارضة مع حبّ الدنيا، وإنّ البغض والحقد والجور وقطع الرحم والنفاق وسائر الأخلاق الفاسدة وليدة أمّ الأمراض هذه»[1].

ويقول قدس سره:

«وليعلم الإنسان أنّ مثل الدنيا كلّما اتّبعها وكان في صدد تحصيلها أكثر كان تعلّقه بها أشدّ، ويكون أسفه على فقدانها أزيد، فكأنّ الإنسان طالب لشيء لا يناله؛ فهو يظنّ أنّه

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 61 - 62.

طالب للحدّ الفلاني من الدنيا، فما دام فاقداً لذلك الحدّ، يطلبه ويتحمّل في سبيل تحصيله المشقّات ويلقي بنفسه في المهالك. وبمجرّد أن ينال ذلك الحدّ من الدنيا يغدو في نظره أمرا عاديا. ويرتبط عشقه وتعلّقه بشيء آخر فوق ذلك الحدّ، فيتعب نفسه لأجله ولا تنطفىء نار عشقه أبداً، بل تزداد اتّقادا يوماً بعد يوم ويشتدّ تعبه ومشقّته أكثر. وليس لهذه الفطرة والجبلّة توقّف أبدا. وأهل المعرفة قد أثبتوا بهذه الفطرة الكثير من المعارف، ممّا يكون بيانها خارج مجال هذه الأوراق، وقد أشير إلى بعض هذه المطالب في الأحاديث الشريفة، كما في الكافي الشريف عن باقر العلوم عليه السلام:

«**مثل الحريص على الدنيا مثل دودة القزّ؛ كلّما ازدادت من القزّ على نفسها لفّا كان أبعد لها من الخروج، حتى تموت غمّا**»[1].

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام، أنّه قال: «**مَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ مَاءِ الْبَحْرِ؛ كُلَّمَا شَرِبَ مِنْهُ الْعَطْشَانُ ازْدَادَ عَطَشاً حَتَّى يَقْتُلَه**»[2][3].

إنّ فطرة الله لا تعشق إلا الكمال المطلق؛ ولهذا فإنّ صاحبها لن يهنأ له بال مهما بلغ من الكمالات. فلو أدرك الإنسان كمالاً أو لذّة ما، فإنّ فطرته سرعان ما تطلب ما هو أكمل منه وألذّ. والمشكلة ليست في هذه الفطرة؛ لأنّه سبب أساسي في سير الإنسان وسعيه نحو الكمال المطلق الذي خُلق لأجله، وإنّما المشكلة في التشخيص الخاطئ لمصداق الكمال.

فإذا احتجب العقل تحت سلطان الوهم، وظنّ الإنسان أنّ ما تطلبه فطرته موجود أو متشخّص في الأمور الدنيوية، فلن يتوقّف سعيه في طلبها والتزوّد منها؛ ولهذا ترى هذا المحجوب عقله لا يتوقّف عن تحصيل متاع الدنيا والإكثار منها، وهو لا يدري أنّ مطلوبه الحقيقي ليس هذا المتاع الفاني الزائل الذي لا يزيده إلا عطشا.

وإنّ الفارق بين طلاب الكمالات الحقيقية وطلاب الكمالات الدنيوية الزائلة الوهمية، أنّ طلاب الآخرة يكون عطشهم ممتزجا بالرجاء والشوق والأمل؛ لأنّ ما ينالونه من كمالات يزيدهم قرباً من محبوبهم ومطلوبهم الأصلي، وإنّ الكمال الحقيقي، وإن كان محدوداً، فهو

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج 2، ص 316.
(2) م.ن، ج 2، ص 136.
(3) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 63 - 64.

رشحة من الكمال المطلق المنشود ودليل عليه؛ أمّا طلاب الدنيا فإنّ عطشهم لا يزيدهم إلّا حسرة وألمًا وكمدًا.

علاج حبّ الدنيا

لأجل ذلك ينهض كلّ عاقل لاقتلاع حبّ الدنيا من قلبه مهما تطلّب الأمر، ولا يمكن لمن عرف آثار حبّ الدنيا أن يتهاون في هذه المجاهدة، ولو كلّفه ذلك كلّ عمره. وهنا نرجع إلى الإمام الخميني قدس سره من أجل أخذ وصفة العلاج، وهو الطبيب الخبير الذي أثبت في كلّ حياته أنّه إنسان تحرّر من أسر الدنيا. وككلّ حركة معنوية، ينبغي البدء من المعرفة والقناعة؛ لكي تكون المجاهدة العملية مثمرة، فيقول الإمام قدس سره:

«وعلاج هذا المرض المهلك والفساد المبيد هو العلم والعمل النافعان.

1. العلاج العلمي:

أمّا العلم النافع لهذا المرض فهو التفكّر في ثمراته ونتائجه والمقارنة بينها وبين مضارّه ومهالكه الحاصلة منه. وكاتب هذه الأوراق قد كتب في «شرح الأربعين» شرحا في هذا الباب وفسّر الموضوع فيه بالمقدار الميسور، ونكتفي هنا بشرح بعض من أحاديث أهل بيت العصمة.

ففي الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «**رأس كلّ خطيئة حبّ الدنيا**»[1]، والروايات بهذا المضمون كثيرة مع اختلاف في التعبير.

ويكفي للإنسان اليقظان هذا الحديث الشريف، ويكفي لهذه الخطيئة العظيمة المهلكة أنّها منبع جميع الخطايا وأساس جميع المفاسد.

وفي مصباح الشريعة، قال الإمام الصادق عليه السلام «**الدنيا بمنزلة صورة، رأسها الكبر وعينها الحرص وأذنها الطمع ولسانها الرياء ويدها الشهوة ورجلها العجب وقلبها الغفلة وكونها الفناء وحاصلها الزوال، فمن أحبّها أورثته الكبر، ومن استحسنها أورثته الحرص، ومن طلبها أورثته إلى الطمع، ومن مدحها ألبسته الرياء، ومن أرادها مكّنته من العجب، ومن اطمأنّ إليها أولته الغفلة، ومن أعجبته متاعها، أفنته ومن جمعها وبخل بها ردّته إلى مستقرها، وهي النار**»[2].

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج 2، ص 315.
(2) الامام جعفر الصادق عليه السلام، مصباح الشريعة، ص 139.

وروي الديلمي في إرشاد القلوب عن أمير المؤمنين عليه السلام عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في ليلة المعراج، ممّا خاطب الله به نبيه: «**يا أحمد، لو صلّى العبد صلاة أهل السماء والأرض، وصام صيام أهل السماء والأرض، وطوى من الطعام مثل الملائكة، ولبس لباس العابدين، ثمّ أرى في قلبه من حبّ الدنيا ذرّة**[1]**، أو سمعتها أو رياستها أو حليتها أو زينتها، لا يجاورني في داري، ولأنزعنّ من قلبه محبّتي، ولأظلمنّ قلبه حتى ينساني، ولا أذيقه حلاوة محبّتي**»[2].

والأحاديث في هذا الباب أكثر من أن تسعها هذه الأوراق»[3].

2. العلاج العملي:

«فإذا عُلم أنّ حبّ الدنيا هو مبدأ ومنشأ جميع المفاسد، فعلى الإنسان العاقل المعتني بسعادته أن يقتلع هذه الشجرة من جذورها من القلب.

وأمّا طريق العلاج العملي فهو التعامل بالضدّ؛ فإذا كان متعلّقا بالمال والمنال، فليقطع جذورها من القلب ببسط اليد والصدقات الواجبة والمستحبّة. وإنّ من أسرار الصدقات تقليل التعلّق بالدنيا؛ ولهذا يستحبّ للإنسان أن يتصدّق بالشيء الذي يحبّه ويتعلّق قلبه به، كما قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾[4].

وإن كان متعلّقاً بالتفاخر والتفوّق على غيره والرئاسة والاستطالة، فليعمل ضدّها ويرغم أنف النفس بالتراب حتى تصير إلى الصلاح»[5].

العزم على ترك الدنيا

«فأنت يا طالب الحقّ والسالك إلى الله، إذا طوّعت طائر الخيال وقيّدت شيطان الواهمة، وخلعت نعليَ حبّ النساء والأولاد وسائر الشؤون الدنيوية، واستأنست بجذوة نار العشق لفطرة الله، وقلت إنّي آنست نارا، ورأيت نفسك خالياً من موانع السير، وهيّأت أسباب السفر، فقم

(1) المقصود بها الدنيا المذمومة.
(2) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج 12، ص 36.
(3) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 62 - 63.
(4) سورة آل عمران، الآية 92.
(5) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 63.

من مكانك واهجر هذا البيت المظلم للطبيعة والمعبر الضيّق المظلم للدنيا، واقطع سلاسل الزمان وقيوده، وانجُ بنفسك من هذا السجن، وحلّق بطائر القدس إلى محفل الأنس.

(تنادى من العرش العظيم ولا أدري   لماذا مقيم أنت في ذلك الفخّ)

فقوِّ عزمك وأحكِم إرادتك؛ فإنّ أول شرط للسلوك هو العزم، وبدونه لا يمكن أن يُسلك أيّ طريق أو ينال أيّ كمال. والشيخ الأجلّ الشاه آبادي (روحي فداه) كان يعبّر عنه بلبّ الإنسانية، بل يمكن أن يقال: إنّ من إحدى الجهات المهمّة للتقوى والتجنّب عن المشتهيات النفسانية وترك أهوائها والرياضات الشرعية والعبادات والمناسك الإلهيّة، تقوية العزم وانقهار القوى الملكية تحت ملكوت النفس، كما ذكر من قبل. ونحن نختم هذه المقالة بالتحميد والتسبيح للذات المقدّسة الكبريائية جلّ وعلا، وبالثناء على السيد المصطفى والنبيّ المجتبى وآله الأطهار عليهم السلام، ونستمدّ لهذا السفر الروحاني والمعراج الإيماني من تلك الذوات المقدّسة»[1].

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 64.

المفاهيم الرئيسة

1. توجّه القلب إلى الدنيا يعطف معه قوّة الخيال.
2. القلب أمير مملكة النفس وقواها، ومنه الخيال.
3. حبّ الدنيا يؤدّي إلى انشغال الخيال بها.
4. انشغال الخيال بالدنيا يؤدّي إلى كثرة الخواطر والصور.
5. يجب اقتلاع حبّ الدنيا من القلب؛ لأنّه أصل الشقاء.
6. كلّ شرّ ينبع من حبّ الدنيا وتعلّق القلب بها.
7. علاج حبّ الدنيا ينطلق من معرفة آفاتها وخطرها على المصير.
8. الإعراض عن الدنيا يحصل من إدراك عظمة الآخرة.
9. من أيقن بزوال الدنيا وحقارتها زال حبّها من قلبه.
10. يتمّ اقتلاع جذور حبّ الدنيا من القلب بواسطة المجاهدة العملية.
11. اقتلاع حبّ الدنيا من القلب يتمّ من خلال العمل بخلاف ما تريد.

الدرس الرابع عشر

البيان الإجمالي للطهور

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يتعرَّف إلى حقيقة الطهارة في الصلاة،
2. يـدرك أهميـَّة الطهـارة الظاهريـة والباطنيـة وأثرها في الصلاة.
3. يبيّـن أنواع القذارات ويعدّد مراتبها المعنوية، ويشرح كيفية رفعها.

تمهيد

إنّ الطّهارة المطلقة هي الهدف الأعلى من كلّ طهارة، وهي عبارة عن خلوّ القلب والباطن من كلّ ما يبعد عن الله؛ فهو تعالى غاية الغايات ومنتهى الرّغبات.

فعندما نتوجّه إلى تطهير ظاهرنا من النجاسات والقذارات، علينا أن نستحضر معنى القذارات الباطنية، ونطلب الطّهارة منها. ومثلما أنّنا نندفع للتخلّص من أرجاس الظّاهر لكي ندخل إلى الصّلاة، علينا أن نبحث عن أرجاس الباطن ونتخلّص منها لكي نعرج بالصّلاة.

إنّ معراج الإنسان يتطلّب مشاركة كلّ وجوده بكلّ مراتبه في هذا السّفر المعنويّ. وفي كلّ مرتبة يوجد قذارات ونجاسات يجب عليه إزالتها والتطهّر منها إذا أراد أن يصل بحقيقته إلى الغاية المنشودة.

وهذه الحقيقة التي يعبّر عنها بالنّفس الإنسانية الناطقة ذات مراتب كليّة ثلاث، هي: مرتبة الظّاهر وعالم الملك، ومرتبة المثال والعالم البرزخيّ المتوسط، ومرتبة الملكوت وعالم الغيب، ولكلّ مرتبة قواها وجنودها. ويعرض على كلٍّ منها أنواع من القذارات، يعرّفنا الإمام عليها ويدلّنا على كيفيّة التطهّر منها وتطهيرها، حتى نبلغ مقام الطّهارة المطلقة، ويكون كلّ وجودنا ظاهرًا وباطنًا لله تعالى.

ضرورة الطّهارة الباطنيّة

إنّ محضر الله تعالى هو عالم الطّهارة المطلقة من كلّ دَنَس. ويستحيل أن تتطرّق الأرجاس إلى محضر الله؛ لأنّه عالم النّور المطلق والوجود الصّرف والكمال اللامتناهي، ولأنّ منشأ جميع القذارات هو نقص الكمال أو جهة العدم وضعف الوجود. فمن كان مطلق

الوجود يستحيل أن يجتمع معه أيّ درجة من العدم. وحيثما كان الموجود ناقصًا، فهو لم يبلغ تلك الطّهارة المطلقة التي تجعله لائقًا لمحضر الله تعالى؛ ويعني ذلك أنّ المقرّبين هم المطهّرون من جميع أرجاس النقائص والأعدام.

إنّ الله تعالى فيّاض على الإطلاق، ولا حدّ لعطائه وكرمه؛ ولهذا، فإنّه لا يقرّب إلّا بعد أن يطهّر.

يقول الإمام الخميني قُدِّسَ سِرُّهُ: «فليُعلم أنّه طالما كانت حقيقة الصّلاة هي العروج إلى مقام القرب والوصول إلى مقام حضور الحقّ جلّ وعلا، فللوصول إلى هذا المقصد الأعلى والغاية القُصوى يلزم طهارات غير هذه الطّهارات.

وأشواك هذا الطّريق وموانع هذا العروج هي قذارات لا يتمكّن السّالك مع اتّصافه بإحداها من الصّعود إلى هذه المرقاة والعروج بهذا المعراج.

وما يكون من قبيل هذه القذارات فهو موانع الصّلاة ورجس الشّيطان، وما يكون معينًا للسّالك في السّير، ومن آداب الحضور فهو من شروط هذه الحقيقة»[1].

ولهذا، فقد شرط الإمام على السّالك أن يبدأ قبل أيّ شيء برفع هذه الموانع والقذارات فقال قُدِّسَ سِرُّهُ:

«ويلزم للسّالك إلى الله في بدء الأمر رفع الموانع والقذارات كي يتّصف بالطّهارة ويتيسّر له حصول الطّهور الذي هو من عالم النّور. وما لم يتطهّر من جميع القذارات الظّاهريّة والباطنيّة والعلنيّة والسريّة، لا يكون للسّالك أيّ حظّ من المحضر والحضور»[2].

وأوّل ما ينبغي أن يعلمه السّالك أنّ للنفس مراتب، ولكلّ مرتبة نوع من القذارات التي يمكن أن تعرض عليها بحسب ابتلائها بشؤونات هذا العالم، فأوّل مرتبة هي مرتبة الظّاهر:

طهارة الظاهر من المعاصي وآثارها

المعاصي هي نجاسات المرتبة الأولى، وهي عالم الملك والظّاهر وقواه التي هي الجوارح والأقاليم السبعة: العين والأذن والفم واليد والرجل والبطن والفرج. ولها آثار، هي:

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 66.

(2) م.ن، ص 66.

1. آثار المعاصي:

أ. الحرمان من فيض المحضر وحصول القرب:

يقول الإمام الخميني قدس سره: «فأوّل مرتبة من مراتب القذارات هي تلوّث الآلات والقوى الظّاهرية للنّفس بلوث المعاصي وتقذّرها بقذارة التمرّد على وليّ النّعم، وهذا هو الفخّ الصّوريّ الظّاهريّ لإبليس. وما دام الانسان أسير هذا الفخّ، فهو من فيض المحضر وحصول القرب الإلهيّ محروم»[1].

ب. تلوّث الظّاهر مانع من تطهير الباطن:

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: «ولا يظنّن أحد أنّه يمكن أن يرقى إلى مقام حقيقة الإنسانيّة، أو يستطيع أن يطهّر باطن قلبه من دون تطهير ظاهر مملكة الإنسانيّة، فهذا غرور الشّيطان ومن مكائده العظيمة؛ وذلك لأنّ الكدورات والظّلمات القلبيّة تزداد بالمعاصي التي هي غلبة الطّبيعة على الرّوحانيّة. وما دام السّالك لم يفتتح المملكة الظّاهريّة فهو محروم بالكامل من الفتوحات الباطنيّة التي هي المقصد الأعلى، ولا ينفتح له طريق إلى السعادة»[2].

وفي المقابل، فإنّ الباطن لو كان طاهرًا، لما قَبِل بتلوث الظّاهر بالمعاصي؛ لأنّ الظّاهر هو أداة الباطن ووسيلته للحفاظ على الطّهارة الباطنية، فمن حسُنت أخلاقه، قلّت ذنوبه، ومن أخلص قلبه، حسُنت أخلاقه.

2. كيفيّة تطهير المملكة الظّاهرية:

أ. معرفة أصل الطّهارة والعصمة:

إنّ الأصل الأوّليّ في حركة الطّهارة بجميع مراتبها، أن يعلم الإنسان قبل أيّ شيء أنّ الطّهارة المطلقة هي أصل خلقته، وإنّما امتدّت اليد الخبيثة لإبليس اللعين وأخرجت نفسه عن طهارتها الأوّليّة، ويجب عليه أن يستعيد هذه الطّهارة، يقول الإمام الخميني قدس سره: «وليُعلم أنّ جميع القوى الظّاهريّة والباطنيّة التي أعطانا الله إيّاها وأنزلها من عالم الغيب، هي أمانات إلهيّة كانت طاهرة من جميع القذارات، وكانت طاهرة مطهّرة، بل كانت متنوّرة

---

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 66 - 67.

(2) م.ن، ص 67.

بنور الفطرة الإلهيّة وبعيدة عن ظلمة تصرّف إبليس وكدورته. فلمّا نزلت إلى ظلمات عالم الطّبيعة وامتدّت يد تصرّف شيطان الواهمة ويد الخيانة الإبليسيّة إليها، خرجت عن الطّهارة الأصليّة والفطرة الأوليّة، وتلوّثت بأنواع القذارات والأرجاس الشّيطانيّة»[1].

ب. التّوبة النّصوح:

فإذا علم السّالك أنّ أصل الطّهارة من الله تعالى، فعليه أن يؤوب إليه ويرجع طالبًا منه الطّهارة، وهذه هي حقيقة التوبة، يقول الإمام الخميني قدس سره: «فأحد الموانع الكبيرة لهذا السّلوك هو قذارات المعاصي التي لا بدّ أن تطهّر بماء التوبة النصوح الطاهر الطّهور»[2].

ج. التمسّك بوليّ الله شرط لتحقيق الطّهارة:

التمسّك بذيل عناية وليّ الله هو الدّخول في الحصن الحصين والملجأ المنيع من جنود إبليس، كما جاء عن الإمام الرضا عليه السلام في «**كلمة «لا إله إلا الله» حصني**»[3]. وحصن المعصوم هو الولاية بشرطها وشروطها، والتي تشكّل ذاك المعسكر ذا الصفّ المرصوص الذي لا يصعُب اختراقه، وهو عبارة عن تلك البيئة الاجتماعيّة والجهاديّة التي تشكّل سدًّا منيعًا أمام نفوذ آثار البيئة الفاسدة التي تدعو إلى كلّ معصية وقبيح.

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: «فالسّالك إلى الله إذا أبعد يد الشّيطان بالتمسّك بذيل عناية ولّي الله، وطهّر المملكة الظّاهريّة وردّ الأمانات الإلهيّة كما أخذها، فهو ما خان الأمانة حينئذٍ. وإن صدرت منه خيانة فهو مورد للغفران والستّاريّة، فيستريح خاطره من ناحية الظّاهر»[4].

3. علاقة حصول الطّهارة:

فكيف تتجلّى طهارة الظّاهر عندئذ؟ هنا يجيب الإمام الخميني قدس سره قائلًا: «فأوّل مرتبة للطّهارة هي الاستنان بالسّنن الإلهيّة وإطاعة أوامر الحقّ»[5].

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 67.
(2) م.ن، ص 67.
(3) الإربلي، كشف الغمّة، ج2، ص 308.
(4) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 67.
(5) م.ن، ص 71.

طهارة الخيال من الأخلاق الفاسدة

المرتبة الثانية للنفس هي البرزخية، والتي يُعبَّر عنها بعالم المثال، وتكون الحواس الباطنة قواها. وقذارتها عبارة عن تلك الأخلاق الرذيلة والملكات الخبيثة:

1. آثار الأخلاق الفاسدة:

أ. الحرمان من مقام القدس:

يقول الإمام الخمينيّ قُدِّسَ سِرُّهُ: «ويقوم بتخلية الباطن من أرجاس الأخلاق الفاسدة؛ وهذه هي المرتبة الثانية من القذارات التي فسادها أكثر وعلاجها أصعب، وعند أصحاب الارتياض أهمّ؛ لأنّه ما دام الخُلق الباطنيّ للنّفس فاسدًا والقذارات المعنويّة محيطة بها، لا تليق بمقام القدس وخلوة الأنس، بل مبدأ فساد المملكة الظّاهريّة للنّفس هو الأخلاق الفاسدة والملكات الخبيثة»[1].

ب. الحرمان من الاستقامة:

صحيح أنّ بدء حركة الطّهارة يكون بتطهير الجوارح من قذارة المعاصي، لكنّ رسوخ هذه الحالة من التقوى موقوف على تطهير أصل نشوء المعاصي، وهو رذائل الأخلاق كما علمت؛ لهذا، يقول الإمام الخميني قُدِّسَ سِرُّهُ: «وما دام السّالك لم يبدّل الملكات السيّئة بالملكات الحسنة فليس مأمونًا عن شرور الأعمال. وإذا وُفّق للتوبة، فإنّ الاستقامة عليها - التي هي من المهمّات - لا تتيسّر له. فتطهير الظّاهر أيضًا متوقّف على تطهير الباطن»[2].

ج. الحرمان من السعادة والدخول في جهنّم الأخلاق:

فإذا أصبحت الأخلاق الفاسدة ملكات راسخة في النّفس، حُشرت معها أو بها. ولا شكّ بأنّ مآل الإنسان في الآخرة ومصيره هو بحسب باطنه وجوهره، فمن كان باطنه وسريرته فاسدة فلا يصلحه إلا النّار؛ لهذا يقول الإمام الخميني قُدِّسَ سِرُّهُ: «مضافًا إلى أنّ القذارات الباطنيّة موجبة للحرمان من السّعادة ومنشأ لجهنّم الأخلاق التي هي كما يقول (أهل

---

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 67.
(2) م.ن، ص 67 - 68.

المعرفة) أشدّ حرًّا من جهنّم الأعمال، وقد أشير كثيرًا إلى هذا المعنى في أخبار أحاديث أهل بيت العصمة»[1].

هذا على صعيد العقاب، والعقاب الذي هو أشدّ ألمًا عبارة عن الحرمان من لقاء الله؛ لهذا يقول الإمام الخميني قدس سره: «وما لم يحصل الخروج من أمّهات المذام الأخلاقيّة التي هي مبدأ فساد المدينة الفاضلة الإنسانيّة ومنشأ للخطيئات الظّاهريّة والباطنيّة، لن يجد السّالك طريقًا إلى المقصد ولا سبيلًا إلى المقصود»[2].

وقد جرت سنّة الله تعالى في طرد المتلوّثين برذائل الصّفات أوّل ما جرت على إبليس؛ فكان لنا فيه عبرة دائمة، يقول الإمام الخميني قدس سره: «إنّ الشّيطان الذي كان مجاورًا لعالم القدس ويُعد في سلك الكروبيين، فإنّه آخر الأمر أبعد بسبب الملكات الخبيثة عن جناب مقام المقرّبين، وأرجم بنداء ﴿ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴾[3]. فإذًا نحن المتأخّرين عن قافلة عالم الغيب والسّاقطين في بئر الطّبيعة العميق والمردودين إلى أسفل سافلين، كيف يمكن مع اتّصافنا بالملكات الشّيطانية الخبيثة أن نليق لمحضر القدس ونكون مجاورين للرّوحانيّين ورفقاء للمقرّبين»[4].

ولقد كان العجب بالنّفس الذي ينشأ من رؤية التّأثير والخلق منها سببًا لكلّ شقاء، يقول الإمام الخميني قدس سره: «إنّ الشّيطان رأى نفسه ورأى ناريّته، وقال: ﴿ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ ﴾[5]، وهذا الإعجاب بالنّفس صار سببًا لعبادة نفسه والتّكبّر، وتحقير آدم وإهانته، وقال: ﴿ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴾[6]، وقاس قياسًا باطلًا ولم يرَ حسن آدم وكمال روحانيته، بل رأى ظاهره ومقام طينيته وترابيته، ورأى من نفسه مقام ناريّته، وغفل عن الشّرك وحبّ النّفس ورؤيتها، فصار حبّ النّفس حجابًا لرؤية نقصه وشهود عيوبه. وصارت هذه الرؤية للنّفس وحبّها سببًا لعبادة النّفس والتكبّر والتّظاهر والرّياء والاستقلال في الرأي والعصيان، وأبعد عن معراج القدس إلى تيه الطّبيعة المظلمة»[7].

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 68.
(2) م.ن، ص 86.
(3) سورة الحجر، الآية 34.
(4) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 86.
(5) سورة الأعراف، الآية 12، سورة ص، الآية 76.
(6) سورة الأعراف، الآية 12.
(7) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 87.

2. كيفية تطهير المرتبة الثانية:

أ. الشرع الأنور: أساس برنامج التطهير:

لله تعالى في شريعته اهتمام خاصّ بتطهير النّفس من مساوئ الأخلاق؛ ولهذا ينبغي للسّالك أن يستخرج برنامج الطّهارة من هذه الشّريعة ولا يسلك مسالك الرياضات المخترعة، يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: «فاللازم للسّالك إلى الله أن يطهّر نفسه من أمّهات الرّذائل والأرجاس الباطنية الشّيطانيّة عند تطهيره الأرجاس الصوريّة، وأن يغسل المدينة الفاضلة بماء رحمة الحقّ والارتياض الشرعي، ويصفّي قلبه الذي هو محلّ لتجلّي الحقّ، ويخلع نعلَي حبّ الجاه والشّرف، كي يليق للدخول في الوادي المقدّس الأيمن، ويكون قابلًا لتجلّي الرّبّ. وما لم يحصل التّطهير من الأرجاس الخبيثة لا يمكن له التّطهير من الأحداث؛ لأنّ تطهير الظّاهر مقدّمة لتطهير الباطن»[1].

ب. التحلّي بفضائل الأخلاق:

وعليه أن يسلك برياضته طريق التحلّي بالفضائل؛ لأنّ النّفس لا يمكن ألّا تتّصف بشيء. ولا بدّ من استبدال صفاتها الخبيثة بصفات طيّبة فاضلة، فيقول الإمام الخمينيّ قدس سره: «وما دام السّالك لم يبدّل الملكات السيّئة بالملكات الحسنة، فليس مأمونًا عن شرور الأعمال»[2].

ج. العلم النافع:

العلم النافع هو العلم بمضارّ الأخلاق الفاسدة وما ينجم عنها وما هي عواقبها وآثارها في الدّنيا والآخرة. فمن كان في نفسه بقيّة طهارة، وأدرك وخامة العجب والكبر والحسد، توجّهت نفسه إلى الخلاص منها بعد الشّعور بألم التلبّس بها.

والعلم النافع هو الذي يبيّن للإنسان كيفيّة التخلّص من الأمراض القلبيّة والرّذائل الأخلاقيّة وسبل العلاج منها.

«فيلزم للسّالك إلى الله هذه الطّهارة أيضًا، وبعد أن غسل عن لوح النّفس التلوّث بالأخلاق الفاسدة بماء العلم النّافع الطّاهر الطّهور»[3].

---

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 87.
(2) م.ن، ص 67.
(3) م.ن، ص 68.

طهارة القلب من التعلّق بما سوى الله

المرتبة الثالثة هي مرتبة القلب، وهي التي تعبّر عن هويّة الإنسان الحقيقية، وهي الهويّة الغيبيّة للنّفس ومعدن وجودها. وقذارتها هي وجود التوجّه إلى غير اللّه في القلب، يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: «وهي عبارة عن التعلّق بغير الحقّ والتوجّه إلى النّفس وإلى العالم. ومنشؤها جميعًا حبّ الدّنيا الذي هو رأس كلّ خطيئة وحبّ النّفس الذي هو أمّ الأمراض»(1).

1. آثار قذارة القلب:

وينبغي الالتفات إلى مخاطر هذه القذارة، حيث تشكّل الغفلة عنها سبب بقاء جميع القذارات؛ لأنّها منبعها جميعًا، ويذكر الإمام الخمينيّ قدس سره هذه المخاطر بصورة الآثار التي تنجم عن قذارة القلب، فيقول قدس سره:

أ. فساد مملكة وجود الإنسان كلّها:

«عليه أن يشتغل بتطهير القلب الذي هو أمّ القرى، وبصلاحه تصلح الممالك كلّها، وبفساده تفسد كلّها»(2).

ب. مبدأ جميع القذارات:

«وقذارات عالم القلب مبدأ القذارات كلّها»(3).

ج. الانحراف عن المقصد:

«وما دامت جذور هذه المحبّة [حبّ الدّنيا] في قلب السّالك لا يحصل فيها أثر من محبّة اللّه، ولا يهتدي طريقًا إلى منزل المقصد والمقصود. ومادام للسّالك في قلبه بقايا من هذه المحبّة، لا يكون سيره إلى اللّه، بل يكون إلى النّفس وإلى الدّنيا وإلى الشّيطان، فالتطهير من حبّ النّفس والدّنيا هو أوّل مراتب تطهير السّلوك إلى اللّه في الحقيقة؛ لأنّه قبل هذا التّطهير لا يكون السّلوك سلوكًا، وإنّما يُطلق السّلوك والسّالك على سبيل المسامحة»(4).

---

(1) الخمينيّ، روح اللّه الموسوي، معراج السالكين، ص 68.
(2) م.ن، ص 68.
(3) م.ن، ص 68.
(4) م.ن، ص 68.

2. كيفيّة التّطهير من قذارات القلب:

إذا أردنا لقلوبنا أن تسلم وتطهر، فينبغي أن نسلّمها للّه الحقّ المتعال. وهذا التّسليم هو روح الإسلام، كما جاء في كلمات أمير المؤمنين عليه السلام: «**الإسْلامُ هُوَ التّسليم**»[1]. فعندما يسلّم السّالك للّه في قضائه وفي تدبيره، يسير على طريق مخالفة النّفس والهوى الذي هو أصل قذارة القلب؛ لهذا يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: «والمرتبة الثالثة هي الطّهور القلبيّ الذي هو عبارة عن تسليم القلب للحقّ»[2].

3. طهارة القلب وحالاتها:

في هذا النّصّ الرّائع يذكر الإمام الخميني قدس سره كيف تسري الطّهارة في القلب، ومنه إلى جميع مراتب وجوده، وما يترتّب على هذه الطّهارة في جميع شؤونه:

«وبعد هذا التّسليم يصبح القلب نورانيًّا، بل يكون بذاته من عالم النّور ودرجات النّور الإلهيّ. وتسري نورانيّة القلب إلى سائر الأعضاء والجوارح والقوى الباطنة وتصبح كلّ المملكة نور، ونور على نور حتّى يصل الأمر إلى حيث يصبح القلب إلهيًّا لاهوتيًّا وتتجلّى حضرة اللاهوت في جميع مراتب الباطن والظّاهر. وفي هذه الحالة، تفنى العبودية كليًّا وتختفي وتظهر الرّبوبيّة وتتجلّى. فيعرض على قلب السّالك في هذه الحالة الطّمأنينة والأنس، ويصبح العالم كلّه محبوبه وتأخذه الجذبات الإلهيّة وتغفر خطاياه وزلّاته، وتستتر في ظلّ التجليّات الحبّيّة، وتحصل له بدايات الولاية ولياقة الورود إلى محضر الأنس. ومن بعدها منازل لا يتناسب ذكرها وهذه الأوراق»[3].

القلب الإلهيّ هو القلب الذي لا تنعكس منه سوى أنوار العظمة الإلهيّة، وهو القلب الذي ورد بشأنه: «**ما وسعني أرضي ولا سمائي، ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن**»[4]. هو القلب الذي يظهر الحقائق الإلهيّة برمّتها ويكون مظهر ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾[5].

---

(1) الشيخ الكلينيّ، الكافي، ج2، ص 45.
(2) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 71.
(3) م.ن، ص 71 – 72.
(4) الفيض الكاشاني، الوافي، ج11، ص 536.
(5) سورة التكوير، الآية 24.

ومن أحبّه الله تعالى ستر على ذنبه وغطّاه؛ وهو معنى ستر التعيّنات الخلقيّة التي هي منشأ جميع الذنوب كما قيل: «**وجودك ذنب لا يقاس به ذنب**»[1].

والولاية مقام القرب الذي فيه تظهر التّدبيرات الربانية وتتحقّق معاني: «إنّ لله عباداً إذا أرادوا أراد».

ويقول الإمام قدس سره: «وبعد هذا المنزل منازل المدن السّبعة لعشق العطار يظهر نموذج منها للسّالك. وذاك القائل السّالك رأى نفسه في أوّل منعطف من زقاقها»[2].

والمدن هي مراحل السّير إلى الله التي تبدأ بالطّلب وتنتهي بالفناء. فأوّلها طلب الحقّ تعالى، ثمّ عشقه، ثمّ معرفته، ثمّ الاستغناء به، ثمّ توحيده، ثمّ الحيرة في أسمائه وجماله إلى حيث الفناء فيه.

ومن أجل ألّا نستعظم هذه الحالات والمقامات فيدفعنا ذلك إلى إنكارها دون أن نشعر يلفت الإمام الخميني قدس سره نظرنا إلى نصحه وحرصه علينا، فيقول:

«ونحن وراء الأسوار والحجب الضخمة، ونحسب تلك البلاد وأمراءها من الأساطير.

أنا لا دخل لي بالشّيخ العطار أو ميثّم التمّار، ولكن لا أنكر المقامات من أصلها، وأطلب صاحبها بالقلب والرّوح، وأرجو الفرج في هذه المحبّة. وأنت كن كما شئت، واتّصل بمن شئت.

ولكن، لن أكون خائنًا للأحبّاء العرفانيين في الأخوّة الإيمانيّة والخلّة الرّوحانيّة، ولا أضيق من النّصيحة لهم، وهي من حقوق المؤمنين»[3].

الطهارة من الجهل المركّب

وبالنّظر إلى خطورة إنكار المقامات يذكر الإمام الخمينيّ قدس سره العامل الأساس وراء ذلك وهو قذارة الجهل المركّب، فيقول قدس سره: «فإنّ أعظم القذارات المعنويّة التي لا

(1) الفيض الكاشاني، الوافي، ج1، ص 103.

(2) (اشارة إلى الشعر المعروف للعارف الرومي يقول فيه:

هفت شهر عشق را عطّار كَشت ماهنوز اندر خم يك كوجه ايم

يعنى أن عطّار النيشابوري (العارف المعروف) سار ودار في المدن السبعة التي هي مدن العشق وبلاده. ولكنّا مع الاسف إلى الان لم نتجاوز منعطف زقاق واحد لتلك المدن).

(3) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 69.

يمكن تطهيرها بسبعة أبحر، وأعجزت الأنبياء العظام هي قذارة الجهل المركّب، الذي هو منشأ ذاك الدّاء العضال، ألا وهو إنكار مقامات أهل اللّه وأرباب المعرفة ومبدأ سوء الظنّ بأصحاب القلوب. وما دام الانسان ملوّثًا بهذه القذارة، لا يتقدّم خطوة إلى المعارف، بل ربّما تطفئ هذه الكدورة نور الفطرة الذي هو مصباح طريق الهداية، وتنطفئ بها نار العشق التي هي بُراق العروج إلى المقامات وتخلّد الإنسان في أرض الطّبيعة»[1].

الجاهل الذي يظنّ نفسه عالمًا هو المسمّى بالجاهل المركّب؛ لأنّه جاهلٌ بجهله. وعندما لا يدرك الإنسان مدى جهله لا يلتفت إلى ما خفي عنه، فيظن أنّه بلغ غاية العلم ومنتهاه. فإذا جاء من يخبره عن مقامات لا يعرف عنها شيئًا لم يقبل ذلك ورمى الكلام بالباطل وصاحبه بالجهل؛ فيؤدّي به جهله المركّب إلى إنكار المقامات، ومن ثمّ إنكار من يتّصف بها، وقد يصل الأمر به إلى حد معاداة كلّ من يتحدّث عنها أو يمثّلها.

وينصح الإمام بضرورة التفكّر في أحوال الأولياء؛ لأنّ أكثر الذين يحبّون أولياء اللّه لا يعرفون مقاماتهم، ويظنّون أنّ الحديث عن هذه المقامات هو من اختراعات بعض المنحرفين. فيطعنون بها دون معرفة منهم أنّهم يطعنون بأهلها الواقعيّين.

فيقول الإمام الخميني قدس سره: «فاللازم على الانسان أن يغسل هذه القذارة من باطن القلب بالتفكّر في حال الأنبياء والأولياء الكمّل (صلوات اللّه عليهم) وتذكّر مقاماتهم، وألاّ يقنع بالحدّ الذي هو فيه»[2].

(1) الخميني، روح اللّه الموسوي، معراج السالكين، ص 69.
(2) م.ن، ص 69.

المفاهيم الرئيسة

1. الطّهارة المعنويّة شرط للصّلاة المعنويّة.
2. الطّهارة القلبيّة تستلزم الطّهارة من القذارات المعنويّة.
3. لكلّ مرتبة من مراتب النّفس نوع من القذارات المعنويّة.
4. أوّل مرتبة من القذارات المعنويّة هي المعاصي والذنوب.
5. المرتبة الثانية للقذارات المعنويّة هي رذائل الأخلاق.
6. المرتبة الثالثة للقذارات المعنويّة هي التعلّق بما سوى اللّه.
7. جميع القذارات المعنويّة تنشأ من تعلّق القلب بغير اللّه.
8. يتمّ التطهّر من نجاسة المعاصي بالتوبة والإقلاع.
9. يتمّ التطهّر من رذائل الأخلاق بتحلية النّفس بفضائلها.
10. إذا تعلّق القلب باللّه طهُر من جميع التعلّقات.

الدرس الخامس عشر

تطهير الفطرة

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يذكـر معنى الفطـرة، ويبيّن دورها فـي الاتّصال برحمة اللّه المطلقة.

2 . يوّضح طرق العودة إلى الفطرة.

3 . يتعـرَّف إلى أعظـم مظاهر الرّحمـة المطلقة في الحياة البشرية.

تمهيد

ننظر إلى الإنسان من زاوية أخرى فنرى فيه قوّة إلهيّة، وهذه القوّة قد تتعرّض للتلوّث والقذارة التي تؤدّي إلى زوالها. وإذا زالت هذه القوّة، فقد الإنسان أيّ أمل بالتّكامل.

وتلوّث هذه القوّة الإلهيّة هو السّبب الأوّل والأساس وراء جميع مصائبه ومشاكله.

إنّها الفطرة التي يُفترض أن تجذب كلّ مخلوق إلى غايته.

فما الذي يحدث حتّى يفقد الإنسان هذا النّور المؤيّد والسّبب الجاذب؟ وهل يمكنه استعادة ما فقده منه؟

وهل وُجد أُناس تمكّنوا من الحفاظ على فطرتهم وطهارتهم بالكامل، وحالوا دون أن يعرض عليها أيّ نوع من الأرجاس؟

وما هو سرّ هذا المقام؟ وأنّى لنا الاستفادة منه في واقعنا الذي تعاني فيه الفطرة من كلّ هذا التلويث الذي لم تعرفه البشريّة من قبل؟

درجات النّاس بحسب الفطرة

تخضع فطرة الإنسان لتأثيرات متناقضة، ويكون الوضع النّهائيّ لها في نفسه بيده هو. فمن جهة نرى جنود اللّه وهي تشدّ هذا الإنسان وتدعوه إلى الطّهارة المطلقة وتصفية فطرته وتنقيتها وتلهمه كلّ خير وسعادة؛ ومن جهة أخرى تعمل جنود إبليس على تلويث الفطرة وحرف صاحبها ليصمّ عن ندائها الأصيل، وتمارس كلّ أنواع الدعوات الباطلة والتّسويلات المضلّة والإلقاءات المفسدة، لكي لا تجد الفطرة مصداق ما تصبو إليه في عالم الواقع، فيقع صاحبها في اليأس والقنوط.

فمن استجاب لنداء جنود الرحمان، صارت فطرة اللّه قائده ودليله في كلّ شيء حتّى

توصله إلى السّعادة المطلقة والكمال اللامتناهي.

ومن اتّبع جنود الشّيطان ساقته إلى الشّقاء والتّعاسة وبئس المصير. والسّالك سبيل الفطرة من بداية حياته إلى آخرها هو الإنسان الكامل. والرافض لدعوة الفطرة دومًا أو أبدًا هو الشّيطان بصورة إنسان.

وما دام في الحياة الدّنيا فكلّ شيء خاضع للتبدّل والتحوّل؛ لأنّ الدّنيا هي محلّ القابلية المعبّر عنها بالهيولى.

إلّا أنّ اللّه شاء أن يبتدئ البشر بغلبة الخير والسّعادة، فأفسح لهم جميعًا منذ البداية بتلمّس نور الفطرة وتجربتها ولو بمقدارٍ قليل، عسى أن يرجعوا إليها كلّما عميت عليهم السّبل ونسوا معنى الكمال الواقعيّ؛ ولهذا «**ما من مولود إلّا ويولد على الفطرة**»(1).

فإذا كانت العوامل الاجتماعية غير مساعدة، وقبِل الإنسان بتأثيراتها السلبية، خمد نور الفطرة فيه. وإذا كانت الأوضاع الاجتماعية مناسبة، تفعّلت الفطرة فيه مبكرًا، وانجذبت نفسه إلى كمالات هذا العالم وخيراته التي هي مظاهر الكمال المنشود.

يقول الإمام الخميني قدس سره:

«اعلم أنّ الانسان مادام في عالم الطّبيعة ومنزل المادّة الهيولانيّة فسوف يكون تأثير جنود إلهيّين وجنود إبليسيّين. والجنود الإلهيّون هم جنود الرّحمة والسّلامة والسّعادة والنّور والطّهارة والكمال، وجنود إبليس في مقابلها.

وحيث إنّ الجهات الرّبوبيّة غالبة على الجهات الإبليسيّة، ففطرة الإنسان تكون في البداية نورًا وسلامة وسعادة وفطرة إلهيّة، كما صُرّح بذلك في الأحاديث الشّريفة وأُشير إليه في الكتاب الإلهيّ الشّريف.

ومادام الإنسان في هذا العالم، فهو قادر على أن يجعل نفسه باختياره تحت تصرّف أحد هذين الجنديين. فإذا لم يكن لإبليس من أوّل الفطرة إلى آخرها تصرّف في فطرته، فهو إنسانٌ إلهيّ لاهوتيّ، وهو من قرنه إلى قدمه نور وطهارة وسعادة. وقلبه نور الحقّ ولا يتوجّه لغير الحقّ، وقواه الباطنيّة والظّاهريّة نورانيّة وطاهرة، ولا يتصرّف فيها سوى الحقّ، وليس

(1) الكليني، الكافي، ج2، ص 13.

لإبليس فيها حظّ ولا لجنوده فيها تصرّف. ومثل هذا الموجود الشّريف طاهر مطلقًا ونورٌ خالص، وما تقدّم من ذنبه وما تأخّر فهو مغفورٌ له، وهو صاحب الفتح المطلق والواجد لمقام العصمة الكبرى بالأصالة، وبقيّة المعصومين واجدون لذاك المقام تبعًا لذاته المقدّسة. وهو صاحب مقام الخاتميّة الذي هو الكمال على الإطلاق.

ضرورة الجهاد لاستعادة الفطرة

يقول الإمام الخمينيّ قدّس سرّه: «وينبغي أن تعلم أنّ تطهير الفطرة بعد تلوّثها أمرٌ ممكن. ومادام الإنسان في هذه النشأة فإنّ التحرّر من تصرّف الشّيطان أمرٌ مقدور له وميسّر، وكذلك الدّخول في حزب ملائكة اللّه الذين هم جنود رحمانيّون إلهيّون. وحقيقة جهاد النّفس الذي هو بقول الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم أفضل من مجاهدة أعداء اللّه، وهو الجهاد الأكبر، هو الخروج من تحت سلطة جنود إبليس والدخول في تصرّف جنود اللّه»[1].

فالجهاد الأكبر يجري في هذا الميدان، وهو ميدان استعادة الفطرة والحفاظ عليها وتقوية حضورها في النّفس.

وللإمام قدّس سرّه شرح مفصّل لحديث جنود العقل والجهل الذي ذكر أهم جنود اللّه وجنود إبليس. والجنود هم الأخلاق والطبائع التي تؤدّي دورًا أساسيًّا في إحياء الفطرة أو إماتتها. فمن أراد حياة الفطرة فليخرج من رذائل الأخلاق ومفاسد الطّباع من خلال مجاهدة نفسه.

وقد أثبت الإمام أنّ جميع الأخلاق الفاضلة ترجع إلى الفطرة العاشقة للكمال، وأنّ جميع الملكات النّفسانية السيّئة ترجع إلى انحراف الفطرة وتكدّرها؛ وذلك لأنّ حقيقة الأخلاق الفاضلة هي الكمال، وأصل مفاسد الأخلاق يرجع إلى النقص. فمن كانت فطرته الفطرة الكاملة توجه إلى جميع الفضائل وأقبل عليها حتى يتّصف بها.

كيفيّة العودة إلى الفطرة

إنّ العودة إلى الفطرة تمثّل حالة الرجوع إلى اللّه والاتّصال برحمته المطلقة التي تطّهر وجود الإنسان وكيانه من كلّ ما سوى اللّه. فمن أراد أن يحقّق الطّهارة المطلقة بالعودة إلى الفطرة الكاملة، فعليه أن يرتبط برحمة اللّه. ولهذه الرّحمة في حياة البشر طريقان،

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 71.

أحدهما أصليّ وهو الذي أراده الله تعالى للبشرية في بدء أمرها فلمّا فقدته، اقتضت رحمته أن يشقّ لها طريقًا ثانيًا واستثنائيًا، وهذا ما نستفيده من أحكام الوضوء والتيمّم.

للوضوء والتيمّم في الحياة وسيلتان هما الماء والتّراب؛ والماء مظهر الرّحمة المطلقة، والتّراب مظهر الرّحمة الاستثنائية. وعندما يفقد النّاس نعمة الماء؛ فذلك لأنّهم لم يشكروا أو يقدّروا أهميّة وجوده، فحُرموا منه. وعليهم حينئذٍ أن يمرّغوا جباههم بتراب المذلّة والاعتراف بالتّقصير والخطأ، عسى أن يُفتح لهم باب الرّحمة الواسعة الميسّرة من جديد.

وللماء في الحياة الاجتماعيّة مظاهر عدّة فإذا فقد النّاس هذه المظاهر أو صعب عليهم الوصول إليها، فإنّ رحمة الله لا تنقطع وسوف يفتح الله لهم بابًا للرّجوع والطّهارة بشرط الاعتراف بتقصيرهم بحقّ هذه المظاهر، وإلّا فلن يستفيدوا بعدها أبدًا.

يقول الإمام الخميني قدس سره: «اعلم أنّ للإنسان السّالك في الوصول إلى المقصد الأعلى ومقام القرب الربوبيّ طريقين على نحو كليّ، أحدهما: وله مقام الأوّليّة والأصالة، ومظهره في عالم الطّبيعة الماء، وهو السّير إلى الله بالتوجّه إلى مقام الرّحمة المطلقة وخصوصًا الرّحمة الرحيميّة، وهي رحمة توصل كلّ موجود إلى كماله اللائق به»[1].

أعظم مظاهر الرحمة المطلقة في الحياة البشريّة

يعدّد الإمام الخميني قدس سره هذه المظاهر، ويقول إنّهم:

1. الهداة الإلهيّون: «ومن شعب هذه الرّحمة الرحيميّة ومظاهرها بعث الأنبياء والرسل (صلوات الله عليهم) الذين هم هداة السبل والآخذون بأيدي المتخلّفين»[2].
2. الكتاب الإلهيّ: «فهذا الكتاب الإلهيّ العظيم الذي نزل من عالم الغيب الإلهيّ والقرب الرّبوبيّ، ولأجل مصلحتنا نحن المهجورين وخلاصنا نحن المسجونين في سجن الطّبيعة والمغلولين في سلاسل أهواء النّفس والآمال قد صار في صورة اللفظ والكلام، هو من أعظم مظاهر الرحمة الإلهيّة المطلقة. ونحن الصمّ العمي لم نستفد منه بشيء ولا نستفيد»[3].

---

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 76.
(2) م.ن، ص 76.
(3) م.ن، ص 76.

الرسول الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم: «وإنّ الرسول الخاتم والوليّ المطلق الأكرم - الذي قدم من محضر القدس الربوبيّ ومحفل القرب والأنس الإلهيّ إلى منزل الغربة والوحشة، وابتلي بمعاشرة أمثال أبي جهل ومن هو شرّ منه وأنينه ليُغان على قلبي قد أحرق قلوب أهل المعرفة والولاية ومازال - هو الرحمة الواسعة والكرامة الإلهيّة المطلقة، التي كان قدومها إلى هذه الدويرة لرحمة موجودات وسكنة العالم الأسفل وإخراجهم من دار الغربة والوحشة هذه، فهو صلى الله عليه وآله وسلم كالحمامة المطوّقة التي تلقي بنفسها إلى الشباك لتنجي رفقاءها منه»[1].

التوجّه المعنويّ إلى الرّحمة

إنّ اتّصال الإنسان برحمة الله المطلقة تستلزم التوجّه إليها؛ ولأجل تسهيل هذا التوجّه على الإنسان أمرنا الله تعالى بالوضوء للصّلاة باستعمال الماء الذي هو مظهر اللطف والرّحمة في عالم الطّبيعة، لكي تتوجّه قلوبنا بفضل ذلك إلى الرّحمة الإلهيّة التي وسعت كلّ شيء، يقول الإمام الخميني قدس سره: «فلا بدّ للسّالك إلى الله أن يرى التّطهير بماء الرّحمة صورة لاستفادته من الرّحمة الإلهيّة النّازلة. ومادامت الاستفادة ميسورة له، لا بدّ أن يقوم بأمرها»[2].

فدار التحقّق هي العوالم كلّها والتي جعلها الله تعالى (بصورتها الأصليّة وقبل أن تمتدّ إليها يد الإفساد البشريّ) مهدًا للتربية والتكامل والاستفادة من فيض الله والوصول إلى الله.

التراث مظهر الرحمة الإلهية في عالم الطّبيعة

يقول الإمام قدس سره: «وإذا قصرت يده عنها بسبب القصور الذاتيّ أو تقصيره وبسبب فقد ماء الرحمة لم يكن له بدّ إلّا التوجّه بذلّه ومسكنته وفقره وفاقته. فإذا جعل ذلّة عبوديّته نصب عينيه، وتوجّه باضطراره الذاتيّ وفقره وإمكانه الذاتيّ وخرج من التعزّز والغرور وحبّ النّفس، ينفتح له باب من الرّحمة وتبدّل أرض الطّبيعة بأرض الرّحمة البيضاء، ويصير التراب أحد الطّهورين ويصير موردًا لترحّم الحقّ تعالى وتلطّفه. وكلّما قوي هذا النّظر في

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 76 - 77.
(2) م.ن، ص 77.

الانسان، أي النظر إلى ذلّة نفسه، يكون موردًا للرّحمة أكثر»[1].

عندما يفقد الإنسان الماء، ينبغي ألّا ييأس. هكذا كانت حكمة تشريع التيمّم بالتراب الذي هو أكثر انتشارًا من الماء. فرغم أنّ للتيمّم بالتراب جهة ذلّة، لكنّه أوسع وأسهل. ومقارنةً بالماء، الذي يمكن أن يُفقد في بعض الظّروف، فإنّ التراب متوافر في كلّ مكان.

الاعتماد على النّفس أساس الهلاك

لمّا كان الاتّصال بمظاهر رحمة الله أساس الخلاص، فإنّ ما يقابل ذلك هو الاستغناء عن هذه الرّحمة والذي يظهر بصورة الاعتماد على النّفس؛ لهذا يقول الإمام الخميني قدس سره: «وأمّا إذا أراد أن يسلك هذا الطّريق بقدم الاعتماد على نفسه وعلى عمله فهو هالك لا محالة؛ لأنّه من الممكن ألّا يؤخذ بيده؛ فمثله كالطفل الذي يتجاسر على المشي ويغترّ بمشيه ويعتمد على قوّته، فمثل هذا الطفل لا يكون موردًا لعناية أبيه، ويكله الأب إلى نفسه. وأمّا إذا عرض اضطراره وعجزه على جناب الأب الشّفيق وخرج عن الاعتماد على نفسه وعلى قوّته بالكامل، فيصير حينئذ موردًا لعناية الأب ويأخذ الأب بيده، بل يأخذه في حضنه ويمشي به بقدمه.

فالأحرى بالسّالك إلى الله أن يكسر رجل سلوكه وأن يتبرّأ من الاعتماد على نفسه وارتياضه وعمله تمامًا، ويفنى عن نفسه وقدرته وقوّته، ويجعل فناءه واضطراره دائمًا نصب عينيه، حتى يقع موردًا للعناية دائمًا، فيطوي طريق المئة عام بجذبة ربوبيّة في ليلة واحدة. ولسان باطنه وحاله ينادي محضر القدس الرّبوبيّ بعجزٍ وافتقار: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾[2]»[3].

يظنّ بعض الناس أنّ الأمر يدور بين حالين لا ثالث لهما. فإمّا أن يكون الإنسان واثقًا بنفسه ويعبّرون عن ذلك بالثقة بالنّفس أو غير واثق بها ويعبّرون عن هذه الحالة بالإحباط واليأس. وهم لا يدرون أنّ هناك خيار ثالث، وهو الثّقة بالله تعالى.

أجل، إنّ الثقة بالله تستلزم الثّقة بما يهبنا إيّاه من قدرات وإمكانات لكن لا بنحو الاستقلال؛ فمن وثق بالمحدود واعتمد على الضعيف خسر وافتقر.

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 77.
(2) سورة النمل، الآية 62.
(3) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 77.

المفاهيم الرئيسة

1. يجب تطهير النّفس من كلّ ما يلوّث الفطرة.
2. الفطرة هي التوجّه الباطنيّ نحو اللّه وعشقه، وتلوّثها يعني ضعف هذا التوجّه.
3. يؤدّي تلوّث الفطرة إلى انطفاء نورها بالكامل، وإنّ انطفاءها يجعل الإنسان منسلكًا في سلك الشّياطين.
4. تطهير الفطرة أمر ممكن ولو بعد حين.
5. القذارات الصوريّة والمعنويّة هي التي تلوّث الفطرة.
6. يسعى إبليس لتلويث الفطرة والقضاء عليها بالكامل، فمادام الإنسان على الفطرة معنى ذلك أنّ إبليس لم يحقّق هدفه بعد.
7. يُعدّ الماء مظهر رحمة اللّه الواسعة في الدّنيا.
8. أهل البيت هم أهمّ مظاهر رحمة اللّه الواسعة.
9. كتاب اللّه هو مظهر الرحمة الإلهيّة المطلقة.
10. إذا غاب مظهر الرّحمة المطلقة تبقى إمكانيّة الوصول إليه.
11. التيمّم بالتراب مظهر الطريق البديل إلى الرّحمة الإلهيّة، وسرّه هو الاعتراف بالعجز والمذلّة.

الدرس السادس عشر

الآداب القلبيّة للطهارة المائية

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يتعرَّف إلى حقيقة الماء وأسراره.

2 . يعدّد مراتب الطّهارة بحسب تجليات الرحمة الإلهية.

3 . يتعرَّف إلى الأبعاد الثلاثة للطّهارة ويبيّن أحكام كلّ بعد من هذه الأبعاد.

تمهيد

الطّهارة مقدّمة ضروريّة لنيل البركات وتحصيل الكمالات، والماء عنصر أصليّ في تحقيق الطّهارة.

فما هو سرّ جعل الماء وسيلة للطهارة؟ وإذا كانت الطّهارة المعنويّة أساس الاستفادة المعنويّة من العبادة، فما هو المعنى الباطنيّ للماء؟

عندما نتفكّر في وجود الماء في الحياة الدّنيا، لا يمكن أن نتصوّر حياة فيها بلا ماء، فكلّ حياة وحركة إيجابية فيها مبنيّة على توفّره؛ لهذا كان الماء أعظم مظاهر رحمة الحقّ في عالم الطّبيعة.

وعلى السّالك أن ينطلق من هذا المعنى حين توجّهه إلى الوضوء مستعملًا الماء، فيطلب بذلك رحمة اللّه المطلقة، ويستحضر في قلبه كلّ معاني هذه الرّحمة على اختلاف العوالم وتعدّد مراتب الوجود.

وإذا أدرك المؤمن هذه الرّحمة فإنّه يصبح مظهرًا لها في تعامله مع نفسه ومع الخلق ومع الخالق، كما في قوله تعالى: ﴿ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا ﴾[1].

ولكلّ تعامل رحمانيّ مظاهر وتجليّات، فما هي هذه المظاهر؟

نصّ شريف حول سرّ الماء

يستحضر الإمام الخميني قدس سره لأجل بيان بعض أسرار الطّهارة والتوجّه إلى الماء أثناء الوضوء نصًّا شريفًا للإمام الصادق عليه السلام، ثمّ يقوم بشرحه واستخراج جواهر معانيه ويعرضها علينا، ونحن نقوم بتبويب هذه المعاني لتكون أسهل على الفهم وأقرب إلى الحفظ، فيقول الإمام قدس سره:

(1) سورة الكهف، الآية 65.

«ونذكر في المقام الحديث الشريف من مصباح الشّريعة كي يحصل للقلوب الصافية لأهل الايمان منه نورانية، ففي مصباح الشّريعة قال الصادق عليه السلام: «**إذا أردت الطّهارة والوضوء فتقدّم إلى الماء تقدّمك إلى رحمة الله.**

فإنّ الله قد جعل الماء مفتاح قربته ومناجاته ودليلاً على بساط خدمته. وكما أنّ رحمة الله تطهّر ذنوب العباد كذلك النّجاسات الظّاهرة يطهّرها الماء لا غير، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا﴾[1]، **وقال الله تعالى:** ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ﴾[2]، **فكما يحيي به كلّ شيء من نعيم الدّنيا كذلك برحمته وفضله جعل حياة القلوب الطّاعات.**

وتفكّر في صفاء الماء ورقّته وطهارته وبركته ولطيف امتزاجه بكلّ شيء واستعمله في تطهير الأعضاء التي أمرك الله بتطهيرها، وأت بآدابها في فرائضه وسننه، فإنّ تحت كلّ واحدة منها فوائد كثيرة، فإذا استعملتها بالحرمة انفجرت لك عيون فوائده عن قريب.

ثمّ عاشر خلق الله كامتزاج الماء بالأشياء يؤدّي كلّ شيء حقّه ولا يتغيّر معناه، معتبرًا لقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، مثل المؤمن المخلص الخالص كمثل الماء.

ولتكن صفوتك مع الله تعالى في جميع طاعتك كصفوة الماء حين أنزله من السماء وسمّاه طهورًا وطهّر قلبك بالتقوى واليقين عند طهارة جوارحك بالماء»[3]»[4].

يقول الإمام قدس سره: «وفي هذا الحديث لطائف ودقائق وإشارات وحقائق تحيي قلوب أهل المعرفة، وتهب الحياة للأرواح الصافية لأصحاب القلوب»[5]، فما هي أهم هذه الإشارات واللطائف؟

(1) سورة الفرقان، الآية 48.
(2) سورة الأنبياء، الآية 30.
(3) الامام جعفر الصادق عليه السلام، مصباح الشريعة، ص 128 – 129.
(4) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 72 – 73.
(5) م.ن، ص 73.

مثال الماء ورمزيّته في عالم الوجود

يقول الإمام الخميني قدّس سرّه: «ومن نكات تشبيه الماء، بل تأويله برحمة الحقّ، أنّ الماء أحد المظاهر العظيمة لرحمة الحقّ التي أنزلها في عالم الطّبيعة وجعله سببًا لحياة الموجودات، بل أهل المعرفة يعبّرون بالماء عن الرّحمة الإلهيّة الواسعة التي نزلت من سماء «رفيع الدرجات» لحضرة الأسماء والصفات وأحيى بها أراضي تعيّنات الأعيان»[1].

إنّ من معاني السّماوات السّبع أنّها حضرات تجلّي الأسماء الإلهيّة، وتكون كلّ سماء محلًّا لتجلّي اسم أو أسماء. والسّير في السّماوات هو تعبير عن الارتقاء في مراتب معرفة الله والتخلّق بأخلاقه.

والرّحمة الإلهيّة التي تعني إيصال كلّ موجود إلى كماله تظهر في فتح أبواب السّماوات على السّالكين؛ لأنّ عروج الإنسان وتكامله إنّما يحصل في ظلّ معرفة الله تعالى وشهوده.

يقول الإمام الخميني قدّس سرّه: «وحيث إنّ تجلّي الرّحمة الإلهيّة في الماء المُلكيّ الظّاهريّ أكثر من سائر الموجودات الدنيويّة، جعله الله تعالى لتطهير القذارات الصوريّة ومفتاح باب قربه ومناجاته والهادي إلى بساط خدمته الذي هو باب أبواب الرّحمة الباطنيّة»[2].

ويُعلم من هذا الكلام أنّ الطّهارة هي سبب الوصول إلى الغاية، وأنّ الشقاء ليس إلّا رفض هذه الرّحمة الخاصّة التي وسعت كلّ شيء، وأنّ التفكّر برحمة الله أثناء استعمال الماء للطهارة هو الذي يفتح أبواب الطّهارة القلبيّة بجميع درجاتها، يقول الإمام الخميني قدّس سرّه: «بل ماء رحمة الحقّ تعالى إذا نزل وظهر في كلّ نشأة من نشآت الوجود، وفي كلّ مشهد من مشاهد الغيب والشهود، يطهّر ذنوب عباد الله وفقاً لتلك النشأة وبما يناسب ذلك العالم»[3].

مراتب الطّهارة بحسب تجليّات الرحمة

وفي المقابل، فإنّ حقيقة الذنب هي كلّ ما يكون مانعًا من الوصول إلى الغاية القصوى والمقصد الأسمى الذي هو الفناء في الله والبقاء به؛ فكلّ تعيّن أو مقام هو دون الغاية

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 73.
(2) م.ن، ص 73.
(3) م.ن، ص 73.

القصوى يصبح مانعًا إذا رآه الإنسان غاية، ويكون بهذا المعنى ذنبًا كذلك. وبمناسبة الحديث عن الرحمة المطلقة المعبّر عنها بالماء المطلق الذي يطهّر كلّ شيء، يذكر الإمام مراتب الطّهارة من أعلى إلى أسفل، فيقول:

1. فبماء الرحمة النازل من سماء الأحدية تطهر ذنوب غيبة تعيّنات الأعيان.
2. وبماء الرحمة الواسعة النازلة من سماء الواحدية تطهر ذنوب عدميّة الماهيّات الخارجيّة، وفي كلّ مرتبة من مراتب الوجود طبقًا لتلك المرتبة. وفي مراتب نشآت الإنسانية أيضاً لماء الرحمة ظهورات مختلفة:

أ. كما أنّه بالماء النازل من حضرة الذات إلى التعيّنات الجمعيّة البرزخيّة تطهَّر ذنوب السرّ الوجوديّ، «وجودك ذنب لا يقاس به ذنب».

ب. وبالماء النازل من حضرات الأسماء والصّفات وحضرة التجلّي الفعليّ تطهّر رؤية الصّفة والفعل.

ج. وبالماء النازل من سماء حضرة الحَكم العدل تطهَّر القذارات الخُلقية الباطنية.

د. وبالماء النازل من سماء الغفّاريّة تطهَّر ذنوب العباد.

هـ. وبالماء النازل من سماء الملكوت تطهَّر القذارات الصوريّة.

فعُلم أنّ الحقّ تعالى جعل الماء مفتاح قربه ودليل بساط رحمته»(1).

فأسماء اللّه تعالى هي المطهّر من كلّ دنس، وكلّ اسم له دور في التخلّص من النقص في أيّ مرتبة من مراتبه. ولأنّ حركة الإنسان نحو لقاء اللّه هي حركة تكامليّة، تكون معرفة اللّه تعالى تكامليّة أيضًا. وهكذا تزداد التجلّيات في الحركة الصعوديّة قوّة وسعة حتّى يصل السّالك إلى التجلّي الأعظم المطهّر من الذّنب الأعظم الذي عبّر عنه الإمام بالسرّ الوجوديّ أو التعيّن الخلقيّ الذي هو عبارة عن رؤية العبد وجوده مستقلًّا.

أبعاد الطّهارة

مثلما أنّ للطّهارة درجات، فإنّ لها أبعاداً بحسب شؤون الإنسان، وهذه الشؤون ثلاثة، هي: نفسه والخلق والخالق.

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 73 - 74.

البعد الأول: التّعامل مع النّفس

وإذا توجّه السّالك إلى حقائق الماء ونظر إليه أثناء توجّهه إلى الطّهارة نظر من يتوجّه إلى رحمة الله الواسعة التي تطهّر جميع مراتب الذنوب وتوصل كلّ سالك إلى المقصد الأسنى، فعليه أن يبدأ في التوجّه القلبيّ إلى كيفيّة استعمال الماء وواقعه في حياته، فيقول قدّس سرّه:

«ثمّ يعيّن عليه السلام في الحديث الشريف وظيفة أخرى ويفتح طريقًا آخر لأهل السلوك والمراقبة، يقول عليه السلام: «تفكَّرْ في صفاء الماء ورقّته وطهره وبركته ولطيف امتزاجه بكلّ شيء واستعمله في تطهير الأعضاء التي أمرك الله بتطهيرها، وأتِ بآدابها في فرائضه وسننه؛ فإنّ تحت كلّ واحدة منها فوائد كثيرة، فإذا استعملتها بالحرمة انفجرت لك عيون فوائده عن قريب»[1].

«أشار عليه السلام في هذا الحديث الشّريف إلى مراتب الطّهارة بشكل عام، وبيّن مراتبه الكليّة الأربع؛ أحدها ما ذكر في الحديث الشّريف، وهو تطهير الأعضاء.

وأشار عليه السلام إلى أنّ أهل المراقبة والسّلوك إلى الله يلزم ألّا يتوقّفوا عند صور الأشياء وظواهرها، بل لا بدّ أن يجعلوا الظّاهر مرآة للباطن ويستكشفوا من الصّور الحقائق ولا يقنعوا بالتّطهير الصوريّ، فإنّ القناعة بالتّطهير الصوريّ فخّ إبليس. فينتقلوا من صفاء الماء إلى تصفية الأعضاء، ويصفّوها بأداء الفرائض والسّنن الإلهيّة، ويرقّقوا الأعضاء برقّة الفرائض والسّنن ويخرجوها من غلظة التعصّي، ويسروا الطّهور والبركة في جميع الأعضاء، ويدركوا من لطف امتزاج الماء بالأشياء كيفيّة امتزاج القوى الملكوتيّة الإلهيّة بعالم الطّبيعة، ولا يدعوا قذارات الطّبيعة تؤثّر فيها.

فإذا تلبّست أعضاؤهم بالسّنن والفرائض الإلهيّة وآدابها، تظهر فوائدها الباطنية بالتدريج، وتتفجّر عيون الأسرار الإلهيّة وتنكشف لهم لمحة من أسرار العبادة والطّهارة»[2].

«فبيّن عليه السلام في الحكم الأوّل ما يرتبط بتعامل الإنسان السّالك مع قواه الداخلية وأعضائه»[3].

(1) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج1، ص 354.

(2) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 74.

(3) م.ن، ص 75.

فمن رعى حرمة الأحكام وحدودها، أعطته من أسرارها بقدر ما يقبل بقلبه ويستعد. ولا شكّ بأنّ من أعظم معاني الماء هو قدرته العجيبة على بثّ الحياة في الأشياء، لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾[1]، فأينما وُجد الماء نبعت الحياة. وهكذا المؤمن في تعامله مع عالم الطّبيعة ومع كلّ ميّت في عالم الوجود يبثّ فيه الحياة المعنويّة.

البعد الثاني: التّعامل مع الخلق

والأدب الآخر الذي يجب مراعاته أثناء التوجّه إلى الماء للطّهارة هو ما يرتبط بتفاعل الماء مع غيره من العناصر؛ لكي يستفيد السّالك منه في تعامله مع الخلق، فيقول قدس سره:

«ولما فرغ عليه السلام من بيان المرتبة الأولى من الطّهارة وكيفيّة تحصيلها، شرع في بيان الوظيفة الثانية، وقال: «**ثمّ عاشر خلق الله كامتزاج الماء بالأشياء يؤدّي كل شيء حقّه ولا يتغّير عن معناه، معتبرًا لقول رسول الله** صلى الله عليه وآله وسلم: «**مثل المؤمن المخلص (الخالص) كمثل الماء**»[2]»[3].

«والحكم الثاني الذي هو في هذه الفقرة من الحديث الشريف يرتبط بتعامل الانسان مع خلق الله، وهذا حكم جامع يبيّن كيفية معاشرة السّالك للمخلوقات، ويُستفاد منه ضمنًا حقيقة الخلوة؛ وهي أنّ السّالك إلى الله في نفس الوقت الذي يعاشر كلّ طائفة من النّاس بالمعروف ويردّ الحقوق الخلقية، ويتعامل مع كلّ واحدٍ ويعامله بما يناسب حاله، فهو في الوقت نفسه لا يتجاوز الحقوق الإلهيّة، ولا يهمل معناها، وهي العبادة والعبودية والتوجّه إلى الحقّ. فهو في الكثرة في عين الخلوة، وقلبه الذي هو منزل المحبوب خالٍ من الأغيار، وفارغ من كلّ صورة ومثال»[4].

البعد الثّالث: التّعامل مع الله

«ثمّ ذكر عليه السلام الحكم الثالث وهو كيفية تعامل السّالك مع الحق تعالى، فقال: «ولتكن صفوتك مع الله في جميع طاعتك كصفوة الماء حين أنزله من السماء وسمّاه طهورًا».

---

(1) سورة الأنبياء، الآية 30.

(2) الامام جعفر الصادق عليه السلام، مصباح الشريعة، ص 129.

(3) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 74 - 75.

(4) م.ن، ص 75.

أي يلزم للسّالك إلى الله أن يكون خالصًا من تصرّف الطّبيعة، ولا يكون لكدورتها وظلمتها طريق إلى قلبه، وتكون جميع عباداته خالية من جميع أنواع الشّرك الظّاهريّ والباطنيّ. وكما أنّ الماء في وقت نزوله من السّماء طاهر وطهور لم تمتد إليه يد تصرّف القذارات، كذلك السّالك بالنسبة لقلبه الذي نزل من سماء عالم غيب الملكوت طاهرًا ومنزّهًا، فلا يتركه يقع تحت تصرّف الشّيطان والطّبيعة ويتلوّث بالقذارات».

«وبعد هذا بيّن عليه السلام الحكم الأخير الجامع لأهل الرياضة والسلوك، وقال: «**وطهّر قلبك بالتقوى واليقين عند تطهير جوارحك بالماء**»، وفي هذا إشارة إلى مقامين شامخين لأهل المعرفة، الأول: التقوى، وكمالها ترك غير الحق، والثاني: اليقين وكماله مشاهدة حضور المحبوب»[1].

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 75.

المفاهيم الرّئيسة

1. الطّهارة مقدّمة ضروريّة لنيل البركات وتحصيل الكمالات وسبب للوصول إلى الغاية.
2. جعل اللّه تعالى الماء مفتاح قربه ودليل بساط رحمته.
3. التفكّر برحمة اللّه أثناء استعمال الماء للطهارة هو الذي يفتح أبواب الطّهارة القلبيّة بجميع درجاتها.
4. رحمة اللّه تعني إيصال كلّ موجود إلى غايته.
5. سبب الشّقاء هو رفض رحمة اللّه الواسعة.
6. السّماوات السّبع هي حضرات تجلّي الأسماء الإلهيّة، وتكون كلّ سماء محلًّا لتجلّي اسم أو أسماء.
7. أسماء اللّه هي المطهّر من كلّ دنس.
8. السّير في السّماوات هو تعبير عن الارتقاء في مراتب معرفة اللّه والتخلّق بأخلاقه.
9. حقيقة الذنب هي ما يكون مانعًا من الوصول إلى الغاية القصوى؛ أي الفناء باللّه والبقاء باللّه.
10. القناعة بالطّهارة الصوريّة هي فخّ إبليس.
11. تطهير القلب يكون بالتّقوى وكمالها ترك غير الحقّ، واليقين وكماله مشاهدة حضور المحبوب.

الدرس السابع عشر

آداب الوضوء بحسب الباطن والقلب

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يتعرَّف إلى علة تشريع الوضوء، ويبيّن حقيقة الوضوء وأسراره الباطنية.

2 . يستنتج العلاقة بين طهارة الظّاهر وطهارة الباطن.

3 . يتعرَّف إلى الأركان الأساسية لبرنامج السّير والسّلوك.

تمهيد

إنّ تطهير الظّاهر مقدّمة لتطهير الباطن، كما إنّ طهارة الباطن لا بدّ وأن تظهر في طهارة الظّاهر. هذه هي القاعدة الكبرى في العلاقة بين الظّاهر والباطن. وكلّ من لم يلتزم بها، جنح نحو الإفراط أو التفريط؛ الإفراط في الاهتمام بالباطن وإهمال الظّاهر، والتّفريط بحظّ الباطن والاكتفاء بعمارة الظّاهر. وبحسب هذه القاعدة، فإنّ كلًّا من المفرِط والمفرِّط خاسر وبعيد عن الصواب، ولا يمكن أن ينال أيٌّ منهما حظّه من الكمال.

كما إنّ أنّ كلّ مرتبة من مراتب الوجود هي ظهور للمرتبة الأعلى وتجلٍّ لها. وكلّ مرتبة باطنة لا بدّ وأن تتجلّى في المرتبة التي هي أدنى منها. هذا ما تدور حوله هذه الأحاديث وما يليها من شرح وتفصيل على لسان العارف باللّه والخبير بالنّفوس مما يوقظ فينا حالة الاهتمام بعمارة الباطن وتخرجنا من الجمود عند الظّاهر.

علّة الأمر بالوضوء

إنّ التّوجّه إلى المعاني الباطنة والأسرار المودعة في أحكام الشّرع الأنور هو العامل الأساسي في إحياء القلوب. ولكي يحصل هذا التوجّه، لا بدّ أوّلًا من معرفة هذه المعاني وفتح القلب على هذه الحقائق. وهنا يأتي دور أهل اللّه من العارفين به الذين جعلهم اللّه مفاتيح خزائن رحمته، ليطلعونا على حقائق الأمور وعللها.

يقول الإمام الخميني قدس سره:

«فمن ذلك ما ورد عن الإمام الرّضا عليه السلام: «**إنّما أمر بالوضوء ليكون العبد طاهرًا إذا قام بين يدي الجبّار، وعند مناجاته إيّاه، مطيعًا له فيما أمر، نقيًّا من الأرجاس والنجاسة، مع ما فيه من ذهاب الكسل وطرد النّعاس وتزكية الفؤاد للقيام بين يدي الجبّار، فإنّما**

ينكشف من جوارحه ويظهر ما وجب فيه الوضوء، وذلك أنّه بوجهه يسجد ويخضع، وبيده يسأل ويرغب ويرهب ويتبتّل، وبرأسه يستقبله في ركوعه وسجوده، وبرجليه يقوم ويقعد...»[1] الخبر»[2].

مراعاة آداب الوضوء الظاهرية والباطنية

«فبيّن عليه السلام إلى هنا النّكتة الأساس للوضوء، ونبّه أهل المعرفة وأصحاب السّلوك بأنّ للوقوف في محضر الحقّ جل وعلا وللمناجاة مع قاضي الحاجات آدابًا، لا بدّ أن تُلاحظ.

فمع القذارات الصّوريّة والأوساخ وكسل العين الظّاهرة أيضًا لا ينبغي أن يحضر في ذلك المحضر، فكيف إذا كان القلب معدنًا للأوساخ ومبتلىً بالقاذورات المعنويّة التي هي أصل جميع القذارات، مع أنّه ورد في الرواية: «**إنّ الله تعالى لا ينظر إلى صوركم، بل ينظر إلى قلوبكم**»[3]. ومع أنّ ما يتوجّه به الإنسان إلى الحقّ تعالى، ومن يليق من العوالم الخلقية للنظر إلى كبرياء العظمة والجلال، هو القلب، وليس لما سواه من الأعضاء والجوارح حظّ أو نصيب؛ مع ذلك ما أهملت الطّهارة الصورية والنظافة الظّاهرية؛ فأُمروا بصورة الطّهارة لصورة الإنسان وباطنها لباطنه»[4].

الطهارة الظاهرية مقدّمة للطهارة الباطنية

ويكمل الإمام الخميني قدس سره قائلًا: «ومنْ جعله عليه السلام تزكية القلب- في هذا الحديث الشريف- من فوائد الوضوء يُعلم أنّ للوضوء باطنًا تحصل به تزكية الباطن، ويُعلم أيضًا

(1) الصدوق، محمد بن علي، ابن بابويه، علل الشرائع، قم،نشر مكتبة داوري، 1427 هـ.، ط 1، ج1، ص 257، وقد ورد الحديث على الشكل الآتي:
إنْ قالَ قائلٌ: فلِمَ أُمِرَ بالْوُضُوءِ وَبُدِئَ بِهِ؟ قيلَ: لأَنَّهُ يَكُونُ الْعَبْدُ طَاهِراً إذا قَامَ بَيْنَ يَدَي الْجَبَّارِ عِنْدَ مُنَاجَاتِهِ إيَّاهُ، مُطيعاً لَهُ فيمَا أَمَرَهُ، نَقيّاً مِنَ الأَدْنَاسِ وَالنَّجَاسَةِ، مَعَ مَا فيه مِنْ ذَهَابِ الْكَسَلِ وَطَرْدِ النُّعَاسِ وَتَزْكِيَةِ الْفُؤادِ لِلْقِيَامِ بَيْنَ يَدَيِ الْجَبَّارِ، فَإنْ قالَ قَائِلٌ: فلِمَ وَجَبَ ذَلِكَ عَلَى الْوَجْهِ وَالْيَدَيْنِ وَمَسْحِ الرَّأْسِ وَالرِّجْلَيْنِ؟ قيلَ: لأَنَّ الْعَبْدَ إذَا قَامَ بَيْنَ يَدَيِ الْجَبَّارِ قَائِماً يَنْكَشِفُ مِنْ جَوَارِحِهِ وَيَظْهَرُ مَا وَجَبَ فيهِ الْوُضُوءُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ بِوَجْهِهِ يَسْتَقْبِلُ وَيَسْجُدُ وَيَخْضَعُ، وَبِيَدِهِ يَسْأَلُ وَيَرْغَبُ وَيَرْهَبُ وَيَتَبَتَّلُ، وَبِرَأْسِهِ يَسْتَقْبِلُ في رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ، وَبِرِجْلَيْهِ يَقُومُ وَيَقْعُدُ.

(2) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 78.

(3) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج11، ص 264. وقد ورد في هذه الصورة: «لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَلَا إِلَى أَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُم».

(4) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 78.

الرّابطة بين الظّاهر والباطن والشهادة والغيب؛ ويُستفاد أيضًا أنّ الطّهور الظّاهريّ والوضوء الصوريّ من العبادات وطاعة الربّ. ومن هذه الجهة الطّهور الظّاهر موجب للطّهور الباطن، ومن الطّهارة الصوريّة تحصل تزكية الفؤاد.

وبالجملة، لا بدّ للسّالك إلى الله من التوجّه في وقت الوضوء إلى أنّه يريد التوجّه إلى المحضر المقدّس لحضرة الكبرياء. ومع حالاته القلبيّة هذه لا يليق للمحضر، بل إنّه قد يُطرد من جناب العزّ الربوبيّ؛ فليشمّر ذيل همّته حتى يُسري الطّهارة الظّاهرية إلى الباطن، ويطهّر قلبه - الذي هو مورد نظر الحقّ، بل منزل حضرة القدس - من غير الحقّ، ويخرج من رأسه التفرعن وحبّ النّفس الذي هو أصل أصول القذارات، كي يليق للمقام المقدّس».

وقال أيضًا: «وعليه، فإنّ تطهير القلب الذي هو المحل الحقيقيّ للعبوديّة والمركز الواقعيّ لتلك المعاني يكون ألزم. وبدون تطهير القلب، لو غُسلت الأعضاء الصوريّة بسبعة أبحر ما تطهّرت، وما وُجد فيها لياقة لذلك المقام، بل يكون للشّيطان فيها تصرّف ويكون المرء مطرودًا من حضرة العزّة»[1].

حقيقة الوضوء

إنّ أحوال الأنبياء التي تظهر في سرّ علاقتهم بالله تعالى هي أفضل ما يبيّن حقيقة المقامات المعنويّة؛ وما يظهر منهم بصورة الذّنب في الآيات والرّوايات ليس سوى بيان لهذه المقامات، لأنّ المقام الأعلى يظهر من نقص المقام الأدنى. وفي شرحه لما ورد عن كتاب العلل، يتعرّض الإمام الخميني قدس سره لهذه الحقيقة، قال:

«جاء نفر من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فسألوه عن مسائل، وكان فيما سألوه: أخبرنا يا محمد، لأيّ علّة توضّأ هذه الجوارح الأربع، وهي أنظف المواضع في الجسد؟

فقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «**لمّا أنْ وسوس الشّيطان إلى آدم** عليه السلام، **دنا من الشّجرة، فنظر إليها فذهب ماء وجهه، ثمّ قام ومشى إليها، وهي أوّل قدم مشت إلى الخطيئة، ثمّ تناول بيده منها ما عليها وأكل، فتطاير الحلي والحلل عن جسده، فوضع آدم يده على أمّ رأسه وبكى؛ فلمّا تاب الله عليه، فرض الله عليه وعلى ذريّته تطهير هذه الجوارح الأربع، فأمر الله عزّ**

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 78 - 80.

وجلّ بغسل الوجه لمّا نظر إلى الشجرة، وأمره بغسل اليدين إلى المرفقين لمّا تناول بهما، وأمر بمسح الرأس لمّا وضع يده على أمّ رأسه، وأمره بمسح القدمين لمّا مشى بهما إلى الخطيئة»[1].

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: «فمن هذه الأحاديث الشّريفة لأهل الإشارات وأصحاب القلوب فوائد، منها أنّ خطيئة آدم عليه السلام، مع إنّها لم تكن من قبيل خطايا غيره، بل لعلّها كانت خطيئة طبيعيّة أو إنّها كانت خطيئة التّوجّه إلى الكثرة التي هي شجرة الطّبيعة، أو كانت خطيئة التوجّه إلى الكثرة الأسمائية بعد جاذبة الفناء الذاتيّ، ولكنّها لم تكن متوقّعة من مثل آدم عليه السلام الذي كان صفيّ الله والمخصوص بالقرب والفناء الذاتيّ؛ ولهذا أعلن الذات المقدسة بمقتضى الغيرة الحبيّة وأذاع عصيانه وغوايته في جميع العوالم وعلى لسان جميع الأنبياء عليهم السلام، قال تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾[2].

ومع ذلك، لا بدّ من كلّ هذا التطهير والتنزيه له ولذرّيته التي كانت مستكنّة في صلبه ومشتركة في خطيئته، بل شاركوا في الخطيئة بعد الخروج من صلبه أيضًا.

فكما إنّ لخطيئة آدم وأبنائه مراتب ومظاهر. فأوّل مرتبتها التوجّه إلى الكثرات الأسمائيّة، وآخر مظاهرها الأكل من الشجرة المنهيّة التي صورتها الملكوتية شجرة فيها أنواع الثّمار والفواكه، وصورتها الملكيّة هي الطّبيعة وشؤونها، وإنّ حبّ الدّنيا والنّفس الموجودين إلى يومنا هذا في الذريّة لمن شؤون هذا الميل إلى الشّجرة والأكل منها. كذلك لتطهيرهم وتنزيههم وطهارتهم وصلاتهم وصيامهم للخروج من خطيئة الأب، (التي هي الأصل)، مراتب كثيرة مطابقة لمراتب الخطيئة.

وقد عُلم من هذا البيان أنّ جميع أنواع المعاصي القالبية لابن آدم هي من شؤون أكل الشجرة، وتطهيرها على نحو خاص؛ وأنّ جميع أنواع المعاصي القلبيّة أيضًا من شؤون تلك الشجرة وتطهيرها بنحوٍ آخر، وأنّ جميع أنواع المعاصي الروحية من تلك وتطهيرها بطور خاص.

(1) الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج1، ص 55 - 56.
(2) سورة طه، الآية 121.

وإنّ تطهير الأعضاء الظّاهرية هو ظلّ الطّهارات القلبيّة والروحيّة للكمّل، وهو حكمهم ووسيلتهم لأهل السّلوك.

وما دام الإنسان في حجاب تعيّن الأعضاء وطهارتها، وواقفًا في ذلك الحدّ، فليس من أهل السلوك، وهو باقٍ في الخطيئة.

فإذا اشتغل بمراتب الطهارات الظّاهرية والباطنية وجعل الطهارات الصورية القشرية وسيلة للطهارات المعنويّة اللّبية، ولاحظ في جميع العبادات والمناسك حظوظها القلبيّة، وحاز عليها، بل اهتمّ بالجهات الباطنية أكثر من الظّاهرية، وعرف أنّها هي المقصد الأعلى دخل في باب سلوك طريق الانسانية، كما أشار اليه في الحديث الشريف في مصباح الشّريعة: «**وطهّر قلبك بالتقوى واليقين عند طهارة جوارحك بالماء**»[1][2].

إنّ الأصل في الأنبياء هو العصمة. وهذه العصمة ترتبط بمجال دعوتهم وما تستلزمه الدعوة من كونهم قدوة وأسوة، ومن ضرورة عدم التشنيع أو التعيير لهم؛ لأنّ ذلك منافٍ للغرض من الدعوة، وهو تبيين الصّراط المستقيم وطريق الهداية وتيسير سلوكه.

أمّا ما لا ينقض الغرض فليس بمنافٍ للعصمة؛ ولهذا نجد أنّ الله تعالى نسب بعض المعاصي والذنوب إلى أنبيائه فيما لا علاقةً له بدورهم الرساليّ.

ولا شكّ بأنّ الحديث عن هذه الخطايا ليس لأجل الطّعن أو الذمّ والتّوهين، وإنّما هو إشارة إلى دقائق السّير إلى الله وخفايا وأسرار المقامات والدّرجات. وهذه الدقائق ترجع أيضًا إلى مقامات الربّ المتعال وشؤونه العظمى.

فإذا وصل السّالك إلى بعض المقامات قد يحسبها غاية ونهاية، وهو لا يدري أنّ بعدها مقامات أُخر، وأنّ الرّكون إلى ما وصل إليه يُعدّ أعظم أسباب الهلاك؛ لهذا وجب بيان المشكلة والعيب في المقام المذكور، حتى لا يركن إليه صاحبه وينتقل منه.

---

(1) الامام جعفر الصادق عليه السلام، مصباح الشريعة، ص 129.

(2) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 81 - 82.

الخطوط العامّة للسّير والسّلوك

بكلمات وجيزة يختصر الإمام قدس سره أركان برنامج السّير والسلوك، وهي:

1. هدف البرنامج:

«وغاية هذا السّلوك هي تخلية النّفس من غير الحقّ، وتحليتها بالتجليّات الأسمائية والصفاتية والذاتية، فإذا حصل للسالك هذا المقام؛ فحينئذٍ ينتهي سلوكه، وتحصل له الغاية في السّير الكمالي»[1].

2. آثار الوصول وعلائمه:

يقول الإمام الخميني قدس سره: «... فينال أسرار النسك والعبادات ولطائف السلوك؛ وهي التجلّيات الجلالية التي هي أسرار الطّهارات، والتجلّيات الجمالية التي هي غاية العبادات الأخرى، وتفصيلها خارج عن نطاق هذه الاوراق»[2].

فأسرار الطّهارة ترجع إلى الإزالة؛ ولهذا فإنّها تشير إلى المعاني الجلالية؛ لأنّ في الجلال جهة الطّرد. وغاية الإزالة أو التّطهير هي التحلية والجذب التي ترجع جميعًا إلى الجمال.

فمن تفكّر في الطّهارة شهد المعنيين، وصار مستعدًّا لإدراك الحقيقتين، ليكون بذلك على مقربة من الوصول إلى حقيقة الحقائق وغاية الغايات للسلوك الإنسانيّ، وهو إدراك الاسم الأعظم.

3. شروطه الأساسية:

يقول الإمام الخميني قدس سره: «فيلزم للإنسان السّالك: أوّلًا، السلوك العلميّ كي يشخّص ببركة أهل الذكر عليهم السلام مراتب العبادات، ويرى العبادات الصورية مرتبة نازلة للعبادات القلبيّة والروحية، ثمّ يشرع في السلوك العمليّ الذي هو حقيقة السلوك»[3].

فإنّ مراتب العبادة عبارة عن مراتب السّلوك لا يهتدي إليها إلا من تمسّك بالواصلين. ويُعلم حينئذٍ أنّ هذه الأحكام الظّاهرية هي وسيلة الوصول إلى الحقائق الباطنية.

---

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 82.
(2) م.ن، ص 82.
(3) م.ن، ص 82.

المفاهيم الرئيسة

1. للوضوء حقيقة باطنيّة هي التّطهير من كلّ حدث معنويّ.
2. أهمّ آداب الوضوء التوجّه إلى أسراره لتحصيل معانيه.
3. سرّ الوضوء التوجّه إلى رحمة الله الواسعة التي بها تطهر جميع مراتب الذنوب.
4. تطهير الظّاهر يؤدّي إلى تطهير الباطن.
5. ما لم يطهر القلب، فمهما غُسلت الأعضاء الصوريّة لن تكون لائقة للمحضر.
6. سرّ خطيئة آدم هو التوجّه إلى الكثرات.
7. ما دام الإنسان واقفًا عند حدّ الطّهارة الظّاهرية، فهو ليس من أهل السلوك، وهو باقٍ في الخطيئة.
8. إنّ غاية السّلوك هي تخلية النّفس من غير الحقّ، وتحليتها بالتجليّات الأسمائية والصفاتية والذاتية.
9. علامات الوصول: إدراك التجلّيات الجلاليّة والجماليّة.
10. يحتاج السّالك إلى السّلوك العلميّ لمعرفة مراتب العبادات، وإلى السّلوك العمليّ الذي هو حقيقة السّلوك.
11. مراتب العبادة هي مراتب السّلوك.

الدرس الثامن عشر

الغسل وآدابه القلبيّة

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يتعرَّف إلى حقيقة الجنابة والغسل منها.

2 . يشرح الآداب القلبيّة للغسل.

3 . يبيّن كيفيّة تحقّق الغسل الباطنيّ.

تمهيد

الغسل من الجنابة أحد التّطهيرات اللازمة للورود إلى الصّلاة وإلى العديد من العبادات.

والجنابة ترمز إلى الخطايا التي ينبغي للإنسان أن يتطهّر منها في باطنه. فإذا كان التوجّه إلى الطّبيعة، بل كون الإنسان طبيعيًّا أصل جميع الخطايا فإنّ الجنابة هي أكبر تعبير أو مظهر لأكبر الخطايا، لأنّها أكبر تعبير عن الحياة الطبيعيّة.

وليست الخطيئة في كون الإنسان طبيعيًّا، بل برضاه وركونه إلى عالم الطّبيعة الذي هو منزل أسفل سافلين.

المشكلة كلّها في اعتبار هذه الحياة الدّنيا غاية وعدم النّظر إليها كوسيلة.

أصل كلّ الخطايا هو أن يفرح الإنسان بملذّات الطّبيعة بطريقة تنسيه ملذّات الملكوت والآخرة. أمّا لو جعل الدّنيا وسيلةً ومحطّةً ومعبرًا، فسوف تتحوّل الدّنيا إلى أفضل سبيل لطيّ منازل الآخرة والوصول إلى الحياة الخالدة. وكلّ فرح فيها سيكون تذكيرًا بأفراح الآخرة، وكلّ تنعّم بها سيكون ذكرى النعيم المقيم.

وهكذا يكون الغسل من الجنابة تعبيرًا عن رفض الطّبيعة كمحطّة نهائيّة. فبالغسل يعبّر السّالك عن رفض تبعات التواجد في عالم الطّبيعة، لا أصل التّواجد فيها، والذي لا بدّ منه للوصول إلى غاية الغايات.

حقيقة الجنابة والغسل منها

يقول الإمام الخميني قُدِّسَ سِرُّهُ في تعريف حقيقة الجنابة وما ترمز إليه في الباطن:

«الجنابة هي: الفناء في الطّبيعة، والغفلة عن الروحانية، والغاية القصوى لكمال السلطنة

الحيوانيـة والبهيميـة، والدخول في أسـفل سـافلين»[1]. وهكذا يكون الغسـل مـن الجنابة وفق حقائق الشّريعة عبارة عن:

«والغسل هو: التطهير من هذه الخطيئة، والرجوع عن حكم الطّبيعة، والدخول في سلطان الرّحمانية وتصرّف الألوهية، بغسـل كلّ مملكة النّفس التي فنيت في الطّبيعة وابتليت بغرور الشّيطان»[2]،[3].

فسـلطان الرّحمانيـة هـو الذي يخرج الإنسـان من الاحتجـاب، وهو مفتـاح اليقظة وأصل السّـلوك، ولولا هذه الرّحمة لما تيسّـر لأحد سـبيل الوصول إلى الله. فإذا غسل مملكة النّفس كلّها من التعلّق بالطّبيعة، يشهد حقيقة تصرّف الألوهيّة، ومعنى «لا مؤثّر في الوجود إلا الله تعالى».

آداب الغسل القلبيّة

فـإذا ظهـرت الحقائـق والمعانـي، لا بـدّ أن يتوجّـه القلـب إليها حيـن العمـل والأداء حتى تحصـل الفوائـد المعنويّـة ويكتسـب القلـب حظّـه مـن الالتـزام والعبـادة؛ لهذا يقـول الإمام الخمينـي قدس سره:

«فالآداب القلبيّة للغسل بالنسبة للسّالك هي:

1. ألاّ يتوقف حين غسله عند تطهير الظّاهر وغسل البدن الذي هو القشر الأدنى والحظّ الدنيويّ.
2. ويتوجّه إلى جنابة باطن القلب وسرّ الرّوح.
3. ويرى غسله منها أهمّ.

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 83.
(2) م.ن، ص 83.
(3) «يقـول أهـل المعرفة: إنّ الجنابة هـي الخروج من وطن العبودية، والدخول في الغربة، وإظهار الربوبية ودعوى الإنيّة، والدخول في حدود المولى والاتّصاف بوصف السـيادة. والغسـل هو للتطهير من هذه القذارة والاعتراف بالتقصير. وقد ذكر بعض المشـايخ في ضمن عشـرة فصول، مئة وخمسـين حالاً لا بدّ للعبد السّالك التطهير منها خلال الغسل، يرجع أغلبها أو كلّها إلى العزّة والجبروت وكبرياء النّفس وحبّ النّفس ورؤيتها». (معراج السالكين، ص 82 - 83).

4. فيجتنب غلبة النّفس البهيمية والشأن الحيوانيّ على النّفس الرّحمانية والشؤون الرحمانية.

5. ويتوب من رجز الشّيطان وغروره، ويطهّر باطن الرّوح الذي هو نفخة إلهية - وقد نُفخ فيه بالنّفس الرحمانيّ- من الحظوظ الشّيطانيّة، (وهي التوجّه إلى الغير الذي هو أصل الشجرة المنهية)، حتى يليق بهذا التطهير للدخول إلى جنة أبيه آدم عليه السلام»[1].

وبهذه الطريقة يتأدّب السّالك بآداب غسل الجنابة، ويفتح على قلبه أنوار فيض العبادة.

أصل أصول الجنابة

فإذا كانت حقيقة الجنابة عبارة عن ظهور الجهة الماديّة وغلبة الوجهة الحيوانيّة في عالم الطّبيعة، فباطن حقيقة الجنابة هو غلبة الجهات السّوائيّة على الجهات الإلهيّة. والدّنيا تمثّل أصل الكثير من الجهات الغيريّة، بل إنّ جهة المغايرة والاجتناب عن ربّ العالمين هي المسمّاة بالدّنيا؛ أمّا الطّبيعة فإنّها أحد مظاهر الحقّ المتعال. يقول الإمام الخميني قدس سره: «وليُعلم أنّ الأكل من شجرة الطّبيعة والإقبال على الدّنيا والتوجّه إلى الكثرة هو أصل أصول الجنابة»[2].

بأيّ ماء يتحقّق الغسل الباطني؟

فبأيّ ماء يتحقّق الغسل من باطن الجنابة؟ هنا يقول الإمام الخميني قدس سره: «وما لم يطهر من هذه الجنابة بانغماسه في ماء رحمة الحقّ تعالى أو تطهّره التامّ بذاك الماء الذي يجري من ساق العرش الرحمانيّ والخالص من التصرّف الشّيطانيّ لا يليق للصّلاة التي هي حقيقة معراج القرب؛ فإنّه لا صلاة إلا بطهور»[3].

شواهد من الأحاديث

يقول الإمام الخميني قدس سره في معرض الاستشهاد ببعض النصوص على وجود المعاني الباطنية للجنابة والغسل، منها:

---

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 83.

(2) م.ن، ص 83.

(3) م.ن، ص 83.

«وقد أشير إلى ما ذكر في الحديث الشريف في الوسائل عن الشيخ الصدوق (رضوان الله عليه)، قال: وبإسناده، قال: «جاء نفر من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فسأله أعلمهم عن مسائل، وكان فيما سأله أن قال: لأيّ شيء أمر الله تعالى بالاغتسال من الجنابة، ولم يأمر بالغسل من الغائط والبول؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنّ آدم لمّا أكل من الشجرة، دبّ ذلك في عروقه وشعره وبشره، فإذا جامع الرجل أهله خرج الماء من كلّ عرق وشعرة في جسده، فأوجب الله عزّ وجلّ على ذريّته الاغتسال من الجنابة إلى يوم القيامة**»[1] الخبر»[2].

«وفي رواية أخرى عن الرضا عليه السلام: «**إنّما أُمروا بالغسل من الجنابة ولم يؤمروا بالغسل من الخلاء، وهو أنجس من الجنابة وأقذر، من أجل أنّ الجنابة من نفس الإنسان، وهو شيء يخرج من جميع جسده، والخلاء ليس هو من نفس الإنسان، وإنّما هو غذاء يدخل من باب ويخرج من باب**»[3].

وظاهر هذه الأحاديث، وإن كان عند أهل الظّاهر أنّ النطفة لمّا كانت تخرج من جميع البدن وجب غسل جميعه؛ وهذا مطابق لرأي جمع من الأطبّاء والحكماء الطّبيعيّين، ولكن تعليله عليه السلام بأكل الشجرة كما في الحديث الأوّل، ونسبة الجنابة إلى النّفس كما في الحديث الثاني، يفتح طريقًا إلى المعارف لأهل المعرفة والإشارة؛ لأنّ قضية الشّجرة وأكل آدم منها من أسرار علوم القرآن وأهل بيت العصمة والطّهارة عليهم السلام، حيث إنّ الكثير من المعارف مرموز فيها؛ ولذا جعلوا عليهم السلام في الأحاديث الشّريفة قضيّة آدم والأكل من الشّجرة علّةً لتشريع كثير من العبادات؛ ومن جملتها باب الوضوء والصّلاة والغسل وصوم شهر رمضان وكونه ثلاثين يومًا وكثير من مناسك الحجّ»[4].

منطلق السفر بغسل القلب من حبّ الدنيا

هكذا يكون منطلق السّفر إلى الله تعالى بالخروج والبراءة من كلّ ما سواه. وليست الدّنيا سوى أحد مظاهر هذا السوى التي اختبرنا الله بها. ولو عاش الإنسان فطرة الله لما استغرق

---

(1) الشيخ الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج2، ص 179.
(2) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 83 – 84.
(3) الصدوق، علل الشرائع، ج1، ص 258.
(4) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 84.

بها وغفل عن صاحب النعمة بالنعمة. فكلّ من كان على الفطرة يتوجّه إلى أصل النعمة وسببها عندما تأتيه وترد عليه، وخصوصًا إذا توالت هذه النعمة وكثُرت. فما أشقى من جحد المنعم ونسي ذكره! هناك ستنطبق عليه الآية الشريفة بقول تعالى: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا﴾[1].

لهذا يتوجّه الإمام الخميني قدس سره إلينا، ويسعى أن يخاطب قلوبنا، عسى أن تؤثّر فيها الموعظة البالغة، فيقول: «وبالجملة، فأنت يا ابن آدم، وقد جُعلت بذرًا للّقاء وخلقت للمعرفة واصطفاك الله تعالى لنفسه وخمّرك بيدي جماله وجلاله وجعلك مسجودًا للملائكة ومحسودًا لإبليس، إذا أردت أن تخرج من جنابة أبيك الذي هو أصلك، وتليق للقاء حضرة المحبوب وتنال استعدادًا للوصول إلى مقام الأنس وحضرة القدس، فلا بدّ لك من أن تغسل بماء رحمة الحقّ باطن قلبك وتتوب من الإقبال على الدّنيا التي هي من مظاهر الشّجرة المنهيّة، وتغسل قلبك الذي هو محفل لجناب الجميل وجمال الجليل من حبّ الدّنيا وشؤونها الخبيثة التي هي رجز الشّيطان؛ فإنّ جنّة لقاء الحق تعالى محلّ الأطهار ولا يدخل الجنّة إلّا الطيّب»[2].

(1) سورة طه، الآية 124.

(2) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 84 - 85.

المفاهيم الرئيسة

1. باطن الجنابة هو سيطرة الطّبيعة على الروحانية.
2. الطّهارة من هذه الجنابة تكون بغلبة الروحانية على مملكة الطّبيعة.
3. حقيقة الجنابة وباطنها في زعم الإنسان أنّه يشارك الله في الخلق (غلبة الجهة السوائيّة على الجهة الإلهيّة).
4. خروج الإنسان من الاحتجاب والتعلّق بالطبيعة يكون بالدّخول في سلطان الرحمانيّة.
5. الطّهارة من الجنابة المعنويّة تحصل بالاعتراف بالعجز والافتقار.
6. لا يمكن تحقيق الطّهارة المعنويّة إلا بعد الطّهارة الظّاهرية.
7. الطّهارة المعنويّة تسري إلى ظاهر الإنسان حتمًا.
8. الطّهارة المعنويّة بدون الطّهارة الظّاهرية هي ادّعاء واهم.
9. الاكتفاء بالطّهارة الظّاهرية حرمان أكيد.
10. منطلق السفر إلى الله تعالى يكون بالخروج والبراءة من كلّ ما سواه.
11. إنّ التوجّه إلى الدنيا ناجم عن احتجاب الفطرة.

الدرس التاسع عشر

الآداب الباطنية لإزالة النجاسة

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يتعرَّف إلى حقيقة الحدث، ويبيِّن آداب التطهّر منه.

2 . يميّز بين المجذوب السّالك والسّالك المجذوب.

3 . يبيّن أسرار التخلّص من النجاسة.

تمهيد

ولمّا كانت الطّهارة موقوفة على إزالة النّجاسة لأجل تحقّق الاستعداد للوفادة على اللّه تعالى، فإنّ من أدرك معاني القرب ودرجاته، أدرك أنّ لكلّ درجة أو مرتبة نوعًا من الخبائث والنّجاسات التي لا يمكن تحصيلها إلّا بالطّهارة منها. وكما إنّ تحقّق الصّلاة الظّاهرية موقوف على تحقّق الطّهارة الظّاهرية، فلا يمكن للعبد أن يعرج بالصّلاة، التي هي معراج كلّ مؤمن، إلّا بالطّهارة الباطنيّة؛ لأنّه بقلبه وباطنه يعرج. وحيث إنّ للعروج درجات، فإنّ العروج في أيّ مرتبة أو درجة يتطلّب تحقيق الطّهارة اللائقة بها. وهذا ما يؤكّد على ضرورة أن نتعرّف إلى هذه الدّرجات، وما يمنع منها ممّا يسمّى بالقذارة والحدث.

ما هي حقيقة الحدث؟

ولمّا كان لكلّ ما يقوم به الإنسان وما يجري عليه من وجوده في أرض الطّبيعة من الأحداث، فإن كانت مانعة من التوجّه إلى اللّه فهي الأحداث التي ينبغي أن يتخلّص منها أو يطهر، وإلّا بقي في عالم الدّنيا ولم يتحقّق له السّفر منها كما أمر وأعدّ؛ لهذا يقول الإمام الخميني قدّس سرّه:

«فاعلم أنّ إزالة الحدث كما مرّ، هي في الخروج من الإنّيّة والأنانيّة والفناء عن النّفسيّة، بل هي الخروج من بيت النّفس بشكل كامل، وما دام في العبد بقايا من نفسه فهو محدث بالحدث الأكبر والعابد والمعبود فيه هو الشّيطان والنّفس»[1].

فلماذا كانت الدّنيا هي المانع؟ ولماذا كان على الإنسان أن يخرج حبّها من قلبه؟

إنّ ذلك كلّه يرجع إلى أنّ هذا الحبّ يعزّز في الإنسان حالة الإنيّة والأنانية، وهما موانع

(1) الخميني، روح اللّه الموسوي، معراج السالكين، ص85.

شهود التّوحيد وإدراكه؛ أي إنّهما مانعا الوصول إلى الحقيقة؛ ولهذا ينبغي أن نفهم ما يقف وراء الدّنيا. وعندها نعرف أنّ كلّ ما يعزّز فينا تلك الإنية فهو مانع، حتى لو كان بصورة المقامات المعنويّة؛ ولهذا يقول الإمام الخميني قدس سره:

«وإنّ منازل سير أهل الطّريقة والسّلوك، إذا كانت لأجل الوصول إلى المقامات وحصول المعارج والمدارج، فليست خارجة عن تصرّف النّفس والشّيطان، فيكون السّير والسلوك عليلًا. ويدور هذا السّلوك في منازل النّفس، ويكون السّير في جوف البيت. ومثل هذا السّالك ليس بمسافر ولا سالك وليس مهاجرًا إلى اللّه ورسوله، وما طهُر من الحدث الأكبر الذي هو عين العبد»[1].

علامة الطّهارة من الحدث: شهود التوحيد

وبالتالي، فإنّ حصول الطّهارة يجعل القلب مستعدًّا لشهود الحقيقة كما هي. وحيث إنّ الحقيقة المطلقة التي تشمل كلّ الحقائق هي حقيقة الألوهيّة التي تظهر في بعض مراتبها بمعنى «لا مؤثّر في الوجود إلا اللّه»، يقول الإمام الخميني قدس سره:

«فاذا تطهّر من هذا الحدث تمامًا، وتحصل نتيجة قرب النوافل، أي: كنت سمعه وبصره، فمن هذه الجهة يلزم غسل البدن كلّه عند الطّهارة من الحدث الأكبر، لأنّه ما دامت عين العبد باقية بوجه من الوجوه، لم يرتفع الحدث. فإنّ تحت كل شعرة جنابة..

فالتّطهير من الحدث هو التّطهير من الحدوث والفناء في بحر القدم. وكماله الخروج من الكثرة الأسمائية التي هي باطن الشجرة. ويخرج بهذا الخروج من خطيئة آدم السارية، وقد كان أصل الذرية.

فالحدث من القذارات المعنويّة، وتطهيره أيضًا من الأمور الغيبية الباطنية، وهو نور، لكن الوضوء نورٌ محدود والغسل نورٌ مطلق. وأيّ وضوء أنقى من الغسل؟ وليست القيمة في إزالة الخبث والنجاسات الظّاهرية؛ لأنّها تنظيف صوريّ وتطهير ظاهريّ»[2].

(1) الخميني، روح اللّه الموسوي، معراج السالكين، ص 85 – 86.
(2) م.ن، ص 86.

والحدوث هو جهة الخلق والقدم هو جهة الربّ؛ فمن انتقل من الخلق وسافر إلى الخالق، انتقل من الحدوث وفني في البحر اللامتناهي لصفات الربّ المتعال. وما دام في الإنسان بقيّة من نفسه ونظر إلى إنيّته، فهو محجوب عنه؛ ولهذا يكون شهود الكثرة الأسمائية من وجود بعض الحجب أو بقائها، وهي المعبّر عنها بالحجب النّورية.

آداب الحدث

فإذا توجّه القلب إلى تلك المعاني وانعكست فيه أنوار التوحيد، جرت عليه مياه التّطهير من الشرك الذي هو أصل كلّ رجس وهو عنوان الإبليسيّة الأكبر. وهنا يأتي الأدب المعنويّ لهذه الطّهارة، حيث يقول الإمام الخميني قدس سره: «وآدابها القلبيّة هي:

1. التبرّؤ من إبليس ورجزه؛ أن يعلم السّالك الذي يريد الحضور في محضر الحقّ أنّه لا يمكن التطرّق إلى محضر الحقّ مع رجز الشّيطان ورجس هذا الخبيث»[1].
2. التقوى الملكيّة؛ «وما لم تحصل التقوى الملكية الدنيوية التامّة على وفق دستور الشّريعة المطهّرة، لا تحصل التقوى القلبيّة»[2].
3. التقوى الملكوتية؛ «وما لم تحصل التقوى القلبيّة من الأمور التي ذكرناها لن تحصل التّقوى الروحيّة السرّيّة الحقيقيّة. وجميع مراتب التّقوى مقدّمة لهذه المرتبة وهو ترك غير الحقّ. وما دام في السّالك بقية من الأنانية، فلن يتجلّى الحقّ على سرّه»[3].

والسرّ من آخر مراتب النّفس، وفيه تدرك الأسرار الوجودية التي لا يراها المحتجبون بحجب الطّبيعة والمثال. فتحصل ممّا ذكر أنّ طريق التّقوى وفق الشّريعة المقدّسة هو أساس الخروج من تأثير إبليس الذي هو أصل كلّ خبث ورجز. ولا يمكن أن ينال الإنسان أيّ توفيق معنويّ دون تحقيق التّقوى الظّاهريّة، وهذا قاعدة أوليّة لا بدّ من الالتزام بها. ويحصل من جرّاء شدّة الاعتناء والتمسّك بها أن يجعل اللّه الطّهارة سريعة التحقّق. فيقطع البعض مسافة طويلة في رحلة التّقوى هذه بزمن قليل؛ ولهذا يقول الإمام الخميني قدس سره:

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 86.
(2) م.ن، ص 87.
(3) م.ن، ص 87.

«نعم، ربما ينال السّالك، بمقتضى سبق الرحمة وغلبة جهة «يلي الربّي»، الإمداد الغيبي، ويحرق بالجذوة الإلهيّة ما بقي من الأنانية إن بقيت. ولعلّ في كيفيّة تجلّي الحقّ للجبل واندكاكه وصعق موسى إشارة لما ذكر، وهذا الفرق أيضا موجود بين السّالك المجذوب والمجذوب السّالك»(1).

كلّ مخلوق محبوب، ولولا الحبّ الإلهيّ لما نال أحد شيئًا من بركات الوجود وتشعشعاته، لكنّ الإنسان قد يستقبل من فيض محبّة الله القليل القليل، فيكتفي من الوجود بأخسّ مراتبه وهو الوجود الماديّ والطبيعيّ.

وبعض النّاس يستقبلون الحبّ الإلهيّ كلّه، فتوصلهم جذبة الحبّ إلى مقام القرب. وعندها سيكون سلوكهم أفضل مظهر لهذا الحبّ الإلهيّ والعناية الربّانيّة الخاصّة. ويطلق على أمثال هؤلاء عنوان المجذوب السّالك لغلبة جهة المحبّة الإلهيّة على سلوكه؛ أمّا من غلبت عليه جهة المجاهدة والجهد والتّعب والمشقّة فيُطلق عليه عنوان السّالك المجذوب، وإن كان الكلّ على طريق المحبّة الموصلة إلى الله تعالى.

أسرار التخلّص من النّجاسة

ينقل الإمام الخميني قدس سره حديثًا منسوبًا إلى الإمام الصّادق عليه السلام، ويتوقّف عند بعض معانيه وما فيه من أسرار خلق الإنسان في عالم الطّبيعة. اقتضت حكمة الله ومشيئته أن ينتقل الإنسان من جنّته التي وُجد فيها بدايةً وأن يهبط إلى هذه الأرض. ففي عالمه الأوّل ما كان يجوع ولا يعرى، وبدون الجوع لا حاجة للطّعام، ومع عدم الحاجة إلى الطّعام، فلا حاجة إلى تخلية القذارات الحاصلة من قوّة الهاضمة. لكنّ الله أهبطه إلى الأرض لا ليهينه أو يطرده، بل ليبدأ رحلة جديدة في معرفة الحقيقة التي ما كان له أن يكتشفه في عالمه الأوّل، وهذه الحقيقة تنكشف بمعرفة أمرين أساسيين، هما: حقيقة عجزه وذلّته، وحقيقة غنى الربّ المتعال، يقول الإمام الخميني قدس سره: «فعن مصباح الشّريعة: قال الصادق عليه السلام: «**سُمّي المستراح مستراحًا لاستراحة النّفوس من أثقال النّجاسات واستفراغ الكثافات والقذر فيها، والمؤمن يعتبر عندها أنّ الخالص من حطام الدّنيا كذلك يصير عاقبته**

---

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 87.

فيستريح بالعدول عنها وتركها، ويفرّغ نفسه وقلبه عن شغلها ويستنكف عن جمعها وأخذها استنكافه عن النجاسة والغائط والقذر ويتفكّر في نفسه المكرمة في حال، كيف تصير ذليلة في حال، ويعلم أنّ التمسّك بالقناعة والتّقوى يورث له راحة الدّارين وأنّ الراحة في هوان الدّنيا والفراغ من التمتّع بها وفي إزالة النجاسة من الحرام والشّبهة، فيغلق عن نفسه باب الكبر بعد معرفته إيّاها، ويفرّ من الذّنوب ويفتح باب التّواضع والنّدم والحياء ويجتهد في أداء أوامره واجتناب نواهيه طلبًا لحسن المآب وطيب الزُّلفى، ويسجن نفسه في سجن الخوف والصّبر والكفّ عن الشّهوات، إلى أن يتّصل بأمان الله في دار القرار ويذوق طعم رضاه، فإنّ المعوّل ذلك وما عداه لا شيء»[1] (انتهى كلامه الشريف)» [2].

أهميّة تحصيل حظوظ الرّوح

يقول الإمام الخميني شارحًا: «هذا الكلام الشّريف حكم ودستور جامع لأهل المعرفة والسّلوك؛ وهو أنّ الإنسان اليقظان السّالك إلى دار الآخرة لا بدّ أن يستوفي في كلّ حال من الحالات حظوظه الرّوحانيّة، ولا يغفل في أيّ حال عن ذكر مرجعه ومآله؛ ولهذا قالت الحكماء: النبيّ خادم القضاء، كما إنّ الطّبيب خادم البدن. فإنّ الأنبياء العظام والأولياء الكرام عليهم السلام حيث إنّهم لا يرون إلّا القضاء الإلهيّ ولا يشاهدون سوى جهة «يلي اللهي»، والحاكم في قلوبهم هو ملكوت القضاء الإلهيّ، يرون جريان جميع الأمور بأيدي ملائكة الله التي هي جنود الله. والطّبيب الطّبيعيّ حيث إنّه بعيد عن هذه المرحلة ومستبعد من هذا الوادي، ينسب جريان الأمور الطّبيعيّة إلى القوى الطّبيعيّة.

وبالجملة، على الإنسان السّالك أن يحصل على حظوظ سلوكه في جميع الحالات ومن كلّ الأمور. فإذا رأى أنّ الحطام الدنيويّ ولذائذ عالم الملك كلّها زائلة ومتغيّرة وعاقبة أمرها الى الفساد والأفول، فيعرض قلبه عنها بسهولة، ويفرغ قلبه من الاشتغال بها ويستنكف عنها كما يستنكف عن القذارات»[3].

---

(1) الامام جعفر الصادق عليه السلام، مصباح الشريعة، ص 126 - 127.
(2) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 91 .
(3) م.ن، ص 91 - 92.

معرفة باطن عالم الطّبيعة

وعندما يستغرق الإنسان في عالم الطّبيعة، فإنّ وجهته تصبح وجهة السفل والانحطاط، فينحرف عن الطريق الذي عليه أن يسلكه للرجوع إلى أصله؛ ولهذا يقول الإمام الخميني قدس سره: «إنّ باطن عالم الطّبيعة هو القذارة، وتعبير القذارة والأوساخ في الرؤية (التي هي باب من المكاشفة) هو الدّنيا والمال. وفي المكاشفة العلوية عليه السلام الدّنيا جيفة وميتة»[1].

التفرّغ من عالم الطّبيعة

فإذا علم الإنسان حقيقة التوجّه إلى عالم الطّبيعة، وجب عليه أن يتفرغ منه؛ لهذا يقول الإمام الخميني قدس سره: «فالمؤمن مثلما أنّه يفرغ نفسه من الأثقال والفضلات الطبيعية، ويريح المدينة الطّبيعية من أذاها، كذلك يريح قلبه من التعلّق والاشتغال بها ويرفع عن القلب ثقل حبّ الدّنيا، ويريح ويفرغ المدينة الروحانية الفاضلة منها. ويتفكّر كيف أنّ الاشتغال في الدّنيا أذلّ النّفس الشريفة بعد عدّة ساعات، وأحوجها إلى أقبح الحالات وأفضحها، كذلك الاشتغال القلبيّ بالعالم بعدما يرتفع حجاب الملك والطّبيعة وما هو ببعيد، يذلّ الإنسان ويبتليه بالحساب والعقاب»[2].

طريق التفرّغ هو التقوى

وليس للإنسان أن يختار من نفسه طريق الفراغ من الدّنيا واجتناب الطّبيعة؛ لأنّ ذلك لن يورثه سوى المزيد من التعلّق بها. وهذا ما شاهدناه في طرق الرّهبنة والرياضات المخترعة والمبتدعة؛ ولهذا كان البرنامج الإلهيّ المنبثق من معرفة فلسفة الوجود في عالم الطّبيعة هو الطريق الوحيد لتحقيق ذلك الانعتاق والخلاص. فالإنسان لم يهبط إلى عالم الطّبيعة ليخرج منها فحسب، بل يتحمّل مسؤولية إحيائها وعمارتها، وبذلك يحصل ذلك الخروج.

يقول الإمام الخميني قدس سره: «وليُعلم أن التمسّك بالتقوى والقناعة موجب لراحة

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص92.
(2) م.ن.

الدارين. وإنّ الراحة في هوان الدّنيا وعدميّتها، فلذلك لا يلتذّ ولا يتمتّع بها. وكما إنّه طهّر نفسه من النّجاسات الصوريّة، كذلك سيطهّر نفسه من نجاسات المحرّمات والشّبهات. وإذا عرف نفسه ووجد ذلّة احتياجها، وأغلق باب الكبر والتّعظيم عن نفسه، وفرّ من العصيان والذّنوب، وفتح على نفسه باب التّواضع والنّدامة، وجدّ واجتهد في إطاعة أوامر الحقّ واجتناب معصيته حتّى يكون له حسن المآب إلى الحقّ، ويتقرّب إلى مقام القدس بطهارة النّفس وصفائها. وليسجن هو نفسَه في سجن الخوف والصبر والكفّ عن الشهوات النّفسانية، كي يأمن من سجن العذاب الإلهيّ، ويلحق بالحقّ في دار القرار وفي كنف ذاته المقدّسة، فيذوق في تلك الحال طعم رضا الحقّ تعالى... وهذا غاية آمال أهل السلوك، وليس لغيره أيّة قيمة»[1].

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص92.

المفاهيم الرّئيسة

1. حقيقة الحدث هو كلّ ما كان مانعًا من التوجّه إلى اللّه.
2. ما لم يطهّر الإنسان من الحدث فلن يحدث له السفر إلى اللّه.
3. التطهّر من الحدث يحصل بالخروج من الإنيّة والأنانيّة.
4. يجب أن تخضع جميع مراتب النّفس للّه تعالى.
5. عدم خضوع مرتبة من مراتب النّفس يعني عدم خضوع النّفس.
6. أضحى حبّ الدنيا مانعًا من الوصول إلى اللّه؛ لأنّه عبارة عن تعزيز الإنيّة والأنانيّة في النفس.
7. كمال التطهّر من الحدث يكون بالخروج من الكثرة الأسمائيّة.
8. التطهّر من الحدث يبدأ من تحقيق التقوى الظاهريّة.
9. الاستغراق في عالم الطبيعة يجعل الإنسان يتّجه نحو السفل فيضلّ الطّريق.
10. تفريغ القلب من الاشتغال بعالم الطبيعة يريحه ويجعله يتوجّه إلى عالم المعنويّات.
11. تفريغ القلب من الاشتغال بعالم الطبيعة يكون بالتزام التّقوى.

الدرس العشـرون

آداب مطلق اللباس

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يتعـرَف إلـى النشـآت المختلفـة للنفسـ، ويدرك العلاقة بين كل نشأة.

2 . يبيِّـن دور اللباسـ وأهميّتـه، وتأثيـره على سـلوك الإنسان.

3 . يذكـر المنهج الاسـلامي فـي التعامل مع اللباسـ والمظهر.

تمهيد

لجميع أحكام الصّلاة الظّاهريّة دلالات باطنيّة معنويّة، ولا يخرج اللباس والستر والساتر عن هذه القاعدة.

تكشف الصّلاة عن أسرار الوجود بطريقة متميّزة جدًّا، وتفتح للإنسان آفاق معرفة الحقائق بصورة رائعة. فهي، بحقّ، دورة شاملة في المعارف الإلهيّة. وعند الحديث عن لباس المصلّي، نتعرّف إلى النّفس الإنسانية ونسبر أغوارها ونكتشف الكثير من الأمور المذهلة التي تفتح لنا أبواب معرفتنا بأنفسنا؛ لأنّ اللباس في الحياة يشكّل أحد عناوين التّواصل الاجتماعيّ، ولأنّ للعلاقات البشرية أبلغ الأثر في النفوس. فسوف يدخل اللباس على هذه العلاقات ويؤدّي دورًا بارزًا في تشكيلها، لينجرّ هذا الأمر إلى التأثير البالغ على النفوس.

لقد كان للباس، وعبر التاريخ البشري، الكثير من الآثار، وأصبح أحد فروع الثقافات وتجلّياتها؛ ولهذا نحتاج إلى ملاحظة الدور البليغ للباس على النفوس حتى نتعرّف إلى الرؤية الإسلامية في هذا المجال.

قد يبدو للوهلة الأولى أنّ موضوعنا سطحيّ أو شكليّ، لكنّه سرعان ما يتبيّن أنّه يحوي الكثير ممّا نحتاج إلى معرفته من دقائق النّفس ومشاعرها وإدراكاتها وأحوالها. وتلك القضية الشكلية الظّاهرية ستترك تأثيرًا عميقًا في القلب!

فما هو سرّ ذلك؟ ولماذا يجب على السّالك أن يراعي أحكام اللباس في حياته انطلاقًا من صلاته؟ وما هي الأحوال القلبيّة التي تتشكّل جرّاء عدم مراعاة مثل هذه الآداب؟

قبل أيّ شيء: ما هي النّفس؟

تتفاعل النّفس الإنسانية مع عوالم الوجود. وعندما يعي صاحبها هذا التفاعل، فإنّه

سيتعرّف على قواها وحواسها. كلّ الناس يكتشفون قواهم البدنية التي يعبّر عنها بقوى عالم الملك والطّبيعة؛ لأنّ هذا العالم الأدنى محط اهتمامهم جميعًا. لكنّ أكثر الناس غافلون عن العوالم الأخرى. وبسبب هذه الغفلة أضحت تلك العوالم غيبية أو باطنية رغم شدّة ظهورها.

كلّ ذلك نتيجة عدم الاهتمام والتوجّه القلبي إليها. ويؤدّي ذلك إلى عدم اكتشاف القوى الباطنية للنفس، فالاحتكاك والتفاعل مع العوالم الغيبية قليل أو ضعيف، والتوجّه إلى ما يجري فيها ومعها أضعف.

وهكذا يأتي أمثال الإمام الخميني قدس سره ليفتحوا أعيننا على هذه الحقائق ويكشفوا لنا بعض ما خفي عنا حول أنفسنا.

يقول الإمام الخميني قدس سره:

«اعلم أنّ النّفس الإنسانية الناطقة حقيقةٌ، هي، في عين الوحدة وكمال البساطة، ذات نشآت؛ عمدتها بطريق كلّيّ ثلاث:

الأولى: النشأة الملكية الدنيوية الظّاهرة، ومظهرها الحواس الظّاهرة والقشر الأدنى لها هو البدن المُلكيّ.

الثانية: النشأة البرزخية المتوسّطة، ومظهرها الحواس الباطنية والبدن البرزخي والقالب المثالي.

الثالثة: النشأة الغيبية الباطنية، ومظهرها القلب والشؤون القلبيّة»[1].

ما هي العلاقة بين كل مرتبة؟

يقول الإمام قدس سره في توضيح العلاقة بين مراتب النّفس: «ونسبة كلّ من هذه المراتب إلى الأخرى نسبة الظّاهرية والباطنية، أو نسبة التجلّي والمتجلّي. ومن هذه الجهة تسري الآثار والخواص والانفعالات من مرتبة إلى أخرى. فمثلًا، إذا أدركت حاسّة البصر شيئًا ما يقع منه أثر في الحسّ البصري البرزخي مناسب لتلك النشأة ويقع منه أثر في البصر الباطنيّ القلبيّ يناسب تلك النّشأة. وهكذا الآثار القلبيّة تظهر في النشأتين الأخيرتين. وهذا المطلب، مضافًا إلى أنّه مطابق للبرهان القويّ المتين، فهو مطابق للوجدان أيضًا.

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 95.

لهذا، يكون لجميع الآداب الصوريّة الشـرعيّة في الباطن أثر، بل آثار، ولكلّ من الأخلاق الجميلة التي هي من حظوظ مقام برزخية النّفس أيضًا آثار في الظّاهر والباطن، ولكلٍّ من المعارف الإلهيّة والعقائد الحقّة في النشأتين البرزخية والظّاهرة آثار»(1).

أمثلة حول التأثير والتأثّر بين المراتب

1. تأثير القلب:

يقول الإمام قدس سره: «فمثلًا، الإيمان بأنّ المتصرّف في مملكة الوجود وعوالم الغيب والشهود هـو الحقّ تعالى، وليس لسائر الموجودات فيها تصـرّف إلا التصـرّف الإذنيّ الظلّيّ، يـؤدّي إلى الكثير من الكمالات النّفسانية والأخلاق الإنسانية الفاضلة، مثل التوكّل والاعتماد على الحقّ وقطع الطمـع بالمخلـوق الذي هـو أمّ الكمالات، ويوجـب كثيرًا من الأعمـال الصّالحة والأفعال الحسـنة وتـرك الكثير من القبائح. وهكذا سـائر المعارف التـي تعدادها وتعداد تأثيراتها خارج عن مجال هذه الأوراق وفوق قلم الكاتب المكسـور، ويحتاج إلى تحرير كتاب ضخم لمؤلّف صاحب قلم قويّ من أهل المعرفة، أو من نفَس حار لأحد أهل الحال (إنّ أيدينا قصيرة والتمرُ على النخيل)(2).

2. تأثير النشأة البرزخية:

ويقول قدس سره: «وهكذا مثلًا خُلق الرضا، فإنّه من الأخلاق الإنسانية الكمالية، وله تأثيرات كبيـرة في تصفية النّفس وتجليّتها، ويجعـل القلب موردًا للتجلّيات الإلهيّـة الخاصّة، ويوصل الإيمـان إلـى كمالـه، وكمـال الإيمـان إلـى الطمأنينـة، والطمأنينة إلـى كمالها، وكمالها إلى المشـاهدة، والمشـاهدة إلى كمالها، وكمالها إلى المعاشـقة، والمعاشقة إلى كمالها وكمالها إلـى المـراودة، والمراودة إلى كمالها وكمالها إلـى المواصلة، والمواصلة إلى كمالها، ويرتقي إلى ما لا يسعه وهمي ووهمك. وله في ملك البدن والآثار والأفعال الصورية التي هي أغصان وأوراق تلـك الشـجرة تأثيـرٌ غريب، فيصير السّـمع والبصر وسـائر القوى والأعضـاء إلهية، ويظهر سرّ «**كنت سمعه وبصره**» إلى حدٍّ ما»(3).

---

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 95 - 96.

(2) م.ن، ص 96.

(3) م.ن، ص96.

3. تأثير نشأة الظّاهر:

يقول الإمام قدس سره: «وكما أنّ لتلك المراتب في الظّاهر تأثيرًا، بل تأثيرات، فلهيئة الظّاهر وجميع الحركات والسكنات (العادية وغير العادية)، ولجميع التروك والأفعال أيضًا في تلك المراتب تأثيرات عجيبة، بحيث إنّه قد يسقط السّالك من الأوج الأعلى إلى أسفل سافلين بنظرة تحقيرية واحدة إلى عبدٍ من عباد اللّه، ولا يستطيع جبران هذا السقوط لسنواتٍ مديدة»[1].

ما هو تأثير اللباس على قلوبنا؟

للألبسة أبعاد عدّة، أهمّها ما يرتبط بمادّتها، وهي القماش، بنوعيّته ومادّته؛ والثاني هو الطّراز والموضة والهيئة. وكما أنّ الناس ينظرون إلى الهيئة والشكل ويعطون صاحبها قيمة ما، كذلك يعتبرون القماش المستعمل فيها ويرون له مدخليّة في التقييم والاعتبار.

جعل اللّه للباس دورًا مهمًّا في كرامة الإنسان؛ لكنّ الناس تعدّوا هذه القيمة الإلهيّة وأسبغوا على الألبسة والثياب اعتبارات شكليّة وهميّة لا دخل لها بالوظيفة الأساسيّة لها. فصارت الثياب عنوانًا للتقدّم والتّأخّر والأهميّة والحقارة والعصرنة والزّهد والمنزلة وغيرها من الأمور، بل ربّما يمكن القول أنّ هذه الاعتبارات تفوّقت على الوظيفة الأصليّة، وصار من اللازم أن يتّخذ المؤمن المتديّن موقفًا واضحًا من القضيّة، وأن ينتبه إلى مظهره ليحفظ ثقافته وأصالته، ولا ينجرّ إلى ثقافة أهل الدّنيا والاستكبار والاعتبار، حتى لا يكون خادمًا ومروّجًا لها من حيث لا يشعر.

يقول الإمام الخميني قدس سره:

«وحيث إنّ أنّ قلوبنا نحن المساكين ضعيفة وعاجزة، ومثل شجرة الصفصاف تضطرب من النّسيم الرقيق وتفقد حالة السّكون، فاللازم أن نراقب الحالات القلبيّة حتّى في الأمور العاديّة؛ وأحدها اتّخاذ اللباس، ونلاحظ حالاتنا القلبيّة ونحافظ على القلب. وحيث إنّ للنّفوس والشّيطان حبائل مستحكمة وتسويلات دقيقة جدًّا والإحاطة بها فوق طاقتنا، فلا بدّ

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 96 - 97.

لنا من مواجهتها بقدر قوّتنا ووسعنا، ونطلب التّوفيق والتأييد من الحقّ تعالى»[1].

القلب الرّقيق علامة على السّلامة؛ فرقّة القلب تجعله قابلًا للانفعال السّريع تجاه فيوضات عالم الملكوت والمعاني الجميلة للوجود، وبهذا الانفعال يحصل على زاده من تلك الحقائق. إلّا أنّ نقطة القوّة هذه قد تتبدّل إلى نقطة ضعف فيما لو كان توجّه القلب منعطفًا إلى هذه الدّنيا الدنيّة؛ لأنّه سرعان ما سيتفاعل معها ويتأثّر بها، فتترك بصمات واضحة وعميقة فيها، ويؤدّي ذلك إلى التعلّق بها وحبّها والإقبال عليها.

يقول الإمام الخميني قدس سره: «فنقول بعدما اتّضح أنّ للباطن في الظّاهر وللظّاهر في الباطن تأثيرًا، أنّه لا بدّ للإنسان الطّالب للحقّ والارتقاء الرّوحانيّ أن يحترز في انتخاب مادّة اللباس وهيئته ممّا يكون له تأثير السّوء في الرّوح ويخرج القلب عن الاستقامة ويغفله عن الحقّ ويجعل وجهة الرّوح دنيويّة. ولا يتوهّم أنّ تسويل الشّيطان وتدليس النّفس الأمّارة إنّما هو في اللباس الفاخر الجميل فقط أو في التّجمّل والتزيّن فحسب، بل اللباس البالي الذي لا قيمة له ربّما يسقط الإنسان من درجة الاعتبار.

ومن هذه الجهة، لا بدّ للإنسان أن يحترز من لباس الشّهرة، بل من مطلق المشي على خلاف المعتاد والمتعارف. كما إنّه لا بدّ أن يحترز من الألبسة الفاخرة التي تكون مادّتها وجنسها غالية الثمن، وتكون هيئتها وخياطتها جالبة للأنظار، ويُشار إليها بالبنان؛ لأنّ قلوبنا ضعيفة وغير ثابتة بشكلٍ ملحوظ، فبمجرّد التميّز والتعيّن تزلّ وتنحرف عن الاعتدال. فالإنسان المسكين الضّعيف العاري من جميع مراحل الشّرف والإنسانيّة وعزّة النّفس وكمال الآدميّة والبريء منها، ربّما يحدث بسبب بضعة أذرع من الثوب الحريريّ أو الصوفيّ الذي قلّد في خياطته الأجانب، أو حصل عليه بقيمة بيع شرفه والوقوع في العار، أن ينظر إلى عباد الله بنظر الحقارة والكبر والدلال ولا يرى لأحد قيمة، وليس هذا إلّا من منتهى ضعف نفسه وقلّة استعداده؛ حيث يتوهّم أنّ فضلات دود القزّ ولباس الغنم موجبة لاعتباره وشرفه»[2].

فأصل القضية هو ألّا يكون اللباس ممّا يستوجب الشّهرة في المجتمع (في أيّ نوع من أنواعها)؛ لأنّ الشهرة الحميدة هي شهرة الأخلاق والقيم المعنويّة. ومن كانت شهرته بسبب

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 97.

(2) م.ن، ص 97 - 98.

ثيابه ومظهره، فهو ممّن يساعد على تدمير منظومة القيم الدينيّة واستبدالها بمنظومة الدّنيا المنحطّة.

ومثل هذا الأمر لا ينحصر بالنيّة؛ فقد تكون نيّتنا سليمة ونحن لا نبتغي من وراء هذا اللباس شهرة أو منزلة في القلوب. ومع ذلك، فإنّ اللباس يحكي عنّا. ويجب علينا أن ننظر إلى العرف الاجتماعيّ وما يفهمه من مظهرنا ونتعرّف إلى المظهر الذي يحفظ كرامتنا ويعلن عن الاستقامة والتّواضع والحسن، ونلتزم به كي لا تتأثّر قلوبنا بالتدريج دون وعيٍ منّا أو التفات.

يقول الإمام قدس سره: «وبالجملة، كما إنّ لمادّة اللباس وجنسه وغلائه وزينته تأثيرًا في النفوس، ومن هذه الجهة قال أمير المؤمنين عليه السلام - كما رواه القطب الراوندي -: «**من لبس لباس المرتفع من الثياب، فلا بدّ له من التكبّر، ولا بدّ للمتكبّر من النّار**»، كذلك في هيئته وكيفيّة قصّه وخياطته آثار»[1]،[2].

إلى أيّ مدى يمكن أن تصل هذه الآثار؟

وحيثما اتّضحت الآثار الناتجة عن تعلّق القلب بالمظهر بالإجمال، نسأل إلى أيّ مدى يمكن أن تصل هذه التأثيرات السلبيّة على الإنسان؟ وهنا يجيب الإمام الخميني قدس سره قائلًا: «ربّما يحصل للإنسان من خلال تقليد الأجانب في لباسهم تعصّب جاهليّ لهم، ويتضجّر ويتنفّر من أولياء الله ورسوله، ويصبح أعداء الله وأعداء رسوله محبوبين عنده. ولذا، ورد في الرواية عن الصادق عليه السلام: «**إنّ الله تبارك وتعالى أوحى إلى بعض أوليائه: قل للمؤمنين لا تلبسوا ملابس أعدائي، ولا تأكلوا كأعدائي، ولا تمشوا كأعدائي؛ فتكونوا أعدائي كما هم أعدائي**»[3].

---

(1) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج3، ص 257، ورد الحديث في المستدرك: «من لبس المرتفع من الثياب» وليس «لبس لباس المرتفع».

(2) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 98.

(3) ورد هذا الحديث في مستدرك الوسائل بهذه الصيغة: أَوْحَى اللهُ إِلَى نَبِيٍّ أَنْ قُلْ لِقَوْمِكَ: لَا تَطْعَمُوا مَطَاعِمَ أَعْدَائِي، وَلَا تَشْرَبُوا مَشَارِبَ أَعْدَائِي، وَلَا تَرْكَبُوا مَرَاكِبَ أَعْدَائِي، وَلَا تَلْبَسُوا مَلَابِسَ أَعْدَائِي، وَلَا تَسْكُنُوا مَسَاكِنَ أَعْدَائِي؛ فَتَكُونُوا أَعْدَائِي كَمَا كَانَ أُولَئِكَ أَعْدَائِي». الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج3، ص 248.

وكما أنّ للألبسة الفاخرة في النّفوس تأثيرًا، كذلك للألبسة الدنيّة جدًّا، من حيث المادّة والجنس أو من حيث الهيئة والشّكل، في النّفوس تأثير. وربّما يكون فساد هذا اللباس أشدّ بمراتب من تلك الألبسة الفاخرة؛ لأنّ للنّفس مكائد دقيقة جدًّا، فبمجرّد أن يرى السّالك نفسه متميّزًا، لأنّه يرتدي اللباس الخشن والكرباس ويرى سائر الناس يرتدون الألبسة الليّنة اللطيفة، يغفل عن عيوبه بسبب حبّ النّفس، ويحسب هذا الأمر العرضي وغير المربوط به سببًا للافتخار. وربّما يُعجب بنفسه ويتكبّر على عباد الله، ويحسب سائر النّاس مبعدين عن ساحة الحقّ المقدّس، ويرى نفسه من المقرّبين ومن خُلّص عباد الله، وربّما يُبتلى بالرّياء وسائر المفاسد العظيمة.

فهذا المسكين قد قنع من بين جميع مراتب المعرفة والتقوى والكمالات النّفسانية باللباس الخشن والبالي، وغفل عن آلاف العيوب التي تلتصق بنفسه، والذي من أكبرها هذا العيب الذي حدث فيه من سوء تأثير هذا اللباس، وحسب نفسه من أهل الله، مع أنّه من أولياء الشّيطان، وحسب عباد الله لا شيء وبلا قيمة.

وكذلك أيضًا، ربّما تكون هيئة اللباس وطرازه سببًا لابتلاء الانسان بمفاسد عديدة؛ كأن يجعل اللباس على نحو يشتهر به بالزهد والقداسة»[1].

ضرورة الاعتدال

فما هو النّهج الإسلاميّ الصّحيح في التّعامل مع اللباس والمظهر؟ وكيف يكون الإنسان مظهرًا للتّقوى والشّعار الدينيّ؟ يقول الإمام الخميني قدس سره: «وبالجملة، لباس الشهرة، سواء من جهة الإفراط أم التفريط، من الأمور التي تزلزل القلوب الضّعيفة وتخلعها من مكارم الأخلاق، وتؤدّي إلى العجب والرّياء والكبر، وكلّها من أمّهات الرّذائل النّفسانية، بل يؤدّي للرّكون إلى الدّنيا وتعلّق القلب بها الذي هو رأس كلّ الخطيئات ومنبع جميع القبائح، وفي الأحاديث أيضًا، أشير إلى كثير من الأمور المذكورة، كما في الكافي الشّريف، عن الصادق عليه السلام: «**إنّ الله يبغض شهرة اللباس**»[2]، وعنه أيضاً قال عليه السلام: «**الشهرة**

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 98 – 99.
(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج6، ص 445.

خيرها وشرّها في النار»[1]، وعنه عليه السلام: «**إنّ الله يبغض الشّهرتين، شهرة اللباس وشهرة الصّلاة**»[2]، وقد رُوي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**من لبس ثياب شهرة في الدّنيا، ألبسه الله ثياب الذلّ يوم القيامة**».[3]»[4].

موعظة للإمام قدس سره

«أيّها الانسان المسكين، كم أنت مخلوقٌ ضعيف ومنقطع؟! فشأنك أن تكون فخر عالم الإمكان وخلاصة للكون والمكان. أنت ابن آدم، وشأنك أن تكون معلّمًا للأسماء والصّفات. أنت ابن خليفة الله، وشأنك أن تكون من الآيات الباهرات (ينادونك من أعالي العرش).

أيّها الشقيّ والخلف غير الصالح، غصبت مقدارًا قليلًا من فضلات الحيوانات وملبوساتها، وتفتخر بها؟! هذا فخر لدودة القزّ والغنم والإبل والسنجاب والثّعلب؛ فلماذا تفتخر بلباس غيرك وتتدلّل بما هو فخر لهم وتتكبّر به؟!»[5].

---

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج، ص 445.
(2) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج3، ص 245.
(3) الطبرسي، الحسن بن الفضل، مكارم الأخلاق، قم، انتشارات الشريف الرضي، 1412 هـ، ط 4، ص 116.
(4) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 99.
(5) م.ن، ص 98.

المفاهيم الرئيسة

1. يؤثّر اللباس في الإنسان تأثيرًا عجيبًا.
2. قد يصل هذا التأثير إلى حدّ إسقاط الإنسان من منزل الكرامة.
3. بالرغم من كون اللباس من الأمور الظّاهرة، لكنّه يؤثّر في القلب.
4. مراتب النّفس الكلّية ثلاث، هي: الملك والبرزخ والغيب.
5. عالم الملك هو محلّ الحواس الظّاهرة.
6. برزخ النّفس هو محل أخلاقها وملكاتها وخيالها.
7. غيب الهوية الإنسانية هو باطنها وعالمها القلبيّ.
8. تتفاعل هذه المراتب فيما بينها، وتؤثّر كلٌّ منها في الأخرى.
9. يترك عالم الملك أثرًا كبيرًا في برزخ النّفس وفي ملكوتها.
10. لا ينبغي أن يكون اللباس من النوع الذي يضفي على صاحبه امتيازاً.
11. التفاخر باللباس من ضعف عقل الإنسان وجهله.

الدرس الواحد والعشرون

سرّ طهارة اللباس

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يتعرّف إلى أهمية اللباس والستر في محضر الله.

2 . يعدّد مراتب الستر بحسب مراتب النفس.

3 . يدرك كيفيّة تحقّق ستر عورات النفس في جميع مراتبها.

تمهيد

علاقة أخرى تظهر فيما بين مراتب النّفس الإنسانية. فإذا نظرنا من إحدى الحيثيّات سنجد أنّ كل مرتبة دانية هي ستر للمرتبة الأعلى، كما يكون اللباس سترًا للبدن. ولأنّ الصّلاة هي أعظم مظاهر الحضور بين يدي الله عزّ وجل، ولأنّ للحضور عظمة وخطر، يجب أن يراعي المصلّي مخاطر وشؤون هذه الحضرة، وإلّا استحقّ الطّرد والإبعاد.

للّباس في الصّلاة شأن، وهو أن يكون ساترًا للعورات. ولأنّ عورات الباطن هي أقبح من عورات الظّاهر، فعلى المصلّي أن يجدّ في سترها فيما لو أراد رعاية آداب الحضور بين يدي الله تعالى.

إنّ الحاضر الأكبر في محضر الله تعالى هو القلب، بمقتضى: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ**»[1]، ولأنّ عيوب القلب وعوراته أقبح من أيّ شيء، فعلى المصلّي الذي يريد تحقيق حضور القلب أن يجتهد في ستر هذه العورات.

إنّ الطّرد في عالم اللاهوت لا يشبه الطّرد الموجود في عالم النّاسوت، بل هو عبارة عن عدم اللياقة وفقدان الاستعداد، لا بل هو عبارة عن رفض اللياقة ونبذ القرب.

لا يطرد الله تعالى من فيه رغبة ولياقة. وإنّما هي القذارات والعيوب التي تمنع الإنسان من الإقبال على محضر الله وطلب القرب منه.

أمّا سترها فيستلزم أمرين أساسيين، الأوّل: أن يكون السّتر لباسًا ساترًا بالكامل، والثاني: أن يكون متناسبًا مع كرامة المقام والمحضر.

---

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج68، ص 248.

لا بد من الحضور

إنّ الصّلاة فريضة واجبة على كلّ إنسان، فمن تركها كفر. وليست الصّلاة سوى الحضور الاختياريّ للعبد بين يدي الله والرّجوع إليه بالرّضا بحكم ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴾[1]. وهذا الرّجوع الاختياريّ هو رجوع بكلّ قوى النّفس والشّعور بعظمة الحضور. فإذا لم يرجع العبد راضيًا، وإذا لم يقدّس الحضرة، فلا بدّ أن يرجع مقهورًا ومعه العذاب الأبديّ، يقول الإمام الخميني قدس سره: «اعلم أنّ الصّلاة هي مقام العروج إلى مقام القرب والحضور في محضر الأنس؛ ويلزم للسّالك مراعاة آداب الحضور في محضر ملك الملوك المقدّس. وحيث إنّ أدنى المراتب والمراحل لظهور النّفس التي هي قشر القشر والبدن الصوريّ الملكيّ، إلى أعلى مقاماتها وحقائقها التي هي لبّ اللباب ومقام سرّ القلب، حاضرة في المحضر المقدّس للحقّ، فعلى السّالك أيضًا أن يستحضر ويعرض جميع الجنود الباطنة والظّاهرة لممالك السرّ والعلن على محضر الحقّ جل وعلا، ويقدّم إلى محضره المقدّس جميع الأمانات التي وهبها الله سبحانه بيد قدرة الجمال والجلال، وقد كانت في كمال الطّهارة والصّفاء ومن دون تصرّف أحد من الموجودات، ويردّها إليه كما أعطاه سبحانه إياها»[2].

مراتب الستر بحسب مراتب النّفس

ولمّا كان الحضور مستلزمًا لستر القبائح في حضرة الربّ المتعال، وإلّا لاعتبر العبد هاتكًا وبربّه مستخفّا، كان على العبد أن يعرف قبائح نفسه وعورات باطنه ويسترها بحسبها؛ لهذا يقول الإمام الخميني قدس سره: «ففي أدب الحضور مخاطر كثيرة لا يجوز للسّالك أن يغفل عنها لحظةً واحدة، ولا بدّ له أن يجعل طهارة اللباس الذي هو ساتر للقشر، بل قشر القشر، وسيلة لطهارة الألبسة الباطنيّة؛ وليعلم أنّه كما أنّ:

1. هذا اللباس الصّوريّ ساتر، وهو لباس للبدن الملكيّ.
2. فإنّ نفس البدن ساتر للبدن البرزخيّ؛ والبدن البرزخيّ موجود الآن ولكنّه في ستر البدن الدنيويّ وحجابه.

---

(1) سورة الفجر، الآيتان 27-28.

(2) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 101 - 102.

3. والبدن البرزخيّ ساتر ولباس وحجاب للنفس.

4. والنّفس ساترة للقلب.

5. والقلب ساتر للروح.

6. والروح ساتر السرّ.

7. والسرّ ساتر اللطيفة الخفية.

إلى غير ذلك من المراتب.

وكلّ مرتبة نازلة ساترة للمرتبة العالية... ومجموع هذه المراتب، وإن كان موجودًا في خلّص أهل اللّه وسائر النّاس منها محرومون، لكن حيث إنّ بعض المراتب موجودة في الكلّ، فلهذا نشير إليه فقط»(1).

وجود المرتبة يعني أنّها فاعلة ومتفاعلة مع العالم المتناسب معها، وعدم وجودها يعني أنّها كامنة لا تأثير ولا تأثّر لها. ولا شكّ بأنّ خُلّص أولياء اللّه تعالى يتمتّعون بجميع مراتب النّفس؛ لأنّهم متفاعلون مع جميع عوالم الوجود ومدركون لها.

إنّ كل مرتبة من مراتب النّفس هي في الواقع تجلٍّ وظهورٌ للمرتبة الأعلى منها وكاشفةٌ لها. فمن أراد أن يعرف ما في ملكوته يمكنه أن يعرفه من ناسوته إن لم يكن من أصحاب البصيرة؛ لأنّ ناسوت المرء وملكه وظاهره تجلٍّ لملكوته وباطنه.

وفي الوقت نفسه، تخفي المرتبة الأدنى حقيقة المرتبة الأعلى وتسترها. فإذا استفاد السّالك من هذه السّتاريّة وقام بوظائفها، كان كمن يقمع عيوب المرتبة الأعلى ويكبتها. ولمثل هذا القمع والسّتر فائدة عظيمة، وهي أنّها تكون عاملًا مهمًّا في القضاء على تلك العيوب.

وبعبارة مختصرة: إنّ الذي يستحي أن تظهر عوراته الباطنية، سيتخلّص منها في نهاية المطاف. فمن كان قلبه ملتاثًا بحب الدّنيا لكنّه ستر هذا الحبّ ومنع ظهوره في ساحة العمل أو الأخلاق، سيخنقه ويقضي عليه عمّا قريب. وأقوى منه لو أكمل الستر بتخلّقه بالزهد والورع والعفّة. وإنّما يكتمل الستر بأمرين: أن يكون خافيًا وقامعًا للعيوب، وأن يكون كريمًا مكرمًا لصاحبه. ولا كرامة كالأخلاق الفاضلة.

---

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 102.

الستر بحسب العورة

وها نحن قد تعلّمنا في مجتمعنا كيفيّة ستر عورات البدن، فهل نعرف كيف نستر عورات النّفس في جميع مراتبها؟ ولأجل ذلك ينبغي أن نعرف تلك العورات أولًا.

1. ستر الأفعال والجوارح:

يقول الإمام الخميني قدس سره:

«فليعلم أنّه كما لا تتحقّق صورة الصّلاة بدون طهارة اللباس والبدن، وأنّ القذارات التي هي رجس للشيطان ومبعدة عن محضر الرحمن، هي من موانع الدخول إلى المحضر، وتبعد المصلّي الملوّث لباسه وبدنه برجز الشّيطان عن محضر القدس، وتمنعه من مقام الأنس. كذلك قذارات المعاصي والتمرّد على الحقّ التي هي من تصرّفات الشّيطان ومن رجس هذا الخبيث وقاذوراته، هي من موانع ورود المحضر. فالمتلبّس بالمعاصي قد نجّس ساتر البدن البرزخيّ، ولا يتمكّن مع هذه القذارة أن يرد إلى محضر الحقّ.

وتطهير هذا اللباس من شرائط تحقّق الصّلاة الباطنية وصحّتها. وما دام الإنسان في حجاب الدّنيا لا يطّلع على ذلك البدن الغيبيّ وطهارة لباسه وقذارته وشرطيّة الطّهارة ومانعيّة القذارة فيها. ولكنّه إذا خرج من هذا الحجاب، وطوى سلطانُ الباطن ويومُ الجمع بساطَ التفرقة الظّاهر، وطلعت شمس الحقيقة من وراء الحجب الدنيوية المظلمة، وانفتحت البصيرة الباطنية الملكوتية وأغلقت البصيرة الحيوانية الملكية، فسوف يدرك بعين البصيرة أنّ صلاته كانت فاقدة للطّهارة طوال الوقت، وكانت محاطة بآلاف الموانع، التي كان كلّ واحد منها سببًا مستقلًّا للإبعاد عن محضر الحقّ المقدّس. ومع آلاف الأسف، ليس في ذلك اليوم طريق للجبران ولا حيلة للإنسان؛ وكلّ ما يبقى له حين ذاك هو الحسرات والندامات، ندامات لا نهاية لها، وحسرات لا انتهاء لها ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾[1]»[2].

2. ستر الأخلاق والمثال:

«فإذا حصلت طهارة اللباس الباطنيّ، فيلزم طهارة الجسم الملكوتيّ أيضًا من رجز

(1) سورة مريم، الآية 39.

(2) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 102 - 103.

الشّيطان. وهو عبارة عن التّطهير من أرجاس الأخلاق الذّميمة، التي يلوّث كلّ منها الباطن، ويبعّد الإنسان عن المحضر ويطرده من بساط قرب الحقّ. وهي أيضًا من رجس الشّيطان البعيد عن الرّحمة. وإنّما أصول جميع الذّمائم ومبادئها هي العجب وحبّ النّفس والتّكبّر والتّظاهر والتّعصّب، وكلٌّ منها مبدأ كثير من الذّمائم الأخلاقيّة ورأس كثير من الخطيئات»[1].

3. ستر القلب والحب:

«فاذا فرغ السّالك من هذه الطّهارة، وطهّر لباس التقوى بماء التوبة النصوح والرياضة الشرعية، عليه أن يشتغل بتطهير القلب الذي هو السّاتر الحقيقيّ، وتصرّف الشّيطان فيه أكثر وقذاراته سارية إلى سائر الألبسة والسواتر؛ وما لم يطهّره، لن تتيسّر سائر الطهارات»[2].

وفي كيفية تطهير القلب يقول الإمام قدس سره:

«ولتطهيره مراتب يُشار إلى بعضها بما يناسب هذه الأوراق:

أحدها: التطهير من حبّ الدّنيا، الذي هو رأس كلّ خطيئة ومنشأ جميع المفاسد. وما دامت هذه المحبّة في قلب الإنسان لا يتيسّر له الورود إلى محضر الحقّ. ومع هذه القذارة لا تتحقّق المحبّة الإلهيّة التي هي أمّ الطّهارات. ولعلّه ما اهتُمّ بشيء في كتاب الله ووصايا الأنبياء والأولياء عليهم السلام، وخصوصًا أمير المؤمنين عليه السلام، مثلما اهتُمّ بترك الدّنيا والزّهد فيها والإعراض عنها الذي هو من حقائق التقوى.

ولا تحصل هذه المرتبة من التّطهير إلّا: بالعلم النافع، والرّياضات القلبيّة القويّة، وصرف الهمّة في التفكّر في المبدأ والمعاد، وإشغال القلب بالاعتبار في أفول الدّنيا وخرابها وكرامة العوالم الغيبيّة وسعادتها؛ «**رحم الله امرءًا علم: من أين؟ وفي أين؟ وإلى أين؟**»[3].

ومنها: التّطهير من الاعتماد على الخلق الذي هو شركٌ خفيّ، بل هو عند أهل المعرفة شركٌ جليّ. ويحصل هذا التّطهير بالتّوحيد الفعليّ للحقّ جلّ وعلا الذي هو منبع الطّهارات القلبيّة.

ولا بدّ أن يُعلم أنّ مجرّد العلم البرهانيّ والسّير التفكّري في باب التوحيد الفعليّ لا ينتج النتيجة المطلوبة، بل ربّما تكون كثرة الاشتغال بالعلوم البرهانيّة سببًا لظلمة القلب وكدورته،

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 103.
(2) م.ن.
(3) الفيض الكاشاني، الوافي، ج1، ص 116.

وتمنع الإنسان من المقصد الأعلى. وفي هذا المقام قيل «العلم هو الحجاب الأكبر».

وفي عقيدة الكاتب، إنّ جميع العلوم عمليّة حتّى علم التوحيد. ولعلّه يُستفاد كونه عمليًّا من كلمة التوحيد التي هي تفعيل، فبحسب ما يناسب الاشتقاق إنّ التوحيد عبارة عن الانتقال من الكثرة إلى الوحدة وجعل جهات الكثرة مستهلكة ومضمحلّة في عين الجمع. ولا يحصل هذا المعنى بالبرهان، بل يجب تنبيه القلب بالرياضات القلبيّة والتوجّه الغريزيّ إلى مالك القلوب بما أفاده البرهان حتى تتحقّق حقيقة التّوحيد.

أجل، إنّ البرهان يقول لنا: «لا مؤثّر في الوجود إلاّ اللّه»، وهذا أحد معاني «لا إله إلا اللّه»، وببركة هذا البرهان نقطع يد تصرّف الموجودات عن ساحة كبرياء الوجود ونرجع ملكوت العوالم ومُلكها إلى صاحبها، ونظهر حقيقة ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1]، و﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾[2]، و﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾[3]. ولكن، ما لم يصل هذا المطلب البرهانيّ إلى القلب ويصبح صورة باطنيّة للقلب، فلا ننتقل من حدّ العلم إلى حدّ الإيمان، ولا يكون لنا من نور الإيمان الذي ينوّر مملكة الباطن والظّاهر سهم ونصيب. فلهذا، مع وجود البرهان على هذا المطلب الإلهيّ الشّامخ، فنحن واقعون في التكثير وليس عندنا خبر من التوحيد الذي هو قرّة عين أهل اللّه، ندقّ طبل لا مؤثّر في الوجود إلّا اللّه، ومع ذلك نمدّ عين الطّمع ويد الطّلب إلى من هو أهل وغير أهل؛ شعر:

قدم الاستدلاليين خشبية والقدم الخشبية متزلزلة

وهذا التطهير من المقامات الجليلة للسّالكين. ومن بعده مقامات أُخر خارجة عن حدودنا؛ ولعلّه يرد في هذه الأوراق لها ذكر في وقتها إن شاء اللّه»[4].

فكلّ العوالم ليست سوى تشعشعات وجه الجميل المطلق. ولا كثرة فيه بالحقيقة، فهي أنوار حقيقة واحدة. والعارف هو الذي يرى العوالم رغم كثرتها الظّاهرية مستغرقة في أمر واحد.

(1) سورة البقرة، الآية 116.
(2) سورة المؤمنون، الآية 88.
(3) سورة الزخرف، الآية 84.
(4) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 103 - 105.

المفاهيم الرئيسة

1. لطهارة اللباس الظّاهر آداب معنويّة عدّة.
2. كلّ مرتبة من مراتب النّفس تُعد لباسًا وساترًا لما فوقها.
3. تطهير الثياب الظّاهرة يقتضي تطهير الألبسة الباطنية بطريق أولى.
4. نجاسة الألبسة الباطنية تبطل الصّلاة المعنويّة.
5. لا يمكن أن نعرج بالصّلاة ونفوسنا مبتلاة بالقذارات المعنويّة.
6. أسوأ قذارات الألبسة الباطنية حبّ الدّنيا والاعتماد على الناس.
7. بالتوحيد يمكن تطهير الألبسة الباطنية.
8. كلّ علم نافع يشبه الماء الطاهر الطّهور.

الدرس الثاني والعشرون

الاعتبارات القلبيّة لستر العورة

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يتعرَّف إلى حقيقة العلاقة بين الخالق والمخلوق.
2. يتعرّف إلى القاعدة الأساس في الوصول إلى الإيمان.
3. يبيِّن ماهيّة العورات الباطنيّة وحقيقة اللباس المعنوي.
4. يشرح المبدأ الأساس للدّخول في ستر الله الأعظم.

تمهيد

ليس السّير والسّلوك في حقيقته سوى استحضار الواقع الوجوديّ الكبير ومعايشته.

وحقيقة النّفس تختصر هذا الواقع، بل هي عُصارته، وفيها انطوى العالم الأكبر؛ ولهذا كانت معرفتها سبيلًا لمعرفة الواقع المطلق وحقيقة الحقائق.

وفي الوقت نفسه، لا يمكن معرفة حقيقة أيّ معلول إلّا بمعرفة علّته التامّة، فذوات الأسباب لا تُعرف إلّا بأسبابها. وحيث إنّ الله تعالى هو العلّة التامّة الوحيدة لكلّ شيء، فإنّ معرفة الله هي أساس معرفة كلّ شيء. فمعرفة الله كامنة في النّفس، وعلى السّالك أن يكشف الحجب عنها ليدركها. وهناك تتكشّف له حقيقة ارتباط الأشياء بالله تعالى.

فإذا عرف السّالك هذا الارتباط وعاشه بقلبه وظهر في جوارحه، تحقّق له السّلوك.

وتؤدّي هذه المعرفة إلى إدراك موانع الارتباط والحجب التي أُسدلت على أعين القلوب فمنعتها من شهود الحقيقة.

وعندما يزيل الإنسان مثل هذه الحجب ويراعي أدب الستر بالرّجوع إلى الساترة الإلهيّة، فسوف تزول من أمامه كلّ الموانع التي ترجع جميعًا إلى رؤية النّفس مقابل الحقّ تعالى.

حقيقة الارتباط بين المخلوق والخالق

يقول الإمام الخميني قدس سره في شرح حقيقة الرابطة بين الخالق والمخلوق: «رُوي في الكافي والتوحيد أنّ الصّادق عليه السلام قال: «**إنّ روح المؤمن لأشدّ اتّصالًا بروح الله من اتّصال شعاع الشّمس بها**»[1].

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص 166.

وقد ثبت بالبرهان القويّ المتين في العلوم العالية أنّ جميع دائرة الوجود من أعلى مراتب الغيب إلى أدنى منازل الشّهود هي عين التعلّق والرّبط ومحض التدلّي والفقر إلى القيّوم المطلق جلّت عظمته.

ولعلّه أشير إلى هذا المعنى في الآية المباركة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[1].

فإذا لم يكن لموجود من الموجودات في حال من الحالات وآنٍ من الآنات وحيثيّة من الحيثيّات، تعلّق بعزّ القدس الرّبوبيّ، لخرج عن بقعة الإمكان الذاتيّ والفقر ودخل في حريم الوجوب الذاتيّ والغنى»[2].

كيفيّة الوصول إلى حقيقة الإيمان ونوره

فإذا أدرك المرء هذه الحقيقة، وعرف آثارها، يجب عليه أن ينهض لكتابتها على لوح قلبه من خلال الرّياضة القلبيّة التي جرى الحديث عنها في مراتب السّلوك ومقاماته، يقول الإمام الخميني قدس سره: «وعلى العارف بالله والسّالك إلى الله أن يكتب هذا المطلب البرهانيّ الحقّ وهذه اللطيفة الإلهيّة العرفانيّة على لوح القلب بواسطة الرّياضات القلبيّة، ويخرجها من حدّ العقل والبرهان إلى حدّ العرفان، حتى تتجلّى في قلبه حقيقة الإيمان ونوره؛ فإنّ أصحاب القلوب وأهل الله ينتقلون من حدّ الإيمان إلى منزل الكشف والشّهود. وهو يحصل بالمجاهدة الشديدة والخلوة مع الله والعشق في الله.

كما في مصباح الشّريعة، إنّ الصادق عليه السلام قال:

«العارف شخصه مع الخلق وقلبه مع الله، لو سها قلبه عن الله طرفة عين لمات شوقًا اليه، والعارف أمين ودائع الله وكنز أسراره ومعدن نوره ودليل رحمته على خلقه ومطيّة علومه وميزان فضله وعدله، قد غني عن الخلق والمراد والدّنيا، ولا مؤنس له سوى الله، ولا نطق ولا إشارة ولا نفس إلّا بالله، لله، من الله، مع الله»[3]»[4].

(1) سورة فاطر، الآية 15.
(2) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 105.
(3) الامام جعفر الصادق عليه السلام، مصباح الشريعة، ج3، ص 14.
(4) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 105 – 106.

ما هو أثر هذه الحقيقة في السّلوك؟

ومثل هذه المعرفة القلبيّة إذا امتزجت بالفطرة الصافية ظهرت في وجود السّالك بحالة الخشية والخوف والتعظيم وإدراك خطورة المحضر والالتزام بلوازمه؛ ولهذا يقول الإمام الخميني قُدِّسَ سِرُّهُ: «إذا رأى السّالك نفسه حاضراً في محضر الحقّ المقدّس جلّ وعلا، بل وجد باطنه وظاهره وسرّه وعلنه عين الحضور... وبالجملة، إذا رأى السّالك نفسه بجميع شؤونه عين الحضور يستر جميع عوراته الظّاهريّة والباطنيّة لحفظ المحضر وأدب الحضور؛ ولأنّه وجد أيضًا أنّ كشف العورات الباطنيّة في محضر الحقّ أقبح وأفضح من كشف العورات الظّاهريّة بمقتضى الحديث «إنّ الله لا ينظر إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم»[1].

فما هي العورات الباطنيّة؟

يقول الإمام الخميني قُدِّسَ سِرُّهُ: «والعورات الباطنيّة هي ذمائم الأخلاق وخبائث العادات والأحوال الخُلقية الرّديئة التي تسقط الإنسان من لياقة المحضر وأدب الحضور. وهذا السّقوط هو أوّل مرتبة من مراتب هتك الستور وكشف العورات»[2]. فإذا عرف السالك ماهيّة هذه العورات الباطنية وأثرها الوخيم على سيره التكاملي أدرك خطورة بقائها، ولم يستهتر بوجودها.

أصل جميع العورات

وفي المقابل، فإنّ أصل جميع القبائح هو ما يرجع إلى العدم، وهو المعبّر عنه بما سوى الله تعالى؛ لأنّ الله تعالى هو الوجود المطلق، وكلّ ما عداه عدم؛ لهذا يقول الإمام الخميني قُدِّسَ سِرُّهُ: «إنّ أهل المعرفة وأصحاب السّابقة الحسنى يعلمون أنّ جميع التعيّنات الخَلقية والكثرات العينيّة ظلمات، والنّور المطلق لا يحصل إلّا بإسقاط الإضافات وكسر التعيّنات التي هي أصنام طريق السّالك. فإذا اضمحلّت وانطمست ظلمات الكثرات الفعليّة والوصفيّة في عين الجمع تكون جميع العورات مستورة ويتحقّق الحضور المطلق والوصول التامّ.

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 106.

(2) م.ن.

والمصلّي في هذا المقام، كما أنّه مستورٌ بالحقّ، فهو مصلٌ بصلاة الحقّ. ولعلّ صلاة معراج خاتم الرّسل صلّى الله عليه وآله وسلّم كانت بهذه الطريقة في بعض المقامات والمدارج، والله العالم»(1).

لا ساتر إلا الله

إنّ ستر العورات، بل كلّ تزكية وطهارة لا يمكن أن تُنال إلا بتأييد الله المنّان؛ لأنّ كلّ خير منه على سبيل التفضّل، ويستحيل أن يبلغ موجود كماله إلّا برحمة الله وتفضّله؛ ولهذا كان مبدأ جميع الخيرات وأصل كلّ الكمالات التمسّك بالتوحيد الخالص، وهو أحد معاني الحديث القدسيّ الشّريف: «**كلمة لا إله إلا الله حصني**»(2). وحيث إنّ ستر العورات في محضر الحقّ المتعال واجب، وإلا عُدّ الإنسان مجترئًا على ربّه ووليّ نعمته، فلا بدّ من التمسّك بستّاريّة الحقّ تعالى واستحضار معناه في مثل هذا الموقف العظيم؛ لهذا يقول الإمام الخميني قدّس سرّه: «وليُعلم أنّ الانسان، إن لم يستر نفسه بحجاب ستّاريّة الحقّ وغفّاريته تعالى، ولم يقع تحت اسم السّتّار والغفّار مع طلب الغفارية والسّتّاريّة، فربّما إذا طُوي ساتر الملك وارتفع حجاب الدّنيا، تهتك ستوره في محضر الملائكة المقرّبين والأنبياء المرسلين عليهم السلام. ولا يعلم قباحة كشف تلك العورات الباطنية وخزيها سوى الله»(3).

كيفية الوصول إلى ستر الله الأعظم

«إنّ اللباس الحقيقيّ للإنسان هو ما يتناسب مع إنسانيّته. وحيث إنّ هذا الكائن هو خليفة الله، فلا بدّ أن يكون ممثّلًا للمستخلِف. ومن هنا، كان تعليم آدم الأسماء كلّها عنوانًا لخلافته وتعبيرًا عن حقيقته. وباختصار: إنّ تحقّق الإنسان بمقام الأسماء والمعبّر عنه بمظهر الاسم الأعظم هو الذي يعطيه هويّته ويظهره على الحقيقة التي خلقه الله لها. فما لم يلبس الإنسان لباس صفات المولى، وما لم يصبغ وجوده بصبغة الله كما قال تعالى: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾(4)، فلن يكون مستور العورات، وسوف تبقى قبائحه معلنة وسيّئاته بارزة؛ لهذا يقول الإمام الخميني قدّس سرّه: «فعلى السّالك إلى الله

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 108.
(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 49، ص 126.
(3) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 106.
(4) سورة البقرة، الآية 138.

أن يبدّل أوصافه وأخلاقه السيّئة إلى الأوصاف الكاملة ويفنى في بحر الأوصاف الكماليّة للحقّ، هذا البحر المتلاطم غير المتناهي، ويبدّل الأرض المظلمة الشّيطانية بأرض بيضاء مشرقة ويجد في نفسه ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾[1]، ويحقّق في مملكة وجوده مقام أسماء الجمال والجلال للذّات المقدّسة، فيقع في هذا المقام في ستر الجمال والجلال، ويتخلّق بأخلاق الله ويستر قبائح التعيّنات النّفسيّة والظّلمات الوهميّة بشكل كامل.

فإذا تحقّق بهذا المقام، يقع موردًا للعنايات الخاصّة للحقّ جلّ جلاله، ويؤيّده الحقّ بلطفه الخفيّ الخاصّ، ويستره تحت حجاب كبريائه على نحو لا يعرفه غيره، وهو أيضًا لا يعرف غير الحقّ «**إنّ أوليائي تحت قبابي، لا يعرفهم غيري**»[2]؛ وفي الكتاب الإلهيّ المقدّس إشارات كثيرة في هذا الموضوع لأهلها، كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[3]»[4].

حديث حول اللباس المعنويّ

وفي الختام يذكر الإمام الخمينيّ قدّس سرّه حديثًا منسوبًا إلى الإمام الصّادق عليه السلام، وهو يشير إلى اللباس المعنويّ، فيقول: «فعن مصباح الشّريعة، قال الصّادق عليه السلام: «**أزين اللباس للمؤمن لباس التّقوى، وأنعمه الإيمان**»[5]، قال الله عز وجل: ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾[6]. وأمّا اللباس الظّاهر فنعمة من الله يستر عورات بني آدم، وهي كرامة أكرم الله بها عباده ذرية آدم، لم يكرم غيرهم، وهي للمؤمنين وسيلة لأداء ما افترض الله عليهم.

وخير لباسك ما لا يشغلك عن الله عزّ وجلّ، بل يقرّبك من شكره وذكره وطاعته، ولا يحملك فيها إلى العجب والرياء والتزيّن والمفاخرة والخيلاء؛ فإنّها من آفات الدين ومورثة القسوة في القلب.

(1) سورة الزمّر، الآية 69.
(2) الغزالي، إحياء علوم الدين، بيروت، دار الكتاب العربي، لا.ت، لا.ط، ج 4، ص 256.
(3) سورة البقرة، الآية 257.
(4) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 107 – 108.
(5) الامام جعفر الصادق عليه السلام، مصباح الشريعة، ص 30.
(6) سورة الأعراف، الآية 26.

فـإذا لبسـت ثوبك، فاذكر سـتر اللّه عليك ذنوبك برحمته، وألبس باطنـك بالصدق كما ألبسـت ظاهـرك بثوبك، وليكن باطنك في سـتر الرهبـة وظاهرك في سـتر الطاعة؛ واعتبر بفضل اللّه عزّ وجلّ، حيث خلق أسـباب اللباس لتسـتر العورات الظّاهرة، وفتح أبواب التوبة والإنابة لتستر بها عورات الباطن من الذنوب وأخلاق السوء.

ولا تـفضح أحدًا حيـث سـتـر اللّه عليك أعظم منه، واشتغل بعيب نفسك، واصفح عمّا لا يعنيـك حالـه وأمـره، واحذر أن تفني عمرك لعمـل غيرك، ويتّجر برأس مالك غيرك وتهلك نفسـك؛ فإنّ نسـيان الذنوب من أعظم عقوبة اللّه تعالى في العاجل وأوفر أسـباب العقوبة في الآجل. وما دام العبد مشـتغلًا بطاعة اللّه تعالى ومعرفة عيوب نفسـه وترك ما يشين في دين اللّه، فهو بمعزل عن الآفات، خائض في رحمة اللّه عزّ وجلّ، يفوز بجواهر الفوائد من الحكمة والبيان. وما دام ناسيًا لذنوبه جاهلًا لعيوبه راجعًا إلى حوله وقوّته، لا يفلح إذًا أبدًا»[1].

---

(1) الخميني، روح اللّه الموسوي، معراج السالكين، ص 108 - 109.

المفاهيم الرئيسة

1. العالم كلّه محضر اللّه تعالى والإنسان أحد الحضور.
2. أقبح شيء أن لا يكترث الإنسان لظهور عوراته.
3. أقبح العورات هي العورات الباطنية.
4. من العورات الباطنية ذمائم الأخلاق والتعلّق بغير اللّه تعالى.
5. نتعلّم من وجوب ستر العورة في الصّلاة ضرورة ستر العورات الباطنية.
6. الساتر الأوحد هو اللّه تعالى.
7. ينبغي للسالك أن يستمدّ من ستّارية اللّه وغفّاريته.
8. فضيحة هتك الستر الباطنيّ أشدّ بدرجات من هتك الستر الظّاهري.
9. الذي يستر على الخلق يستر اللّه عليه في الدّنيا والآخرة.

الدرس الثالث والعشرون

معرفة المكان وآدابه

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يتعرَّف إلى الأمكنة الكلّية وعوالمها.

2 . يشـرح ما هي الآداب التي ينبغي مراعاتها في كلّ مكان من هذه الأمكنة.

3 . يبيّن معنى إباحة المكان وآداب الإباحة العامّة.

تمهيد

الأمكنة هي محالّ ظهور قدرة اللّه وعلمه وصفاته وأسمائه الحسنى، لا يوجد مكان في أيّ عالم من العوالم إلّا وهو محلٌّ لتجلي آيات اللّه تعالى، كلّ شيء يحكي عن اللّه وينطق ويسبّح بحمده.

للإنسان دورٌ كبيرٌ في جعل هذه الأمكنة محلّ انبعاث هذه التجلّيات. والشّيطان اللعين يسعى بكلّ ما أوتي من كيد لتخريب هذه الأماكن، حتّى لا تكون سببًا لتمجيد اللّه ومعرفته وتسبيحه وتعظيمه.

كلّ هذا الخراب والفساد الذي نراه في الأرض قد جرى بفعل التآمر المستمرّ لعدوّ اللّه. كلّ فساد ظهر في البرّ والبحر بما كسبت أيدي الناس هو بسبب اتّباعهم لعدوّهم المبين.

روح الصّلاة تقضي بأن يقوم الإنسان بإصلاح الأرض وإرساء السّلام معها ومع كلّ شيء؛ ففي ظلّ السّلام المطلق تظهر كلّ أسماء اللّه وتشرق الأرض بنور ربّها.

وهكذا تأتي الصّلاة لتهدينا إلى هذه المعاني. ومن معاني الصّلاة السلام، فما لم نحقّق السّلام في وجودنا، لن يتيسّر نشر السّلام على الأرض.

وإنّ لوجودنا مراتب، وكلّ مرتبة هي بمنزلة المكان الذي تظهر فيه آلاء اللّه عزّ وجل. ولكي تصبح كلّ مرتبة مشعّة بعظمة الحقّ، ينبغي أن نراعي آدابها.

فمن أين نبدأ؟ وما هي المهمّات المعنويّة الملقاة على عاتقنا تجاه كلّ مرتبة، وتجاه كلّ مكان؟

ما هي الأمكنة؟ وما هي العوالم؟

الخطوة الأولى هي أن نتعرّف إلى الأمكنة، ونلتزم بآدابها من الطّهارة والحليّة.

لكلّ مرتبة من مراتب النّفس عالمٌ كبيرٌ بإزائها، فمن عرف آداب هذه المرتبة وأدّى حقّها أمكنه أن يؤدّي حقّ كلّ عالم يقابلها.

السّالك الذي يرى جسده وقواه الظّاهرة محلًّا لفعليّة القوى الباطنة ويعتني بجسده بحسب أحكام الإسلام وآدابه فيما يتعلّق بالغذاء والرّياضة والصحّة والسّلامة والنوم، سيكون قادرًا على الاعتناء بعالم الطّبيعة الذي هو العالم المقابل لهذا البدن.

فما هي النّشآت والعوالم الوجوديّة للنّفس التي جعلها الله تعالى محلًّا لعبادته وذكره والثناء عليه وتمجيده؟

يقول الإمام الخميني قدس سره:

«اعلم أنّ للسّالك إلى الله بحسب النشآت الوجوديّة أمكنة، ولكلّ منها آدابًا مخصوصة، ما لم يتحقّق السّالك بها لا يتوصّل إلى صلاة أهل المعرفة»[1].

وهذه الأمكنة الكليّة هي:

الطّبيعة (وفيها يصلّي البدن بأعضائه وجوارحه) وهي محلّ النّشأة الطّبيعيّة.

البدن الملكيّ (وفيه يصلّي الجسم المثاليّ البرزخيّ) وهو محلّ نشأة البرزخ والمثال.

الجسم المثاليّ والمقام البرزخيّ (وفيه يصلّي القلب) وهو محلّ نشأة القلب.

القلب (وفيه تصلّي ذات الإنسان بحقيقتها الروحيّة) وهو مكان صلاة الرّوح.

النّفس بحقيقتها الوجوديّة (وهي محلّ صلاة الربّ المتعال).

ولكلّ مكان آداب خاصّة، تؤدّي رعايتها إلى انتقال السّالك إلى المرتبة الأعلى.

المكان الأول: الطبيعة

يقول الإمام الخميني قدس سره: «الأوّل: النّشأة الطبيعيّة والمرتبة الظّاهريّة الدنيويّة، ومكانها أرض الطّبيعة. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**جُعِلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا**»[2].

---

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 112.

(2) الشيخ الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج3، ص 350.

أمّا آدابها فيقول الإمام قدس سره بشأنها: «فالسّالك في هذه المرتبة أدبه أن يفهّم قلبه أنّ نزوله من النشأة الغيبيّة وهبوط النّفس من المحلّ الأعلى الأرفع إلى أرض الطّبيعة السّفلى وردّه من أحسن تقويم إلى أسفل سافلين، إنّما هو لأجل سلوكه الاختياريّ إلى الله وعروجه إلى معراج القرب ووصوله إلى فناء الله وجناب الرّبوبيّة، الذي هو غاية الخلقة ونهاية مقصد أهل الله، رحم الله امرءًا علم: من أين؟ وفي أين؟ وإلى أين؟

على السّالك أن يعلم أنّه جاء من دار كرامة الله، وصار في دار عبادة الله، وسوف ينتقل إلى دار جزاء الله. من الله، وفي الله، وإلى الله.

فيفهّم نفسه ويذيق روحه أنّ دار الطّبيعة هي مسجد عبادة الحقّ، وأنّه قدم إلى هذه النشأة لأجل هذا المقصد كما يقول الحقّ جلّت عظمته: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1].

فإذا وُجِد دار الطّبيعة مسجدًا للعبادة ورأى نفسه معتكفًا فيه، لا بدّ وأن يقوم بآدابه ويصوم عن ذكر غير الحقّ، وألّا يخرج عن مسجد العبوديّة إلّا بقدر الحاجة. فإذا انقضت حاجته يعود ولا يستأنس بغير الحقّ ولا يتعلّق قلبه بغيره، فإنّ هذا كلّه خلاف آداب العكوف بباب الله. وللعارف بالله في هذا المقام حالات لا يصحّ كتابتها»[2].

عندما يدرك السّالك أنّ أرض الطّبيعة هي المكان الذي أُمر بتطهيره وإباحته، وأنّها محلّ عبوره وسفره، لن يتعامل معها على أنّها أرض استقراره وشأنيّته. ولن يتزوّد منها إلّا بما ينفع سفره وترحاله.

المكان الثاني: البدن الملكي

يقول الإمام الخميني قدس سره في البدن الملكي وآدابه: «المقام الثاني: مرتبة القوى الظّاهرة والباطنة التي هي جنود ملكية وملكوتيّة للنّفس ومحلّها أرض طبيعة الإنسان، وهي هذه البنية والبدن. «وأدب السّالك في هذا المقام أن يفهّم باطن قلبه أنّ أرض طبيعة نفسه هي مسجد الرّبوبيّة، ومحلّ سجدة جنود الرّحمان؛ فلا ينجّسها بقذارات تصرّف إبليس، ولا يجعل الجنود الإلهيّة تحت تصرّف إبليس، كي تشرق أرض الطّبيعة بنور الرّب، وتخرج من

(1) سورة الذّاريات، الآية 56.

(2) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 112 – 113.

ظلمة وكدورة البعد عن السّاحة الرّبوبيّة. فيرى قواه الملكيّة الملكوتيّة معتكفة في مسجد البدن، ويعامل بدنه معاملة المسجد، ويتصرّف بقواه بنظر العكوف بفناء اللّه.

وتكليف السّالك في هذا المقام أكثر؛ لأنّ تنظيف المسجد وطهارته أيضًا على عهدته، وعليه أيضًا أن يتكفّل بتأديب المعتكفين في هذا المسجد»[1].

بعد أن كانت أرض الطّبيعة هي المسجد، أصبحت طبيعة الإنسان أو جسده وبدنه الظّاهري هو المسجد، والمعتكف فيه هو القوى الظّاهرة والأقاليم السبعة. ولأنّ هذه القوى تحت ولاية السّالك بالكامل، فيجب عليه أن يؤدّبهم حتّى لا يخرجوا عن أدب العبوديّة في هذا المسجد. وإنّ مهمّة تطهير هذه القوى من أرجاس المعاصي تقع على عاتقه أيضًا، ولا يجري عليها الواجب الكفائي كما يحصل في المساجد الخارجيّة؛ لأنّ مهمّة هذا الأمر هي على عهدة صاحبها بالكامل.

المكان الثالث: الجسم المثالي

يقول الإمام الخميني قدس سره: «المقام الثالث: النشأة الغيبية القلبيّة للسالك، ومحلّها البدن البرزخيّ الغيبيّ للنفس الذي يتكوّن بإنشاء النّفس وخلّاقيتها»[2].

فكما أنّ الإنسان هو الذي ينمّي جسده من خلال الغذاء، فإنّه ينشئ مرتبة الخيال بفعله واختياره؛ ولهذا عبّروا عن ذلك بإنشاء النّفس.

وكلّ مرتبة من مراتب النّفس تكون في البداية في حال الكمون والقوّة، والإنسان هو الذي يفعّلها وينمّيها أو يقضي عليها وينقصها.

أما آداب المكان الثالث فيقول الإمام قدس سره حوله: «والأدب للسّالك في هذا المقام هو أن يذيق نفسه أنّ التفاوت بين هذا المقام والمقامات الأُخر كثير، وحفظ هذا المقام من مهمّات السّلوك؛ لأنّ القلب هو إمام المعتكفين في هذا الجناب، وبفساده يفسد الجميع، إذا فسُد العالِم فسدَ العالَم. فقلب العالم عالَمٌ صغير، والعالم قلب العالم الكبير.

وتكليف السّالك في هذا المقام أكثر من ذين المقامين؛ لأنّه قد كُلّف ببناء المسجد

---

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 113.

(2) م.ن.

أيضًا بنفسه. ومن الممكن - لا سمح الله - أن يكون مسجده مسجد ضرارٍ وكفرٍ وتفريقٍ بين المسلمين. ولا يجوز في هذا المسجد عبادة الحقّ، بل يجب تخريبه»[1].

فالبدن البرزخيّ أو الجسم المثاليّ هو الذي ينشأ بخلّاقية النّفس؛ ولهذا يتحمّل السّالك مسؤوليّة عمارته. ومن الممكن - لا سمح الله - إذا أهمل السّالك كيفيّة عمارة هذا المسجد أن يُبنى على أساس جرف هارٍ يهوي به في نار جهنّم. فالخواطر الفاسدة - كما علمنا - تسلب الإنسان إمكانية التوجّه وحضور القلب، وتحرم الإنسان من فوائد العبادة وثمّارها.

المكان الرابع: المسجد الملكوتي

يقول الإمام الخميني قدس سره في المكان الرابع وآدابه: «فإذا أسّس السّالك المسجد الملكوتي الإلهيّ بيد التصرّف الرّحمانيّ ويد الولاية، وطهّر بنفسه هذا المسجد من جميع القذارات والتصرّفات الشّيطانية، واعتكف فيه... فلا بدّ له أن يجاهد حتّى يخرج نفسه من العكوف في المسجد ويعتكف بفناء صاحب المسجد»[2].

فما دام القلب معتكفًا في النّفس، فحاله هو التوجّه والتعلّق بتدبيرها. ومثل هذا القلب لن يُكتب له التوجّه إلى عالم الملكوت والأنوار الإلهيّة، فلا بدّ له أن يجعل وجهة القلب أحدية التعلّق بالله تعالى؛ لأنّ القلب هو عرش الرحمن، وينبغي أن يكون محلّ تجلّيات قدسه وظهور عظمته والتحلّي بأسمائه وصفاته. وقد خلق الله الإنسان لا ليكون جسدًا، بل إنّ قلب الإنسان هو الغاية الأولى من وجوده؛ لهذا ينبغي أن يكون تحت ولاية الله دومًا.

المكان الخامس: النفس بحقيقتها الوجودية

يقول الإمام الخميني قدس سره: «فإذا تطهّر عن التعلق بالنّفس وخرج عن قيد الإنّيّة، يصير هو بنفسه منزلًا للحقّ، بل مسجدًا للرّبوبيّة، ويثني الحقّ على نفسه في ذاك المسجد بالتجلّيات الفعليّة، ثمّ الأسمائيّة، ثمّ الذاتيّة. وهذا الثناء هو صلاة الرّبّ، يقول: سبّوح قدّوس ربّ الملائكة والرّوح»[3].

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 113 - 114.
(2) م.ن.
(3) م.ن، ص 114.

فالأدب في هذا المقام هو الإخلاص الذاتيّ، حيث يتبرّأ السّالك أوّلًا من حوله وقوّته، (وهذا هو التّوحيد الفعليّ)، ثمّ يتبرّأ من صفاته فلا يرى جميلًا ولا كاملًا إلّا اللّه عزّ وجلّ، (وهذا هو التّوحيد الصفاتيّ)، ثمّ يتبرّأ من نسبة الوجود والاستقلال إلى نفسه أو غيره (وهذا هو التوحيد الذاتيّ)، وهنا يحصل الخلوص الذاتيّ.

آداب عامّة في جميع النشآت

لمّا كان لكلّ مكان أو مقام آدابه الخاصّة به، فإنّ لجميع المقامات أدب عام ينبغي مراعاته؛ ولهذا يقول الإمام الخميني قدس سره: «وللسّالك إلى اللّه في جميع مقامات السّلوك مهمّة أخرى لا يجوز له الغفلة عنها مطلقًا، بل هذه المهمّة هي غاية السّلوك ولبّ لبابه؛ وهي أن لا يغفل في جميع الحالات والمقامات عن ذكر الحقّ ويطلب في جميع المناسك والعبادات معرفة اللّه، ويطلب اللّه في جميع المظاهر ولا تمنعه النعمة والكرامة عن الصّحبة والخلوة، فإنّه نوع من الاستدراج.

وبالجملة، يرى روح العبادات والمناسك وباطنها معرفة اللّه، ويطلب فيها المحبوب؛ فلعلّه تستحكم في قلبه علقة المحبّة والمحبوبية، ويكون موردًا للعنايات الخفيّة والمراودات السرّيّة»[1].

في بعض آداب إباحة المكان

«هذا ما يتعلّق بطهارة المكان، فماذا عن إباحته؟ فمن شروط مكان المصلّي أن يكون غير مغصوب بالإضافة إلى طهارته؛ ولهذا يقول الإمام الخميني قدس سره: «إذا فهّم السّالك إلى اللّه نفسَه مراتب المكان بحسب المقامات والنشآت الوجودية، فعليه أن يجتهد في آداب إباحتها القلبيّة حتى تخرج صلاته من التصرّفات الغصبية لإبليس الخبيث.

فيقوم في المرتبة الأولى بالآداب الصوريّة للعبودية، ويفي بالعهود السّابقة في عالم الذرّ ويوم الميثاق، ويبعد يد تصرّف إبليس عن ملك طبيعته حتى تحصل له المراودة والمحابية مع صاحب البيت، ولا تكون تصرّفاته في عالم الطّبيعة غصبًا.

يقول بعض أهل الذوق: إنّ معنى الآية الشّريفة: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ

(1) الخميني، روح اللّه الموسوي، معراج السالكين، ص 114.

لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾[1] بحسب الباطن أن حليّة بهيمة الأنعام موقوفة على الوفاء بعهد الولاية، وقد رُوي في الأحاديث أنّ جميع الأرض للإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ، والذين لا يوالونه فهم غاصبون لها. وأهل المعرفة يرون وليّ الأمر مالكًا لجميع ممالك الوجود ومدارج الغيب والشهود ولا يجوّزون تصرّف أحد فيها بدون إذن الإمام»[2].

وإنّما خُلقت الأرض لتكون مشرقة بنور الله؛ ولهذا جعل الإنسان الكامل خليفته فيها. وكلّ البشر ينبغي أن يكونوا تابعين لخليفة الله وموالين له حتّى يجوّز لهم التصرّف فيها. فهذا هو العهد الأكبر والميثاق الذي أخذه الله على عباده، حين قال: لهم ألست بربّكم؟ إنّه عهد الطاعة المطلقة للإمام والخروج من عبادة الشّيطان وطاعته، يقول الإمام الخميني قَدَّسَ سِرَّهُ:

«إنّ إبليس اللعين هو عدّو الله، وتصرّفاته وكلّ تصرّف إبليسيّ في عالم الطّبيعة جورٌ وغصب؛ فالسّالك إلى الله، إنْ أخرج نفسه من تصرّفات ذلك الخبيث، يكون تصرّفه تصرّفًا رحمانيًّا ويباح ويطهر مكانه وملبسه ومطعمه ومنكحه. وبمقدار ما يقع تحت تصرّف إبليس يخرج عن الحلّيّة ويكون فيه شرك الشّيطان.

فإذا وقعت الأعضاء الظّاهرة للإنسان في تصرّف إبليس، تكون أعضاؤه إبليسيّة ويكون غاصبًا لمملكة الحقّ.

كما إنّ عكوف القوى الملكوتيّة في مسجد البدن يكون مباحًا وعدلًا إذا كانت القوى من الجنود الرّحمانيّة؛ وإلّا فجنود إبليس ليس لها الحقّ بأن تتصرّف في مملكة البدن الإنسانيّ، التي هي ملك للحقّ تعالى.

فإذا قصّر يد تصرّف الشّيطان عن مملكة القلب الذي هو منزلٌ خاصّ للحقّ تعالى، وخلص قلبه لتجلّيات الحقّ، ولم يدع أحدًا غير الحقّ يتطرّق إليه - فإنّ غير الحقّ إبليس الطّريق - يُباح له المساجد الظّاهرة والباطنة والأمكنة الملكيّة والملكوتيّة، وتكون صلاته صلاة أهل المعرفة. وتتّضح بهذا الميزان طهارة المسجد أيضًا»[3].

إنّما أعطى الله كلّ هذه القوى للإنسان لكي يستخدمها فيما أحلّ الله له ضمن مشروعٍ

---

(1) سورة المائدة، الآية 1.

(2) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 117.

(3) م.ن، ص 117 - 118.

كبير يقوده الإمام عليه السلام. وعندما يسلّط الشّيطان عليها ويجعلها في خدمة هذا اللعين، فهذا يعني أنّ هذه القوى قد غُصبت، ولا يحقّ للإنسان أن يستعملها؛ لأنّ كل استعمالاتها ستكون جورًا وظلمًا. وإخراجها من تحت سلطة إبليس هو الشّرط الأوّل لحليّة استعمالها وإباحتها.

«وحيث إنّ الكاتب[1] خارجٌ عن الفطرة الإنسانيّة، ومستغرق في البحر المسجور والظلمانيّ للطبيعة، وعارٍ عن الحقّ والحقيقة وعن جميع مقامات السّالكين والعارفين، فالأفضل ألّا يفضح نفسه أكثر من هذا في محضر الحقّ (جلّت قدرته) وخواصّه، وليتجاوز هذا المقام، ويشكو النّفس الأمّارة لجناب ذي الجلال المقدّس، لعلّه يؤيّده باللطف العام والرحمة الشاملة ويجبر ما سبق من عمره فيما بقي منه، ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾[2].

آداب المسجد

في مصباح الشّريعة قال الصادق عليه السلام: «**إذا بلغت باب المسجد، فاعلم أنّك قد قصدت باب ملك عظيم لا يطأ بساطه إلّا المطهّرون ولا يؤذن لمجالسته إلّا الصدّيقون. فهب القدوم إلى بساط خدمة الملك هيبته فإنّك على خطر عظيم. إنْ غفلت، فاعلم أنّه قادر على ما يشاء من العدل والفضل معك وبك، فإن عطف عليك برحمته وفضله قبل منك يسير الطّاعة وأجزل لك عليها ثوابًا كثيرًا. وإن طالبك باستحقاق الصّدق والإخلاص عدلًا بك حجبك وردّ طاعتك، وإن كثُرت فهو فعّال لما يريد. واعترف بعجزك وتقصيرك وانكسارك وفقرك بين يديه؛ فإنّك قد توجّهت للعبادة والمؤانسة به. واعرض أسرارك عليه، ولتعلم أنّه لا يخفى عليه أسرار الخلق أجمعين وعلانيّتهم. وكن كأفقر عباده بين يديه. واخلِ قلبك عن كلّ شاغل يحجبك عن ربّك، فإنّه لا يقبل إلّا الأطهر والأخلص، فانظر من أيّ ديوان يخرج اسمك. فإن ذقت حلاوة مناجاته ولذيذ مخاطباته وشربت بكأس رحمته وكراماته من حسن إقباله عليك وإجابته فقد صلُحت لخدمته،**

(1) الكاتب: يقصد به الإمام الخميني قدس سره الذي يتحدّث عن نفسه في هذه الفقرة.
(2) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 113.

فادخل فلك الإذن والأمان، وإلّا فقف وقوف من انقطعت عنه الحيل وقصُر عنه الأمل وقُضي عليه الأجل؛ فإن علم الله عزّ وجلّ من قلبك صدق الالتجاء إليه نظر إليك بعين الرأفة والرحمة واللطف، ووفّقك لما يحبّ ويرضى؛ فإنّه كريم يحبّ الكرامة لعباده المضطرّين إليه المحترقين على بابه لطلب مرضاته. قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾[1]»[2].

وحيث إنّ هذا الكلام الشّريف دستور جامع لأصحاب المعرفة وأرباب السلوك إلى الله نقلته بتمامه حتى يحصل حال من التدبّر فيه»[3].

(1) سورة النمل، الآية 62.
(2) الامام جعفر الصادق عليه السلام، مصباح الشريعة، ص 130.
(3) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 114 - 115.

المفاهيم الرئيسة

1. الأمكنة هي محالّ ظهور قدرة الله وعلمه وصفاته وأسمائه الحسنى.
2. الطّبيعة (وفيها يصلّي البدن بأعضائه وجوارحه)، وهي محلّ النّشأة الطّبيعيّة، وأدبها تفهيم القلب أنّ نزوله من النشأة الغيبية إلى أرض الطّبيعة هو من أجل سلوكه الاختياريّ إلى الله. فالطّبيعة هي مسجد عبادة الحقّ.
3. البدن الملكيّ (وفيه يصلّي الجسم المثاليّ البرزخيّ)، وهو محلّ نشأة البرزخ والمثال، وأدبه تفهيم القلب أنّ أرض طبيعة نفسه هي مسجد الربوبيّة، فلا ينجّسها بقاذورات تصرّف إبليس. المعتكفون في هذا المسجد هي القوى الظّاهرة.
4. الجسم المثاليّ والمقام البرزخيّ (وفيه يصلّي القلب)، وهو محلّ نشأة القلب، وأدبه إذاقة النّفس التفاوت بين هذا المقام والمقامات الأُخر، والقلب هو إمام المعتكفين في هذا الجناب، وبفساده يفسد الجميع.
5. القلب (وفيه تصلّي ذات الإنسان بحقيقتها الروحيّة)، وهو مكان صلاة الرّوح، وأدبه مجاهدة النّفس للخروج من العكوف في المسجد للاعتكاف بفناء صاحب المسجد.
6. النّفس بحقيقتها الوجوديّة (وهي محلّ صلاة الربّ المتعال)، وأدبه الإخلاص الذاتيّ وتبرّؤ السّالك من حوله وقوّته.
7. على السّالك في جميع المناسك والعبادات طلب معرفة الله.
8. على السّالك في الأماكن المختلفة الخروج من التصرّفات الغصبيّة لإبليس.
9. إذا خلّص السّالك قلبه لتجلّيات الحقّ، أُبيحت له كلّ الأماكن الظّاهرة والباطنة.

الدرس الرابع والعشرون

الآداب القلبيّة للوقت

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يبيّـن أن مراتـب المصلّيـن بحسـب راعايتهـم للصلاة وأوقاتها.

2 . يذكر بعض مراتب المصلّين وأحوالهم.

3 . يتعرّف إلى آداب رعاية وقت الصّلاة.

تمهيد

إذا كان الوقت عبارة عن حركة الأشياء، فإنّه يجري بالنسبة لنا بحسب الأشياء التي نعيش فيها.

إذا كنّا قابعين في عالم المادّة ولا نرى سوى الطّبيعة، فالوقت ليس سوى حركة الشمس والقمر؛ أمّا إذا كان لنا حظّ من الحياة في العوالم الأخرى، فلا شكّ أنّ أوقاتها تختلف بحسب الأشياء فيها. إلى أن نصل إلى عالم لا نرى فيه إلا الله، فيكون الوقت هو تجلّيات الله.

وإذا كانت الساعة عند أهل الطّبيعة هي ملاحظة ما يمرّ فيها ويتغيّر، فإنّ ساعة المقرّبين عند مليك مقتدر ليست سوى ظهور الشؤون الإلهيّة، كما في قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾[1].

إنّ الصّلاة كانت على المؤمنين كتابًا موقوتًا، فكيف يكون كتاب المصلّين بحسب مراتبهم ومقاماتهم؟

وإذا كانت الصّلاة هي ميعاد اللقاء، فما معنى اللقاء بالنسبة لمن هم عند الله تعالى؟

مراتب المصلّين بحسب مراعاتهم لأوقات الصلاة

يترتّب المصلّون بحسب مراقبتهم ورعايتهم لأوقات الصّلاة. ولأنّ الصّلاة ميعاد القرب ووقت الوصال، فلا شكّ بأنّ ملاحظة وقتها سيختلف بحسب أحوال المصلين في قربهم وبعدهم عن الله تعالى.

ولهذا قال الإمام الخميني قُدِّسَ سِرُّهُ:

«اعلم أنّ لأهل المعرفة وأصحاب المراقبة، على قدر قوّة معرفتهم بالمقام المقدّس

(1) سورة الرحمن، الآية 29.

الربوبّي واشتياقهم إلى مناجاة حضرة الباري عزّ اسمه، مراقبة لأوقات الصّلاة التي هي ميقات المناجاة وميعاد ملاقاة الحقّ»[1].

بعض مراتب المصلّين!

1. أهل الجذبة:

«فالمجذوبون لجمال الجميل، والعاشقون للحسن الأزليّ والمشغوفون به، والسكارى من كأس المحبّة والمصعوقون من قدح «ألست»[2]، الذين فرغوا من الكونين وأغمضوا العين عن جميع أقاليم الوجود، وتعلّقوا بعزّ قدس جمال اللّه، فلهم دوام الحضور، وليسوا مبعدين عن الذكر والفكر والمشاهدة والمراقبة لحظة واحدة»[3].

2. أصحاب المعارف:

«والذين هم أصحاب المعارف وأهل الفضائل والفواضل، وهم شرفاء النّفس وكرماء الطّينة، فلا يختارون على المناجاة مع الحقّ شيئًا، ويطلبون من الخلوة مع الحقّ ومن مناجاته نفس الحقّ، ويرَون أنّ العزّة والشرف والفضيلة والمعرفة كلّها في تذكّر الحقّ ومناجاته. فهم، إذا توجّهوا إلى العالم، ونظروا إلى الكونين يكون توجّههم ونظرهم إليها نظرًا عرفانيًّا، ويطلبون الحقّ في العالم، ويرَون جميع الموجودات جلوة للحقّ ولجمال الجميل (أنا للعالم عاشق، حيث منه الكون أجمع).

فهم يواظبون على أوقات الصّلاة بتمام أرواحهم وقلوبهم، وينتظرون وقت المناجاة مع الحقّ، ويحضّرون أنفسهم ويهيّئونها لميقات الحقّ. فقلوبهم حاضرة، ويطلبون من المحضر الحاضر، ويحترمون المحضر لأجل الحاضر، ويرَون أنّ العبوديّة هي المراودة والمعاشرة مع الكامل المطلق. فاشتياقهم إلى العبادة من هذا الباب»[4].

---

(1) الخميني، روح اللّه الموسوي، معراج السالكين، ص 120.
(2) المراد «بألست» هنا قوله تعالى ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ سورة الأعراف، الآية 172.
(3) الخميني، روح اللّه الموسوي، معراج السالكين، ص 120.
(4) م.ن، ص 120 - 121.

3. أهل الآخرة:

«والذين يؤمنون بالغيب وعالم الآخرة ويعشقون كرامات الحقّ جلّ جلاله، ولا يستبدلون النّعم الأبدية الجنانية واللذّات والبهجات الدائمة السرمديّة بالحظوظ الداثرة الدنيويّة واللذائذ النّاقصة المؤقّتة المشوبة؛ فهؤلاء أيضًا في وقت العبادة التي هي بذور النّعم الأخرويّة، يحضّرون قلوبهم، ويقومون بالأمر بإقبال واشتياق، وينتظرون أوقات الصّلاة، فإنّها وقت حصول النتائج واكتساب الذخائر، ولا يختارون على النّعم الخالدة شيئًا. فهؤلاء أيضًا، حيث إنّ قلوبهم مطّلعة على عالم الغيب، وقد آمنت قلوبهم بالنّعم الأبدية واللذائذ الدائمة لعالم الآخرة، يغتنمون أوقاتهم ولا يضيّعونها، أولئك أصحاب الجنّة وأرباب النّعمة، هم فيها خالدون»[1].

ويقول الإمام الخميني قدس سره: «هذه الطوائف المذكورة، وبعضها ممّا لم يُذكر، لهم من العبادة نفسها لذائذ على حسب مراتبهم ومعارفهم، وليس لهم كلفة وتكليف فيها أصلًا»[2].

4. المقيّدون بالدّنيا:

فما حال من لم يكن للعبادة مراقبًا ولا إليها متشوّقًا؟ وما الذي ينبغي أن يفعله حتى ينتقل من سجن الهوى واتّباعه؟ يقول الإمام الخميني قدس سره: «وأما نحن المساكين المبتلَون بالآمال والأماني، والمقيّدون بسلاسل الهوى والهوس، والمنغمسون في البحر المسجور الظلمانيّ للطبيعة، الذين لم تصل إلى شامّة أرواحنا رائحة من المحبّة والعشق، وما ذاقت قلوبنا لذّة من العرفان والفضيلة، فلسنا من أصحاب العرفان والعيان، ولا من أرباب الإيمان والاطمئنان، نرى العبادات الإلهيّة تكليفًا وكلفة، والمناجاة مع قاضي الحاجات ثقلًا وتكلّفا. لا نركن إلى شيء غير الدّنيا، التي هي معلف للحيوانات، ولا نتعلّق سوى بدار الطّبيعة التي هي معتكف الظّالمين، قد عميت أبصار قلوبنا عن جمال الجميل، وهجرت ذائقة أرواحنا ذوق العرفان»[3].

---

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 121.
(2) م.ن.
(3) م.ن.

آداب الوقت

ويذكر الإمام الخميني قدس سره مجموعة من الآداب المعنويّة التي تحصل من رعايتها الأحوال ويتحقّق تبعًا لها السّير نحو الوصال، فيقول قدس سره: «أنت أيّها العزيز، اغتنم وقت المناجاة هذا بالقدر الميسور والمقدار المقدور، وقم بآدابه القلبيّة، وهي:

1. وفهّم قلبك أنّ أساس الحياة الأبدية الأخروية ومنبع الفضائل النّفسانية ورأسمال الكرامات غير المتناهية هو المراودة والمؤانسة مع الحقّ ومناجاته، وخصوصًا الصّلاة؛ فإنّها مرهم روحانيّ، قد أُعدّ بيدي جمال الحقّ وجلاله، وهي أجمع وأكمل من جميع العبادات.
2. فبمقدار ما يمكنك، حافظ على أوقاتها، وانتخب أوقات فضيلتها، فإنّ فيها نورًا ليس في غيرها من الأوقات.
3. واقلل فيها من الاشتغالات القلبيّة، بل اقطعها»[1].

المعرفة وأثرها على المصلّي

كلّ حياة معنوية في القلب، وحياة القلب بالذكر، ولا ذكر إلّا بحضور، ولا حضور إلا بالتوجّه، ولا توجّه إلّا بالمعرفة؛ لهذا يقول الإمام الخميني قدس سره: «ونحن أيضًا إذا تفكّرنا قليلًا، وفهّمنا قلبنا المحجوب المطرود أنّ أوقات الصّلاة هي أوقات الحضور في جناب القدس لحضرة ذي الجلال، وأنّ الحق تعالى ملك الملوك والعظيم المطلق في تلك الأوقات دعا عبده الضعيف اللاشيء إلى مناجاته، وأذن له بالدخول إلى دار كرامته حتّى يفوز بالسعادات الأبدية ويجد السرور والبهجات الدائمية، لكنّا مبتهجين ومسرورين من دخول وقت الصّلاة بمقدار معرفتنا.

وإذا استشعر القلب عظمة المقام وخطره، يحصل فيه الخوف والخشية بمقدار فهم العظمة. وحيث إنّ قلوب الأولياء مختلفة وحالاتهم متفاوتة بحسب التجلّيات اللطفيّة والقهرية واستشعار العظمة والرحمة، فحينًا يحملهم الشوق إلى الملاقاة واستشعار الرحمة

---

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 122.

والجمال على السرور والبهجة، ويقولون: أرحنا يا بلال؛ وحينًا تجعلهم التجليات بالعظمة والقهر والسلطنة في حالة الصعق والارتعاش والرعدة»[1].

وبهذا التوجّه، يتهيّأ السّالك للوفادة على الله بشرط تحصيل شرطين، الأوّل: استشعار المذلّة والعجز والقصور الذاتيّ؛ والثاني النظر إلى عظم الحقّ وعلوّ شأنه عن أن تناله همم العالمين، فيقول الإمام قدّس سرّه: «وبالجملة، أيّها الضعيف، إنّ الآداب القلبيّة للأوقات هي أن تهيّئ نفسك للدّخول إلى حضرة مالك الدّنيا والآخرة ومخاطبة الحقّ جلّ وعلا ومكالمته؛ فانظر بعين إلى ضعفك ومسكنتك وذلّتك وعجزك، وبعين أخرى إلى العظمة والجلال والكبرياء للذّات المقدّسة جلّت عظمته، الذين كان الأنبياء والمرسلون والملائكة المقرّبون يصعقون في جنب عظمته، وبالعجز والمسكنة والذلّة معترفون.

فإذا نظرت بهذه النظرة وفهّمت قلبك، فليستشعر القلب الخوف ويرى نفسه وعباداته لا شيء... وانظر بعينٍ أخرى إلى سعة رحمة الذات المقدّسة وكمال عطفها وإحاطة رحمانيّتها، حيث إنّه أذن للعبد الضعيف، مع ما فيه من أنواع التلوّثات ومنتهى العجز والمسكنة، في الدخول إلى حضرة، قدسه ودعاه إلى مجلس أنسه بتشريفات، من إهباط الملائكة وإنزال الكتب السماويّة، وبعث الأنبياء والمرسلين من دون أن يكون لهذا الممكن المسكين سابقة استعداد، أو يكون لحضرته جلّ وعلا ـ نعوذ بالله ـ أو لملائكة الله أو الأنبياء عليهم السلام في هذه الدعوة والحضور نفع. فلا شكّ أنّ القلب، بهذا التوجّه، سيحصل له الأنس، ويستشعر الرّجاء والأمل.

فهيئ نفسك للحضور بقدمي الخوف والرجاء والرهبة والرغبة بقلبٍ خجل وفؤادٍ وجل، واستشعار الانكسار والذلّة والضّعف والمسكنة، ولا ترَ لنفسك أيّ لياقة للحضور في هذا المحضر، ولا تعدّ نفسك لائقًا للعبادة والعبودية. واعتبر أنّ الإذن للدخول في العبادة والعبودية هو من شمول الرحمة وعميم لطف حضرة الأحدية جلّت قدرته؛ فإنّك إذا جعلت ذلّتك نصب عينيك، وتواضعت لذات الحقّ المقدّسة بروحك وقلبك، وعددت نفسك وعبوديّتك لا شيء، يتلطّف الحقّ تعالى ويرفعك ويخلّعك بخلع كراماته»[2].

---

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 123 – 124.

(2) م.ن، ص 123 – 125.

قطع الاشتغالات القلبيّة

ومن كان مشغول القلب بشؤون الدّنيا، فليعمل على الانقطاع عنها من خلال تدبيرها، وذلك إنّما يحصل - كما يقول الإمام - بتقسيم الوقت، وإعطاء الصّلاة وقتًا خاصًا، فيقول قدس سره: «هذا يحصل إذا قسّمت أوقاتك، وعيّنت للصلاة المتكفّلة لحياتك الأبدية وقتًا خاصًّا، لا يكون لك فيه أشغال أُخر، ولا تكون للقلب تعلّقات أُخرى. ولا تجعل الصّلاة تزاحم الأمور الأُخر، كي تستطيع أن تريح القلب وتحضّره»(1).

أحوال المعصومين عليهم السلام عند حضور وقت الصلاة

ويقول الإمام الخميني قدس سره: «والآن نذكر الأحاديث الواردة في أحوال المعصومين عليهم السلام على قدر اقتضاء المقام، فلعله بالتدبّر في حالات أولئك الأكرمين يحصل الانتباه، وتدرك عظمة الموقف وأهمّيّة المقام وخطره، وتستيقظ من نوم الغفلة.

فعن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أنّها قالت: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحدّثنا ونحدّثه، فإذا حضرت الصّلاة فكأنّه لم يعرفنا ولم نعرفه، شغلًا بالله عن كلّ شيء»(2).

وروي عن علي عليه السلام: كان إذا حضر وقت الصّلاة، يتململ ويتزلزل ويتلوّن، فيُقال له: ما لك يا أمير المؤمنين؟ فيقول عليه السلام: «**جاء وقت الصّلاة، وقت أمانة عرضها الله على السّماوات والأرض والجبال، فأبَيْنَ أن يحملنها، وأشفقْن منها**»(3).

ونقل السيد ابن طاووس في فلاح السائل: «كان الحسين عليه السلام إذا توضّأ يتغيّر لونه وتضطرب مفاصله، فقيل له في ذلك، فقال: «**حقّ لمن يقف بين يدي ذي العرش أن يصفرّ لونه وتضطرب مفاصله**»(4). ونقل عن الحسن عليه السلام أيضًا مثل ذلك.

---

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 122 - 123.

(2) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج4، ص 100.

(3) الطريحي، فخر الدين بن محمد، مجمع البحرين، تحقيق وتصحيح أحمد الحسيني الأشكوري، طهران، المرتضوي، 1417هـ، ط 3، ج6، ص 202.

(4) راجع: العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج77، ص346.

وعن علي بن الحسين عليه السلام: «كان إذا حضر للوضوء اصفرّ لونه، فيُقال له: ما هذا الذي يعتريك عند الوضوء؟ فيقول: «**ما تدرون بين يدي من أقوم؟**»[1]»[2].

ميقات الإنسان الكامل الخليفة الأعظم

يقول الإمام الخميني قدس سره: نعم، إنّ رئيس سلسلة أهل الحقّ وخلاصة أصحاب المحبّة والحقيقة يترنّم بقوله: أبيت عند ربّي يطعمني ويسقيني... فيا ربّ، ما هذه البيتوتة التي كانت لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم معك في دار الخلوة والأنس؟ وما هذا الطعام والشراب الذي أذقت بيدك هذا الموجود الشريف وأخلصته من جميع العوالم؟ فمن شأن ذلك السيد العظيم أن يقول: «**لي مع الله وقت لا يسعه ملك مقرّب ولا نبيّ مرسل**»[3]. فهل هذا الوقت من أوقات عالم الدّنيا والآخرة، أو أنّه وقت الخلوة في قاب قوسين وطرح الكونين؟

إنّ موسى عليه السلام صام صومًا موسويًّا أربعين يومًا، ووصل إلى ميقات الحقّ، قال تعالى: ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ﴾[4]، ومع ذلك، أين هذا الميقات من الميقات المحمدي؟ فلا نسبة بينه وبين الوقت الأحمديّ.

إنّ موسى في الميعاد خوطب بخطاب فاخلع نعليك، وقد فُسّر بمحبّة الأهل، والرسول الخاتم قد أُمر في ميعاده بأن يحبّ عليًّا، وفي القلب من هذا السرّ جذوة ما أبوح منها بشيء (أنت اقرأ بنفسك الحديث المفصّل من هذا المجمل)»[5].

---

(1) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج1، ص 355.
(2) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 123.
(3) راجع: العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج18، ص360.
(4) سورة الأعراف، الآية 142.
(5) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 121 - 122.

المفاهيم الرئيسة

1. لرعاية وقت الصّلاة أسرار معنوية عديدة.
2. وقت الصّلاة هو ميعاد اللقاء؛ لأنّ الصّلاة معراج الوصول.
3. ضرب المواعيد وتحديد المواقيت ينشأ من البعد.
4. لا معنى للموعد والميقات لمن كان قريبًا ملاصقًا.
5. للذين لا يفصلهم عن ربّهم شيء، فإنّ لميقات الصّلاة معنًى آخر.
6. يختلف أولياء الله في رعايتهم للوقت بحسب قربهم من الله تعالى.
7. المحجوبون يستثقلون اقتراب موعد الصّلاة؛ لأنّهم يرونها كلفة.
8. عشّاق الله يتحرّقون شوقًا إلى لقائه كلّما اقترب موعد الصّلاة.
9. التفكّر في عظمة الصّلاة ودورها في الفلاح يجعلنا نشتاق إليها.
10. تعظيم الصّلاة يؤدّي حتمًا إلى الصّلاة أوّل الوقت.

الدرس الخامس والعشرون

السرّ الإجماليّ للاستقبال

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يتعرَّف إلى ماهيّة استقبال القبلة وحقيقتها.
2. يوضّح درجات الاستقبال وآدابه القلبيّة.
3. يتعرَّف إلى وصيّة الإمام الخميني قدس سره للمحجوبين.

تمهيد

استقبال القبلة أو الكعبة في الصّلاة أمرٌ واجب لا تصحّ الصّلاة بدونه. وهذا التمركز في التوجّه إلى مكان واحد أو نقطة محدّدة، التي ترتبط في معناها بالله تعالى، يعلّمنا أن نوحّد توجّهنا العام في الحياة كلّها.

ولكي يحصل هذا التوحيد في التوجّه والسّير والسلوك، ينبغي أن نرفض كلّ توجّه آخر، وأن نتبرّأ من التوجّهات المتشتّتة في كلّ مظاهر الحياة.

أن نكون موحّدين في توجّهنا، يعني أن نرفض كلّ الانتماءات الأخرى والولاءات المتعدّدة، ونيمّم شطر وجودنا إلى معدن العظمة.

تأتي الصّلاة لتعيننا على تحقيق هذا التمركز، بشرط أن نراعي آدابها القلبيّة.

تقول لنا الصّلاة إنّ استقبالك للقبلة يعني أنّك تدّعي أمرين عظيمين، ويجب عليك أن تجعل هذا الادّعاء أمرًا حقيقيًا.

تكون الصّلاة لمن يطلب هذه الحقيقة فرصة سانحةً ليتمرّن وليروّض قواه الظّاهرة والباطنة على التوجّه نحو هدفٍ واحد ومقصدٍ فارد.

ما هو باطن الاستقبال وسرّه؟

لئن كنّا نعلم كيفيّة الاستقبال بالبدن، فما هو الاستقبال القلبيّ؟ هنا يجيب الإمام الخميني قدس سره قائلًا: «اعلم أنّ ظاهر الاستقبال متقوّم بأمرين:

أحدهما مقدّمي، وهو صرف الوجه الظّاهر عن جميع الجهات المتشتّتة.

والآخر نفسي، وهو استقبال الكعبة بالوجه، والكعبة هي أمّ القرى، ومركز بسط الأرض.

ولهذه الصورة باطن، وللباطن سرّ، بل أسرار»[1].

فالأمر الأوّل مقدّمة لحصول الثاني الذي هو مطلوبٌ بذاته، والذي يُعدّ حقيقة الاستقبال. وما لم يحصل الأمر الأوّل لا يمكن أن يتحقّق الأمر الثاني. إنّ التوجّه إلى الكعبة يحمل في طيّاته معنى التوجّه إلى منطلق الحياة الأرضية؛ لأنّ الأرض تشكّلت انطلاقًا من هذا البيت الأوّل الذي وُضع للناس. وما دامت الكعبة قائمة فالأرض باقية، وتبقى معها فرصة الإنسان للوصول إلى كماله وغايته.

درجات الاستقبال

يذكر الإمام الخميني قدس سره أنّ الاستقبال القلبيّ تابع لما في القلب وأحواله؛ ولهذا ذكر نوعين أو درجتين من الاستقبال، هما:

1. استقبال المجذوبين:

يقول الإمام الخميني قدس سره: «فأصحاب الأسرار الغيبية يصرفون باطن الرّوح عن الجهات المتشتتة لكثرات الغيب والشهادة، ويجعلون جهة سرّ الروح أحدية التعلّق، ويجعلون جميع الكثرات فانية في سرّ أحدية الجمع.

فإذا تنزّل هذا السرّ الروحيّ في القلب، يظهر الحقّ في القلب بظهور الاسم الأعظم الذي هو مقام الجمع الأسمائي، وتفنى الكثرات الأسمائية وتضمحل في الاسم الأعظم، وتصبح وجهة القلب في هذا المقام إلى حضرة الاسم الأعظم.

فإذا ظهرت هذه من باطن القلب إلى ظاهر الملك، كانت صورة إفناء الغير في الانصراف عن غرب عالم الملك وشرقه، وصورة التوجّه إلى حضرة الجمع في التوجّه إلى مركز بسط الأرض الذي هو يد الله في الأرض»[2].

المجذوب السّالك هو الذي يكون مبدأ سيره من الباطن إلى الظّاهر. فلمّا كان للبعض طهارة أوليّة ولم تتلوّث فطرتهم بألواث قذارات عالم الدّنيا، لم يحتاجوا إلى المجاهدة لأجل التخلّص منها. فسلوكهم ليس للمجاهدة، وإنّما هو تعبير عن وصولهم وفنائهم في

---

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 128.

(2) م.ن.

محبّة اللّه. المجذوب هو الإنسان الذي لم يخسر قابليّاته ليعمل فيما بعد على استعادتها، كما هو حال أكثر الناس؛ ولهذا تحصل له الجذبات الإلهيّة بدوًا. ومن ثمّ تتنزل هذه الحقائق من سرّه إلى روحه ومن روحه إلى قلبه حتّى تصل إلى ظاهر ملكه.

ولأنّ هذا المجذوب قد أعرض عمّا سوى اللّه تعالى في جميع مراتب الوجود، فإنّ إعراضه هذا سيتجلّى في عالم الملك والطّبيعة بصورة الانصراف عن شرق العالم ومغربه والتوجّه إلى الكعبة التي هي محل يد اللّه. فيكون استقباله حقيقيًا أيضًا.

2. استقبال السّالكين:

يقول الإمام الخميني قدس سره: «وأمّا بالنسبة للسالك إلى اللّه الذي يسير من الظّاهر إلى الباطن، ويترقّى من العلن إلى السرّ، فلا بدّ له أن يجعل هذا التوجّه الصوريّ إلى مركز البركات الأرضية وترك الجهات المتشتّتة المتفرّقة وسيلة الحالات القلبيّة، ولا يقنع بالصورة الخالية من المعنى، ويصرف القلب الذي هو مركز توجّه حضرة الحقّ عن الجهات المتشتّتة المتفرّقة، التي هي الأصنام الحقيقية. ويتوجّه إلى القبلة الحقيقية التي هي أصل أصول بركات السّماوات والأرض، ويرفع رسوم الغير والغيرية، حتّى يصل شيئًا ما، إلى سرّ ﴿ وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ ﴾[1]. ويحصل في قلبه أنموذج من تجليات عالم الغيب الأسمائي وبوارقه، وتحترق الجهات المتشتّتة والكثرات المتفرّقة ببارقة إلهيّة، ويؤيّده الحقّ تعالى، وتتحطّم الأصنام الصغيرة والصنم الأعظم من باطن القلب بيد الولاية. ولا انتهاء لهذه القصّة، فلأتركها وأمضي»[2].

وأمّا السّالك الذي يتّجه نحو الجذبة الإلهيّة، فعليه أن يتصنّع ما يعتقد به ويجاهد نفسه أن تعمل وفقه وبمقتضاه، عسى أن تدخل هذه المعاني إلى قلبه ومنه تحصل يقظة الروح وحياة السرّ. فإنّ في مثل هذا التصنّع والتعمّل أبلغ الأثر في تحصيل الحياة القلبيّة، وقد بنى الإمام قدس سره على هذا الأصل في جميع مراحل هذا الكتاب.

---

(1) سورة الأنعام، الآية79.

(2) الخميني، روح اللّه الموسوي، معراج السالكين، ص 128 - 129.

في بعض الآداب القلبيّة للاستقبال

1. تصديق الادّعاء:

وبعد أن علمنا درجات الاستقبال، ينبغي أن نتعرّف إلى أهمّ آدابه المعنويّة. وأهمّ آدابه هو بعد أن نعرف معناه أن نصدّق بهذا المعنى ونثبّته في قلوبنا. فموقف الاستقبال هو ادّعاء عظيم؛ لأنّ حال من يستقبل القبلة أنّه صرف وجهه وتوجّهاته عمّا سوى الله، ولم يعد في حياته سوى الوصول إليه.

أمّا الجهات المتشتّتة فهي كلّ نقص وناقص، وأمّا وجهة الله فهي الكمال الصّرف المطلق. ومن كان مستقبلاً على الحقيقة فلا يروم في الحياة سوى الكمال وتكون حياته عبارة عن سير متواصل في مراتب الكمال وهو معرض عن كلّ مظاهر النقص التي أصلها الإنيّة وشؤون الحياة الدّنيا وما يرتبط بها، يقول الإمام الخميني قدس سره: «اعلم أيّها السّالك إلى اللّه، إنّك إذا صرفت وجهك الظّاهر عن الجهات المتشتّتة لعالم الطّبيعة وتوجّهت إلى نقطة واحدة، فقد ادّعيت فطرتين من الفطر الإلهيّة، التي أودعت بيد الغيب في خميرة ذاتك، وقد خمّر الحقّ تعالى طينتك بها بيد الجلال والجمال. وقد أظهرت هاتين الحالتين الفطريتين بصورة ظاهرة دنيوية، وأشهدتهما بها، وأقمت البيّنة على عدم احتجابك عن نور هاتين الفطرتين الإلهيّتين، بصرف الظّاهر عن الغير والتوجّه إلى القبلة التي هي محل ظهور يد اللّه وقدرة اللّه.

وهاتان الفطرتان الإلهيّتان، إحداهما التنفّر عن النقص والناقص، والثانية هي العشق للكمال والكامل. والأوّل أصلي ذاتي والثاني تبعي ظلّي، من الفطر التي عجنت بها جميع عائلة البشر، ومن دون استثناء.

ففي جميع سلسلة البشر مع اختلافهم في العقائد والأخلاق والطبائع والأمزجة والأمكنة والعادات، في البدوي منهم والحضري، والبدائي والمتمدّن، والعالم والجاهل، والإلهيّ والطبيعي، هاتان الفطرتان مخمّرتان، وإن كانوا محجوبين عنهما، ويختلفون في تشخيص الكمال والنقص والكامل والناقص. فذاك المتوحّش السفّاك الفتّاك، يرى الكمال في الاستيلاء على نفوس الناس وأعراضهم ويرى السفك والقتل كمالاً فيصرف عمره لأجله.

وذاك الطالب للدنيا والطالب للجاه والمال، يرى الكمال بالمال والجاه ويعشقهما.

وبالجملة، فصاحب كلّ مقصد يرى مقصده كمالًا وصاحبه كاملًا ويعشقه، ويتنفّر من غيره. فالأنبياء عليهم السلام والعلماء بالله وأصحاب المعرفة قد جاؤوا ليخرجوا الناس من الاحتجاب، ويخلّصوا نور فطرتهم من ظلمات الجهل، ويعرّفوهم على الكامل والكمال. فإنّهم إذا شخّصوا الكمال والكامل، لن يحتاجوا إلى دعوة للتوجّه إليه وترك ما سواه، بل نور الفطرة هو أعظم هاد إلهيّ، وهو موجود في جميع سلالة البشر.

وفي هذا المرهم الإلهيّ، أي الصّلاة التي هي معراج القرب الإلهيّ، فإنّ استقبال القبلة والتوجّه إلى النقطة المركزية ورفع اليد وصرف الوجه عن الجهات المتفرّقة، هو ادّعاء بأنّ الفطرة قد تيقّظت وخرج نور الفطرة من الاحتجابات. وهذا الادّعاء حقيقي بالنسبة إلى الكمّل وأصحاب المعرفة. وأمّا بالنسبة لنا أصحاب الحجاب، فأدبه أن نفهّم القلب أنّه لا كمال ولا كامل في جميع دار التحقّق سوى الذات المقدّسة الكاملة على الاطلاق، فإنّ تلك الذات المقدّسة كمال بلا نقص، وجمال بلا عيب، وفعلية بلا شوب القوّة، وخير بلا اختلاط بالشرّ، ونور بلا شوب ظلمة. وكلّ ما في دار التحقّق من الكمال والجمال والخير والعزّة والعظمة والنّورانية والفعلية والسعادة فهو من نور جمال تلك الذات المقدّسة، وليس لأحد شراكة مع الذات المقدّسة في كمالها الذاتيّ، وليس لموجود جمال ولا كمال ولا نور ولا بهاء إلّا بجمال تلك الذات المقدّسة وكمالها ونورها وبهائها.

وبالجملة، إنّ العالم قد تنوّر بجلوة جماله المقدّس الذي وهبه الحياة والعلم والقدرة. وإلّا لبقيت دار التحقّق في ظلمة العدم وكمونه وبطون البطلان، بل من كان قلبه منوّرًا بنور المعرفة يرى كلّ شيء غير نور جمال الجميل باطلًا ولا شيء، ومعدومًا أزلًا وأبدًا.

وفي الحديث أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لمّا سمع هذا الشعر للبيد:

ألا كلّ شيء ما خلا الله باطل ... وكلّ نعيم لا محالة زائل

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**هذا الشعر أصدق ما قالته العرب**»[1][2].

(1) راجع: العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج67، ص295.

(2) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 129 – 132.

2. تفهيم القلب:

يقول الإمام الخميني بعد ذكر حقيقة الاستقبال: «فإذا فهّمت قلبك بطلان جميع دار التحقّق وكمال الذات المقدسة، فلا تحتاج في توجّه القلب إلى القبلة الحقيقية وعشق جمال الجميل على الإطلاق والتنفّر من جميع دار التحقّق إلّا جلوة الذات المقدّسة، إلى إعمال رويّة، بل فطرة الله بنفسها تدعو الإنسان اليه بالدعوة الجبلّيّة الفطرية وتصبح ﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾[1] لسان ذات الإنسان وقلبه وحاله، وتصبح ﴿ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴾[2] لسان فطرته.

فاعلم أيّها الفقير، أنّ العالم بوجهته السوائية زائل وداثر وفانٍ وباطل؛ ليس لأحد من الموجودات من قِبل نفسه شيء وليس في ذاته جمال ولا بهاء ونور وسناء، والجمال والبهاء منحصر بالذات المقدّسة. فتلك الذات المقدّسة، كما أنّها متفرّدة في الألوهيّة ووجوب الوجود، متفرّدة بالجمال والبهاء والكمال أيضًا، بل متفرّدة بالوجود. وإنّ ذلّ العدم الذاتي والبطلان منقوش على ناصية ما سواه. فاصرف قلبك الذي هو مركز لنور فطرة الله عن الجهات المتشتّتة للأباطيل والأعدام والنواقص، ووجّهه إلى مركز الجمال والكمال، وليكن لسان فطرتك في ضميرك الصافي... ما يقوله العارف الشيرازي:

لا تسع قلوبنا أحداً غير الحبيب فدع الكونين للعدوّ فإنّ الحبيب يكفينا

وصيّة الإمام للمحجوبين

يقول الإمام الخميني قدس سره: «عن الإمام الصادق عليه السلام: **«إذا استقبلت القبلة، فآيس من الدّنيا وما فيها والخلق وما هم فيه، واستفرغ قلبك عن كلّ شاغل يشغلك عن الله تعالى، وعاين بسرّك عظمة الله تعالى، واذكر وقوفك بين يديه، قال الله تعالى:** ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ﴾[3]**، وقِف على قدم الخوف والرجاء»**[4].

(1) سورة الأنعام، الآية 79.
(2) سورة الأنعام، الآية 76.
(3) سورة يونس، الآية 30.
(4) الامام جعفر الصادق عليه السلام، مصباح الشريعة، ص 87.

وهـذا الحكـم الشـريف حكـم جامـع لأمثالنـا المحجوبيـن الذيـن لا نسـتطيع أن نحافظ دائمًـا علـى حالاتنا القلبيّة ونجمـع بين الوحدة والكثرة ونتوجّه إلى الحـقّ والخلق. فحينئذ لا بـدّ لنـا أن نيأس من الدّنيا ومـا فيها عند التوجّه إلى الحقّ واسـتقبال القبلـة، ونقطع طمعًنا عن الخلق وشـؤونهم، ونخرج من روحنا وقلبنا المشـاغل القلبيّة والشـواغل الروحية لنصير لائقيـن للحضـور في الحضرة، ويتجلّى في سـرّ روحنا جلوة من جلـوات العظمة. فإذا وجدنا نور العظمة بقدر استعدادنا، نتذكّر رجوعنا إلى الحقّ ووقوفنا في محضره المقدس: ﴿هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٍ مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ﴾[1]، ويخطّ خطّ البطلان على جميع الأهواء النّفسانية والمعبودات الباطلة.

ففـي محضـر هذا العظيم الشـأن الذي كانت دار التحقّق بأسـرها جلوة من جلوات فعله، فـإنّ مسـكينًا مثلك ومثلي لا بدّ وأن يقف ويتردّد بقدمـي الخوف والرّجاء. وإذا رأينا الضّعف والفتور والمسـكنة والفقر والذلّة في أنفسـنا، والعظمة والأبّهة والجلال والكبرياء في الذات المقدّسـة، فنقـع في الخوف والخشـية من خطر هـذا المقام، وإذا وجدنـا الرحمة والعطوفة والألطاف غير المتناهية والكرامات اللانهائية نكون راجين وآملين».

(1) سورة يونس، الآية 30.

المفاهيم الرئيسة

1. لاستقبال القبلة معانٍ باطنية جليلة، وأسرار معنوية عظيمة.
2. أوّلها أنّه عبارة عن رفض الأغيار والإعراض عن كلّ ما سوى اللّه.
3. ثانيها توجيه وجهة القلب والسرّ نحو اللّه تعالى دون سواه.
4. وهذان المعنيان هم فطرة اللّه التي فطر الناس عليها.
5. عند استقبال القبلة ينبغي استحضار تلك المعاني.
6. كلّما قوي النظر إلى سرّ الاستقبال تجلّت تلك المعاني في القلب أكثر.
7. وعندها تستيقظ الفطرة الصافية في وجود الإنسان وتنبعث.
8. إذا لم يقصد السّالك تلك المعاني فإنه يكون كالمستخف بحرمة ربّه.
9. للصلاة حرمة عظيمة، ولهذا فإنّ خطر الاستخفاف بها كبير.
10. إذا لم نكن من أهل هذه المعاني، فلنتضرّع إلى اللّه بالعجز والمسكنة.

الدرس السادس والعشرون

سرّ الأذان والإقامة الإجمالي وآدابهما

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يتعرَّف إلى حقيقة الأذان والإقامة وعلاقتها في الحضور في محضر اللّه.

2 . يدرك العلاقة بين التجلّيات الإلهيّة وأنواع القلوب.

3 . يحدّد الوظائف القلبيّة للمحجوبين.

تمهيد

الأذان إعلان والإقامة استعداد وتهيّؤ؛ إعلان عن قرب الحضور وتجهيز للقاء.

لا يقدر عباد الله مهما بلغوا من العرفان أن يتحمّلوا سطوع التجليات الإلهيّة الإطلاقيّة على قلوبهم؛ ولهذا لا بدّ من التحضير والتهيؤ.

وإذا لم نكن من العارفين بمقام الربّ المتعال، وليس لنا خبر أو شعور بعظمة تجليّاته، ولا نقدر أن نتصوّر معنى أسمائه، فماذا نفعل؟ وأيّ شيء نقصد في الأذان والإقامة؟

لا شك بأنّ لكلّ واحد منّا تصوّره حول عظمة موجود ما، سواء من ناحية الهيبة والسلطنة، أو من ناحية الجمال واللطف.

فالذين خبروا هيبة السلاطين يمكنهم أن يدخلوا إلى مشاعرهم وإدراكاتهم عظمة الحقّ تعالى كأعظم سلطان في الوجود، فكيف يتصرّف من كان في محضر سلطان كهذا؟!

والذين شاهدوا في حياتهم عظمة جمال الجميل وإنعامه وتفضّله، يمكنهم أن يضاعفوا من هذه المشاعر ليعيشوا شيئًا ما معنى اللطف المطلق.

ومن هذا التكلّف تتصاعد المشاعر ويقوى معها الحضور ويزداد الاندفاع نحو التهيئة. فنقبل على الصّلاة بقلب حاضر مستعدّ لنيل فيض الربّ وإشراقات نوره الأزلي.

ما هو سرّ الأذان وأدبه؟

يبدأ السلوك المعنوي من المعرفة. ولا شكّ بأنّ مجموع الأحكام الإلهيّة يمثّل برنامج هذا السلوك المعنوي، ومنها الأذان والإقامة. ولكي نجعل أذاننا وإقامتنا وسيلة عروجنا في هذا السفر، ينبغي أن نتوجّه إلى المعاني الكامنة في أسرارهما.

من هنا، لا نجد من يتحدّث عن هذه المعاني أو الآداب المعنوية من العلماء مثل الإمام الخميني قدس سره، حيث يقول: «اعلم أن السّالك إلى الله لا بدّ له في الأذان أن يعلن للقلب الذي هو سلطان القوى الملكوتية والملكية ولسائر الجنود المنتشرة في الجهات المشتّتة للملك والملكوت، إعلان الحضور في المحضر. وحيث إنّه قد اقترب وقت الحضور والملاقاة، فيهيّئ تلك القوى؛

فإنّ كان من أهل الشوق والعشق، لا يفقد التحمّل والثبات من التجلّي المفاجئ.

وإن كان من المحجوبين فلا يدخل المحضر المقدّس بدون تهيئة الأسباب والآداب.

فالسرّ الاجمالي للأذان هو إعلام القوى الملكوتية والملكية والجيوش الإلهيّة للحضور.

وأدبه الإجماليّ هو التنبيه إلى عظمة المقام وخطره وعظمة المحضر والحاضر، وذلّ الممكن وفقره وفاقته ونقصه وعجزه عن القيام بالأمر وقابلية الحضور في المحضر، إن لم يؤيّده لطف الحقّ جلّ وعلا ورحمته ويجبر نقصه»[1].

ما هو سرّ الإقامة وأدبها؟

لمّا ذكر الإمام قدس سره ما هو المقصود من الأذان، وبيّن السر الأجمالي وما ينشأ عنه من أدب، شرع بالحديث عن الإقامة فقال: «والإقامة هي إقامة القوى الملكوتيّة والملكيّة في المحضر، وإحضارها في الحضور.

وأدبها هو الخوف والخشية والحياء والخجل والرجاء الواثق بالرحمة غير المتناهية»[2].

وباختصار، فإنّ على السالك كما يقول الإمام الخميني قدس سره: «أن يفهّم قلبه في جميع فصول الأذان والإقامة عظمة المحضر والحضور والحاضر، ويجعل ذلّ نفسه وعجزها وقصورها نصب عينيه حتى يحصل الخوف والخشية؛ ومن الجانب الآخر لا بدّ أن يريه الرحمة الواسعة والألطاف الكريمة حتى يحصل له الرجاء والشوق»[3].

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 135 - 136.
(2) م.ن، ص 136.
(3) م.ن.

أنواع القلوب في الحضور

وحيث إنّ التوجّه إلى العظمة وملاحظة تجلّياتها تابع لقوة القلب ونوعه، يتعرّض الإمام الخميني لنوعين من القلوب؛ وهما: القلوب العشقية التي يجذبها اللطف والجمال، والقلوب الخوفية التي يجذبها القهر والجلال. يقول الإمام الخميني قدس سره: «فالقلوب العشقية يغلبها الشوق والجذبة، وهي تخطو بقدم الحبّ والعشق في محضر الأنس. فهذه القلوب تشتغل بهذه الجذبة الغيبيّة وبعشق المحضر والحاضر، إلى آخر الصّلاة بالمعاشقة ومعانقة ذكر الحقّ وفكره.

وفي الحديث عن علي بن أبي طالب عليه السلام، قال:

«أفضل الناس من عشق العبادة وعانقها وأحبّها بقلبه وباشرها بجسده وتفرّغ لها، فهو لا يبالي على ما أصبح من الدّنيا على يسرٍ أم على عسر»[1].

والقلوب الخوفية يتجلّى لها سلطان العظمة وتغلب عليها جذبة القهّارية، وتجعلها في حالة الصعق ويذوّبها الخوف والخشية، ويمنعها عن كلّ شيء القصور الذاتي واستشعار ذلّة نفسها وعجزها.

وفي الحديث، عن موسى بن جعفر عليهما السلام، قال: «**قال أمير المؤمنين** عليه السلام: **«إنّ لله عبادًا كسرت قلوبهم خشيته، فأسكتتهم عن النطق»**[2]،[3].

العلاقة بين أنواع التجلّيات الإلهيّة وأنواع القلوب

تتحدّد التجلّيات الإلهيّة من ناحية التقيّد والإطلاق أو الجلال والجمال بحسب سعة القلوب وطبيعة توجّهها. فنور الحقّ المتعال مطلق، ولا يتقيّد بذاته بجمال أو جلال، وإنّما نشاهد منه بحسب المرائي الكونية. كما أنّ قلوب العباد هي مرائي تجلّيات الحقّ، وبها يعرفونه. وحيث إنّ بعض القلوب خوفي، فإنّ أصحابها يغلب عليهم إدراك الجلال، وإذا كان بعضها جماليًا، فإنّ أصحابها يغلب عليهم إدراك الجمال.

---

(1) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج1، ص 120.
(2) م.ن، ج9، ص 33.
(3) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص136.

ليس للحقّ تعالى سوى التجلّي الأعظم الأكرم. وهو أكرم تجلّياته عنده، لكنّ القلوب هي التي تقيّده بصفة دون أخرى. فإذا كان الميل الطبعيّ لقلبٍ ما نحو آيات الجلال والقهر، فإنّه سيرى الاسم الأعظم قهّارًا جليلًا. وإذا كان الميل الطبعيّ نحو آيات الجمال، فلن يرى صاحبه سوى مظاهر الجمال في هذا التجلّي الأعظم.

أجل، هناك نوع آخر من القلوب، وهو القلب الجامع للجلال والجمال، والقلب الواسع الذي وسع السموات والأرض؛ ولهذا فإنّه يسع كلّ المظاهر، وهو القلب الأحديّ الجمعيّ.

يقول الإمام الخميني قدس سره:

«والحقّ تعالى يتجلّى لأوليائه الكمّل تارة بالتجلّي اللطفي ويكون العشق والجذبة الحبية هادية لهم، كما في الحديث بأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان ينتظر الصّلاة ويشتدّ عشقه وشوقه، فيقول لبلال المؤذّن: «**أرحنا يا بلال**»[1]... وأخرى بتجلّي العظمة والسلطنة فيحصل لهم الخوف والخشية؛ كما نُقلت الحالات الخوفية عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعن أئمّة الهدى عليهم السلام. وثالثة بالتجلّي الأحديّ الجمعيّ على حسب طاقة قلوبهم وسعة أوعيتها»[2].

المحجوبون ووظائفهم القلبيّة

إذا كان حال أصحاب القلوب ما ذُكر، فما هو حال من لا حياة قلبية له؟ يجيب الإمام الخميني قدس سره قائلًا: «ونحن، المحجوبون، المشتغلون بالدّنيا والمحبوسون في سجن الطّبيعة والمغلولون بأغلال الشهوات والآمال، والمحرومون من السعادات العقلية الإلهيّة الذين لا نصحو من سكر الطّبيعة إلى صبح الأزل، ولا ننهض من نومنا الثقيل أبدًا، خارجون عن نطاق هذه التقسيمات، ومستثنَون من هذا البيان؛ فآداب الحضور لنا هي من طور آخر، والقيام بالوظائف القلبيّة على شكل آخر»[3].

1. عدم اليأس:

ولكن أوّل شيء منها هو كما يقول الإمام قدس سره: «أن نُخرج من قلوبنا اليأس من روح الله

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج79، ص 193.

(2) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 137.

(3) م.ن.

والقنوط من رحمة الله اللذين هما من الجنود الكبرى لإبليس، ومن إلقاءات شياطين الإنس والجنّ، ولا نتوّهم أنّ لباس هذه المقامات قد خيط على قامة أشخاص خاصّين، وأنّ أيدي آمالنا عنها قاصرة وأرجل سير البشر عن ركوبها مترجّلة فلا نخطو أصلًا ونبقى بالبرودة والوهن مخلّدين في أرض الطّبيعة. لا، فليس الأمر على ما نتوهّم.

نعم، أنا أيضًا أقول: إنّ المقام الخاص لكمّل أهل الله لا يتيسّر لأحد، ولكنّ للمقامات المعنويّة والمعارف الإلهيّة مدارج غير متناهية، ولها مراتب كثيرة، يتيسّر للنوع أكثر تلك المقامات والمعارف والحالات والمدارج، فيما إذا تركوا البرودة والتهاون الذي في أنفسهم، وأبعدوا يد العناد والتعصّب لأهل الجهل والعناد عن قلوب عباد الله، ولم يكن لهم شيطان على طريق سلوكهم»[1].

2. استشعار العظمة:

والأدب الثاني للمحجوبين هو أن يتصنّعوا أحوال أصحاب القلوب؛ لأنّ تكلّف الأدب يؤدّي إلى آثار الأدب نفسه؛ ولهذا يقول الإمام قدس سره: «فأدب الحضور بالنسبة لنا هو أنّه لا بدّ لنا في بدء الأمر؛ لأنّنا لم نتجاوز مرتبة الحسّ والظّاهر، وليس في أعيننا سوى العظمة والجلال الدنيويين، وليس لدينا أي خبر عن العظمة الإلهيّة الغيبية، أن نرى محضر الحق تعالى كمحضر سلطان عظيم الشأن قد أدرك القلب عظمته، وأن نفهم قلوبنا أنّ كلّ عظمة وجلال وكبرياء هي تجلٍ من عظمة عالم الملكوت قد تنزّلت إلى هذا العالم، وإنّ عالم الملكوت في جنب العوالم الغيبية ليس له قدر محسوس. فنفهّم القلب أنّ العالم هو المحضر المقدّس لحضرة الحقّ، وأنّ الحقّ تعالى حاضر في جميع الأمكنة والأحياز، وبالخصوص الصّلاة التي هي إذن خاص للحضور وميعاد مخصوص للملاقاة والمراودة مع الحضرة الأحدية.

فإذا جعلنا القلب مستشعرًا العظمة والحضور، وإن كان ذلك في بدء الأمر مع التكلّف، فإنّ القلب يستأنس بالتدريج ويصبح هذا المجاز حقيقة. فإذا قمنا بالآداب الصورية للتعامل مع مالك الملوك، وأدّينا الآداب الحضورية الظّاهرية، يحصل أثر في القلب أيضًا، ويستشعر

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 137.

العظمة، ويصل الإنسان تدريجيًّا إلى النتائج المطلوبة.

وكذلك بالنسبة إلى إثارة الحبّ والعشق، فإنّها أيضًا تحصل بالتعمّل والرياضة.

ففي أوّل الأمر، لا بدّ أن يعرض على القلب الرحمات الصورية والألطاف الحسّيّة للحقّ، ويوصل إليه مقام الرحمانية والرحيمية والمنعّمية كي يستأنس القلب بالتدريج، ويحصل الأثر في الباطن من الظّاهر وتتنوّر مملكة الباطن من آثار الجمال وتحصل النتائج المطلوبة»[1].

3. التوكّل على اللّه:

ولا شكّ بأنّ طيّ هذا السفر المعنوي غير ممكن لمن لا حياة له إلا أن يحييه اللّه تعالى بلطفه. وهذا هو مبدأ التوكّل على اللّه والثقة بأنّه عزّ وجلّ قادر على التفضّل على عباده بإيصالهم إلى فيضه، يقول الإمام قدس سره: «الإنسان إذا قام بالأمر وجاهد في سبيل اللّه، فالحقّ تعالى يؤيّده وينجيه باليد الغيبية من ظلمات عالم الطّبيعة، وينوّر أرض قلبه المظلمة بإشراق نور جماله، ويبدله بها السماوات الروحية: ﴿وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ﴾[2]،[3].

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص137 - 138.
(2) سورة الشورى، الآية 23.
(3) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 138.

المفاهيم الرئيسة

1. معنى الأذان والإقامة إعلان الحضور بين يدي اللّه تعالى.
2. يتوجّه هذا الإعلان إلى جميع القوى الظّاهرية والباطنية.
3. لأنّ جميع القوى ينبغي أن تشارك في الحضور.
4. يجب تنبيه القلب إلى عظمة المحضر والحاضر.
5. الإنسان حاضر في كلّ الأحوال والصّلاة أفضل تعبير عن هذا الحضور.
6. إذا لم يقم السّالك بأدب الصّلاة فقد أساء لهذا المحضر.
7. كي لا يسيء السّالك للمحضر الربوبي المقدّس عليه أن يتهيّأ.
8. نحن غير لائقين لهذا الحضور؛ لأنّنا لا ندرك عظمة المحضر.
9. ليس لنا من سبيل للنجاة سوى أن نعترف بقصورنا وتقصيرنا.

الدرس السابع والعشرون

آداب الشهادة بالرسالة والولاية

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يتعرَّف إلى معنى الشهادة بالرسالة وبعض أسرارها.
2. يحدّد العلامة الأساس لصدق شهادة الانسان بالرسالة.
3. يوضِّح العلاقة بين الشهادة بالرسالة والشهادة بالولاية.

تمهيد

حضـور الإنسـان الكامـل في الصـلاة واضحٍ وبارز. مـع أنّ الصلاة هـي روح العبادة، وأنّ العبـادة لا تصـحّ لغيـر الله، وأنّ الصّـلاة قـد أقيمـت لأجـل ذكر الله، فـإنّ جميع المسـلمين متّفقون على ذكر النبيّ الأكرم في أذانهم وإقامتهم وصلاتهم.

فما هو سر حضور هذا النبيّ العظيم في هذا العبادة التوحيديّة الخالصة؟

وما هي الأسرار التربوية للتمسّك بولاية النبي وآله في هذه الحركة المعنوية العروجية؟

وهـل يمكـن للإنسـان أن يقطـع مراحـل السـفر إلـى الله دون هدايتهـم والتمسّـك بحبـل ولايتهم؟

هذا ما يتعرّض له الإمام مع ذكر المسؤوليات المعنوية أو الآداب القلبيّة له.

ضرورة التمسّك بهداة الطريق

إنّ السـفر إلى الله أبعد وأشـقّ سـفر في الوجود، إذا أخذنا بعين الاعتبار قدرة الإنسـان وإمكاناتـه، لكنّـه أجمـل الأسـفار وأقربهـا وأمتعهـا إذا أخذنـا لطـف الله بعيـن الاعتبـار. ولا شـكّ بـأنّ أعظـم مظاهـر لطـف الله فـي الحياة هم الهـداة الذيـن بعثهم عزّ وجلّ لأجل أن نمسـك بأيديهـم، فنصـل بذلـك إلى أعلـى مقامات القـرب والوصال؛ ولهذا يقـول الإمام الخميني قدس سره: «اعلم أنه لا يمكن طيّ هذا السفر الروحاني والمعراج الإيماني بهذه الرجل المكسـورة والعنـان المرخـيّ والعيـن العمياء والقلب الذي هـو بلا نـور، ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُـورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[1]، فمن المحتوم واللازم لسـلوك هذا الطريـق الروحاني وعروج هذا المعراج العرفاني التمسّك بمقام روحانية هداة طرق المعرفة وأنوار سبل الهداية الذين هم

(1) سورة النور، الآية 40.

الواصلون إلى اللّه والعاكفون على اللّه، ولو أراد أحد أن يطوي هذا الطريق بقدم أنانية نفسه من دون التمسّك بولايتهم فسلوكه إلى الشيطان والهاوية»[1].

«وبالجملة، التمسّك بأولياء النعم الذين اهتدوا إلى طريق العروج إلى المعارج، وأتمّوا السير إلى اللّه، من لوازم السير إلى اللّه؛ كما أشير كثيرًا إلى ذلك في الأحاديث الشريفة، وقد عُقد في الوسائل بابٌ في بطلان العبادة بدون ولاية الأئمّة والاعتقاد بإمامتهم»[2].

فقد رُوي عن الكافي الشريف بإسناده عن محمد بن مسلم، قال: سمعت باقر العلوم عليه السلام يقول: «**واعلم يا محمد، أنّ أئمّة الجور وأتباعهم لمعزولون عن دين الله، قد ضلّوا وأضلّوا، فأعمالهم التي يعملونها** ﴿كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾[3]»[4].

وفي رواية أخرى عن أبي جعفر عليه السلام، أنّه قال: «**أمّا لو أنّ رجلًا قام ليلة وصام نهاره وتصدّق بجميع ماله وحجّ جميع دهره ولم يعرف ولاية وليّ الله فيواليه فتكون جميع أعماله بدلالته إليه ما كان له على الله حقّ في ثوابه، وما كان من أهل الإيمان**»[5].

وروى الصدّوق قدس سره بسنده عن أبي حمزة الثمالي، قال: قال لنا علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام: «**أيّ البقاع أفضل**»؟ فقلت: الله ورسوله أعلم، فقال: «**إنّ أفضل البقاع ما بين الركن والمقام، ولو أنّ رجلًا عمّر ما عمّر نوح في قومه ألف سنة إلّا خمسين عامًا يصوم النهار ويقوم الليل في ذلك الموضع، ثمّ لقي الله بغير ولايتنا لم ينفعه ذلك شيئًا**»[6].

والأحاديث في هذا الباب أكثر من أن يسعها هذا المختصر»[7].

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 148.
(2) م.ن.
(3) سورة ابراهيم، الآية 18.
(4) الشيخ الكليني، الكافي، ج1، ص 184.
(5) م.ن، ج2، ص 19.
(6) الطوسي، الأمالي، ص 132.
(7) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص149 150-.

الدليل العلميّ على ضرورة الواسطة

شاء اللّه تعالى أن تجري الأمور بأسباب ووسائط لكي يعرج كلّ مخلوق إلى خالقه، ويرجع كلّ موجود إلى واجبه. ولولا هذه الوسائط لما عرف أحد ربّه؛ لأنّ المخلوق الممكن بما هو هو، لا يمكن أن يهتدي إلى الحقّ.

وإنّما كانت الوسائط أعظم مذكّرات بالحقّ تعالى. فعندما يشاهد المخلوق ما تحقّق به الواسطة يتذكّر ربّه، ويرجع إليه. وهنا يذكر الإمام الخميني قدس سره هذه القضية بصورة علمية فلسفية، ويردّ على الذين أنكروا الواسطة قائلًا:

«وببيانٍ علميّ، كما أنّ ربط الحادث بالقديم، والمتغيّر بالثابت، محتاج إلى الواسطة والرابط الذي تكون له جهتا الثبات والتغيّر والقدم والحدوث[1]، فإذا لم تكن الواسطة موجودة فلا يعبر (بحسب السنّة الإلهيّة) الفيضُ القديم الثابت إلى المتغيّر الحادث، ولا تحصل الرابطة الكونية الوجودية.

والآراء العلمية لأهل العلوم البرهانية بالنسبة إلى الرابط بين هذين مختلفة، كما إنّ للذوق العرفاني اقتضاء آخر يخرج تفصيله عن عهدة هذه الأوراق، وفي الذوق العرفاني الرابط هو الفيض المقدّس والوجود المنبسط الذي له مقام البرزخية الكبرى والوسطية العظمى، وهو بعينه مقام روحانية الرسول الخاتم وولايته المتّحدة مع مقام الولاية العلوية المطلقة، وقد ذكرت تفصيل ذلك في رسالة مصباح الهداية، كذلك في الرابطة الروحانية العروجية التي هي عكس الرابطة الكونية النزولية؛ وبعبارة أخرى: قبض الوجود والرجوع إلى المبدأ يحتاج إلى الواسطة، وبدونها لا تتحقّق الرابطة، ولا يتحقّق ارتباط القلوب الناقصة المقيّدة والأرواح النازلة المحدودة بالتام الذي هو فوق التمام والمطلق من جميع الجهات، من دون الوسائط الروحانية والروابط الغيبية.

وإذا ظنّ أحد أنّ الحقّ تعالى قيّوم لكلّ موجود ومحيط بكلّ الأكوان من دون وساطة الوسائط

(1) بمعنى أن الواسطة هي الكون الجامع بين جهتي القدم والحدوث، ولكن لا بمعنى القدم الذاتي الخاص بوجود اللّه تعالى، بل بمعنى القدم القائم بوجود اللّه وفيضه المطلق والأزلي، وهذا البيان واضح في فلسفة الحكمة المتعالية وكتب العرفان النظري.

كما أشير إلى ذلك في الآية الشريفة ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾[1]، فقد اختلطت عنده المقامات واشتبهت عليه الاعتبارات، وخلط مقام كثرة مراتب الوجود بفناء التعيّنات. وليس لهذا البحث علاقة أساسية بهذه الرسالة، وهذا المقدار أيضًا صار من طغيان القلم»[2].

الرسالة الختمية وأثر الشهادة بها

وبناءً على ما مرّ من ضرورة وجود الهادي والمرشد إلى الله، فمن المتوقّع أن يكون لهذا الهادي حضور في سلوك الإنسان وسيره الذي يحصل بالعبادة. والأذان والإقامة هما من العبادة؛ ولهذا نشهد حضور معنى الرسول والولي فيهما، فيقول الإمام الخميني قدس سره: «وأمّا آداب الشهادة بالرسالة فهي أن يوصل الشّهادة بالرسالة وعظمتها من الحقّ إلى القلب؛ وخصوصًا الرسالة الختمية»[3].

فما هي هذه الرسالة الختمية؟ وماذا كان تأثيرها على الوجود؟ يقول الإمام الخميني قدس سره موضحًا:

«إنّ الرسالة الختمية هي التي كانت دائرة الوجود بأسرها، من عوالم الغيب والشهود، تتنعّم تكوينًا وتشريعًا ووجودًا وهدايةً من سقطات موائد نعمها؛ وإنّ ذاك السيد الكريم هو الواسطة لفيض الحقّ والرابط بين الحقّ والخلق. ولولا مقام روحانيته وولايته المطلقة لم يكن لأحد من الموجودات لياقة الاستفادة من مقام الغيب الأحدي، ولما عبر فيض الحقّ إلى موجود من الموجودات، ولما أشرق نور الهداية في أيّ عالم من عوالم الظاهر والباطن. وذاك السيد لهو النور الذي ورد في آية ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[4].

فإذا دخلت عظمة مشرّع الدين ورسول ربّ العالمين في قلب الإنسان، يدخل فيه أهمّية أحكامه وسننه وعظمتها؛ فإذا أدرك القلب عظمتها تخضع له سائر القوى الملكية والملكوتية وتنفذ الشريعة المقدّسة في جميع المملكة الإنسانية»[5].

---

(1) سورة هود، الآيتان 56.
(2) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص148 – 149.
(3) م.ن، ص 150.
(4) سورة النور، الآية 35.
(5) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 150.

لماذا هذه الشهادة في الأذان؟

يقول الإمام الخميني قدس سره: «وقد علم ممّا ذكر إلى الآن ارتباط الشهادة بالرسالة بالأذان وإقامة الصلاة؛ لأنّ السالك في هذا الطريق الروحاني محتاج إلى التمسّك بذاك الوجود المقدّس، حتى يعرج بمصاحبته وتأييده في هذا العروج الروحاني»(1).

فإذا كان الأذان إعلان بدء السفر الروحاني، فلا بدّ من اتّخاذ الرفيق قبل الطريق. وهذا الرفيق هو الهادي والدليل في جميع مراحل السفر إلى الله.

الصلاة كشف محمّدي

ولأنّ الأذان والإقامة هما مقدّمة للصلاة، فلا بدّ من أن يتوجّه القلب إلى حقيقة ما يقوم به أثناء الصلاة أو ما هو مقبل عليه. وهنا يأتي أحد أكبر معاني الصلاة التي يبيّنها الإمام الخميني قدس سره قائلا: «والوجه الآخر، هو أنّ في هذه الشهادة إعلانًا للقوى الملكية والملكوتية بأنّ الصلاة التي هي حقيقة معراج المؤمنين ومنبع معارف أصحاب العرفان وأهل الإيقان هي نتيجة الكشف المحمدي التام صلى الله عليه وآله وسلم، وهو (صلوات الله عليه وعلى آله) بسلوكه الروحاني والجذبات الإلهيّة والجذوات الرحمانية قد وصل إلى مقام قاب قوسين أو أدنى، وتبعًا للتجلّيات الذاتية والأسمائية والصفاتية والإلهامات الأنسيّة كشف حقيقة هذه الصلاة في الحضرة الأحدية الغيبية. وفي الحقيقة هي هدية لأمّته خير الأمم جاء بها من هذا السفر المعنويّ الروحانيّ ومنّ عليهم بها وأغرقهم في بحر النعمة»(2).

فإذا كانت صلاة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم هي التعبير عن حقيقة قربه في مقام أو أدنى، فإنّه عليه السلام لم يضنَ بها لنفسه، فأنزلها إلى أمّته، وجعلها وسيلة لسلوك طريقه والعروج إلى مقامه. وهكذا، تكون هذه المعرفة من العوامل المهمّة لتحصيل الصلاة المعراجية. وطريق ذلك، كما يقول الإمام قدس سره من خلال التكرار:

«فإذا استقرّت هذه العقيدة في القلب، وتمكّن بالتكرار فيدرك السالك عظمة المقام وجلالة المحلّ البتّة، ويطوي هذه المرحلة بقدمي الخوف والرجاء. والمرجوّ منه صلى الله عليه وآله وسلم أن

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 150.
(2) م.ن، ص 151.

يؤيّده، إن شاء اللّه، ويقرّبه إلى مقام القرب الأحديّ الذي هو المقصد الأصلي والمقصود الفطري، إذا قام السالك بالأمر بقدر طاقته.

وقد ثبت في العلوم الإلهيّة أنّ معاد جميع الموجودات إنّما يتحقّق بتوسّط الإنسان الكامل ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾[1]، «**بكم فتح اللّه وبكم يختم**»[2] و«**إياب الخلق إليكم**[3]»[4].

ما هي علامة صدق الشهادة؟

إنّ شهادة الإنسان الصادقة على رسالة النبي الأكرم الخاتمة تحمل معها الاعتراف بعظمته وعظمة رسالته وشريعته. ولا شكّ بأنّ دخول هذه العظمة إلى القلب سيؤدّي إلى خضوع سائر قوى النفس لهذه الرسالة وشريعتها الحقّة. ويحصل من جرّاء ذلك التقوى بجميع مراتبها؛ ولهذا يقول الإمام الخميني قدّس سرّه: «وعلامة صدق الشهادة أنّه تظهر آثارها في جميع القوى الغيبيّة والظاهرة، ولا تتخلّف عنها، كما أشير إليه في السّابق»[5].

يتعرّض الإمام قدّس سرّه إلى نكتة عرفانيّة عميقة استفادها من واقعة المعراج العظيمة التي ورد ذكر بعض أسرارها في الأحاديث الشريفة. فقد ورد في كتاب العلل، كما نقل الإمام الخميني قدّس سرّه: «إنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم عرج إلى السماء بعدما أنزل اللّه عليه محمّلًا من نور ومعه جبرائيل: ثمّ عرج بي إلى السماء الثالثة، فنفرت الملائكة إلى أطراف السماء، وخرّت سجّدًا، وقالت: سبّوح قدّوس ربّ الملائكة والروح، ما هذا النور الذي يشبه نور ربّنا؟ فقال جبرائيل عليه السلام: أشهد أنّ محمدًا رسول اللّه، أشهد أنّ محمدًا رسول اللّه، فاجتمعت الملائكة، وفتحت أبواب السماء، وقالت: مرحبًا بالأوّل، ومرحبًا بالآخر، ومرحبًا بالحاشر، ومرحبًا بالناشر، محمّد خاتم النبيّين وعلّي خير الوصيّين، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم: سلّموا عليّ واسألوني عن أخي علي... إلى أن قال: ثمّ عُرج بي إلى السماء الرابعة، فلم تقل الملائكة شيئًا، وسمعت دويّا كأنّه في الصدور، واجتمعت الملائكة ففتحت أبواب السماء... فقال

(1) سورة الأعراف، الآية 29.

(2) الكليني، الكافي، ج4، ص576.

(3) الصدوق، من لايحضره الفقيه، ج2، ص612.

(4) الخميني، روح اللّه الموسوي، معراج السالكين، ص 151.

(5) م.ن، ص 150.

جبرائيل: حيّ على الصلاة، حيّ على الصلاة، إلى آخر الإقامة»[1] الحديث.

ويقول الإمام الخميني قدس سره: «فيُعلم من هذا الحديث أنّ ملائكة جميع السّماوات لا تطيق مشاهدة الجمال الأحمدي، وتسجد لرؤية نوره المقدّس وتتفرّق وتتوهّم أنّه نور الحقّ المطلق. وترجع من خلال فصول الأذان والإقامة إلى الأنس وتنفتح أبواب السماء وترتفع الحجب»[2]. وما كان هذا الحجاب إلّا من جهة التعيّن الخلقي؛ لأنّ شهود كلّ موجود من نور ربّه إنّما يكون بحسب سعته الوجودية وحظّه من الوجود، وهو المعبّر عنه بالتعيّن الخلقي. وإذا ما أراد أحدٌ أن يخرج من هذا الحجاب فلا بدّ أن يحطّم تلك التعينات والقيود الخلقية، وذلك لا يكون إلا بأن يفني وجوده في وجود من كان له مقام الفناء المطلق؛ ولهذا يقول الإمام قدس سره:

«فللسالك أن يخرج بهذه الشهادة عن الاحتجاب، وفي الشهادة بالرسالة يخرج تمامًا عن احتجاب التعيّن الخلقي؛ لأنّ مقام الرسالة الذي ثبت لأشرف الخليقة هو الفناء المطلق واللااستقلالية التامّة؛ لأنّ الرسالة الختميّة المطلقة هي الخلافة الإلهيّة البرزخية الكبرى، وهذه الخلافة هي خلافة في الظهور والتجلّي والتكوين والتشريع، ولا يكون للخليفة من عند نفسه أيّ استقلال وتعيّن، وإلا انقلبت الخلافة إلى الأصالة، وهذا لا يمكن لأحد من الموجودات».

فعلى السالك إلى الله أن يوصل إلى باطن قلبه وروحه مقام الخلافة الأحمدية الكبرى، وبها يكشف الحجاب ويخرق الستور ويخرج بالكلّية عن حجب التعيّن الخلقي فتنفتح له أبواب السّماوات كلّها، ويصل إلى مقصده بلا حجاب»[3].

بين الشهادة بالولاية والشهادة بالرسالة

يقول الإمام الخميني قدس سره الشريف في معرض الحديث عن الشهادة بالولاية بعد الشهادة بالرسالة وما يرتبط بهذا البحث على الصعيد الفقهي والعرفاني: «قد ورد في بعض الروايات غير المعتبرة أن يُقال بعد الشهادة بالرسالة في الأذان: أشهد أنّ عليًّا وليّ

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج3، ص 483 - 484.
(2) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 152.
(3) م.ن، ص 152.

الله مرّتين، وفي بعض الروايات: أشهد أنّ عليًّا أمير المؤمنين حقّا مرتّين، وفي بعض آخر: محمد وآل محمد خير البرية... والمشهور بين العلماء رضوان الله عليهم عدم الاعتماد على هذه الروايات، وجعل بعض المحدِّثين هذه الشهادة جزءًا مستحبًّا من جهة التسامح في أدلّة السنن، وهذا القول ليس ببعيد عن الصواب، وإن كان أداؤها بقصد القربة المطلقة أولى وأحوط؛ لأنّه يستحبّ بعد الشهادة بالرسالة الشهادة بالولاية وإمارة المؤمنين...

وبالجملة هذا الذكر الشريف يُستحب بعد الشهادة بالرسالة مطلقاً، وفي فصول الأذان لا يبعد استحبابه بالخصوص، وإن كان الاحتياط يقتضي أن يؤتى به بقصد القربة المطلقة، لا بقصد الخصوصية في الأذان؛ لتكذيب العلماء الأعلام تلك الروايات.

فمثلما أنّ الألوهيّة شاهدة على ضرورة الرسالة والولاية؛ لأنّه يستحيل أن يكون الإله إلهًا ويترك الناس دون هداية وتكميل. كذلك فإنّ ظاهرة الرسالة في الحياة البشرية هي أبلغ دليل على الألوهية. فنحن بالعقل نصل من الألوهية إلى إثبات الرسالة، ومن إثبات الرسالة نصل إلى إثبات الإمامة. لكنّنا بالسير المعنويّ نبدأ من طاعة الوليّ لنصل إلى طاعة الرسول، وبطاعتنا للرسول نكون قد أطعنا الله تعالى، ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾[1].

---

(1) سورة النساء، الآية 80.

المفاهيم الرئيسة

1. الشهادة بالرسالة تدلّنا على أهمّية هداية النبيّ لنا في رحلة العروج.
2. لا يمكن الاستغناء عن الهداة الإلهيين.
3. جعل اللّه الوجود على مراتب ووسائط.
4. اقتضت سنّة اللّه تعالى وجود وسائط بيننا وبينه.
5. إحدى حكم اللّه تعالى في الوسائط هي القدوة.
6. وجود القدوة في الحياة يحقّق الاندفاع اللازم للسير إلى اللّه.
7. نزول الفيض من سماء الرحمة يمرّ عبر هذه الوسائط.
8. تستمرّ الرسالة النبوية في ولاية الأئمّة الأطهار عليهم السلام.

الدرس الثامن والعشرون

آداب الحيعلات

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يتعـرَّف إلى معنى الحيّعلات في الصّلاة وآدابها، وسر تكرارها في الأذان والاقامة.

2 . يبيّن العلاقة بين الصلاة والدعوة إلى الفلاح.

3 . يـدرك مسـؤولية الإمامـة ودورهـا فـي عمـارة الملكوت.

تمهيد

إنّها الدّعوة الموجّهة إلى الفطرة الكامنة فينا، فطرة اللّه التي أُودعت في قلب كلّ إنسان، الفطرة التي لا تعشق ولا تطلب سوى الكمال المطلق والسّعادة المطلقة، الفطرة التي قامت على التوحيد وامتزجت بطلب الحقّ المطلق سبحانه وتعالى دون سواه.

بهذه الدعوة اليومية إلى الصلاة، والتي تتكرر على مسامعنا أو تنطق بها ألسنتنا، عسى أن تستجيب لها قلوبنا، نوقظ الفطرة الإلهيّة التي فطرنا اللّه عليها. هذه الدعوة هي لأجل توجيهنا نحو السعادة المطلقة التي تحصل في ظلّ جوار اللّه والقرب من اللّه.

وما هو مصداق هذه السعادة؟

إنّها الصلاة التي جمعت ذكر اللّه والحضور بين يدي اللّه الذي له كلّ كمال على نحو الإطلاق.

في قلب الصلاة يتحقّق هذا الحضور وتسقط جميع الحجب والموانع ويتحقّق مقام: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[1].

في ظلّ الصلاة ينال الإنسان مقام القرب في جنّة اللّه أو جنّة الذات.

في ظلّ الصلاة يعبر الإنسان مراتب التوحيد نحو معرفة اللّه التي هي ألذّ من جميع الجنان.

هذه هي دعوة الأذان والإقامة توقظ في المؤمنين الفطرة التي تحرّك نحو كلّ كمال. وعلامة الاستجابة لهذا النداء لا تنحصر بالصلاة، بل ستكون الصلاة منطلق السعي الذي لا يتوقّف نحو كلّ كمال حقيقي.

---

(1) سورة الرحمن، الآية 55.

متى تحين الصّلاة؟

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: «إذا أعلن السّالك إلى الله
بالتكبيرات عظمة الحقّ تعالى عن التّوصيف،
وبالشّهادة بالألوهيّة قصر التوصيف والتحميد، بل كلّ تأثير على الحقّ،
وأسقط نفسه عن لياقة القيام بالأمر،
واختار الرفيق والمصاحب بالشهادة بالرسالة والولاية،
وتمسّك بمقام الخلافة والولاية المقدّس، كما قيل الرفيق ثمّ الطريق،
فعليه بعد ذلك أن يهيّئ القوى الملكية والملكوتية بصريح اللهجة للصّلاة، ويعلن لها الحضور بقوله: حيّ على الصلاة»[1].

ما هو سرّ تكرار الدعوة إلى الصلاة؟

ويقول الإمام قدس سره بشأن تكرار الدعوة هذه في الأذان والإقامة: «وتكراره للتنبيه الكامل والإيقاظ التام؛ أو إنّ أحدهما لقوى المملكة الداخلية، والآخر لقوى المملكة الخارجية؛ لأنّهما أيضًا سلاّك هذا السفر مع الإنسان، كما أُشير إلى ذلك فيما مرّ وفيما سيأتي»[2].

فمثلما يتحرّك الإنسان ببدنه نحو الصلاة، يجب أن يحرّك قواه الباطنة نحو هذه السعادة والحضور، ويوجّه إليها دعوة الوصال والقرب.

آداب السالك حين إطلاق الدعوة إلى الصلاة

وبعدها يأتي الحديث عن الآداب التي ينبغي أن يراعيها الإنسان حين إطلاق الدعوة إلى الصّلاة؛ ولهذا يقول الإمام الخميني قدس سره:

«وأدب السّالك في هذا المقام هو:

1. أن يفهم قلبه وقواه وباطن قلبه قرب الحضور، حتى يتهيّأ له ويراقب آدابه الصورية والمعنوية بمنتهى الدقّة.
2. ثم يعلن سرّ الصلاة ونتيجتها بالإجمال بقوله: حيّ على الفلاح، وحيّ على خير العمل، كي يوقظ الفطرة»[3].

---

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 154.
(2) م.ن.
(3) م.ن، ص 155.

ما هو سرّ تكرار التكبيرات؟

إنّ الفطرة التي تعشق الكمال المطلق وتبعث نحوه لن تتفعّل في النفس ما لم تسمع النداء الذي يوجّهها إلى ما تصبو إليه. وما لم يعرف الإنسان المصداق الحقيقيّ لما تعشقه الفطرة يستحيل أن يتحرّك نحوه بالحركة الإرادية الاختيارية.

والمصداق الأتمّ الأبرز الأوحد لما تعشقه الفطرة الصافية هو الله تعالى؛ لأنّه المستجمع لكلّ الأسماء والصفات الحسنى التي هي الكمال المطلق. والاسم الله هو أفضل تعبير عن هذا الاسم الجامع، يقول الإمام قدّس سرّه:

«ويكرّر الله أكبر في جميع حالات الصلاة وانتقالاتها»[1]. فهذا للتأكيد على أنّ صلاتنا ليست سوى وصل واتّصال بالكمال اللامتناهي الذي خلقنا لأجله. ولأنّ التوحيد هو أسمى تعبير عن انحصار هذا الكمال بالله، ولأنّه لا معنى للمطلق إلا بالوحدانية، يقول الإمام قدّس سرّه:

«والتوحيدات الثلاثة التي هي قرّة عين الأولياء تحصل في الصلاة؛ وقد امتزجت فيها صورة الفناء المطلق والرجوع التام. وبحسب الباطن والحقيقة هي معراج قرب الحقّ وحقيقة الوصول إلى جمال الجميل المطلق والفناء في ذاته المقدّسة التي تعشقها الفطرة، وتحصل بها الطمأنينة التامّة والراحة المطلقة والسعادة العقلية التامّة ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[2].

فالكمال المطلق إذًا، وهو الوصول إلى فناء الله والاتّصال بالبحر الوجوبيّ غير المتناهي وشهود جمال الأزل والاستغراق في بحر النور المطلق، يحصل في الصلاة.

وفيها أيضًا تحصل الراحة المطلقة والاستراحة التامّة والطمأنينة التامّة ويحصل فيها ركنا السعادة؛ فالصلاة هي الفلاح المطلق، وهي خير الأعمال»[3].

ولأنّ تقبّل القلوب لهذه المعاني لا يحصل دفعة واحدة، فلا بدّ من التكرار وهنا يأتي دور التفهيم والتلقين، فيقول الإمام قدّس سرّه: «وعلى السالك أن يفهّم القلب هذه اللطيفة الإلهيّة بالتكرار والتذكّر التام، ويوقظ بها الفطرة. فإذا وردت هذه اللطيفة في القلب، فالفطرة من

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 155.
(2) سورة الرعد، الآية 28.
(3) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 155.

حيث إنّها طالبة للكمال والسعادة تهتمّ بها وتحافظ عليها وتراقبها. وفي تكرارهما أيضًا النكتة التي ذكرناها»[1].

العلاقة بين الصلاة والدعوة إلى الفلاح

تختصر الدعوة إلى الصّلاة كل معاني الفلاح والفوز والنجاح التي يطلبها الإنسان ويصبو إليها، فما هو هذا الفلاح الذي ندعو إليه في كلّ أذان وإقامة؟ يقول الإمام قدس سره:

«لأنّ الفلاح والنجاح هي السّعادة المطلقة، وفطرة جميع البشر عاشقة للسعادة المطلقة؛ لأنّ الفطرة طالبة للكمال وتطلب الراحة؛ وحقيقة السعادة هي الكمال المطلق والراحة المطلقة. وهي تحصل في الصلاة التي هي خير الأعمال قلبًا وقالبًا وظهورًا وبطونًا؛ لأنّ الصلاة بحسب الظاهر هي الذكر الكبير والجامع والثناء بالاسم الأعظم المستجمع لجميع الشؤون الإلهيّة؛ ولهذا كان الأذان والإقامة مفتتحين باللّه ومختتمين به»[2].

فالدعوة إلى الصلاة عندما تقترن بالدعوة إلى الفلاح والسعادة والكمال المطلق توقظ الفطرة وتبعث النفس على التحرّك نحو الكمال. ويُعلم من هذا أنّ الدعوة إلى جميع التعاليم والتكاليف الدينية ينبغي أن تكون مصحوبة بهذا النداء الفطريّ لكي يتحقّق الانجذاب والتحرّك نحوها.

قد قامت الصلاة

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: «فإذا وصل السالك إلى ذلك المقام يعلن الحضور، فقد قامت الصلاة»[3].

وأدبه:

1. «فلا بدّ أن يرى نفسه في حضور مالك الملوك في العوالم الوجودية وسلطان السلاطين والعظيم المطلق،
2. ويفهّم قلبه خطر الحضور الذي يرجع كلّه إلى القصور والتقصير الإمكاني،

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 155.
(2) م.ن.
(3) م.ن.

3. ويرد المحضر بغاية الخجل من عدم القيام بالأمر، وبقدمي الخوف والرّجاء، ويفد على الكريم، ولا يرى لنفسه زاداً وراحلة،

4. ويرى قلبه فارغًا من السلامة،

5. ولا يحسب عمله من الحسنات، ولا يعدّه شيئًا يذكر.

فإذا استحكمت هذه الحال في القلب، فالمرجوّ أن يقع موردًا للعناية، ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾[1].

وبإعلانه عن قيام الصلاة أو إقامتها يتحقّق الحضور، ولا يمكن أن يستفيد من هذا المحضر ما لم يدرك مدى عجزه وقصوره عن القيام بوظائف العبوديّة؛ لأنّ العبودية إنّما تقاس بحسب الربوبية. وكيف يمكن أن يؤدّي حقوقها وحقّ الله تعالى لا يمكن أن يدركه أحد؟!

وإذا كانت الصّلاة لأجل الثناء على الله تعالى بحقيقة الأمر، فأنّى للممكن أن يليق بالثناء والثناء وصف والوصف فرع المعرفة والمعرفة فرع الإحاطة؛ لهذا كان كمال الإخلاص له نفي الصفات عنه.

فلا يمكن والحال هذا أن تتّصف صلواتنا بالحسن؛ لأنّ الحسن يأتي من استحسان المحسن إليه. وكيف يمكن أن يكون ثناء الجاهل على الله حسنًا وهو لا يعرف قدره؟ اللهمّ، إلّا أن يقبل الله بلطفه وكرمه ويجبر نقصاننا ويجري على ألسنتنا ما يحبّ ويرضى.

شاهد من الأحاديث

ينقل الإمام قُدِّسَ سِرُّهُ بعض الشواهد الروائية، ويعقّب عليها، فيقول: «محمد بن يعقوب، بإسناده عن أبي عبدالله عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال: «**إذا أذّنت وأقمت صلّى خلفك صفّان من الملائكة، وإذا أقمت صلّى خلفك صفّ من الملائكة**»[2] والأحاديث بهذا المضمون كثيرة، وفي بعض الأخبار: «**إنّ حدّ الصفّ ما بين المشرق والمغرب**»[3].

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 156.
(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج3، ص 303.
(3) الشيخ الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج5، ص 382.

وفي ثواب الأعمال قال أبو عبد الله عليه السلام: «**من صلّى بأذان وإقامة، صلّى خلفه صفّان من الملائكة، ومن صلّى بإقامة من غير أذان صلّى خلفه صفّ واحد من الملائكة، قلت له: وكم مقدار كلّ صف؟ فقال: أقلّه ما بين المشرق والمغرب، وأكثره ما بين السماء والأرض**»(1). وفي بعض الروايات: «**وإن أقام بغير أذان صلّى عن يمينه واحد وعن شماله واحد**»(2) إلى غير ذلك من الأخبار.

ولعلّ اختلاف الأخبار بسبب اختلاف المصلّين في المعارف والخلوص كما يُستفاد من بعض روايات الباب، مثل الرواية التي وردت في الصلاة مع الأذان والإقامة في أرض قفراء»(3).

مسؤولية الإمامة ودورها في عمارة الملكوت

قد جعل الله تعالى لكلّ مصلٍّ من يعينه على صلاته. وليست ملائكة الله سوى ذلك الفيض المقدّس الذي يسري روح الكمال في كلّ شيء. فعندما تصلّي ملائكة الله تعالى مع المصلّي وتأتمّ به، فهذا يعني أنّ آثار صلاته سوف تسري في كلّ العالم، وبحسب ما يكون له من الصّلاة الحقيقية من فيض وكمال سينشر هذا الفيض في العالم.

إنّ ملائكة الله إنّما تستجيب لدعوة القلب اليقظ؛ لأنّ موجة سماعها هي من عالم القلوب. فمن كان حاضرًا بقلبه في الصّلاة وأدرك معنى الحضور سوف يدعو ملائكة الله لتصلّي خلفه.

وعندما تصلّي ملائكة الله خلفه، فهذا يعني انبعاث الآثار العظيمة من أعماق عالم الوجود.

إنّ المصلّي الحقيقيّ هو الذي ينشئ، بإذن الله، عالمًا عظيمًا من المعاني الملكوتية.

ومع كلّ صلاة يزداد حضور الملكوت في هذا العالم حتى يبدّله، يقول الإمام الخميني قدس سره:

---

(1) ابن بابويه، محمد بن علي، ثواب الأعمال وعقاب الأعمال، قم، نشر دار الشريف الرضي للنشر، 1406 هـ، ط 2، ص 33.

(2) الشيخ الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج5، ص 382.

(3) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 156.

«وبالجملة، إذا رأى السالك نفسه إمامًا لملائكة الله وقلبه إمامًا لقواه الملكية والملكوتية، وجمع بالأذان والإقامة قواه الملكية والملكوتية، واجتمعت عليه ملائكة الله، فعليه أن يجعل القلب، وهو أفضل قوى الظاهر والباطن وشفيع سائر القوى، إمامًا»[1].

وإذا أراد المصلّي لصلاته أن تكون معراجًا لملائكة الله التي تنشئ ملكوت العالم وتعمره، يجب عليه أن يحافظ على حضور القلب الذي هو إمام الملائكة. فما دام القلب حاضرًا ومتوجّهًا إلى معاني الصلاة تكون الملائكة مشغولة في عمارة الملكوت.

ولهذا يقول الإمام الخميني قدّس سرّه:

«وحيث إنّ القلب ضامن لقراءة المأمومين ووزرهم على عهدته، فلا بدّ له أن يحافظ عليه محافظة تامّة ويراقبه مراقبة جميلة لكي يحفظ الحضرة والحضور، ويقوم بأدب المقام المقدّس، ويغتنم هذا الاجتماع المقدّس، ويعظّم توجّه ملائكة الله وتأييدهم إيّاه، ويعرّفه من النّعم لوليّ النعمة الحقيقي، ويقدّم عجزه وقصوره عن شكر هذه النعم العظيمة إلى مقامه المقدس، إنّه وليّ النعم»[2].

وهكذا تتحوّل الصلاة إلى نعمة، بدل أن تكون في النفس كلفة ومشقّة. فما أعظم أن يجعل الله تعالى الملائكة أعوانًا في رحلة السير إلى الله! ولا يمكن أن تستمر هذه الحالة وتزداد إلّا بشكر هذه النعمة، لقوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[3].

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 156 - 157.
(2) م.ن، ص 157.
(3) سورة إبراهيم، الآية 7.

المفاهيم الرئيسة

1. الحيّعلات دعوات إلى الصلاة والفلاح.
2. تحمل كلّ دعوة معها معاني جليلة.
3. يقتضي الأدب التوجّه إلى ما تدعو إليه الحيّعلات.
4. الصلاة هي السعادة المطلقة.
5. الصلاة هي مقام القرب المطلق.
6. الصلاة هي مظهر الاسم الجامع.
7. الصلاة هي أعظم ثناء على الله تعالى.
8. لا يمكن الفرار من خطر المقام إلا بالاعتراف بالعجز والتقصير.

الدرس التاسع والعشرون

سرّ النية وآدابها

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يبيّن حقيقة النيّة ودورها في التوجّه إلى الغاية.
2. يشرح خطورة الوقوع في الوسوسة الشيطانيّة، ودورها في تخريب النيّة.
3. يتعرَّف إلى معالم الشخصية الوسواسية، وإلى كيفيّة التخلّص من الوسوسة.

تمهيد

كلّنا سمعنا الحديث القائل: «**إنّما الأعمال بالنيّات**»[1]. ولأنّ ليس للإنسان إلّا ما سعى، فإنّ طريق إصلاح السعي وجعله وسيلة للتكامل والوصول إلى الله يبدأ من إصلاح النية. فما هي النية؟ وماذا نحتاج من أمور لإصلاحها؟

يقعد الشيطان صراط الله المستقيم، ويسعى بكلّ ما أوتي من غواية أن لمنع الإنسان من إصلاح نيّته من خلال صدّه عن التفكّر في معنى النوايا.

وبدل أن يهتم مثل هذا الإنسان بما هو مطلوب منه، يصرف عمره الثّمين فيما لا طائل وراءه. وهذا النوع من الناس هو الذي يتّصف بالشخصية الوسواسية في مجال النية. فتراه مشغولًا طوال الوقت في تحصيل النية التي لا يمكن لأيّ إنسان أن يمتنع عنها في أيّ عمل، بدل إصلاحها من خلال إصلاح مقاصده وأهدافه. فما هي النية؟ وكيف نعمل على إصلاحها دون أن نقع بالوسوسة الشيطانية؟

النية وملازمتها للعمل الاختياري

يقول الإمام الخميني قدّس سرّه: «اعلم أنّ النيّة عبارة عن التّصميم والعزم على إتيان شيء، وإجماع النفس على إتيانه بعد تصوّره والتصديق بفائدته والحكم بلزوم إتيانه. وهي حالة نفسانية ووجدانية تنبعث بعد هذه الأمور، ونعبّر عنها بالهمّة والعزم والإرادة والقصد، وهي موجودة في جميع الأفعال الاختيارية، ولا يمكن تخلّف فعل اختياريّ عنها. وهذا الأمر موجود في تمام العمل حقيقة من دون شائبة مجاز.

---

(1) الطوسي، محمد بن الحسن، تهذيب الأحكام في شرح المقنعة، تحقيق حسن الموسوي الخرسان، طهران، دار الكتب الإسلامية، 1365هـ.ش.، ط 4، ج1، ص 83.

ولا يلزم أن تكون حاصلة في الذهن أثناء العمل أو في بدايته تفصيلًا، أو أن يتصوّر الفاعل هذا القصد والتصميم بالتفصيل، بل ربّما يحدث أن يأتي الإنسان بالعمل بذلك التصميم والعزم وهو ذاهل وغافل بالكلّية عن الصورة التفصيلية للعمل وعن التصميم. ولكن تلك الحقيقة موجودة، ويوجد العمل في الخارج بتحريكها كما هو واضح وجدانًا في الأفعال الاختيارية»[1].

فأصل النية في أيّ عمل هو أمرٌ قهريّ لا مفرّ منه، والاختياريّ فيها هو نوع القصد لا أصل القصد، أو طبيعة المقصد والغاية التي تولّد فينا الدافع للقيام بالفعل.

لا بدّ للإنسان من تصوّر لنتائج الأفعال الاختيارية التي يقوم بها. وقد يصبح هذا التصوّر بديهيًّا أو حاضرًا إلى الدرجة التي لا يلتفت معها إلى وجوده، لكنّه من المستحيل ألّا تتوجّه النفس أثناء القيام بأيّ فعل إلى مقصد ما من ورائه، يقول الإمام الخميني قدس سره: «وبالجملة، هذا التصميم والعزم الذي هو عبارة عن النيّة في لسان الفقهاء (رضوان الله عليهم) موجود في كلّ عمل بلا تخلّف، بحيث لو أراد أحد أن يوجد العمل الاختياري بدونه فهو غير ممكن»[2].

وسوسة الشيطان ودورها في تخريب النية

«ومع ذلك فإنّ وسوسة الشيطان الخبيث ودعابة الواهمة تسيطران على العقل وتعميان هذا الأمر الضروريّ على الإنسان المسكين، وعوضاً عن أن يصرف عمره الثمين لتحسين عمله وتخليصه وتنقيته من المفاسد الباطنية وقضائه في معارف التوحيد ومعرفة الحقّ وطلبه، يوسوس له إبليس الخبيث، ويقضي نصف عمره في أمرٍ ضروريّ وشيء واجب الحصول»[3].

وهذه الحالة هي التي تجعل الإنسان يفكّر فيما إذا كان قد نوى لهذا الفعل أو لا. فعند وقوفه للصلاة مثلًا، وكلما أراد التكبير للبدء بالصلاة يظنّ أنّه لم ينوِ للصلاة، فلا يقدر على التكبير. أو أنّه إذا كبّر يعود مجددًا ويعتبر أنّ تكبيره كان فاقدًا للنية.

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 167 - 168.
(2) م.ن، ص 168.
(3) م.ن.

وبالتأكيد، إنّ هذه الحالة اللاعقلانية نابعة من ضعف النفس المزمن وسيطرة إبليس على الإنسان يقول الإمام الخميني قدس سره:

«إنّ للشيطان حبائل ومكائد كثيرة؛ فيحمل البعض على ترك العمل من الأساس، والآخر على الرياء والعجب وسائر المفاسد إذا يئس من أنّه سيترك أصل العمل. وإذا لم ينجح في هذا الأمر يبطل عمله من خلال التظاهر بالقداسة حينما يوهن عبادات جميع الناس في نظره، ويصف له الناس بعدم المبالاة (بالدين)، ثمّ يلزمه أن يصرف كلّ عمره في النيّة، مثلاً، التي هي أمر ملازم للعمل أو في التكبيرة أو في القراءة التي هي كلّها من الأمور العادية ولا تحتاج إلى مؤونة، وفي النهاية لا يرضى عن الإنسان إلّا بعد أن يبطل عمله بإحدى الطرق المذكورة»[1].

فأحد مبادئ الوسوسة هو الكبر الذي قد ينشأ من شعور داخلي بالدونية.

الشخصية الوسواسية

هذا الإنسان المريض، ولكي يتعالى على عباد الله، يوهم نفسه أنّه شديد الاهتمام بالعبادة، وأنّ عبادة الآخرين ليس لها قيمة. ولكي يعبّر عن هذا الاهتمام الشديد، فإنّه يتشدّد بتحصيل النية، في حين أنّ الآخرين يتهاونون بها؛ لأنّهم ليسوا من أهل العبادة والقلب، يقول الإمام الخميني قدس سره:

«إنّ للوسواس شؤونًا كثيرة وطرقًا لا تُحصى، لا نستطيع الآن أن نبحث فيها كلّها ونستقصي جميع شؤونها، ولكنّ الوسوسة في النية لعلّها الأكثر أضحوكة والأعجب؛ لأنّه إذا أراد أحد ما أن يقوم بكلّ قواه وفي جميع عمره بأداء أمر واحد اختياري بدون نيّة لن يتمكّن أبداً. ومع ذلك، ترى مسكيناً مريض النفس وضعيف العقل يعطّل نفسه في كلّ صلاة مدّة مديدة لكي تحقّق صلاته النية والعزم! فمثل هذا الشخص كمن يتفكّر مدة مديدة لكي يحصل على النية للذهاب إلى السوق أو تناول الغداء.

فالصّلاة التي ينبغي أن تكون لهذا المسكين معراج قربه ومفتاح سعادته وبالتأدّب بآدابها القلبيّة والاطّلاع على أسرار هذه اللطيفة الإلهيّة يكمل ذاته ويدرك نشأة حياته، فهو يغفل عن كلّ هذه الأمور، بل لا يراها ضرورية، لا بل يعدّها كلّها باطلة، وينفق رأسماله العزيز في

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 168.

خدمة الشيطان وإطاعة الوسواس الخنّاس، ويجعل عقله الذي هو هبة الله ونور هدايته تحت سيطرة إبليس.

فعن عبدالله بن سنان، قال: ذكرت لأبي عبدالله عليه السلام رجلاً مبتلى بالوضوء والصلاة، وقلت: هو رجل عاقل، فقال أبو عبدالله عليه السلام: «**وأيّ عقل له وهو يطيع الشيطان**»؟! فقلت له: وكيف يطيع الشيطان؟ فقال: «**سله: هذا الذي يأتيه من أيّ شيء هو؟ فإنه يقول لك: من عمل الشيطان**»[1]،[2].

يقول الإمام الخميني قدس سره:

«فمن الممكن أن تكون عبادات الإنسان لمدّة أربعين سنة غير صحيحة، حتى بحسب الصورة، وتكون فاقدة لأجزائها الصورية الفقهية فضلًا عن الآداب الباطنية والشرعية.

وممّا يضحك الثكلى أنّ بعض هؤلاء الأشخاص المبتلين بالوسواس يعدّون أعمال جميع الناس باطلة ويحسبونهم غير مبالين بدينهم. مع أنّ هذا الوسواسيّ نفسه، إن كان مقلّدًا فمرجع تقليده هو أحد هؤلاء الناس؛ وإن كان من أهل الفضل (العلم) فليرجع إلى الأخبار ليرى أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأئمّة الهدى عليهم السلام أيضًا كانوا في هذه الأمور كمتعارف الناس.

فهذه الطائفة الوسواسية هي التي تعمل من بين جميع الناس على خلاف رسول الله والأئمّة المعصومين عليهم السلام وفقهاء المذهب وعلماء الدين، وتعدّ أعمال الناس جميعًا كلاً شيء، وأنّ عملها هي فقط موافق للاحتياط، وأنّها تبالي بالدين»[3].

إنّ المشكلة الكبرى في باب الوسوسة هي أنّ الشخص المبتلى بهذه الخصلة لا يكون مستعدًا للتفقّه في الدين، وهو لا يدري أنّه مخالف بالصراحة للأحكام الشرعية، ولو تأمّل قليلًا فيما يعنيه عمله، لما استمرّ عليه لحظة واحدة، ويقول الإمام الخميني قدس سره: «فمثلاً في باب الوضوء، تتواتر الأخبار التي بيّنت وضوء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وعلى الظاهر فإنّه صلى الله عليه وآله وسلم يصبّ غرفة من الماء على وجهه وغرفة على يمينه وغرفة على شماله، وقد قام إجماع فقهاء الإمامية على التحقيق بأنّ هذا الوضوء صحيح، وظاهر كتاب الله أيضًا كذلك. وقد استشكل

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج1، ص 12.

(2) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 168 - 169.

(3) م.ن، ص 169 - 170.

البعض في الغسل الثاني، بل الغَرفة الثانية، ولكنّ الغرفة الثانية، بل الغسل الثاني أيضًا لا بأس به وإن كان في استحبابه كلام، ولكنّ الغسل الثالث بدعة، ومبطل للوضوء بلا إشكال روايةً وفتوى.

فالآن، انظر إلى عمل الوسواسي المسكين، فهو لا يكتفي بعشرين غرفة تسبغ كلّ غرفة منها تمام اليد، وتُعدّ غسلة تامّة، فوضوؤه حينئذٍ باطل بلا إشكال. فهذا الشقيّ الضعيف العقل يرى هذا العمل الذي أتى به طاعة للشيطان ووسوسته، صحيحًا وموافقًا للاحتياط، ويرى أعمال سائر الناس باطلة. فمن هنا يُعلم وجه صدق الحديث الشّريف الذي عدّه بلا عقل. ويُعلم أنّ من يرى العمل الذي يخالف عمل رسول الله صحيحًا والعمل الذي يكون موافقًا لعمله ﷺ باطلًا، فهو إمّا خارج عن الدين، أو بلا عقل. وحيث إنّ هذا المسكين ليس بخارج عن الدين، فهو سفيه لا عقل له ومطيع للشيطان ومخالف للرحمن»[1].

علاج الوسوسة

فمن كان للأطهار معظّمًا ولهم متّبعًا لكفاه معرفة أحوالهم أن يقلع عن هذه الوسوسة. وبالإضافة إلى ذلك يحتاج الوسواسي إلى أن يعترف بأنّه في مشكلة. أجل، إنّ أكثر المصابين بهذا المرض يشعرون بحجم المشكلة التي يتسبّب بها له ولعياله ومن هم حوله. لكنّ أكثر هؤلاء يرون في الاستمرار بهذه المعاناة وسيلة لجلب الأنظار وتحصيل التعاطف، وهم غير مدركين أنّ التعاطف الذي ينشأ من الشفقة لا يدوم، يقول الإمام قدس سره: «وبالجملة، لا بدّ للإنسان أن يقتلع هذا الجذر بكلّ ما تيسّر له من الرياضة والكلفة، فإنّه يمنع الإنسان عن جميع السعادات والخيرات»[2]. وهذا العلاج بحسب كلام الإمام يتمركز في التفكّر، فيقول قدس سره:

«وليس لهذه المصيبة والداء العضال علاج سوى:

التفكّر في الأمور التي ذكرناها، ومقارنة عمله بعمل المتدينين والعلماء والفقهاء رضوان الله عليهم. فإن رأى نفسه مخالفاً لهم، فليرغم أنف الشيطان ولا يعتني بذاك الخبيث.

---

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 170.

(2) م.ن، ص 169.

فإذا وسوس له الشيطان بأنّ عملك باطل، يجيبه: إذا كان عمل جميع فقهاء الأمّة باطلًا، فليكن عملي أيضًا باطلًا.

فمن المرجوّ أنّه إذا خالف الشيطان مدّة، واستعاذ في ضمن هذا عاجزًا محتاجًا بالحقّ تعالى من شرّه، أن يزول هذا المرض وتنقطع عين طمع الشيطان عنه»[1].

«كما أنّه في الروايات قد ذُكرت هذه الطريقة لدفع كثرة الشكّ الذي هو أيضًا من إلقاءات الشيطان. ففي الكافي الشريف بإسناده إلى أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «**إذا كثر عليك السهو فامضِ على صلاتك؛ فإنّه يوشك أن يدعك، إنّما هو من الشيطان**»[2].

وفي رواية أخرى عن الباقر أو الصادق عليهما السلام، قال: «**لا تعوّدوا الخبيث من أنفسكم نقض الصلاة فتطمعوه؛ فإنّ الشيطان خبيث معتاد لما عوّد، فليمضِ أحدكم في الوهم ولا يكثرنّ نقض الصلاة؛ فإنّه إذا فعل ذلك مرّات لم يعد إليه الشكّ**»، قال زرارة: ثمّ قال: «**إنّما يريد الخبيث أن يُطاع، فاذا عُصي لم يعد إلى أحدكم**»[3].

وهذه من العلاجات المهمّة في جميع الأمور التي تكون من إلقاءات الشيطان ومن دعابات الواهمة الشيطانية، وفي الأحاديث الشريفة أدعية مناسبة أيضًا، فمن أرادها فليراجع الوسائل ومستدركها في أواخر كتاب الخلل»[4].

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 170 - 171.
(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج3، ص 359.
(3) م.ن، ص 358.
(4) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 171.

المفاهيم الرئيسة

1. إصلاح النية يكون بإصلاح التوجّه إلى الغاية.
2. من كانت غايته غير الغاية التي عيّنها اللّه، فلا تنفعه صلاته.
3. يتسلّط الشيطان على بعض الناس ليمنعهم من إصلاح نواياهم.
4. إحدى وسائل الشيطان هي في إشغال الناس بإنشاء النية.
5. لا يمكن أن لا ينوي الإنسان في أيّ عمل اختياري يقوم به.
6. بسبب ضعف العقل يظنّ بعضهم أنّ عليهم الاشتغال في تحصيل النية.
7. يسمّى هذا المبتلى بالوسواسي.
8. تؤدّي الوسوسة إلى تدمير روح الإنسان.
9. تنشأ الوسوسة من الكبر ومن أمراض أخرى.
10. علاج الوسوسة أن يعلم الإنسان أنّه تحت سيطرة إبليس.

الدرس الثلاثون

الإخلاص

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يتعرَّف إلى معنى الاخلاص ويحدّد معياره.

2 . ويميّز بين الإخلاص الذاتيّ والإخلاص العمليّ.

3 . يدرك خطورة إنكار المقامات، ويتعرّف إلى أصناف المنكرين وعلاماتهم.

تمهيد

لمّا كان الهدف الأسمى من وراء النية هو تخليصها وتصفيتها، فالجدير بمن كان له اطّلاع على أحواله القلبيّة أن ينهض لإصلاح باطنه بدءا من إصلاح نواياه.

فالنوايا هي مبدأ الأعمال قاطبة، وهي الموجّه لكلّ حركة، وعلى أساسها تكون الأعمال.

وكلّ أثر للأعمال إنّما يحصل بحسب النية. وبحكم أنّ اللّه ينظر إلى قلوبكم لا إلى صوركم، فإنّ ما يعنيه تعالى هو باطن العمل لا ظاهره.

وقد حدّد اللّه تعالى معنى صلاح النية وحسنها، بأن تكون الغاية من وراء العمل والدافع إليه هو ذاته سبحانه وتعالى.

وأيّ شيء آخر سوى ذاته لا قيمة له عند اللّه، مهما بلغ من الفضل، وهل هناك من قيمة لغير اللّه؟

ونحن نقول: «إلهي، ماذا وجد من فقدك؟ بل ماذا فقد من وجدك؟»[1].

إنّ معنى «أنّ ذات اللّه هي الغاية» هو أمر عميق، لا يمكن فهمه إلا على ضوء المعارف التوحيدية الحقّة.

كما أنّ إمكانية الوصول إلى هذا المعنى والتحقّق به في النفس موقوفة على أن يعرف الإنسان نفسه ويرجع إلى فطرته.

فالذين قالوا باستحالة الإخلاص بذاك المعنى، لم يلتفتوا إلى أنّ هذا السرّ مودع في قلب الإنسان وفطرته، بل هو من أهم لوازم ذاته، كالنطق والفكر وأمثالها.

إنّ عبادة اللّه، لأنّه اللّه بعيدًا عن أيّة فائدة دنيوية أو أخروية، مادية أو معنوية، أمر قد

---

(1) راجع: العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج95، ص226.

استودع في أعماق الفطرة. وليس على عباد اللّه إلا أن يسعوا لتطهير فطرتهم من شوائب التوجّهات المنحرفة، حتى تظهر لهم هذه الحقيقة ويعيشوها بقلوبهم ووعيهم.

معنى الإخلاص

وكم هو مناسب أن نتعرّف إلى معنى الإخلاص ممّن صار مثالًا للإخلاص في وجوده وعمله وكلامه وسيرته، يقول الإمام الخميني قدس سره: «من مهمّات آداب النية، وهو في الوقت نفسه من مهمّات جميع العبادات، ومن المقررات الكلية الشاملة: الإخلاص.

وحقيقته هي:

تصفية العمل من شائبة سوى اللّه،

وتصفية السرّ عن رؤية غير الحقّ تعالى في جميع الأعمال الصورية واللبّية والظاهرية والباطنية.

وكمال الإخلاص ترك الغير مطلقاً، وجعل الإنّيّة والأنانية والغير والغيرية تحت القدمين»[1].

الفرق بين الإخلاص في العمل والإخلاص في الذات

فذكر الإمام إخلاص العمل وإخلاص الذات؛ فالأول يقتضي أن لا يعمل المخلص عملاً إلا إذا كان مطابقاً لما يريده اللّه ويحدّده في ش رعه وأحكامه، والثاني يعني أن يُشهد العبد ربّه تعالى في كلّ شيء؛ لأنّه على كلّ شيء شهيد (أي مشهود)، وقال قدس سره:

«وقد نسب الإخلاص ههنا إلى عين العبد لا إلى فعله، وهذا مقام فوق الإخلاص في العمل. ولعلّ المراد من الحديث النبوي المعروف: «**من أخلص لله أربعين صباحا جرت ينابيع الحكمة من قلبه إلى لسانه**»[2]، هو الإخلاص بجميع مراتبه، أي الإخلاص العملي والصفتي والذاتي، ولعلّه ظاهر في الإخلاص الذاتي، وأمّا بقيّة مراتب الإخلاص فهي من لوازمه»[3].

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 171.
(2) راجع: العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج67، ص242.
(3) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 173.

هناك فرق بين الإخلاص العملي والإخلاص أو الخلوص الذاتي. ففي الأول يكون السالك في مقام تخليص العمل من كلّ شوائب الهوى، ولا يعمل عملاً إلا إذا كان موافقاً للتكليف الشرعي، ولا يقدّم في هذا المجال رضا المخلوقين على رضا الخالق؛ أمّا في الإخلاص الذاتي، فإنّ الله تعالى هو الذي يستخلصه لنفسه ويجعله مرآةً لظهور آياته. وهذا العبد لا يكون في وجوده نيّة أو إرادة أو طمع إلا ما أراده الله وأحبّه.

ولهذا الإخلاص كمال يتمثّل في عدم بقاء أيّ حظّ للأنانية وحبّ الذات، بل عدم بقاء أيّة شائبة من رؤية الاستقلال في الوجود وكمال الوجود، سواء في النفس أو الغير، يقول الإمام الخميني قُدِّسَ سِرُّهُ:

«قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾[1]؛ أي إنّ الله تعالى قد اختار لنفسه الدين الخالص، فإذا كان لشيء من الحظوظ النفسانية والشيطانية دخل في الدين فلا يكون خالصًا، وما ليس بخالص فإنّ الله لم يختره، وما كانت فيه شائبة الغيرية والنفسانية فهو خارج عن حدود دين الحقّ، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[2]... وقال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾[3]. وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم – على ما نقل –: «**لكلّ امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه**»[4].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[5]، ويمكن أن تكون هذه الآية المباركة متكفّلة لجميع مراتب الإخلاص:

إحداهما: الهجرة الصورية التي تقع بالبدن، وهذه الهجرة إذا لم تكن خالصة لله ورسوله، بل كانت للحظوظ النفسانية، فليست هجرة إلى الله ورسوله، وهذه هي مرتبة الإخلاص الصوريّ الفقهيّ.

---

(1) سورة الزمر، الآية 3.
(2) سورة البينة، الآية 5.
(3) سورة الشورى، الآية 20.
(4) راجع: الميرزا النوري، مستدرك الوسائل. ج1، ص90.
(5) سورة النساء، الآية 100.

والثانية: الهجرة المعنوية، والسفر الباطني الذي مبدؤه البيت المظلم للنفس، وغايته الله تعالى ورسوله والذي يرجع بدوره إلى الحق أيضًا؛ لأنّ الرسول بما هو رسول ليس له استقلال، بل هو آية ومرآة وممثّل. فالهجرة إليه هجرة إلى الحقّ (حبّ خاصّة الله هو حبّ الله).

فحاصل معنى الآية الشريفة بحسب هذا الاحتمال، هو أنّه من هاجر بالهجرة المعنوية وسافر بالسفر القلبي العرفاني وخرج من بيت النفس ومنزل الأنانية وهاجر إلى الله من دون رؤية نفسه ونفسانيته وحيثيّته، فجزاؤه على الحقّ تعالى»[1].

أهمّ مانع للإخلاص

وهنا نتساءل عن أهمّ مانع للإخلاص، والذي هو أصل ومنبع جميع الموانع، فيجيب الإمام قدس سره قائلًا: «وإذا كان السّالك في سلوكه إلى الله طالبًا لحظٍّ من الحظوظ النفسانية، ولو كان الوصول إلى المقامات بل ولو كان الوصول إلى قرب الحقّ بمعنى وصول نفسه إلى الحقّ، فليس هذا السلوك سلوكًا إلى الحقّ، بل السالك لم يخرج بعد من البيت، بل هو مسافر في جوف البيت من ركنٍ إلى ركن ومن زاوية إلى زاوية.

فالسّفر إذا كان في مراتب النّفس وللوصول إلى الكمالات النفسانيّة فليس بسفر إلى الله، بل هو سفرٌ من النفس إلى النفس»[2].

إنّ الله تعالى يحبّ لنا ويريدنا أن نطلب منه كلّ خير حتى لو كان في الدنيا. لكن طلب الخير منه شيء، وجعل هذا الخير هدفًا ومقصدًا من وراء العبادة شيء آخر. الأول ممدوح، والثاني مذموم؛ لأنّه يبدّل وجهة السير.

إنّ طلب الخيرات والكمالات والمقامات ينبغي أن يكون امتثالًا لأمر الله تعالى، ولأنّ الله عزّ وجلّ يحبّها لنا، لا لأجل تعظيم النفس ورفعتها.

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 171 - 172.
(2) م.ن، ص 172 - 173.

إمكانية حصول الإخلاص الحقيقي

عندما يتأمّل الإنسان في نفسه أثناء سعيه الحثيث لتحقيق الإخلاص في نيّته وتوجّهاته، غالبًا ما يشاهد أنّه كلّما خرج من طلب حظٍّ من حظوظ النفس، فإنّه يكون قد وقع في آخر. ولعلّ هذا الأمر غالبًا ما يؤدّي إلى اليأس والقنوط. بينما ينبغي أن يفهم السالك عكس هذه الحالة، ويعلم بأنّه من الطبيعي أنه أثناء سيره المعراجيّ وسلوكه التكاملي الابتلاء بطلب حظوظ النفس، والذي هو في الواقع عبارة عن مشاهدة عمق الاحتجاب؛ لهذا يقول الإمام الخميني قدس سره: «ولكن لا بدّ للسالك من هذا السفر أثناء سفره إلى الله، ولا يقدر أحد أن يسافر السفر الرباني من دون السفر النفساني غير الكمّل من أولياء الله، وهذا الشأن للكمّل فقط، ولعلّ الآية الشريفة: ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾[1]، تشير إلى هذه السلامة من التصرّفات الشيطانية والنفسانية في جميع مراتب السير، في الليالي المظلمة الطبيعية التي هي ليلة القدر للكمّل حتى طلوع فجر يوم القيامة الذي هو للكمّل رؤية جمال الأحدية، وأمّا غيرهم فليسوا سالمين في جميع مراتب السير، بل في أوائل الأمر لا يخرج أيّ سالك من التصرّفات الشيطانية.

فقد عُلم أنّ هذه المرتبة من الإخلاص؛ أي السلامة من أول مراتب السير إلى الله إلى آخرها، وهي حصول الموت الحقيقي، بل إلى ما بعد الحياة الثانوية الحقّانية، وهي الصحو بعد المحو، لا تتيسّر لأهل السلوك العاديين من أصحاب المعرفة والرياضة»[2].

لا يحصل الإخلاص الحقيقي بمجرّد تصوّره واستحضار معناه في النفس، وإن كان لهذا التصوّر والتصديق به مدخلية مهمّة في هذا المجال، فإنّ التحقّق بالإخلاص الذي يعني اتّحاد النفس بحقيقة التوحيد، يتطلّب سعيًا وجدًّا ومجاهدة، قد تتطلّب العمر كلّه.

وكثيرًا ما يحدث عند التفكّر في هذه المعاني وخصوصًا أثناء حالة الفراغ من البلاءات أن يظنّ السالك نفسه قد قطع مراحل الإخلاص، وهو لا يدري أنّه واقع في التصوّر.

---

(1) سورة القدر، الآية 5.

(2) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 173.

علامات الإخلاص

لهذا، يجب أن نتعرّف إلى علامات الإخلاص ونبحث عنها في أنفسنا، فإن كانت موجودة فلنشكر الله، وإلّا فعلينا ألّا ندع المجاهدة مهما كلّف الأمر. وخصوصًا أنّ المطلوب النهائيّ هو إخلاص الذات أو تخليص القلب من التوجّه إلى غير الله؛ لأنّه الشيء الوحيد الذي ينفع يوم لا ينفع مال ولا بنون.

يقول الإمام الخميني قدس سره:

«وعلامة هذا النحو من الخلوص هي أنّه لا سبيل لغواية الشيطان إليهم وطمع الشيطان مقطوع عنهم تماما؛ كما قال تعالى في الآية الشريفة ناقلاً عن ذاك الخبيث: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[1]»[2].

وعند التأمّل في الآيات التي ذكرت المخلصين بصيغة المفعول - أي بفتح اللام - يمكن أن نستنتج منها أنّ الوصول إلى هذا المقام لا يكون بالمجاهدة، وإنّما يأتي بعد المجاهدة. فكأنّ السالك المجاهد بعد أن يصل إلى الإخلاص العملي ويستقرّ في هذا المقام يأتي الخلوص من الله تعالى؛ أي يستخلصه الله لنفسه.

فيكون له الخلاص من غواية الشيطان؛ لأنّه صار في كنف الله وحصنه الحصين، ويعفى من الاستحضار يوم الحساب، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۝١٢٧ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[3]. ولا يكون ذلك إلا من جهة أنّ المخلص قد أنهى حساب نفسه قبل الحساب.

خطورة إنكار مقامات الإخلاص

لمّا كان الإخلاص بهذا المعنى عميقًا جدّا ويتطلّب فهمه إدراك العديد من المفاهيم التوحيدية الوجودية، فإنّ هناك أقوام ينكرونه لأنّهم لا يتكيّفون مع عمق المفاهيم الدينية، ويصرّون على اعتبار الدين مجموعة من الطقوس والشعائر والمفاهيم العرفية؛ ولهذا نهض الإمام الخميني لمواجهة هذا الفكر والتحذير من خطورته، فقال قدس سره: «إذا علمت من مراتب الإخلاص ومقامات العبادات شيئًا، فتهيّأ لتحصيلها؛ فإنّ العلم بلا عمل لا قيمة

---

(1) سورة ص، الآيتان 82 – 83.

(2) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 173.

(3) سورة الصافات، الآيتان 127–128.

لـه والحجّـة على العالم أتمّ ومحاسـبته أكثر. وللأسـف، نحن محرومـون تمامًا من المعارف الإلهيّة والمقامات المعنوية لأهل الله والدرجات العليا لأصحاب القلوب»[1].

«... ولعمر الحبيب ليس لي غاية من هذا الكلام إلّا أن ينتبه الإخوة الإيمانيون، وخصوصًا أهل العلم، فلا ينكرون على الأقلّ مقامات أهل الله؛ لإنّ هذا الإنكار منشأ جميع الشقاوات. وليس مقصودنا أن نبيّن من هم أهل الله، بل مقصودنا ألّا ننكر المقامات؛ وأمّا من هو صاحب هذه المقامات؟ فالله يعلم، وهذا أمر لا يطّلع عليه أحد (من كان عنده خبر فليس عنه خبر)»[2].

أنواع المنكرين ومرضى القلوب

يـؤدّي التعامـل السـلبيّ مع المقامات المعنوية إلى حرمان الإنسـان مـن الحياة المعنوية. وتبدأ هذه الحالة بصورة مرض وتنتهي إلى موت القلب وفقدان فرصة الحياة بعدها. فالذين ماتـت قلوبهـم لا يرجـى لهم أيّة حياة، بعـد أن أعطوا فرصة الحياة. وهنـاك من هو مريض، لكنّـه لا يـدري أنّه مريض، وهناك من علم أنّـه مريض، لكنّ حبّه لبطنه وشـهواته يمنعه من تنـاول الـدواء المـرّ. ومنهم مـن هو مريض، لكنّه يظنّ نفسـه طبيباً، ومنهـم المرضى الذين يرجعون إلى الطبيب، لكنّهم يكتفون من وصفته بحفظ اسم الدواء وتركيبته.

ويفصّـل الإمـام الخمينـي فـي الحديث عن هـذه الطوائف المنكـرة للمقامـات والحقائق المعنوية وما أصابهم جرّاء ذلك من مرض القلب، فيقول قدس سره:

1. الموتى:

«فطائفـة منّـا تنكر المقامات كلّهـا، وترى أهلها على الخطأ والباطل والبطالة، وتحسـب من يذكرهم بشيء أو يدعو إلى مقاماتهم شاعراً ودعوته شطحا.

ولا يُرجى لهذه الطائفة أن تلتفت إلى نقصها وعيبها أو تستيقظ من نومها الثقيل، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[3]، ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾[4]»[5].

فهؤلاء هم الموتى في عالم الحياة المعنوية.

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 177.
(2) م.ن، ص 178.
(3) سورة القصص، الآية 56.
(4) سورة فاطر، الآية 22.
(5) م.ن، ص 177.

2.المؤوّلون:

«نعم، إنّ الذين هم كالكاتب المسكين ليس عندهم خبر عن شيء، وليست قلوبهم حيّة بحياة المعرفة والمحبة الإلهيّة هم أموات، غلاف أبدانهم هي قبورهم البالية، وقد حجبهم غبار هذا الجسم ومضيقة البدن المظلم عن جميع عوالم النور، و ﴿نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾[1]، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[2] هذه الطائفة، كلّ ما يقرأ عليهم من الحديث والقرآن في المحبّة والعشق الإلهين وحبّ اللقاء والانقطاع إلى الحقّ يقومون بتأويله وتوجيهه ويفسّرونه طبق آرائهم؛ فيوجّهون كلّ آيات اللقاء وحبّ الله بلقاء أشجار الجنّة ونسائها الجميلة.

ولا أدري ماذا يفعل هؤلاء بفقرات المناجاة الشعبانية، حيث يقول: «**إلهي، هب لي كمال الانقطاع إليك، وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك، حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور، فتصل إلى معدن العظمة، وتصير أرواحنا معلّقة بعزّ قدسك. الهي، واجعلني ممّن ناديته فأجابك، ولاحظته فصعق لجلالك**»[3].

فما هذه الحجب النورانية؟ وهل المراد من النظر إلى الحقّ النظر إلى إجاص الجنّة؟ وهل معدن العظمة هو قصور الجنّة؟ وهل تعلّق الأرواح بعزّ القدس هو التعلّق بذيل حور العين لقضاء الشهوة؟... هل هذا الصعق والمحو من الجلال هو المحو في جمال نساء الجنة؟ وتلك الجذبات والأغشية التي حصلت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في صلاة المعراج ومشاهدته لأنوار العظمة وما فوقها في محفل ما، كان أعظم ملائكة الله الأمين جبرائيل محرّماً لسرّه، ولم يتجرّأ على التقدّم فيه قيد أنملة، هل كانت مشاهدة جذبة إحدى النساء الحسان في الجنة؟! أو أنّه صلى الله عليه وآله وسلم كان يرى أنواراً كنور الشمس والقمر أو أشدّ منهما؟! والقلب السليم الذي ذكره المعصوم عليه السلام في ذيل قوله تعالى ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[4]، والسليم قلب لقي الله وليس فيه سواه، هل المقصود فيه من غير الحقّ هو غير كرامة الحقّ؟ أي ألا يكون فيه غير أجاص الجنة ومشمشها؟»[5].

(1) سورة النور، الآية 35.
(2) سورة النور، الآية 40.
(3) ابن طاووس، علي بن موسى، إقبال الأعمال، طهران، دار الكتب الإسلامية، 1409 هـ، ط 2، ج2، ص 687.
(4) سورة الشعراء، الآية 89.
(5) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 177 - 178.

«وهؤلاء كمرضى لا يصدّقون وجود المرض الكذائي والمريض الكذائي، ومع أنّهم مبتلون بالمرض ينكرون أصل المرض»[1].

3. أهل الدنيا:

«وطائفة أخرى هم الذين لا ينكرون مقامات أهل المعرفة، ولا يعاندون أهل الله، ولكنّ الاشتغال بالدنيا وتحصيلها والإخلاد إلى لذاتها الفانية منعهم من الكسب العملي والعلمي والذوقي والحالي.

فمثَلهم كمرضى يعرفون مرضهم، ولكنّ بطونهم لا تدعهم يقدمون على الحمية وشرب الدواء المرّ»[2].

4. أهل العلم الاصطلاحي:

«وطائفة أخرى هم الذين اشتغلوا بالكسب العلمي، واشتغلوا بتحصيل المعارف علمًا، ولكنّهم اكتفوا من حقائق المعارف ومقامات أهل الله بالاصطلاحات والألفاظ والعبارات المزركشة، فقيّدوا أنفسهم وجمعًا من المساكين في سلسلة الألفاظ والاصطلاحات، واقتنعوا من جميع المقامات بالمقالات.

ويوجد ضمن هؤلاء زمرة يعرفون أنفسهم، ولكنّهم لأجل الترؤّس على عدّة مساكين جعلوا هذه الاصطلاحات الفارغة وسيلة لكسب المعيشة، وأقبلوا على اصطياد القلوب الصافية لعباد الله بالألفاظ الخادعة والأقوال المنمّقة. هؤلاء شياطين من الأنس وليس ضررهم بعباد الله بأقلّ من إبليس، هؤلاء المساكين لا يدرون أنّ قلوب عباد الله منازل الحقّ تعالى ولا يحقّ لأحد التصرّف فيها، فهم غاصبو منزل الحقّ ومخرّبو الكعبة الحقيقية، ينحتون أصنامًا ويضعونها في قلوب عباد الله التي هي الكعبة، بل هي البيت المعمور. هؤلاء مرضى، وقد أظهروا أنفسهم في زيّ الطبيب، ويبتلون عباد الله بالأمراض العديدة المهلكة.

وعلامة هذه الطائفة أنّهم يعتنون بإرشاد الأغنياء والأكابر أكثر من إرشاد الفقراء والمساكين، فأكثر مريديهم من أرباب الجاه والمال، وهم بأنفسهم أيضًا في زيّ الاغنياء

---

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 179.

(2) م.ن، ص 178 - 179.

وأرباب الجاه والمال، ولهؤلاء القوم كلمات خدّاعة، يطهرون أنفسهم عند مريديهم، مع أنّهم في نفس الوقت متلوّثون بآلاف القذارات الدنيوية، ويرون أنفسهم في أعينهم من أهل الله. وأولئك المساكين البلهاء (أي المريدون) أيضًا يغضّون أبصارهم عن جميع عيوبهم المحسوسة، ويفرحون بالاصطلاحات والألفاظ الفارغة»[1].

«وهناك من هم في هذه الطائفة وليسوا بمخادعين، بل سلّاك طريق الآخرة، وهم في صدد تحصيل المعارف والمقامات، ولكن قد حصل أنّ الشيطان القاطع للطريق غرّهم فاغترّوا وحسبوا أنّ المعارف والمقامات في الحقيقة عبارة عن الاصطلاحات العلمية التي صنعوها أو استفادوها من صناعة غيرهم، فهم أيضًا قد أنفقوا نقد شبابهم وأيّام حياتهم إلى آخر عمرهم في تكثير الاصطلاحات وضبط الكتب والصحف، كطائفة من علماء تفسير القرآن الذين يرون أنّ الاستفادة من القرآن منحصرة في ضبط اختلافات القراءات ومعاني المفردات وتصاريف الكلمات والمحسّنات اللفظية والمعنويّة ووجوه إعجاز القرآن والمعاني العرفية واختلاف أفهام الناس فيها وجمعها، ويغفلون بالكلّية عن دعوات القرآن وجهاته الروحية ومعارفه الإلهيّة.

فهؤلاء أيضًا كمريض رجع إلى الطبيب وأخذ وصفة دوائه، لكنّه رأى علاج نفسه في ضبط النسخة وحفظها وكيفية تركيباتها؛ فهؤلاء يقتلهم المرض ولا ينتج لهم العلم بالوصفة والرجوع إلى الطبيب نتيجة أصلاً»[2].

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 179.
(2) م.ن، ص 180 - 181.

المفاهيم الرئيسة

1. الشرط الأول لقبول الأعمال هو الإخلاص.
2. الإخلاص هو التوجه الصحيح نحو الهدف المنشود.
3. حدّد اللّه الهدف من وراء كلّ عمل وعبادة، وهو ذاته.
4. جبل اللّه الناس على الإخلاص.
5. أكثر الناس نسوا هذه الفطرة فيهم.
6. يحتاج السالك إلى رياضة ومجاهدة لاستعادة فطرة التوحيد.
7. الإخلاص مقام معنوي شامخ وسرّ إلهي عظيم.
8. يفتح البحث عن الإخلاص باب المعاني والمقامات العظيمة.
9. ينكر الكثيرون هذه المقامات بطرق مختلفة.
10. أسوأ ما يمكن أن يقع فيه الإنسان إنكار المقامات المعنوية.

الدرس الواحد والثلاثون

مراتب الإخلاص

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يتعرَّف إلى مراتب الإخلاص التي يقطعها السالك للوصول إلى مقام الخلوص.
2. يذكر مراتب الشرك ومنشأه.
3. يبيّن كيفيّة العلاج في كلّ مرتبة من مراتبه.

تمهيد

إنّ الوصول دفعة واحدة إلى الإخلاص الكامل لمن كان محجوبًا أمر نادر الحدوث، ولا ينبغي التعويل وترك المجاهدة لتحصيله، كأن يجلس السالك ويصرّ على الدعاء حتى يبلغه؛ لهذا يحتاج السالك إلى عبور مراتب المجاهدة ومراحل التصفية حتى يصل إليه. ولأنّ العمل هو أول ما يظهر من باطن النفس، فإنّ تصفيته من شوائب عدم الإخلاص تعدّ المرحلة الأولى على هذا الطريق.

والعامل الذي يشقّ طريق الحياة بالسعي والجدّ، ويرى العمل سبيلاً للوصول إلى مرضاة الله، عليه أن يعلم أن عمله لن يوصله إلى الغاية النهائية ما لم يخلصه من الدوافع التي تنشأ من حب النفس والأنانية وطلب حظوظها.

مثل هذا الجهاد قد يتطلّب عبور مراتب عدّة؛ فمع كلّ مرتبة يكتشف السالك أن نفسه كانت تخفي دوافع لم تكن تخطر على باله.

كثيرة هي الحظوظ التي تحلم بها النفس. وكلّ حظ له إغراءاته التي تشكّل تلك الدوافع، وما لم يتمكّن السالك من تحقيق الخلاص التامّ من رؤية النفس لن يكتب له الإخلاص.

وإنّ جميع الحجب مجتمعة هي كصخرة يريد الإنسان أن يحطّمها. فمع كل ضربة - أي مرحلة - يفتّت منها شيئًا ويتصدّع. فالذي يسير نحو خرق الحجاب الأعظم يزيل كلّ مرة درجةً منه.

مراحل السير نحو الإخلاص

للوصول إلى الإخلاص الحقيقيّ، يجب تصفية العمل من شوائب الدوافع التي لا تتمحّض مع إرادة اللّه تعالى.

إنّ اللّه عزّ وجلّ أراد لعبده أن يكون مرآة صافية تنعكس منها أنوار أسمائه وصفاته. وعلى العبد إذا أراد أن يكون مخلصًا أن يتوجّه إلى هذه الحقيقة دومًا ويطلبها بالقلب والروح من خلال رفض كلّ ما سواها.

ولا شكّ بأنّ كلّ سالك على طريق الإخلاص، سوف يعبر المقامات. وفي كلّ مقام سيكون له نصيب وحظّ كبير من الكمال. فإن أعجبه ذلك ورضيه لنفسه وركن إليه، فهذا يعني أنّه لم يكن منذ البداية طالبًا لما أراده اللّه، أو أنّه قد تخلّى عن مقصده الأسمى ونسي ما كان عليه.

ما من سالك إلّا وسيُمتحن على طريق الإخلاص، ولن يكون اطّلاعنا على بواطن أنفسنا وما نضمره في نوايانا أمرًا صعبًا.

فما هي مراتب التصفية؟ وكيف يعبر السالك المراتب للوصول إلى الإخلاص الحقيقيّ؟

يقول الإمام الخميني قدس سره:

1. المرتبة الأولى:

«فإحدى مراتبه: تصفية العمل، قلبيًّا كان أم قالبيًّا، من شائبة رضا المخلوق وجذب قلوب المخلوقين، سواء كان للمحمدة أو المنفعة أو لغيرها، وفي مقابل هذه المرتبة أداء العمل رياءً، وهذا هو الرّياء الفقهيّ، وهو أحطّ وأدنى مراتب الرياء، وصاحبه أرذل المرائين وأخسّهم»[1].

الرياء الفقهي هو الذي يبطل العمل، ويستلزم إعادته. ومع هذا الرياء فإنّ العمل لا يكون مقبولًا عند اللّه، ولا يرفع صاحبه إلى اللّه.

2. المرتبة الثانية:

«المرتبة الثانية: تصفية العمل عن تحصيل المقاصد الدنيويّة والمآرب الزائلة الفانية، وإن كان الدّاعي أنّ اللّه تعالى يعطيها بواسطة هذا العمل، كإتيان صلاة الليل لتوسعة الرزق

(1) الخميني، روح اللّه الموسوي، معراج السالكين، ص 174.

وإتيـان صلاة أول الشـهر للسـلامة من الآفـات في ذلك الشـهر وإعطاء الصدقـات للعافية، وسائر المقاصد الدنيوية. وقد عدّ بعض الفقهاء (عليهم الرحمة) هذه المرتبة من الإخلاص شـرطًا لصحّـة العبـادة، فيما إذا كان إتيـان العمل للوصول إلى ذلـك المقصود. وهذا الرأي خلاف التحقيق حسب القواعد الفقهية، وإن كانت هذه الصلاة عند أهل المعرفة لا قيمة لها أصلًا وهي كسائر المكاسب المشروعة، بل لعلّها تكون أقلّ منها أيضًا»[1].

لكـي تكـون العبـادة خالصة لله، ينبغي أن يكـون المقصد الوحيد فيها هـو الله. فإذا كان الدافـع منهـا هو تحصيل الفوائد الدنيوية، فلا تكون لله. لكنّ هذا الدافع لا يسـتوجب إعادة الصلاة بحسب رأي الإمام قدس سره.

أجـل، إنّ مـن يقـوم ببعض العبادات امتثالاً لأمر الله تعالـى وتحرّكاً نحو ما يريده الله له، فليسـ خارجاً عن الإخلاص. فمن تحرك في العبادة لنيل المقاصد الدنيوية، لأنّ الله يريده أن يتحرّك نحوها، ويصل إليها، فهو المخلص إن شـاء الله. وإن كان للنفس في هذا المجال مكائد وحبائل يفضّل عندها إساءة الظنّ وعدم الركون إلى ما تقدّمه لنا من أعذار البراءة.

وعلامة الإخلاص في هذا المجال ألّا يختلف نشاط العابد في العبادة التي يؤدّيها امتثالاً لأمـر الله، سـواء اطّلع على فوائدهـا الدنيوية أو لم يطّلع؛ لأنّ المخلص هدفه الامتثال، وقد تحقّق الامتثال عنده في كِلا الحالين.

3. المرتبة الثالثة:

«المرتبة الثالثة: تصفيته عن الوصول إلى الجنّات الجسـمانية والحور والقصور وأمثالها مـن اللذات الجسـمانية، وفـي مقابلها عبادة الأُجراء كما في الروايات الشـريفة، وهذا أيضًا في نظر أهل الله كسائر المكاسب؛ إلّا أنّ أجرة عمل هذا الكاسب أكثر وأعلى إذا قام بالأمر وخلّصه من المفسدات الصورية»[2].

إنّ طلـب الحظـوظ الأخرويـة كدافع للنفسـ، وإن كان فـي التصوّر ممكنـاً، لكنّه في مقام الواقـع بعيـد؛ فمن الصعب أن يكون المرء طالبا للحظوظ الأخروية وهو لا يؤمن بالله تعالى.

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 174.

(2) م.ن، ص 175.

ومثل هذا الارتباط بين خيرات الآخرة ومعطيه وصاحبها الأصلي أمر لا مفرّ منه؛ لهذا يصعب كثيرا أن يندفع الإنسان نحو كمالات الآخرة بمعزل عن الله تعالى.

ولو كان الإنسان طالبا لهذه الكمالات على مستوى الدافع، فإنّه يوشك أن يستبدل ذلك عما قريب بطلب صاحبها.

ولا شكّ بأنّ الله يريد لنا أن نطلب منه كلّ خير، ولا شكّ بأنّ خيرات الآخرة الدائمة الباقية أعظم شأنا عنده تعالى، فحريّ بنا أن نطلبها منه ليل نهار.

4. المرتبة الرابعة:

«المرتبة الرابعة: أن يصفّي العمل من خوف العقاب والعذاب الجسماني الموعود، وفي مقابلها عبادة العبيد كما في الروايات، وهذه العبادة أيضًا في نظر أصحاب القلوب لا قيمة لها وخارجه عن نطاق العبودية لله.

ولا فرق في نظر أهل المعرفة أن يعمل الإنسان عملاً من خوف الحدود والتعزيرات في الدنيا أو خوف العقاب والعذاب الأخروي، أو للوصول إلى نساء الدنيا أو الحصول على نساء الجنة... فالعمل فيها كلّها ليس لله، والداعي لهذا الأمر يُخرج العمل عن البطلان الصوري طبقا للقواعد الفقهية؛ ولكن ليس لهذا المتاع قيمة في سوق أهل المعرفة»[1].

ما دام الأمر ناشئًا من طلب حظوظ النفس، فهو ليس لله تعالى، بمعزل عن بطلان العمل ووجوب إعادته أو لا.

5. المرتبة الخامسة:

«المرتبة الخامسة: تصفية العمل من الوصول إلى السعادات العقلية واللذّات الروحانية الدائمة الأزلية الأبدية، والانسلاك في سلك الكروبيين، والانخراط في زمرة العقول القادسة والملائكة المقرّبين، وفي مقابلها العمل لهذا المقصد. وهذه الدرجة، وإن كانت درجة عظيمة وهدفاً عالياً ومهمّاً، والحكماء والمحقّقون يهتمّون بهذه المرتبة من السعادة اهتماماً كبيراً ويرَون لها قيمة، ولكن في مسلك أهل الله هذه المرتبة أيضًا هي من نقصان السلوك،

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 175.

وسالكها أيضًا يعدّ كاسباً ومن الأجراء، وإن كان يختلف عن غيره في المتجر والمكسب»[1].

وهذا يعني أنّ حظوظ النفس لا تتحصر في إطار الماديات والمشتهيات. فللنفس في المقامات العالية حظوظ لا يمكن لأهل الدنيا أن يعرفوا عنها شيئًا.

6. المرتبة السادسة:

المرتبة السادسة: هي في إزاء هذه المرتبة، وهي تصفية العمل من خوف عدم الوصول إلى هذه اللذّات والحرمان من هذه السعادات، وفي مقابلها العمل لهذه المرتبة من الخوف، وهذه أيضًا وإن كانت مرتبة عالية وخارجة عن حدّ اشتهاء أمثال هذا الكاتب، ولكنّها أيضا في نظر أهل اللّه عبادة العبيد. وهي عبادة عليلة»[2].

7. المرتبة السابعة:

«المرتبة السابعة: تصفية العمل من الوصول إلى لـذّات جمال اللّه والوصول إلى بهجات أنوار السبحات غير المتناهية، وهي جنّة اللقاء. وهذه المرتبة، أي جنة اللقاء، هي من أهمّ مقاصد أهل المعرفة وأصحاب القلوب وأيدي آمال النوع عنها قاصرة، والأوحدي من أهل المعرفة يتشرّف بشرف هذه السعادة، وأهل الحبّ والجذبة من كمّل أهل اللّه وأصفياء اللّه. ولكن ليست هذه المرتبة هي كمال مرتبة الكمّل من أهل اللّه، بل هي من مقاماتهم العادية، وما في الأدعية كالمناجاة الشعبانية من أنّ أمير المؤمنين وأولاده الطاهرين استدعوا هذه المرتبة من اللّه أو أشاروا بكونهم متحقّقين بها، فليس من جهة أنّ مقاماتهم منحصرة بهذه المرتبة.

8. المرتبة الثامنة:

كما أنّ المرتبة الثامنة في إزاء هذه المرتبة، وهي عبارة عن تصفية العمل من خوف الفراق أيضًا ليست من كمال مقامات الكمّل، وما قاله أمير المؤمنين عليه السلام: «**فكيف أصبر على فراقك...**»[3] فمن مقاماته العادية ومقامات أمثاله كذلك.

---

(1) الخميني، روح اللّه الموسوي، معراج السالكين، ص 175.

(2) م.ن، ص 175.

(3) ابن طاووس، علي بن موسى، إقبال الأعمال، ج2، ص 708.

وبالجملة، إنّ تصفية العمل من هاتين المرتبتين أيضًا لازمة عند أهل الله، والعمل معها عليل، وليست خارجة عن الحظوظ النفسانية، وهذا كمال الخلوص»[1].

بعض درجات الإخلاص وما يقابلها

«فحيث وصل الكلام إلى هنا، لا بدّ أن أذكر بعض الدرجات الأخرى للإخلاص بما يناسب المقام»[2].

1. عدم رؤية استحقاق الثواب:

«فمن درجات الإخلاص: تصفية العمل من رؤية استحقاق الثواب والأجر، وفي المقابل شوبه بطلب الأجر ورؤية استحقاق الأجرة والثواب. وهذا لا يخلو من درجة من الإعجاب بالعمل، لا بدّ للسالك من تخليص نفسه منه»[3].

أ. من أين تنشأ رؤية الاستحقاق؟

«وهذه الرؤية من نقصان معرفة حاله وحقّ الخالق تعالى شأنه، وهذا أيضًا من الشجرة الشيطانية الخبيثة التي ترجع إلى رؤية النفس وفعلها والإنّيّة والأنانية.

فالإنسان المسكين ما دام في حجاب رؤية أعمال نفسه ويراها من نفسه ويرى نفسه متصرّفًا في الأمر فلن ينجو من هذا المرض، ولا يحقّق هذه التصفية والتخليص»[4].

لا يطلب الإنسان الأجر ولا يرى نفسه مستحقًّا له إلا إذا كان يرى العمل من نفسه، بمعنى صدوره على نحو الاستقلال. وإنّما يطلب الثواب إذا كان يرى لعمله قيمة، فهل هذا صحيح؟

لو عرف العامل العابد أنّه وعمله تفضّل من الله تعالى، وعرف أنّ كلّ عمل يقوم به لا يمكن أن يكون لائقًا بذات الحقّ المتعال، فهل يمكن أن يبقى ذلك الشعور وهذا الطلب؟

فرؤية الاستحقاق تنشأ من عدم إدراك التوحيد، كما أنّ الفرح أو الإعجاب بالعمل لا يكون إلا إذا نسي العبد ما معنى شأن الله تعالى.

---

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 176.
(2) م.ن، ص 183.
(3) م.ن.
(4) م.ن.

كيف يمكن لأيّ عمل أن يكون لائقًا بذات اللّه؟ واللّه تعالى أعظم من أن يدرك أي مخلوق علوّ شأنه.

ب. العلاج:

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: «فالسالك لا بدّ له أن يجهد ويفهم القلب بالرياضات القلبيّة والسلوك العقليّ والعرفانيّ، أنّ جميع الأعمال من الهبات الإلهيّة والنعم التي أجراها الحقّ تعالى على يد العبد، فإذا استقرّ التوحيد الفعليّ في قلب السّالك، فلن يرى العمل من نفسه ولا يطلب الثواب، بل يرى الثواب تفضّلًا والنّعم ابتداء»[1].

ج. شواهد من النصوص:

«وقد ذُكرت هذه اللطيفة الإلهيّة كثيرا في كلمات الأئمّة والأطهار عليهم السلام، وخصوصاً الصحيفة السجادية، هذه الصحيفة النورانية التي نزلت من سماء عرفان العارف بالله والعقل النوراني لسيّد الساجدين لخلاص عباد الله من سجن الطبيعة وتفهيمهم أدب العبودية والقيام بخدمة الربوبية. فقد ذكرت هذه اللطيفة الإلهيّة كثيرا، كما في الدعاء الثاني والثلاثين يقول عليه السلام: «**لك الحمد على ابتدائك بالنعم الجسام وإلهامك الشكر على الإحسان**»[2]، وفي موضع آخر يقول: «**نعمك ابتداء واحسانك التفضّل**»[3]، وفي مصباح الشريعة يقول: «**وأدنى حدّ الإخلاص بذل العبد طاقته، ثمّ لا يجعل لعمله عند الله قدرًا فيوجب به على ربّه مكافأة لعمله**»[4]»[5].

2. عدم الاستكثار والفرح بالعمل:

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: «والدرجة الأخرى للإخلاص تصفية العمل من الاستكثار

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 183.
(2) الإمام علي بن الحسين عليه السلام، الصحيفة السجادية، قم، نشر الهادي، 1418هـ، ط 1، من دعائه عليه السلام بعد الفراغ من صلاة الليل، ص 152.
(3) م.ن، من دعائه عليه السلام في الاعتراف وطلب التوبة إلى الله تعالى، ص 64.
(4) الامام جعفر الصادق عليه السلام، مصباح الشريعة، ص 37.
(5) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 183 - 184.

والفرح به والاعتماد والتعلق به. وهذا أيضًا من مهمّات سلوك السالك؛ لأنّ الاستكثار يصدّ السّالك عن قافلة السالكين إلى اللّه ويحبسه في سجن الطبيعة»(1).

أ. من أين ينشأ الاستكثار والفرح بالعمل؟

«وهو أيضًا ينبت من الشجرة الخبيثة الشيطانية، وينشأ من حبّ النفس الذي هو إرث الشيطان الذي قال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾(2)؛ وهو من جهل الإنسان بمقامه ومقام معبوده جلّت عظمته»(3).

ب. العلاج:

«إذا كان المسكين الممكن يعرف مقام نقصه وعجزه وضعفه ومسكنته، ويعرف مقام عظمة الحقّ ومجده وكماله، فلا يرى عمله عظيمًا أبدًا ولا يحسب نفسه قائمًا بالأمر؛ فالمسكين يتوقّع من ركعتين لصلاة - لا تساوي سنة منها في سوق أهل الدنيا أكثر من ثمانين دينارًا، هذا إذا كانت صحيحة ومجزية - توقّعات غير متناهية!

وهذا هو الفرح والاستكثار في العمل الذي هو مبدأ لكثير من المفاسد الأخلاقية والفعلية، يطول ذكرها»(4).

ج. شواهد من النصوص والسيرة:

وقد أشاروا عليهم السلام في الأحاديث إلى هذا المطلب، كما في الكافي الشريف، بإسناده إلى موسى بن جعفر عليه السلام أنّه قال لبعض ولده: «**يا بني، عليك بالجدّ، ولا تخرجنّ نفسك من حدّ التقصير في عبادة الله عزّ وجلّ**»(5)، وقال عليه السلام في حديث آخر: «**كلّ عمل تريد به الله عزّ وجلّ فكن مقصّرًا عند نفسك؛ فإنّ الناس كلّهم في أعمالهم فيما بينهم وبين الله مقصّرون، إلا من عصمه الله عزّ وجلّ**»(6).

(1) الخميني، روح اللّه الموسوي، معراج السالكين، ن، ص 184.
(2) سورة الأعراف، الآية 12، سورة ص، الآية 76.
(3) الخميني، روح اللّه الموسوي، معراج السالكين، ص 184.
(4) م.ن، ص 184.
(5) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص 72.
(6) م.ن، ص 73.

وعنه عليه السلام: «**لا تستكثروا كثير الخير**»[1]. وفي الصحيفة الكاملة في وصف ملائكة الله، يقول عليه السلام: «**الذين يقولون إذا نظروا إلى جهنّم تزفر إلى أهل معصيتك، سبحانك ما عبدناك حقّ عبادتك**»[2].

فيا أيها الضعيف، ففي الوقت الذي يعترف فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالعجز والتقصير، ويقول: «**ما عرفناك حقّ معرفتك، وما عبدناك حقّ عبادتك**»[3] وهو أعرف خلق الله، وعمله أنور من أعمال جميع الناس وأعظم من جميعها، وكذا الأئمّة المعصومون يظهرون ذاك النحو من القصور والتقصير في المحضر المقدس؛ فماذا يتأتّى من بعوضة هزيلة؟!

نعم، إنّ مقام معرفتهم بعجز الممكن وعزّة الواجب وعظمته - تعالى شأنه - كانت تقتضي تلك الإظهارات والاعترافات. وأمّا نحن المساكين، فمن الجهل والحجب المتنوّعة التي أمسكت برقابنا قمنا نتكبّر ونعجب بأنفسنا ونتظاهر بأعمالنا، فيا سبحان الله، ما أصدق كلام أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول: «**عجب المرء بنفسه أحد حسّاد عقله**»[4].

أليس من فقدان العقل أن الشيطان يعمّي علينا أمراً ضروريا ولا نقوم بوزنه في ميزان العقل؟ إنّا نعلم بالضرورة أنّ أعمالنا وأعمال جميع البشر العاديين، بل أعمال جميع ملائكة الله والروحانيين في ميزان أعمال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأئمّة الهدى عليهم السلام ليس لها قدر محسوس، ولا تعدّ شيئاً، وفي الوقت نفسه فإنّ الاعتراف بالتقصير وإظهار العجز عن القيام بالأمر من أولئك الأعاظم متواتر، بل فوق حد التواتر.

وهاتان القضيتان الضروريتان تنتجان لنا ألا نفرح بشيء من أعمالنا، بل علينا إذا قمنا بالعبادة والطاعة طول عمر الدنيا أن نكون خجلين وننكّس رؤوسنا في محضره. ومع هذه الحال فقد تمكّن الشيطان في قلوبنا، وسيطر على عقولنا وحواسنا، بحيث لا نخرج بنتيجة من هذه المقدّمات الضرورية، بل تكون أحوال قلوبنا على العكس.

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص 287.
(2) الإمام علي بن الحسين عليه السلام، الصحيفة السجادية، ص 38.
(3) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج68، ص 23.
(4) السيد الرضي، نهج البلاغة، ص 507.

إنّ مولىً كانت ضربة واحدة منه يوم الخندق أفضل من جميع عبادات الجنّ والإنس، بتصديق رسول الله، يظهر في عبادته ورياضاته - التي كان علي بن الحسين، وهو أعبد خلق، الله يُظهر العجز أن يكون مثله - العجز والتذلّل والاعتراف بالقصور والتقصير أكثر منّا.

ورسول الله الذي كان علي المرتضى وجميع ما سوى الله عبيدا لجنابه، ومتّنعمين من سقطات موائد نعمته في معارفه ومتعلمين بتعليمه، بعدما خلع بخلعة النبوّة الختمية، الذي كان نهاية مسير دائرة الكمال واللبنة الأخيرة للمعرفة والتوحيد يقوم بالأمر عشر سنوات في جبل حراء على قدميه، ويقوم بالطاعة حتى تتورّم قدماه الشريفتان، وأنزل الله تعالى عليه ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾[1]، أيّها الطاهر الهادي، ما أنزلنا عليك القرآن لتقع في المشقّة، فإنّك طاهر وهاد، وإن كان الناس لا يطيعونك فهو من نقصهم وشقاوتهم، لا من نقصان سلوكك أو هدايتك، ومع ذلك يعلن (صلوات الله عليه) عجزه وقصوره.

إنّ السيد ابن طاووس قدس سره ينقل حديثا عن علي بن الحسين عليه السلام، ونحن نُبارك هذه الرسالة به، وإن كان الحديث طويلا، ولكن بما إنّه ذكر بعض حالات المولى، تتعطّر شامة الأرواح به. وتلتذّ ذائقة القلوب منه.

عنه قدس سره في فتح الأبواب، بإسناده عن الزهري، قال:

«دخلت مع علّي بن الحسين عليهما السلام على عبد الملك بن مروان، قال: فاستعظم عبد الملك ما رأى من أثر السجود بين عيني علي بن الحسين عليهما السلام، فقال: يا أبا محمد، لقد بيّن عليك الاجتهاد، ولقد سبق لك من الله الحسنى، فأنت بضعة من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قريب النسب وكيد السبب، وإنّك لذو فضل عظيم على أهل بيتك وذوي عصرك، ولقد أوتيت من الفضل والعلم والدين والورع ما لم يؤتَ أحد مثلك ولا قبلك إلّا من مضى من سلفك، وأقبل يثني عليه ويطريه، فقال علي بن الحسين عليهما السلام: «**كلّ ما ذكرته ووصفته من فضل الله سبحانه وتأييده وتوفيقه، فأين شكره على ما أنعم يا أمير المؤمنين؟ كان رسول الله** صلى الله عليه وآله وسلم **يقف**

(1) سورة طه، الآيتان 1 - 2.

في الصلاة حتى تتورّم قدماه، ويظمأ في الصيام حتى يعصب فوه، فقيل له: يا رسول الله، ألم يغفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟ فيقول صلى الله عليه وآله وسلم: أفلا أكون عبدًا شكورًا؛ الحمد لله على ما أولى وأبلى، وله الحمد في الآخرة والأولى... والله، لا يشغلني شيء عن شكره وذكره في ليل ولا نهار، ولا سرّ ولا علانية، ولولا أنّ لأهلي عليّ حقّا ولسائر الناس من خاصّهم وعامّهم عليّ حقوقاً، لا يسعني إلا القيام بها حسب الوسع والطاقة حتى أؤدّيها إليهم، لرميت بطرفي إلى السماء وبقلبي إلى الله، ثم لم أرددهما حتى يقضي الله على نفسي، وهو خير الحاكمين... وبكى عليه السلام، وبكى عبد الملك»[1] الخبر»[2].

(1) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج1، ص 125.

(2) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 184 - 187.

المفاهيم الرئيسة

1. للوصول إلى الإخلاص الحقيقي لا بدّ من تصفية العمل والذات.
2. تصفية العمل مقدّمة لتصفية الذات.
3. تصفية العمل تمرّ بمراحل عدّة.
4. أول مراحل التصفية هي من الرياء.
5. المرحلة الثانية للتصفية هي من طلب الحظوظ الدنيوية كغاية.
6. المرحلة الثالثة تصفية العمل من طلب الكمالات المعنوية كغاية.
7. المرحلة الرابعة هي تصفية العمل من جعل النجاة من العذاب غاية.
8. المرحلة الخامسة هي تصفية العمل من جعل اللذات الأخروية غاية.
9. المرحلة السادسة هي تصفية العمل من اللذّات العقلية والسعادات الروحية.
10. المرحلة السابعة هي تصفية العمل من الوصول إلى لذّات جمال اللّه.
11. المرحلة الثامنة هي تصفية العمل من خوف الفراق.
12. جميع هذه المقامات المعنوية والنعم المادية والمعنوية مطلوبة، لكن لا كغاية.
13. رؤية استحقاق الثواب منافية للإخلاص.
14. استكثار العمل والفرح به منافٍ للإخلاص.

الدرس الثاني والثلاثون

آداب القيام وأسراره

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يدرك حقيقة القيام في الصّلاة وعلاقته بالتّوحيد.
2. يتعرَّف إلى الآداب التي ينبغي مراعاتها أثناء القيام، والآثار المختلفة لرعاية آداب القيام.
3. يبيّن أهميّة الاستفادة من مقامات أهل البيت عليهم السلام في السّفر المعنويّ.

تمهيد

لمّا كان توحيد الحقّ تعالى قولًا وعملًا، قلبًا وقالبًا، هو المقصد الأعلى لدعوة الأنبياء، وكانت وسيلتهم لبلوغ ذلك التوحيد هي العبادة التي تذكّر بوحدانيته. فإنّ على السالك أن يكتشف مظاهر التوحيد في جميع العبادات القلبيّة والقالبية. ومن خلال هذا التوجّه القلبي إلى المعاني والمظاهر، ومن خلال رعاية آدابها المعنوية، تتحقّق درجات التوحيد في جميع مراتب وجود الإنسان. ولا شكّ بأنّ الصلاة هي أعظم أركان العبادة؛ فلهذا تتجلّى فيها مراتب التوحيد بأبهى صورة.

يقول الإمام الخميني قدس سره:

«إنّ عمدة مقصد وهدف الأنبياء العظام وتشريع الشرائع وتأسيس الأحكام ونزول الكتب السماويّة، وخصوصًا القرآن الجامع الشّريف الذي صاحبه ومكاشفه نور الرّسول الخاتم المطهّر صلى الله عليه وآله وسلم، هي نشر التوحيد والمعارف الإلهيّة وقطع جذور الكفر والشرك والثانوية. وسرّ التوحيد والتجريد سارٍ وجارٍ في جميع العبادات القلبيّة والقالبية؛ بل إنّ العبادات، كما كان الشيخ العارف الكامل الشاه آبادي - روحي فداه - يقول، هي إجراء التوحيد من باطن القلب إلى ملك البدن»[1].

السرّ الاجمالي للقيام

لمّا كانت الصلاة عصارة السلوك إلى الله، فهي عبادة جامعة لكلّ المقامات المعنويّة. ولمّا كانت جميع المقامات المعنوية مختصرة في معرفة الله والقرب منه، فلا يوجد تعبير عن هذه المعرفة أجلّ وأسمى من التوحيد؛ ولهذا تختصر مدارج معرفة الله بمدارج التوحيد ومراتبه، وأهمّها ثلاث:

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 164 - 165.

التوحيد الأفعالي الذي فيه يثبت رجوع كلّ تأثير في الوجود إلى اللّه تعالى.

التوحيد الصفاتي الذي يعني أنّ كلّ كمال في الوجود هو كمال اللّه تعالى ومنه.

التوحيد الذاتي الذي يعني أنّ كلّ وجود يرجع إلى وجود اللّه ويقوم به.

يقول الإمام الخميني قدس سره في بيان علاقة القيام في الصلاة بالتوحيد الأفعالي: «اعلم أنّ أهل المعرفة يرون القيام إشارة إلى التوحيد الأفعالي، كما أنّ الركوع عندهم إشارة إلى التوحيد الصفاتي والسجود إلى التوحيد الذاتي، ويأتي بيانهما في محلّهما.

وأمّا الكلام بأنّ القيام إشارة إلى التوحيد الفعليّ، فهو أنّ في القيام نفسه إشارةً إلى هذا التوحيد وضعًا (أي بحسب الوضعية)، وفي القراءة إشارة إليه لفظا»[1].

و«أما أنّ القيام فيه إشارة إلى التوحيد الأفعالي وضعًا، فهو أنّ القيام إشارة إلى قيام العبد بالحقّ ومقام قيّوميّة الحقّ وهو التجلّي بالفيض المقدّس والتجلّي الفعلي. وتظهر في هذا المقام فاعلية الحقّ وتستهلك جميع الموجودات في التجلّي الفعلي وتضمحلّ تحت كبريائه الظهوري»[2].

إنّ وضعية القيام هي أظهر وضعية يعبّر فيها الانسان عن حضوره الفعلي. وذلك إذا قارنّا جميع أوضاعه به، كالجلوس والاتّكاء والركوع والنوم، ولهذا؛ فإنّ أوّل ما يفقده الإنسان في عجزه هو القدرة عن القيام. وعندما يقيم العبد نفسه بين يدي ربّه خاضعًا متذلّلاً، فإنّه بذلك يقدّم كلّ وجوده الفعلي للّه تعالى، ويكون ذلك مقدّمة للتوحيد الفعلي.

وأوّل فناء للممكنات والكائنات هو فناء أفعالها في فعل الحقّ تعالى. هناك حيث يشهد العارف المكاشف أنّه ما من فعل ولا تأثير إلا ويرجع إلى فعل اللّه تعالى وتأثيره. فقد قضى اللّه وصدر الفعل الواحد منه بالأمر الواحدة، وبعدها صارت جميع الأفعال ترجمة فعله المطلق.

«وأمّا انّ في القراءة إشارة إلى مقام التوحيد الفعلي لفظاً، فسيأتي تفصيله في تفسير سورة الحمد المباركة، إن شاء اللّه»[3].

---

(1) الخميني، روح اللّه الموسوي، معراج السالكين، ص 159.

(2) م.ن، ص 159 - 160.

(3) م.ن

معنى النظر إلى محلّ السّجود

وحيث ذُكر أنه يستحب، بل يلزم، للمصلّي أن يقصر النظر في قيامه على موضع سجوده؛ فلهذا هذا الحكم سرّ آخر، يكشف الإمام الخميني قدس سره عن بعضه قائلاً: «كما أنّ في النظر إلى محلّ السّجود أثناء القيام وهو التراب والنشأة الأصليّة وخضوع الرقبة وتنكيس الرأس الذي هو لازم للخضوع، إشارة إلى الذلّ والفقر الإمكاني والفناء تحت عزّ الكبرياء وسلطانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾[1]»[2].

آداب القيام

إذا كانت حقيقة القيام ترجع إلى التوحيد، فما هي الآداب التي ينبغي أن يقوم السالك برعايتها؟ هنا يذكر الإمام الخميني قدس سره الآداب الإجمالية في هذا المقام قائلاً: «والأدب العرفاني للسالك في هذا المقام أن:

1. يتذكّر بقلبه هذه اللطيفة الإلهيّة،
2. ويترك التعيّنات النفسيّة ما استطاع،
3. ويذكّر القلب بحقيقة الفيض المقدّس،
4. ويوصل إلى باطن القلب نسبة قيّومية الحقّ وتقوّم الخلق بالحقّ»[3].

ولعلّه لا يوجد اسم معبّر عن هذا التوحيد كالقيّوم؛ لأنّ قيام كلّ شيء وفعليّته إنّما يكون بقيّوميّة الحقّ تعالى.

لا ننسى أنّ الآداب المعنوية القلبيّة هي عبارة عن توجّه القلب واستحضار المعنى المرموز في كلّ فعل أو حركة أثناء القيام بها. ففي القيام معانٍ جليلة يُعدّ التوجّه إليها من الآداب اللازمة لتحقيق الفوائد والغايات المرجوّة منه، حيث يقول الإمام قدس سره في مورد استعراضه للآداب نح تفصيلي:

---

(1) سورة فاطر، الآية 15.
(2) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 160.
(3) م.ن.

«وهي:

1. أن يرى السّالك نفسه حاضرًا في محضر الحقّ،
2. ويعدّ العالم محضر الرّبوبيّة،
3. ويحسب نفسه من حضّار المجلس مقيمًا بين يدي اللّه،
4. ويوصل إلى قلبه عظمة الحاضر والمحضر،
5. ويفهّم القلبَ أهمية مناجاة الحقّ تعالى وخطرها،
6. ويهيّئ قلبه قبل الورود في الصلاة بالتفكّر والتدبّر،
7. ويفهمه عظمة المطلب،
8. ويلزمه بالخضوع والخشوع والطمأنينة والخشية والخوف والرجاء والذلّ والمسكنة إلى آخر الصلاة. ويشارط القلب أن يراقب هذه الأمور ويحافظ عليها،
9. ويتفكّر ويتدبّر في أحوال أعاظم الدين وهداة السبل، كيف كانت حالاتهم في الصلاة، وكيف كانوا يتعاملون مع مالك الملوك،
10. ويتّخذ من أحوال أئمّة الهدى أسوة لنفسه، ويتأسّى بهؤلاء الأعاظم، ولا يكتفي من تاريخ حياة أعاظم الدين وأئمّته بتاريخ ولاداتهم ووفياتهم ومقدار أعمارهم الشريفة وأمثال هذه الأمور التي لا تترتّب عليها فائدة جليلة؛ بل يكون عمدة سيره في سيرهم وسلوكهم الإيماني والعرفاني، كيف كانت معاملاتهم في العبودية، وكيف كان مشيهم في السير إلى اللّه، وما هو مبلغ مقاماتهم العرفانية التي تستفاد من كلماتهم الإعجازية»[1].

ونظرًا إلى أهميّة الأدبين الأخيرين، يفصّل الإمام قدس سره فيهما، لما فيهما من تأثير كبير على تفعيل حياتنا المعنويّة. وكأنّ الإمام قد شعر ها هنا بفتورنا وإعراضنا عن هذه المعاني، فأراد أن يذكّرنا انطلاقًا من حبّنا وتعلّقنا بأئمّة الهدى عليهم السلام.

(1) الخميني، روح اللّه الموسوي، معراج السالكين، ص160 - 161.

النتائج والآثار

ومن الطبيعيّ أن يكون لرعاية الأدب والمواظبة عليه أثر، بل آثار. وقد ذكر الإمام الخميني بعض هذه الآثار، فقال قدس سره: «فإذا تمكّنت هذه الحقيقة في قلب السالك:

1. تقع قراءته بلسان الحقّ، ويكون الذاكر والمذكور ذات الحقّ،
2. وينكشف بعض أسرار القدر لقلب العارف،
3. ومعنى «**أنت كما أثنيت على نفسك**»[1] و«**أعوذ بك منك**»[2] ببعض مراتبه،
4. ويجد قلب العارف بعض أسرار الصلاة»[3].

فإذا فني السالك في توحيد الحقّ الفعليّ، وتخلّى عن حوله وقوّته، سيجد معنى حول الله وقوّته ويدرك حقيقة ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[4]، فيجري الله على يديه كلّ معاني التّأثير الإلهيّ، وهو أوّل مراتب الولاية.

ولأنّ العالم كلّه يجري وفق مشيئة الله، ولأنّ كلّ ما يحدث فيه ويقدّر ليس سوى ظلّ الفعل الإلهيّ المطلق والتّقدير الربّانيّ المحكم، فإنّ ما يدركه العبد من الفناء في توحيد الحقّ الأفعالي سينعكس على اطّلاعه على بعض مراتب أسرار التقدير الإلهيّ للعباد.

وهناك يشهد الموحّد كيف أنّه لا ثناء على الذات إلّا من الذات؛ لأنّ الثناء في بعض مراتبه فعل، وكلّ فعل هو فعل الله تعالى، ولا يمكن للعبد أن يلجأ إلى الله إلا به.

الاستفادة من مقامات أئمّة الهدى عليهم السلام

فقال قدس سره: «فيا أسفًا علينا، نحن أهل الغفلة وسكر الطبيعة والمغرورون بلا مبرر، خلفاء الشيطان الخبيث في جميع الأمور، ولا نستيقظ أبداً من النوم الثقيل، ولا نخرج من النسيان الدائم؛ وإنّ استفادتنا من مقامات أئمّة الهدى ومعارفهم قليلة إلى الدرجة التي لا تعدّ شيئاً. ها قد اكتفينا من تاريخ حياتهم بالقشر والصورة، وصرفنا النظر كلياً عمّا هو غاية لبعثة الأنبياء عليهم السلام. وفي الحقيقة ينطبق علينا المثل المعروف: استسمن ذا ورم.

---

(1) الإمام الصادق عليه السلام، مصباح الشريعة، ص56.
(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج3، ص324.
(3) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 160.
(4) سورة الأنفال، الآية 17.

ونحن نذكر في هذا المقام بعض الروايات الواردة في هذا الباب، فلعلّه يحصل التذكّر لبعض الإخوان المؤمنين، والحمد لله وله الشكر.

عن محمد بن يعقوب، بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «**كان علي بن الحسين** عليهما السلام **إذا قام إلى الصلاة تغيّر لونه، فإذا سجد لم يرفع رأسه حتى يرفضّ عرقا**»[1].

وبإسناده عنه عليه السلام، قال: «**كان أبي يقول: كان علي بن الحسين إذا قام إلى الصلاة كأنّه ساق شجرة، لا يتحرّك منه شيء إلّا ما حرّكت الريح منه**»[2].

وعن محمد بن علي بن الحسين في العلل، بإسناده عن أبان بن تغلب، قال: «**قلت لأبي عبدالله** عليه السلام: **إنّي رأيت علياً بن الحسين إذا قام إلى الصلاة غشي لونه لون آخر، فقال لي: والله، إنّ عليًّا بن الحسين كان يعرف الذي يقوم بين يديه**»[3].

وعن السيد علي بن طاووس، في فلاح السائل في حديث، فقال أبو عبدالله عليه السلام: «**لا تتمّ الصلاة إلا لذي طهر سابغ وتمام بالغ غير نازغ ولا زائغ، عرف فوقف، وأخبت فثبت، فهو واقف بين اليأس والطمع والصبرٍ والجزع، كأنّ الوعد له صنع، والوعيد به وقع، يذلّ عرضه ويمثّل عرضه، وبذل في الله المهجة، وتنكبّ إليه المهجة، غير مرتغم بارتغام، يقطع علائق الاهتمام بعين من له قصد وإليه رفد ومنه استرفد، فإذا أتى بذلك كانت هي الصلاة التي بها أمر وعنها أخبر، وإنها هي الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر**»[4] الحديث.

وعن محمد بن يعقوب، بإسناده إلى مولانا زين العابدين عليه السلام، أنّه قال: «**وأمّا حقوق الصلاة، فأن تعلم أنّها وفادة إلى الله، وأنّك فيها قائم بين يدي الله، فإذا علمت ذلك كنت خليقًا أن تقوم فيها مقام العبد الذليل الراغب الراهب الخائف الراجي المسكين المتضرّع المعظّم مقام من يقوم بين يديه بالسكينة والوقار وخشوع الأطراف ولين الجناح وحسن المناجاة له في نفسه والطلب إليه في فكاك رقبته التي أحاطت بها خطيئته واستهلكتها ذنوبه، ولا قوّة إلا بالله**»[5].

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج3، ص 300.
(2) م.ن.
(3) الشيخ الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج5، ص 474.
(4) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج4، ص 92.
(5) م.ن، ص 93.

وعن النبيّ ﷺ: «**اعبد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك**»[1].

وعن فقه الرضا عليه السلام: «**فإذا أردت أن تقوم إلى الصلاة، فلا تقم إليها متكاسلًا ولا متناعسًا ولا مستعجلًا ولا متلاهيًا، ولكن تأتيها على السكون والوقار والتؤدة، وعليك الخشوع والخضوع، متواضعًا لله عزّ وجلّ متخاشعًا، عليك الخشية وسيماء الخوف، راجيًا خائفًا بالطمأنينة على الوجل والحذر، فقف بين يديه كالعبد الآبق المذنب بين يدي مولاه، فصفّ قدميك، وانصب نفسك، ولا تلتفت يمينًا وشمالًا، وتحسب كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك**»[2] الحديث.

وفي عدّة الداعي روى «**أنّ إبراهيم عليه السلام كان يُسمع تأوّهه على حدّ ميل حتّى مدحه الله بقوله: إنّ إبراهيم لحليمٌ أوّاه منيب، وكان في صلاته يُسمع له أزيز كأزيز المرجل، وكذلك يسمع من صدر سيّدنا رسول الله ﷺ مثل ذلك، وكانت فاطمة عليها السلام تنهج في الصلاة من خيفة الله**»[3]، إلى غير ذلك من الأخبار.

والأخبار الشريفة في هذه الموضوعات أكثر من أن يسعها هذا المختصر، وفي التفكّر فيما ذكر منها كفاية لأهل التذكّر والتفكّر، سواء فيما يتعلّق بالآداب الصورية أو الآداب القلبيّة والمعنوية وكيفية القيام بين يدي الله.

وتفكّر في حالات عليّ بن الحسين ومناجاته مع الحقّ تعالى وأدعيته اللطيفة التي تعلّم عباد الله آداب العبودية. لا أقول أنّ مناجاتهم عليهم السلام كانت لتعليم العباد، فإنّ هذا الكلام الأجوف الباطل يصدر من الجهل بمقام الربوبية ومعارف أهل البيت؛ فإنّ خوفهم وخشيتهم كانت أكثر من جميع الناس، وقد تجلّت عظمة الحقّ وجلاله في قلوبهم أكثر من الكل، ولكنّي أقول: لا بدّ أن يتعلّم عباد الله منهم كيفيّة العبودية والسّلوك إلى الله تعالى. فإذا قرؤوا أدعيتهم ومناجاتهم فلا تكون القراءة لقلقة لسان، بل يتفكّروا في كيفية تعاملهم مع الحقّ وإظهارهم التذلّل والعجز والحاجة للذّات المقدّسة.

---

(1) الامام جعفر الصادق عليه السلام، مصباح الشريعة، ص 8.

(2) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج4، ص 87 – 88.

(3) م.ن، ص 100.

ولعمر الحبيب، أنّ عليّ بن الحسين من أعظم النّعم التي منّ بها ذات الحقّ المقدّس على عباده، وأنزله من عالم القرب والقدس لأجل تفهيم عباده طرق العبوديّة، ولتسألنّ يومئذ عن النعيم... وإذا سئلنا لماذا لم نقدّر هذه النعمة ولم نستفد من هذا الرجل العظيم؟ فلا نحير جوابًا، إلّا أنّ ننكّس رؤوسنا ونحترق بنار الندامة والأسف، ولا ينفع حينذاك الندم»[1].

اكتشف الحياة الحقيقية[2]

أيّها العزيز، الآن فرصتك والعمر العزيز الذي هو رأسمالك بيدك، وطريق السلوك إلى اللّه مفتوح وأبواب رحمة الحقّ مفتوحة والسلامة متحقّقة وقوّة الأعضاء والقوى، ودار زرع عالم الملك قائمة؛ فاجمع همّتك واعرف قدر هذه النعم الإلهيّة واستفد منها وحصّل الكمالات الروحانية والسعادات الأزلية والأبدية، وخذ نصيبًا من هذه المعارف الكثيرة التي بسطها القرآن الشريف السماوي وأهل بيت العصمة عليهم السلام على بسيطة أرض الطبيعة المظلمة، ونوّروا العالم بالأنوار الإلهيّة الساطعة، ونوّر أرض طبيعتك المظلمة بالنور الإلهيّ، ونوّر بنور الحقّ تعالى بصرك وسمعك ولسانك وسائر القوى الظاهرة والباطنة، وبدّل هذه الأرض الظلمانية إلى أرض نورانية، بل إلى سماء عقلانية: ﴿ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ ﴾[3]، ﴿ وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾[4]. ففي ذلك اليوم إن لم تتبدّل أرضك غير الأرض، ولم تتنوّر بنور الربّ فلك ظلمات ومشقّات وأنواع من الوحشة والظلمة والذلّة والعذاب.

فاليوم، إنّ قوانا الظاهرة والباطنة مظلمة بالظلمات الشيطانية، وأنا أخشى إذا بقينا على هذه الحال فبالتدريج تتبدّل الأرض الهيولانية التي فيها نور الفطرة أرضًا سجّينيّة مظلمة خالية من نور الفطرة ومحجوبة عن جميع أحكام فطرة اللّه. وتلك شقاوة ليس بعدها سعادة، وظلمة لا يعقبها نور ووحشة، لا ترى وجه الاطمئنان، وعذاب ليس وراءه راحة. فمن لم يجعل اللّه له نورًا فما له من نور... أعوذ باللّه من غرور الشيطان والنفس الأمّارة بالسوء.

إنّ عمدة مقصد وهدف الأنبياء العظام وتشريع الشرائع وتأسيس الأحكام ونزول الكتب

---

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 161 - 162.
(2) م.ن، ص 164 - 165.
(3) سورة ابراهيم، الآية 48.
(4) سورة الزمر، الآية 69.

السماوية، وخصوصًا القرآن الجامع الشّريف الذي صاحبه ومكاشفه نور الرّسول الخاتم المطهّر ﷺ، هي نشر التوحيد والمعارف الإلهيّة، وقطع جذور الكفر والشّرك والثانوية. وسرّ التّوحيد والتّجريد سارٍ وجارٍ في جميع العبادات القلبيّة والقالبية، بل إنّ العبادات كما كان الشيخ العارف الكامل الشاه آبادي - روحي فداه - يقول، هي إجراء التوحيد من باطن القلب إلى ملك البدن.

وبالجملة، النتيجة المطلوبة من العبادات هي تحصيل المعارف وتمكين التوحيد وسائر المعارف في القلب، وهذا المقصد لا يحصل إلّا بأن يستوفي السالك الحظوظ القلبيّة للعبادات ويعبّر من الصّورة والقالب إلى الحقيقة واللبّ، ولا يتوقّف في الدنيا والقشر؛ فإنّ الوقوف عند هذه الأمور أشواك طريق سلوك الإنسانية.

التحذير من قطّاع الطرق[1]

والذين يدعون إلى الصورة فقط وينهون الناس عن الآداب الباطنية، ويقولون: إنّه لا معنى للشريعة ولا حقيقة لها سوى هذه الصورة والقشر هم شياطين الطريق إلى الله وأشواك سبيل الإنسانية، ولا بدّ أن يُستعاذ من شرّهم بالله، فإنّهم يطفئون نور فطرة الله في الإنسان، وهو نور المعرفة والتوحيد والولاية وسائر المعارف، ويسدلون عليه حجب التقليد والجهالة والعادات والأوهام، ويمنعون عباد الله عن العكوف بجنابه والوصول إلى جماله الجميل ويسدّون طريق المعارف ويوجّهون إلى الدنيا وزخارفها وجهاتها المادية والجسمانية وعوارضها القلوب الصافية الطاهرة لعباد الله التي أودع الحقّ تعالى في خميرتها بذر المعرفة بيدي جماله وجلاله، وأرسل الأنبياء العظام وأنزل الكتب السماوية لتربية ذاك البذر وتنميته، ويصرفون تلك القلوب عن الروحانيات والسعادات العقلية، ويحصرون العوالم الغيبية والجنّات الموعودة في المأكولات الحيوانية والمشروبات والمنكوحات وسائر المشتهيات الحيوانية.

هؤلاء يظنّون أنّ الحقّ تعالى قد بسط كلّ هذه الرحمة وأنزل كتبها وأنزل ملائكته وبعث الأنبياء العظام لإدارة البطن والفرج، وغاية معارفهم أنّك إذا حفظت بطنك وفرجك في

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 165 - 166.

الدنيا تصل إلى شهواتها في الآخرة، فهؤلاء لا يهتمّون بالتوحيد والنبوّات بمقدار ما يهمّهم الجماع الذي يطول لمدّة خمسمئة عام! ويحسبون جميع المعارف مقدّمة لعمارة البطن والفرج، وإذا أراد حكيمٌ إلهيّ أو عارف ربّاني أن يفتح على عباد الله بابًا من الرّحمة، ويقرأ لهم صفحة من الحكمة الإلهيّة لا يمتنعون عن إلصاق أيّ تهمة وغيبة أو سبّ وتكفير به. فقد انغمسوا في الدنيا إلى حدّ، واهتمّوا بشهوات بطونهم وفروجهم إلى حيث لا يرغبون معه ، من حيث لا يشعرون ، أن تكون في دار التحقّق سعادة سوى الشّهوات الحيوانيّة؛ مع أنّه لو كانت في العالم سعادة عقلية فلن تضرّ بطنهم وفرجهم.

فأمثالنا ممّن لم يتجاوزوا حدّ الحيوانية، ليس لهم غير الجنّة الجسمانية وتدبير البطن والفرج، وهي أيضًا نأملها بتفضّل الله سبحانه، ولكن لا ينبغي أن نظنّ أنّ السعادة منحصرة فيها، وأنّ جنّة الحقّ تعالى محصورة بهذه الجنّة الحيوانية، بل للحقّ تعالى عوالم لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطرت على قلب أحد، وإنّ أهل المحبّة الإلهيّة ومعرفة الله سبحانه لا يعتنون بشيء من تلك الجنّات ولا يتوجّهون إلى عالم الغيب والشهادة، فإنّ لهم جنّة اللقاء.

ولو أردنا أن نذكر الآيات القرآنية والأحاديث الواردة عن أهل بيت العصمة في هذا الباب لكان مخالفًا لوضع هذه الرسالة. وهذا المقدار أيضًا كان من طغيان القلم. وهدفنا الأساسيّ هو توجيه قلوب عباد الله لما خلقوا له، وهو معرفة الله سبحانه التي هي فوق جميع السعادات، وكلّ شيء مقدّمة لها. وليس مقصودنا من الذين هم أشواك سلوك الطريق علماء الإسلام العظام وفقهاء المذهب الجعفري الكرام (عليهم رضوان الله)؛ بل بعض الجهلة والمنتحلين للعلم، فإنّهم من جهة القصور والجهل لا التقصير والعناد، صاروا قطّاع طريق عباد الله، وأعوذ بالله من شرّ طغيان القلم والنيّة الفاسدة والهدف الباطل. والحمد لله أوّلًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا.

المفاهيم الرئيسة

1. القيام في الصلاة رمز التوحيد الأفعالي.
2. التوحيد الأفعالي مقدّمة للتوحيد الصفاتي والذاتي.
3. وضعية القيام ترمز إلى كون الحقّ تعالى قيّومًا لكلّ شيء.
4. النظر إلى التراب أثناء القيام إشارة إلى الذلّ الإمكانيّ.
5. أدب القيام هو رعاية الحاضر والمحضر والحضور.
6. لا يمكن للفقير الذليل أن يقوم بحقّ الغني العزيز.
7. التأمّل في سيرة المعصومين يساعد كثيرًا على التوجّه المعنويّ.
8. هدف العبادة الوصول إلى معرفة اللّه تعالى.

الدرس الثالث والثلاثون

آداب الركوع وأسراره

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يتعرَّف إلى حقيقة الرّكوع، وعلاقته بالتوحيد.

2 . يتعرّف إلى أركان الركوع وأسراره التوحيدية.

3 . يبيّن كيف يساهم الركوع في الخروج من رؤية النفس والأنا.

تمهيد

قد ورد في معنى الرّكوع أنّه تعبيرٌ عن تسليم الرّأس للّه تعالى، كما يكون حال من يقدّم ليقطع رأسه. ومن معاني تقديم الرأس أيضًا تقديم مركز القرار. والرأس هو أهمّ أجزاء البدن؛ ولهذا فإنّ تقديمه يعبّر عن تقديم أهمّ ما في النّفس عند تعاملها مع عالم الطبيعة.

يتعلّم المصلّي بهذه الحركة أن يكون مستعدًّا للتضحية ببدنه وبذل مهجته من أجل اللّه وفي سبيله.

ويدرك أصحاب الركوع في توجّهاتهم القلبيّة أسرارًا عظيمة تجعل الرّكوع عندهم حلوًا عذبًا مؤنسًا لا يطيقون الخروج منه.

ولهذا أفاض اللّه على أعظم الراكعين ذكرًا من عنده ليس له مثيل.

فإلى ماذا يرمز الركوع في الصلاة؟ وما هي الآداب المعنوية التي تساعدنا على التحقّق بمعانيه؟

معنى التكبير قبل الرّكوع

للركوع بداية أو تهيئة، وأعظم تهيئة هي التكبير الذي هو عبارة عن إعلان العجز عن الإحاطة بصفات اللّه تعالى. وهنا يذكر الإمام الخميني بعض آداب هذا التكبير الركوعي، فيقول قدّس سرّه: «والظاهر أنّ هذا التكبير من متعلّقات الرّكوع، ولأجل تهيّؤ المصلّي للدّخول إلى منزل الرّكوع»[1].

وتكبير الرّكوع متقوّمٌ برفع اليدين، وبذكر اللّه أكبر.

(1) الخميني، روح اللّه الموسوي، معراج السالكين، ص 346.

آداب التكبير قبل الركوع

«وأدبه أن ينظر المصلّي إلى مقام عظمة الحقّ وجلاله وعزّة الربوبيّة وسلطنتها ويجعل ضعف العبوديّة وعجزها وفقرها وذلّها نصب عينه.

وفي هذا الحال يكبّر الحقّ تعالى عن التوصيف بمقدار معرفته بعزّ الربوبية وذلّ العبودية»[1].

فها هو المصلي يستعدّ للركوع الذي هو مقام عظيم عند الله يعترف فيه أولياؤه بأنّ لا كامل أو كمال في الوجود إلا الله تعالى. وإذا كان المصلّي غافلًا عن هذه الحقيقة وينسب الكمال إلى المخلوقات ويراها مستقلّة في كمالاتها، ويرى نفسه عالمًا وأنّ علمه قد تحقّق بذكائه وسعيه، فلن يكون ركوعه صادقًا؛ ولهذا أُمر بالتّكبير من أجل الاعتراف بأنّ الله أكبر من وصفه وأكبر ممّا يحمله في نفسه. ولهذا يقول الإمام قدس سره:

«ويلزم أن يكون توصيف العبد السالك للحقّ تعالى وتسبيحه وتقديسه لمحض طاعة الأمر، ولأنّ الحقّ تعالى أذن له في الوصف والعبادة. وإلا فليس له أن يتجاسر على التلفّظ بالتوصيف والتعظيم في المحضر الربوبيّ، وهو عبدٌ ضعيف، وفي الحقيقة لا شيء. وما لديه فهو أيضًا من المعبود العظيم الشأن.

وفي حين يقول مثل علي بن الحسين عليه السلام بلسانه الولائيّ الأحلى الذي هو لسان الله: «**أفبلساني هذا الكالّ أشكرك؟**»[2]. فماذا يتأتّى من بعوضة ضئيلة؟»[3].

معنى رفع اليدين أثناء التكبير

بالنسبة لمعنى رفع اليدين هذا يقول الإمام الخميني قدس سره:

«ولعلّ رفع اليدين بهذه الكيفية (أثناء التكبير) هو:

1. ترك لمقام القيام.
2. وترك الوقوف عند ذاك الحدّ.

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 346.
(2) الطوسي، مصباح المتهجد، ج2،ص591.
(3) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 346.

3. وإشارة إلى عدم التزوّد من منزل القيام»[1].

فأمّا ترك القيام فهو واضح، وأمّا ترك الوقوف عند ذاك الحدّ؛ لأنّ العبد ما لم يتحقّق بمقام التوحيد الذاتيّ فلا يكون قد أدرك من التوحيد شيئًا؛ لأنّ التوحيدين الآخرين ليسا سوى تجلٍّ للتوحيد الذاتي. وإنّ الصفات الأفعال كلّها ترجع إلى الوجود، حيث إنّ الوجود منبع كلّ شرف، ولا كمال إلا بالوجود. ولا فعل ولا تأثير إلا بالكمال الوجودي.

وأمّا الإشارة إلى عدم التزوّد؛ فذلك لأنّ أولياء الله تعالى لا يرون لعملهم قيمة مهما بلغ في جنب الله تعالى؛ لأنّ العبادة للمعبود، ولا يمكن لعابد أن يدرك حقّ المعبود عزّ وجل مهما جهد.

يقول الإمام الخميني قُدِّسَ سِرُّهُ:

«والتكبير إشارة إلى التعظيم والتكبير عن التوصيفات التي صدرت في منزل القيام.

وعند أهل المعرفة حيث إنّ الركوع منزل توحيد الصفات فتكبير الركوع تكبير عن هذا التوحيد، ورفع اليد إشارة إلى رفض صفات الخلق»[2].

معنى ذكر الركوع

يقول الإمام الخميني قُدِّسَ سِرُّهُ: «وليُعلم أنّ الركوع مشتمل على تسبيح الربّ جلّ وعلا وتعظيمه وتحميده.

فالتسبيح تنزيه عن التّوصيف وتقديس عن التّعريف..

وإنّ التعظيم والتحميد خروج عن حدّي التشبيه والتعطيل؛ لأنّ التحميد يفيد الظهور في المرائي الخلقية والتعظيم عرض سلب التحديد.

فهو الظاهر وليس في العالم أظهر منه، وننفي عنه التلبّس بلباس التعيّنات الخلقية»[3].

وقوله قُدِّسَ سِرُّهُ أنّ التحميد يفيد الظهور في المرائي الخلقية أي في مرائي الخلق لأنّ الخلق هم مرآة الحقّ تعالى. ولكن نظرًا لتقيّد مرائيهم ومحدوديتها، فيمكن أن يحدّوا من ظهور كمالات الحقّ، لهذا وجب في عين شهود الكمالات في الخلق تعظيمُ الحقّ تعالى عنها وتنزيهُه منها.

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 347.
(2) م.ن، ص 347.
(3) م.ن، ص 349.

وقول العابد الحمد إشارة إلى شهوده للكمالات وللمحامد في الخلق، ولكي يخرج من الاحتجاب بقيود التعيّنات الخلقيّة، لزم أن ينزّه الله عن المحدودية ويعظّمه.

رفع الرأس من الرّكوع

ولأنّ تمام الرّكوع برفع الرأس منه، ولأنّ الرّكوع ليس نهاية الصّلاة ولا غاية التوحيدات، كان لا بدّ أن يُستكمل برفع الرأس، وهنا يقول الإمام قدس سره: «وسرّه هو الرجوع عن الوقوف في الكثرات الأسمائية، كما قال عليه السلام: «**وكمال التوحيد نفي الصفات عنه**»[1]؛ لأنّ العبد السّالك بعدما حصلت له حالة الصحو من الفناء الأسمائي، يشاهد قصوره وتقصيره؛ وذلك لأنّ مبدأ الخطيئة الآدمية (التي على ذرّيته أن تكفّر عنها) هو التوجّه إلى الكثرات الأسمائية التي هي باطن الشجرة»[2].

لأنّ الركوع في حقيقته مقام الفناء في الصّفات؛ أي فناء العبد عن صفاته وعن شهوده لصفات الحقّ تعالى، فمن الممكن أن يستغرق في صفات الله تعالى على نحو الكثرة، ولا يشهد المقام الأعلى من التوحيد الصفاتي الذي هو اجتماع كل الصفات في عين الذات. وهذا الاستغراق يُسمّى بالكثرة الأسمائية، وهو بحدّ ذاته خطيئة أو ذنب؛ لأنّه حاصل من بقاء شيء من الإنيّة، ولا بدّ للعبد من الخروج منه، وهو يحصل برفع الرأس من الركوع.

ولهذه الحقيقة أدب ينبغي مراعاته، وهنا يقول الإمام قدس سره: «فإذا عرف العبد، وهو من الذريّة، خطيئته وعرف خطيئة آدم وهو الأصل، فيدرك مقام تذلّله ونقصانه، ويتهيّأ لرفع الخطيئة الذي يحصل بخفض الجناح في حضرة الكبرياء، ويقيم صلبه من هذا المقام ويرفع الكثرات الأسمائيّة بعد الركوع بالتكبير ويتوجّه إلى منزل الذلّة والمسكنة وأصل الترابية صفر اليد، وآدابه المهمّة هي:

إدراك عظم خطر المقام وإذاقته القلب بالتذكّر التام،

والمجاهدة في التوجّه إلى حضرة الذات،

---

(1) ابن بابويه، محمد بن علي، التوحيد، تحقيق وتصحيح هاشم الحسيني، قم، إيران، نشر جماعة المدرسين، 1398هـ.، ط 1، ص 57.

(2) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 351.

وترك التوجّه إلى النفس حتّى إلى مقام ذلّة نفسه»[1].

لو كان الركوع غاية لكان نهاية الصّلاة وآخر أفعالها. لكنّه مرحلة متوسّطة وينبغي عبوره والخروج منه. وأوّل الخروج هو رفع الرأس منه والاستعداد للسجود الذي يمثّل آخر مراحل العروج. وأعظم معاني التهيّؤ للسّجود هو التوجّه إلى حضرة الذّات الذي هو معنى التوحيد الذاتيّ، ولا يحصل ذلك إلّا بترك النفس والنظر إليها ولو كانت في مقام التذلّل والفقر.

«واعلم أيّها العزيز، أنّ التذكّر التامّ لحضرة الحقّ والتوجّه المطلق بباطن القلب إلى تلك الذات المقدّسة موجب لفتح العين الباطنيّة للقلب الذي به يحصل لقاء الله وهو قرّة عين الأولياء ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾[2]»[3].

الآداب العامّة للركوع

أوّل خطوة نحو التبرّؤ من التجاسر والخروج من التعدّي على الحدّ أن يرى السالك نفسه في ركوعه ممتثلًا أمر الله تعالى، عالمًا معترفًا بأنّه ليس أهل هذا المقام، وهنا يقول الإمام قدس سره:

«فإذا أراد العبد السالك أن يرد منزل الركوع الخطر فلا بدّ له من التهيّؤ لذاك المقام وأن يرمي وراء ظهره توصيفه وتعظيمه وعبادته وسلوكه، ويرفع يده إلى حذاء الأذن ويرفع كفّيه الخاليتين باتّجاه القبلة ويرد منزل الرّكوع صفر اليدين وبقلبٍ مملوءٍ بالخوف والرجاء:

1. خوف التقصير من القيام بمقام العبودية.
2. والرجاء الواثق بمقام الحقّ المقدّس، حيث شرّفه وأذن له بالدخول إلى هذه المقامات التي هي لخلّص الأولياء وكمّل الأحبّاء»[4].

---

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 351.
(2) سورة العنكبوت، الآية 69.
(3) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 351.
(4) م.ن، ص 346.

شواهد من النصوص

«عن مصباح الشريعة، قال الصادق عليه السلام: «**لا يركع عبد لله ركوعًا على الحقيقة إلّا زيّنه الله بنور بهائه وأظلّه في ظلال كبريائه وكساه كسوة أصفيائه،**

والركوع أوّل والسّجود ثانٍ؛ فمن أتى بمعنى الأوّل صلُح للثاني،

وفي الركوع أدب وفي السجود قرب؛ ومن لا يُحسن الأدب لا يصلح للقرب.

فاركع ركوع خاضع لله بقلبه متذلّل وجلٍ تحت سلطانه، خافض لله جوارحه خفض خائف حزن على ما يفوته من فائدة الراكعين.

يُحكَى عن الرَّبيع بْن خَيْثَم، كَان يَسْهَرُ اللَّيْل إلَى الْفَجْر في رَكْعَة وَاحدَة، فَإذَا هُوَ أَصْبَحَ يَزْفرُ، وَقَالَ: آه، سَبقَ الْمُخْلَصُون وَقُطعَ بنَا؛ وَاسْتَوْف رُكُوعَك باسْتوَاء ظَهْرك وَانْحطَّ عَنْ همَّتك في الْقيَام بخدْمَته إلَّا بعَوْنه وَفرَّ بالْقَلْب منْ وَسَاوس الشَّيْطَان وَخَدَائعه وَمَكَايده؛ فَإنَّ اللَّه تَعَالَى يَرْفَعُ عبَادَهُ بقَدْر تَوَاضُعهمْ لَهُ وَيَهْديهمْ إلَى أُصُول التَّوَاضُع وَالْخُضُوع وَالْخُشُوع بقَدْر اطِّلَاع عَظَمَته عَلَى سَرَائرهمْ»[1]»[2].

يقول الإمام الخميني قدس سره:

«وفي هذا الحديث الشريف إشارات وبشارات وآداب ووظائف؛ كما إنّ التزيّن بنور بهاء الله والتظلّل بظلّ كبرياء الله، والتكسّي بكسوة أصفياء الله هي بشارات:

1. الوصول إلى مقام التعلم الأسمائي: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾[3]،
2. والتحقّق بمقام الفناء الصّفاتي.
3. وحصول حالة الصّحو من ذلك المقام.

لأنّ تزيين الحقّ تعالى العبد بمقام نور البهاء هو تحقيق الله للعبد بمقام الأسماء الذي هو حقيقة التعليم الآدميّ.

ولأنّ إظلاله في ظلّ الكبرياء، وهو من الأسماء القهريّة، وتمكين الله للعبد في فنائها إفناء العبد عن نفسه؛

---

(1) الامام جعفر الصادق عليه السلام، مصباح الشريعة، ص 89.
(2) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 349 - 350.
(3) سورة البقرة، الآية 31.

وبعد هذا المقام إكساؤه بكسوة الأصفياء وإبقاؤه بعد الإفناء.

ومن هنا يُعلم أنّ السجود فناء ذاتيّ، كما قال أهل المعرفة؛ لأنّ الركوع أوّل هذه المقامات، والسّجود ثان. فليس هو إلّا مقام الفناء في الذات.

ويُعلم أيضًا أنّ القرب المطلق الذي يحصل في السجود لا يتيسّر إلا بحصول الركوع على الحقيقة، ومن أراد أن يصلح للثاني لا بدّ أن ينال القرب الركوعي وأدب الركوع.

ثمّ إنّه عليه السلام أشار بعد بيان لطائف الركوع والسجود وسرائرهما إلى آدابه القلبيّة للمتوسّطين، وهي أمور بعضها من الأمور العامّة ذكرناها في المقدّمات وبعضها خاص بالرّكوع، وحيث إنّا بيّنّا أكثر هذه الأمور أغمضنا النظر عن تفصيلها»[1].

الزينة هي الكمال المضاف، ولا كمال يُضاف إلى الإنسان أعظم من الكمال المطلق. والكمال المطلق هو الذي يتجلّى في أسماء اللّه الحسنى. فإذا أراد اللّه لعبده الزينة الحقيقية زيّنه بزينة أسمائه. ولا يمكن للعبد أن يتمكّن في هذا المقام الأسنى ويستقرّ فيه مع بقاء الإنيّة ورؤية النفس. فإذا أراد اللّه تعالى لعبده هذا المقام جعله تحت ظلّ كبريائه، فيفنيه عن نفسه؛ لأنّه لا وجود لأحد في ظلّ الكبرياء. وهناك يصبح العبد جاهزًا ليكون مرآة كمال الحقّ، من نظر إليه من أهل القلوب لم يرَ إلّا اللّه تعالى.

(1) الخميني، روح اللّه الموسوي، معراج السالكين، ص 350 – 351.

المفاهيم الرئيسة

1. يشير الركوع إلى التوحيد الصفاتي (الاعتراف بأنّ لا كمال ولا كامل في الوجود إلّا اللّه).
2. للرّكوع أركان أربعة هي التكبير والانحناء والذكر والقيام.
3. كلّ ركن يشير إلى أسرار في المعارف والتوحيد.
4. الرّكوع تعبيرٌ عن تسليم الرّأس للّه تعالى والاستعداد للتضحية بالنفس والبدن في سبيل اللّه.
5. التّكبير هو من أجل الاعتراف بأنّ اللّه أكبر من وصف السّالك له وأكبر ممّا يحمله في نفسه، وأدبه أن ينظر المصلّي إلى مقام ذلّ العبوديّة وعزّ الربوبيّة.
6. إنّ شهود فقر النّفس وعجزها يحصل من خلال التقوى.
7. في الركوع ترك لرؤية النفس بحسب مقام الصفات والأسماء ورؤية مقام أسماء الحقّ وصفاته.
8. في الذكر، قول العابد الحمد إشارة إلى شهوده للكمالات والمحامد في الخلق، ولكي يخرج من الاحتجاب بقيود التعيّنات الخلقية، لزم أن يعظم اللّه عن المحدودية.
9. رفع الرأس وسرّه الرجوع عن الاستغراق في الكثرات الأسمائيّة ورؤية اجتماع كلّ الصفات في عين الذّات. وأدبه إدراك عظم خطر المقام وإذاقته القلب بالتذكّر التام، والمجاهدة في التوجّه إلى حضرة الذات، وترك التوجّه إلى النّفس حتّى إلى مقام ذلّة نفسه.

الدّرس الرابع والثلاثون

أسرار السجود وآدابه

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يتعرَّف إلى حقيقة السّجود وأسراره، وآدابه القلبيّة.
2. يبيّن اختلاف معاني السّجود باختلاف مقامات الساجدين.
3. يشرح العلاقة بين السجود والخروج من الإنّية والأنانية.

تمهيد

إنّ أرفع صفة للإنسان هي الصّفة الحاصلة من مقارنته مع الكمال الحقيقيّ. ولأنّ الكمال الحقيقيّ ليس سوى الله، فإنّ حصيلة المقارنة بين العبد والحقّ عزّ وجلّ ليست سوى العبودية؛ ولهذا كانت العبوديّة أجمل ما يتّصف به الإنسان.

وإنّ أجمل وأصدق تعبير عن العبوديّة بين يدي الله تعالى هو السّجود له.

فماذا يحمل السجود من معانٍ للعبودية ممّا لا يحمله الركوع أو أيّ فعل آخر؟

وكيف يمكن لسجودنا أن يصبح سجودًا حقيقيًّا، نعرج به إلى مراتب القرب؟

أسرار السّجود

يقول الإمام الخميني قدّس سرّه: «والسّجود عند أصحاب العرفان وأرباب القلوب هو:

1. ترك النفس وغمض العين عمّا سوى الحق.
2. والتّحقّق بالمعراج اليونسيّ الذي حصل بالغوص في بطن الحوت بالتوجّه إلى أصله بلا رؤية الحجاب،
3. وفي وضع الرأس على التّراب إشارة إلى رؤية جمال الجميل في باطن قلب التراب وأصل عالم الطبيعة»[1].

لأنّ رؤية النّفس أصل جميع الحجب. والمراد برؤية النفس كما مرّ كرارًا هو رؤية الاستقلال لها في الوجود. وهو الذنب الأعظم الذي لا يضاهيه ذنب؛ لأنّ رؤية الصفات المستقلّة والأفعال المنفصلة ترجع جميعًا إلى تلك الرؤية، ولأنّ كلّ المعاصي ترجع إلى رؤية الاستقلال في الفعل.

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 354.

ولعلّ بطن الحوت إشارة إلى الاحتجاب الأكبر والسير فيه خروج من هذا الاحتجاب وطلب القرب والوصال بتبديل الكثرات وإرجاعها إلى أصلها وهو التّوحيد. فهذا يونس عليه السلام وهو في بطن الحوت، لم يمنعه ما كان عليه من أن يسبّح الله تعالى وينفي عنه كلّ أنواع الأوهام والعيوب والقبائح والنقائص التي هي سمات الغيريّة، فعرج بذلك إلى أعلى مقامات القرب.

ومع من أنّ التراب هو التعبير عن أدنى مراتب الطبيعة التي هي أخسّ مراتب الوجود، فإنّ على العبد في سجوده أن لا ينسى ذكر ربّه الأعلى، فيسبح بذلك نحو عوالم القرب والوصال.

آداب السجود

يقول الإمام الخميني قدس سره: «والآداب القلبيّة للسجود هي:

1. عرفان حقيقة النفس وأصل جذر وجوده.
2. ووضع أمّ الدماغ وهي مركز سلطان النفس وعرش الرّوح على أدنى عتبة مقام القدس.
3. ورؤية عالم التراب عتبة لمالك الملوك»(1).

ليس الأدب في معناه سوى استحضار الحقيقة في مورده. وفي مورد السّجود فإنّ أعظم الحقائق التي ينبغي استحضارها هي عرفان حقيقة النفس بأنّها عين الفقر والضّعف والمسكنة والاحتياج، وأنّ أصل وجودها وسرّ بقائها هو قيامها بالله. وكي لا يبقى في النفس شائبة من الباطل والتوهّم، يمرّغ أعلى وأعزّ ما في الإنسان على أدنى ما في الطبيعة وهو التراب؛ لهذا يقول الإمام الخميني قدس سره:

«فسرّ الوضع السجوديّ غمض العين عن النفس، وأدب وضع الرأس على التراب إسقاط أعلى مقامات نفسه من العين ورؤيتها أقلّ من التراب»(2).

آداب السجود عند الإمام الصادق عليه السلام

يذكر الإمام الخميني قدس سره حديثًا عن الإمام الصادق في مصباح الشريعة، حيث يقول عليه السلام: «ما خسر والله من أتى بحقيقة السّجود، ولو كان في العمر مرّة واحدة.

---

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 354.

(2) م.ن.

وما أفلح من خلا بربّه في مثل ذلك الحال تشبيهًا بمخادع نفسه غافلًا لاهيًا عمّا أعدّه الله للسّاجدين من أنس العاجل وراحة الآجل.

ولا بعُد عن الله أبدًا من أحسن تقرّبه في السجود.

ولا قرُب إليه أبدًا من أساء أدبه وضيّع حرمته بتعلّق قلبه بسواه في حال سجوده.

فاسجد سجود متواضع لله تعالى ذليل، علم أنّه خُلق من تراب يطؤه الخلق، وأنّه اتّخذك (ركب) من نطفة يستقذرها كلّ أحد، وكُوّن ولم يكن.

وقد جعل الله معنى السجود سبب التقرّب إليه بالقلب والسرّ والرّوح فمن قرُب منه بعُد من غيره، ألا ترى في الظاهر أنّه لا يستوي حال السّجود إلّا بالتواري عن جميع الأشياء والاحتجاب عن كلّ ما تراه العيون، كذلك أمر الباطن فمن كان قلبه متعلّقًا في صلاته بشيء دون الله تعالى فهو قريب من ذلك الشيء بعيد عن حقيقة ما أراد الله منه في صلاته، قال عزّ وجلّ: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ﴾[1].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: قال الله تعالى: «**لا أطّلع على قلب عبد فأعلم فيه حبّ الإخلاص لطاعتي لوجهي وابتغاء مرضاتي إلّا تولّيت تقويمه وسياسته، ومن اشتغل بغيري فهو من المستهزئين بنفسه ومكتوب اسمه في ديوان الخاسرين**»[2][3].

ثمّ يقول قدس سره: «ففي هذا الحديث الشّريف قد جمع عليه السلام بين الأسرار والآداب، والتفكّر فيه يفتح للسالك إلى الله طرقًا من المعرفة ويقصم إباء المنكرين وجحودهم ويؤيّد ويشيد أولياء العرفان وأصحاب الإيقان ويقرع السّمع بحقيقة الأنس والخلوة مع الحقّ وترك غير الحقّ»[4].

بعض أسرار الاسم العليّ

يقول الإمام الخميني قدس سره: «في الحديث أنّه لما نزلت ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾[5]» قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**اجعلوها في ركوعكم**»، فلمّا نزلت: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾[6]، قال

(1) سورة الأحزاب، الآية4.
(2) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج4، ص 482 - 483.
(3) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 355.
(4) م.ن، ص 355 - 356.
(5) سورة الواقعة، الآية 74.
(6) سورة الأعلى، الآية 1.

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**اجعلوها في سجودكم**»[1].

وفي الحديث الشريف في الكافي: «**فأوّل ما اختار لنفسه العلّي العظيم**[2]» الحديث. ولعلّ العلّي هو الأوّل من الأسماء الذاتية، والعظيم الأوّل في الأسماء الصفاتية»[3].

معاني سجود المتوسّطين

يختلف سجود كلّ إنسان بحسب عرفانه وتوجّهه؛ ولهذا كان السجود على مراتب بحسب مراتب السّالكين. ولا شكّ بأنّ سجود الكاملين هو الأعلى، وهو السّجود الذي ينبغي أن نجعله هدف سيرنا السجوديّ، وحيث إنّ معرفة أسرار سجود هؤلاء الكمّل مقرونٌ بإدراك عرفانهم، وهو أمر غير متيسّر لنا، يكتفى بذكر بعض أسرار سجود المتوسّطين، عسى أن يكون هذا الذكر محفّزًا لنكون من أهل البدايات ببركة الشّوق إليهم، فنُحشر في النهاية مع الكاملين بفضل خدمتنا لهم.

يقول الإمام الخميني قدس سره:

«واعلم أنّ في السّجود كسائر الأوضاع الصلاتيّة هيئة وحالة وذكرًا وسرًّا.

وهذه الأمور للكمّل على نحو قد بُيّنت في هذه الرّسالة إشارةً، وأمّا بيانها تفصيلًا فغير مناسب.

وأمّا للمتوسّطين فهيئته:

1. إراءة المتربة.

2. وترك الاستكبار والعجب.

ج. وإرغام الأنف (الذي هو من المستحبّات المؤكّدة، بل تركه خلاف الاحتياط)، إظهارًا لكمال التخضّع والتذلّل والتّواضع، وأيضًا هو التوجّه إلى أصله والتذكّر لنشأته»[4].

فالمتوسّطون هم الذين عبروا مرتبة تهذيب الأخلاق وصارت عبادتهم تعبيرًا عن صفاء نفوسهم، ثمّ يقول الإمام قدس سره:

(1) الشيخ الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج6، ص 328.
(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج1، ص 113.
(3) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 356.
(4) م.ن، ص 356.

«ووُضع رؤساء الأعضاء الظّاهرة ـ التي هي محال الإدراك وظهور التّحريك والقدرة، (وهي الأعضاء السبعة أو الثمانية) ـ على أرض الذلّة والمسكنة علامة:

1. التسليم التام.

2. وتقديم جميع قواه.

ج. والخروج من الخطيئة الآدمية»[1].

فإذا كان الإنسان عندما يريد أن يعتزّ بنفسه يشمخ بأنفه أو يرفع جبينه، ويحرّك يده عندما يريد أن يعبّر عن مؤثّريته، ويتقدّم برجله لأجل التذكير باقتداره، فإنّ عباد الله الصالحين يضعون كلّ هذه الأعضاء على أرض المذلّة تعبيرًا عن ضعفهم ولا حولهم ولا قوّتهم.

إنّ عالم الطّبيعة هو وسيلة لشهود عالم الملكوت، وليس عالم الملكوت سوى محلّ شهود عظمة الله تعالى. فمن نظر إلى الطّبيعة أو الناسوت على أنّه غاية وقع في هذه الخطيئة وهوى. وفي السجود إغماض عنها وغضّ البصر عن النظر إليها، يقول الإمام الخميني قدس سره:

«فإذا قوي تذكّر هذه المعاني في القلب ينفعل القلب بها تدريجيًّا، وتحصل له حالة الفرار من النفس وترك رؤية النفس، ونتيجة هذه الحالة حصول حالة الأنس، وتعقبها الخلوة التامّة وانبعاث المحبّة الكلّيّة.

وأمّا ذكر السّجدة فمتقوّم بالتسبيح، وهو:

التنزيه عن التوصيف وعن القيام بالأمر،

أو التنزيه عن التكثير الأسمائي،

أو التنزيه عن التوحيد؛ لأنّ التوحيد تفعيل وهو الذّهاب من الكثرة إلى الوحدة، وهذا لا يخلو من شائبة التكثير والتشريك، كما أنّ التوصيف بالعلوّ الذاتيّ والتّحميد أيضًا لا يخلو من شائبة هذه المعاني.

والعليّ من الأسماء الذاتيّة وبحسب رواية الكافي هو أوّل اسم اتّخذه الله لنفسه؛ أي هو أوّل تجلٍّ للذّات، والعبد السالك إذا فني عن نفسه في هذا المقام وترك العالم وما فيه فينال فخر هذا التجلّي الذاتيّ»[2].

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 356.

(2) م.ن، ص 356 - 357.

سجود الأولياء

كلّ فعل عباديّ عند أولياء اللّه هو تعبيرٌ صادق عمّا في قلوبهم، وكلّ ما في قلوب الأولياء هو انفعالٌ صادق مقابل تجلّيات اللّه تعالى، وكلّ تجلّيات اللّه على قلوب الأولياء هي تجلّيات إطلاقيّة ليس لها حدّ، وذلك لسعة قلوبهم، وكلّ تجلٍّ إطلاقيّ لا يمكن أن تطيقه القلوب مهما اتّسعت، لأنّ نور عظمة اللّه تعالى فوق أي حدّ، ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾[1].

من أولياء اللّه نتعلّم العبادة وندرك حقائقها عسى أن نصل إليها يومًا، وهذه الحقائق هي التي تمثّل لنا بوصلة الطّريق ترشدنا إلى الصّلاة المعنويّة. ولولاهم لما كان لنا من العبادة حظّ أو نصيب سوى التّعب والملالة والجهد والعناء.

يحدّثنا الإمام الخميني قدس سره بعباراتٍ وجيزة عن عروج الكاملين في صلاتهم، وكيف يعبرون مراتب الوصال، فيقول:

«سجدة الغشي والصعق كما في حديث المعراج هي نتيجة مشاهدة أنوار عظمة الحقّ. فإذا صار العبد مغشيًّا عن نفسه وحصلت له حالة المحو والصعق فتشمله العناية الأزلية ويُلهم بالإلهام الغيبيّ.

وذكر السجود وتكراره لأجل حصول حالة الصحو والإفاقة.

فإذا أفاق تشتعل في قلبه نار الشوق لمشاهدة نور الحقّ ويرفع الرأس عن السجدة.

فإذا رأى في نفسه بقايا من الأنانية فيشير باليد إلى رفضها؛ فيتجلّى له نور العظمة ثانيًا ويحرق بقية الأنانية ويفنى من الفناء، وتحصل له حالة المحو الكلّيّ المطلق والصّعق التام الحقيقيّ وهو يكبّر.

فالمساعدة الغيبية بإلهام الأذكار تمكّنه في المقام وتعرض له حالة الصّحو في هذا المقام، وهو صحو مقام الولاية، وهو مقام منزّه عن كلّ احتجاب وشائبة خُلقية.

وتحصل بعدها حالة التشهّد والسلام، وهما من أحكام الكثرة. وعندٍ الوصول إلى هنا تتمّ دائرة السّير الإنساني وتكتمل»[2].

(1) سورة الأعراف، الآية 143.

(2) الخميني، روح اللّه الموسوي، معراج السالكين، ص 357 – 358.

فأوّل ما يحصل للأولياء هو تجلّي عظمة الحقّ تعالى على قلوبهم لما فيها من صفاء واستعداد منذ البداية، ولأنّهم لم يتلوّثوا بما يحجبهم عن ربّهم من بداية حياتهم. فالبداية عندهم قد تكون نهاية بالنسبة لغيرهم؛ ولهذا استحقّوا مقام الهداية.

ويحصل من جرّاء هذا التجلّي ما يشبه الغشي والصعق لقوّة جلال عظمة الجمال. وليس هذا الصعق سوى إزالة كل ما يمكن أن يحجب وهو الأنا، وبعدها يبدأ الإلهام والتعليم الإلهيّ.

أمّا تكرار السّجود فلأنّ الفناء فناءان، الأوّل فناء عن النفس التي هي رمز الغيريّة ورؤية الاستقلال لغير اللّه تعالى. والفناء الثاني هو فناء عن الفناء؛ لأنّ في الفناء الأوّل شائبة أنا الفاني. وبعد كلّ فناء أو محو يوجد صحو. والتكبير بعد السجود إعانة على رفض بقايا الأنا. ومع كلّ رفض وفناء استعداد أكبر لاستقبال التجلّيات الإلهيّة. وفي التجلّيات ذكر للحقّ تعالى بحسب مراتب التوحيد.

وهناك يُنال مقام الولاية الذي هو القرب المطلق، وهو عبارة عن قرب الفرائض، الذي يكون العبد فيه مظهر إنّ للّه عبادًا إذا أرادوا أراد.

الفرق بين تسبيح الرّبّ في الركوع والسجود

فليُعلم أنّ كلمة سبحان لا يمكن أن تختلف من حيث اللفظ في أيّ مقام من المقامات، وكذلك معناها اللغويّ، بل والاصطلاحي أيضًا. أمّا الاختلاف الذي يتحدّث عنه العارفون فهو في تجلّي حقيقة الرّبوبيّة على قلوبهم بحسب اختلاف أحوالهم القلبيّة وتوجّهاتهم السرّيّة... حتّى إذا قاموا بحقّ الرّكوع الذي هو أفضل تعبير عن التوحيد الصفاتيّ، وأن لا كمال أو كامل في الوجود إلّا اللّه تعالى، شهدوا حقيقة التربية الإلهيّة في الصفات.

وحيث إنّ السّجود هو التّعبير عن الفناء المطلق الذي يعقبه شهود توحيد الذّات، وأنّه لا موجود إلا اللّه، وأنّ كلّ موجود إنّما يكون وجوده شعاع وجود اللّه، فإنّ معنى ربّي في حال السّجود هو تجلّي التوحيد الذاتي للحقّ المتعال.

يقول الإمام الخميني قدّس سرّه:

«واعلم أنّ الركوع حيث إنّه أوّل والسّجود ثانٍ، فيفترق التسبيح والتحميد فيهما بفروق.

وأيضًا يفرق الرّبّ في المقامين؛ لأنّ الرّبّ كما قال أهل المعرفة من الأسماء الذاتية والصّفاتيّة والأفعاليّة بالاعتبارات الثلاثة.

فبناءً على ذلك فالربّ في الحمد لله ربّ العالمين لعلّه من الأسماء الفعليّة بمناسبة مقام القيام وهو مقام التّوحيد الأفعاليّ وفي الرّكوع من الأسماء الصّفاتية بمناسبة أنّ الركوع مقام توحيد الصفات وفي السجود من الأسماء الذاتية، من حيث إنّ السجود مقام توحيد الذات. والتسبيح والتحميد الواقعان في كلّ مقام يرتبطان بذلك المقام»[1].

العلاقة بين التوحيد وأفعال الصلاة الثلاث

ثمّ يأتي دور الركوع، وأظهر ما فيه هو هذا الانحناء الذي اعتنى الدين بوضعه أشدّ الاهتمام، وهنا يقول الإمام الخميني قدس سره: «اعلم أنّ عمدة أحوال الصلاة ثلاثة، وسائر الأعمال والأفعال مقدّماتها ومعدّات لها؛ الحال الأول: القيام، والثاني: الركوع، والثالث: السجود.

وأهل المعرفة يرون هذه الأحوال الثلاثة إشارة إلى التوحيدات الثلاثة. ونحن قد ذكرنا تلك المقامات في كتاب سر الصّلاة على حسب الذوق العرفانيّ، والآن نبيّن هذه المنازل بلسان آخر يناسب العامّة، فنقول:

بما أنّ الصّلاة معراج كمالي للمؤمن ومقرّب لأهل التقوى فهي متقوّمة بأمرين، أحدهما مقدّمة للآخر:

الأوّل: ترك رؤية النفس وإرادتها الذي هو باطن التّقوى.

الثاني: إرادة الله وطلب الحقّ، وهو حقيقة المعراج والقرب.

ولهذا ورد في الرّوايات الشّريفة: «**الصّلاة قربان كلّ تقيّ**»[2]، كما أنّ القرآن أيضًا نور الهداية، ولكن للمتقّين: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾[3]»[4].

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 357.
(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج3، ص265.
(3) سورة البقرة، الآية 2.
(4) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 347.

ليس التوحيد سوى تعبير دقيق عن معرفة اللّه حقًا. فكلّ ما نعرفه عن اللّه تعالى إذا لم يكن متّصفًا بالتوحيد فليس سوى الجهل؛ لأنّ العلم والقدرة والحياة وكلّ الصّفات الكماليّة لا تكون صفات إلهيّة إلّا إذا كانت منحصرة باللّه تعالى. كما إنّ تحديد الفعل الإلهيّ بأفعال العباد، ليس سوى تضييق لقدرته وتضييع لحكمته؛ ولهذا يستلزم التوحيد الذاتيّ توحيد الصّفات وتوحيد الأفعال.

فإذا كانت الغاية من العبادة هي المعرفة كما جاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام في قول اللّه تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1]، حيث قال عليه السلام: «**أي ليعرفون**»[2]، فإنّ هذه المعرفة لا تتمّ إلّا في ظلّ عبور التوحيدات الثلاثة. فكيف تحصل هذه المعرفة من خلال العبادة؟ وما هي علاقة العبادة بهذه التوحيدات؟

يقول الإمام الخميني قدس سره:

«وبالجملة هذان المقامان، يحصلان في هذه المقامات التوحيدية الثلاثة بالتدريج، ففي حال القيام ترك لرؤية النفس بحسب مقام الفاعلية ورؤية فاعلية الحق وقيّومية الحق المطلق، وفي الركوع ترك لرؤية النفس بحسب مقام الصفات والأسماء ورؤية مقام أسماء الحق وصفاته، وفي السجود ترك رؤية النفس مطلقا، وحب اللّه وطلبه مطلقاً.

وجميع منازل السالكين من شؤون هذه المقامات الثلاثة كما هو واضح لأصحاب البصيرة ولأهل العرفان والسلوك»[3].

فالتقوى التي تعني ضبط قوى النفس هي وسيلة لشهود فقرها وعجزها. وفي ظل شهود العجز المطلق يدرك المصلي حقيقة الغنى المطلق للحق المتعال.

وليست التقوى في حقيقة أمرها سوى فرصة لمنع قوى النفس الظاهرة والباطنة من التشتت فيتشتت معها أمر الإنسان وتغيب عنه الحقيقة.

---

(1) سورة الذاريات، الآية 56.

(2) الشيرازي، صدر الدين، شرح أصول الكافي، طهران، مؤسسة الأبحاث الثقافية، 1425 هـ، ط1، ج1،ص182.

(3) الخميني، روح اللّه الموسوي، معراج السالكين، ص 347 – 348.

ضرورة المراقبة الشديدة

وقد علمت أنّ أوضاع الصّلاة تعبّر عن حقائق عظيمة. فإذا لم يكن المصلّي من أهل هذه الحقائق، يكون قد ادّعى أمرًا عظيمًا وعليه أن ينجي نفسه من هذا الخطر برعاية ما يذكره الإمام قدس سره: «فإذا توجّه السالك في هذه المقامات إلى أنّ سرّ هذه الأعمال هو التوحيدات الثلاثة، صارت مراقبته أكثر ضرورة لكلّ مقام كلّما ازداد دقّة ولطفًا. لأنّ خطر المقام أشدّ والزّلل فيه أكثر.

ففي مقام الرّكوع حيث أنّ للسّالك دعوى أنّه ليس في دار الوجود علم ولا قدرة ولا حياة ولا إرادة إلا من الحقّ تعالى، وهذا الادّعاء عظيم والمقام دقيق للغاية ولا ينبغي صدور هذه الدعاوى من أمثالنا، فلا بدّ أن نتوجّه بباطن ذاتنا إلى جناب الحقّ المقدّس بالتضرّع والمسكنة والذلّة ونعتذر عن القصور والتقصير ونجد نقصاننا بعين العيان وشهود الوجدان، فلعلّه يصدر عن هذا المقام المقدّس توجّه وعناية ويصير حال الاضطرار سببًا للإجابة من الذّات المقدّسة: أمّن يجيب المضّطر إذا دعاه ويكشف السوء»[1].

ويقول قدس سره في مقام التنبيه والتعظيم:

«قد ورد في صلاة المعراج لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد الركوع أنّ العزيز خاطبه «**فانظر إلى عرشي**». قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**فنظرت إلى عظمة ذهبت لها نفسي وغشي عليّ فأُلهمت أنّ قلت سبحان ربّي العظيم وبحمده لعظم ما رأيتٍ. فلمّا قلت ذلك تجلّى الغشي عني حتى قلتها سبعا أُلهم ذلك فرجعت إليّ نفسي كما كانت**»[2]:

فانظر أيها العزيز إلى مقام عظمة سلوك سيد الكلّ وهادي السبل صلى الله عليه وآله وسلم أنه رأى في حال الركوع- وهو حال النظر إلى ما دون نفسه- نور العرش، وحيث أنّ نور العرش في نظر الأولياء عبارة عن تجلّي الذات بلا مرآة، فالتعيّن النفسيّ يزول وتحصل حالة الغشي والصعق.

فأدركت الذاتُ المقدّسة بالعنايات الأزلية وجودَه الشريف ولقّن سبحانه الذات النبوية المقدّسة التسبيح والتعظيم والتحميد بالإلهام الحبّي حتى أفاق بعدما قالها سبعًا- بعدد الحجب وعدد مراتب الإنسان- وحصلت له حالة الصحو.

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 348.

(2) الشيخ الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج5، ص 467.

وهذه الأحوال كانت تداومه في صلاة المعراج كلّها.

وحيث أنّه لا سبيل لنا إلى خلوة الأنس ولا مكان لنا في مقام القدّس، فالجدير أن نجعل رأسمالنا للوصول إلى المقصد وعروتنا لحصول المطلوب عجزنا وذلّتنا ولا ندع التمسّك بذيل المقصود حتّى يرتوي القلب.

وإذا لم نكن من رجال هذا الميدان فعلى الأقل نطلب الهداية من أهله ونستعين بروحانية الكمّل، فلعلّ رائحة من المعارف تصل إلى مشامّنا ويهبّ نسيم لطف على قالبنا الميّت وذلك لأنّ عادة الحقّ تعالى الإحسان وشيمته التفضّل والإنعام»(1).

التحذير من خطر الادّعاء

يحذّر الإمام قدّس سرّه من مخاطر الوقوف في المقامات العظيمة دون أن يكون في القلب حقيقة منها، فيقول: «وإذا كان في القلب شائبة في هذه الدعاوى التي تكون الأوضاع الصلاتية إشارة إليها فهو نفاق عند أرباب المعرفة.

وحيث إنّ خطر هذا المقام أعظم الأخطار، فيلزم للسالك إلى الله أن يتمسّك بذيل عناية الحق جلّ وعلا بجبلّته الذاتيّة وفطرته القلبيّة ويسأله العفو عن التّقصيرات بالذلّة والمسكنة؛ لأنّ هذا المقام مقامٌ خطير خارج عن عهدة أمثالنا.

وحيث ذكرنا هذه المقامات في رسالة سرّ الصّلاة بالتّفصيل فنكفّ عنه هنا، ونكتفي في آدابه بالرواية الشريفة من مصباح الشريعة»(2).

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 348 – 349.

(2) م.ن، ص 354.

المفاهيم الرئيسة

1. باطن السجود هو التوحيد الذاتي.
2. السجود هو أقصى ما يصل إليه العبد في الفناء.
3. أدبه استحضار حقيقة النفس بأنّها عين الفقر وأنّ أصل وجودها قائمٌ باللّه.
4. في وضع الرأس الذي هو مركز سلطان النفس على التراب الذي هو أدنى ما في الطبيعة إسقاطًا لأعلى مقامات النفس، وهو من أجل أن لا يبقى في النفس شيء من الباطل أو التوهّم.
5. وضع رؤساء الأعضاء على أرض الذلّة تعبير عن التسليم التام وتقديم جميع القوى والخروج من الخطيئة الآدميّة.

الدرس الخامس والثلاثون

آداب التشهُّد

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يتعرَّف إلى حقيقة الشهادة بالألوهية والرسالة وأسرارها

2 . يميّز بين معنى الشهادة في بداية الصلاة (الأذان والإقامة) وبين آخر الصّلاة.

3 . يتعرَّف إلى آداب التشهّد من خلال كلام الإمام الصادق عليه السلام.

تمهيد

لا تصحّ الشّهادة إلّا عن عيان؛ فمن قال: سمعت أو شعرت أو ظننت، فلا شهادة له. والأسوأ من هذا أنّ تكون الشّهادة مجرّد كلمات لا يعي قائلها ما يقول.

فما معنى أن نتشهّد في صلاتنا بأنّ الله هو الإله الأوحد الذي لا شريك له. وهل كنّا شاهدين أو حاضرين في زمن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم حتّى يحقّ لنا أن نشهد على رسالته؟!

إنّ الصّلاة هي وسيلة العروج إلى الحقائق، فمن صلّى الصلاة الحقيقيّة استطاع أن يشهد أعظم حقائق العالم وهي التّوحيد، وتمكّن من طيّ عوالم الزّمان وموانعه ليدرك معنى الرسالة الحقّة في النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم.

تريد الصّلاة أن تقول لنا: إنّ من سلك طريقتي أوصلته إلى حقائق هذه المعاني، وتحقّق بها على نحو الشّهادة والمشاهدة.

ومن لم يقدر على سلوك سبيلها الذي هو الأيسر، فليعلم مدى تقصيره واحتجابه. وليس له حينها سوى الاعتراف بالعجز والمذلّة والخطأ. عسى أن يجبر الله تعالى قصوره بفعل الاعتراف بتقصيره، ويخرجه من الاحتجاب عن أعظم الحقائق وأجلاها.

معنى الشهادة بأن لا إله إلا الله

يكون التشهّد في مواضع ثلاثة، كما يقول الإمام قدس سره: «في الأذان والإقامة، وهما من متعلّقات الصّلاة ومهيّئات الورود فيها، وفي التشهّد، وهو الخروج من الفناء إلى البقاء ومن الوحدة إلى الكثرة، وفي آخر الصلاة»[1].

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 360.

فما هي حقيقة الشهادة بالوحدانية؟ هنا يقول الإمام قدس سره: «اعلم أنّ الشهادة بالوحدانية تذكّر العبد السالك أنّ حقيقة الصلاة هي حصول التوحيد الحقيقيّ، والشهادة بالوحدانية من مقاماته الشاملة التي تكون مع السّالك من أوّل الصلاة إلى آخرها.

وفيها أيضًا سرّ أولية الحقّ جلّ وعلا وآخريته،

وفيها أيضًا سرّ عظيم، وهو أنّ سفر السالك من الله وإلى الله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾[1][2].

لأنّ التشهّد بالوحدانيّة يكون في آخر الصّلاة، فإنّ هذا يعني أنّ غاية الصلاة هي الوصول إلى التوحيد. ولأنّ التشهّد يكون في الأذان الذي هو شروع في الصلاة، فإنّ هذا يعني أنّ البدء يكون من التوحيد. وهذا يعني أن السّفر يكون من الله تعالى وإلى الله.

نشرع بالتوحيد وننتهي عنده، فالسير كلّه على صراط التوحيد.

والتوحيد هو ألّا نرى مؤثّرًا إلّا الله، ونخرج من حالة التعلّق بما سواه.

ولكي تثبت هذه الحالة في القلب يوصي الإمام الخميني قدس سره برعاية هذا الأدب قائلًا: «فعلى السالك أن يتوجّه في جميع المقامات إلى هذا المقصد، ويوصل إلى القلب حقيقة وحدانية الحقّ وألوهيّته، ويجعل القلب إلهيًا في هذا السفر المعراجيّ، لتكون شهادته حقيقية وتتنزّه من النفاق والشرك»[3].

الشهادة بأنّ محمدًا رسول الله

ويقول قدس سره بشأن الرّسالة: «وفي الشّهادة بالرّسالة أيضًا لعلّها إشارة إلى:

أنّ مساعدة الوليّ المطلق والنبيّ الخاتم في هذا المعراج السلوكيّ من المقامات الشاملة التي لا بدّ للسالك أن يتوجّه إليها في جميع المقامات،

ويتّضح سرّ الأوّلية والآخرية الذي هو من مقامات الولاية لأهلها»[4].

فلا يمكن سلوك طريق التوحيد إلا بمعونة من جعله الله مظهر أوّليته وآخريته في هذا العالم. ونحن نقرأ في الزيارة الجامعة: «**من أراد الله بدأ بكم**»[5]، ونقول أيضًا: «**وإياب الخلق إليكم**»[6].

(1) سورة الأعراف، الآية 29.

(2) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 360.

(3) م.ن.

(4) م.ن.

(5) الصدوق، من لايحضره الفقيه، ج2، ص615.

(6) م.ن، ص612.

فالرجوع إلى الوليّ هو رجوع إلى الله تعالى.

أمّا الغفلة عن مقامهم فهي غيبة عن السلوك؛ لأنّ التوجّه إلى دورهم يُعدّ من المقامات الشاملة لجميع مراتب السّلوك ودرجاته، ولا يمكن للسّالك أن يعبر مقامًا إلّا بإعانتهم ومساعدتهم؛ ولهذا كان التشهّد بالرسالة قرين الشهادة بالوحدانية في البدء وفي العود.

الفرق بين الشهادتين

يقول الإمام الخميني قدس سره: «وليُعلم أنّ ثمّة فرقًا بين الشهادة في أوّل الصلاة والشهادة في التشهّد؛ لأنّ الشهادة في أوّلها شهادة قبل السلوك وهي شهادة تعبّدية أو تعقلية، وفي آخرها بعد الرجوع وهي شهادة تحقّقية أو تمكّنيّة»[1].

فلأنّ الصلاة معراج وسفر، وللسفر بداية ونهاية، ففي بداية الصلاة يكون السالك غير متحقّق بالحقائق، وإنّما تكون علاقته بها علاقة تعبّدية أو تعقّلية، ويسعى بذلك لتكون شهوديّة وقلبيّة. فبعد أن يعرف معنى التوحيد ويثبته بالبرهان، يتّجه إلى الصلاة من أجل أن يحقّق شهود ما عرفه بالتعبّد والدليل. وينبغي، والحال هذا، أن تصبح شهادته في نهاية الصّلاة عن إيقان وعرفان، وإلّا لا يكون قد صلّى الصلاة الحقيقية!

خطر الشهادة

يقول الإمام الخميني قدس سره: «فللشهادة في التشهّد خطرٌ عظيم؛ لأنّ فيها دعوى التحقّق والتمكّن، ودعوى الرّجوع إلى الكثرة بلا احتجاب»[2].

لطالما ذكر الإمام الفرق بين الدعوى والحقيقة. وبيّن خطورة الادّعاء في محضر مالك الملوك عزّ وجلّ. وإنّ أسوأ ما يعيشه العبد بين يدي الحقّ تعالى هو الادّعاء، بحيث إنّه لو جاءه ببرّ الثقلين وهو على حال الادّعاء لكان وضعه أسوأ ممّن جاءه بذنوب الثقلين وهو مطأطئ الرأس المعترف بتقصيره وذنوبه.

إنّ الادّعاء في محضر من له العلم بالسّرائر ليس سوى استخفاف به، وهل يوجد ما هو أسوأ من الاستخفاف بربّ العالمين؟!

---

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 360.

(2) م.ن.

عندما نعصي الله تعالى، نقول: إلهي، ما عصيتك حين عصيتك وأنا بربوبيّتك جاحد ولا بحرمتك مستخف.

ونقول كذلك: ما عصيتك لأنّك أهون الناظرين إليّ.

لأنّ الاستخفاف بربّ العالمين ذنبٌ لا يضاهيه ذنب.

كيف ننجو من هذا الخطر؟

يقول الإمام الخميني قدس سره: «وحيث إنّ هذا المقام الشامخ غير حاصل لأمثالنا، بل ليس من المتوقّع أيضًا ونحن في هذه الحال، فالأدب في حضرة الباري أن ننظر إلى قصورنا وذلّتنا ونقصنا وعجزنا ومسكنتنا ونتوجّه إلى جنابه المقدّس بحالة من الحياء، ونقول:

إلهنا، ليس لنا من مقامات الأولياء ومدارج الأصفياء وكمال المخلصين وسلوك السّالكين حظّ سوى ألفاظ معدودة، وقد اقتنعنا من جميع المقامات بالقيل والقال الذي لا تحصل منه كيفية ولا حال.

إلهنا، إنّ حبّ الدنيا وتعلّقاتها حجبنا عن حضرة قدسك ومحفل أنسك. اللهم، إلا أن تدركنا نحن الهالكين بلطفك الخفيّ وتجبر ما سبق منّا، فلعلّنا نستيقظ من نوم الغفلة ونجد طريقًا إلى محضر القدس!»[1].

آداب التشهّد في حديث الإمام الصادق عليه السلام

يقول الإمام الخميني قدس سره: «عن مصباح الشريعة: قال الصادق عليه السلام:

«التشهّد ثناء على الله. فكن عبدًا له في السرّ خاضعًا له في الفعل، كما أنك عبدٌ له بالقول والدعوى وصل صدق لسانك بصفاء سرّك.

فإنّه خلقك عبداً وأمرك أن تعبده بقلبك ولسانك وجوارحك وأن تحقّق عبوديّتك له بربوبيته لك. وتعلم أن نواصي الخلق بيده، فليس لهم نفس ولا لحظ إلّا بقدرته ومشيئته وهم عاجزون عن إتيان أقلّ شيء في مملكته إلّا بإذنه وإرادته، قال الله عز وجل: ﴿ وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ ﴾[2] من أمرهم ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾[3].

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 360 - 361.

(2) سورة القصص، الآية 68.

(3) سورة القصص، الآية 68.

فكن لله عبداً ذاكرًا بالفعل كما أنّك عبد ذاكر بالقول والدعوى وصل صدق لسانك بصفاء سرّك، فإنّه خلقك فعزّ وجلّ أن تكون إرادة ومشيئة لأحد إلّا بسابق إرادته ومشيئته. فاستعمل العبودية في الرضا بحكمه وبالعبادة في أداء أوامره وقد أمر بالصلاة على حبيبه النبيّ محمّد ﷺ، فأوصل صلاته بصلواته وطاعته بطاعته وشهادته بشهادته. وانظر، لا يفوتك بركات معرفة حرمته فتحرم فائدة صلاته، وأمره بالاستغفار لك والشفاعة فيك إن أتيت بالواجب في الأمر والنهي والسنن والآداب، وتعلّم جليل مرتبته عند الله عزّ وجلّ»[1]»[2].

ثمّ يشرح الإمام الخمينيّ قدس سره هذا الحديث قائلًا:

«وفي هذا الحديث الشّريف إشارات إلى الآداب القلبيّة للعبادات وحقائقها وأسرارها، حيث يقول: التشهّد ثناء على الحقّ جلّ وعلا. وقد أشرنا سابقًا أيضًا أنّ مطلق العبادات ثناء على الحقّ، إمّا باسم أو بأسماء أو بتجلٍّ من التجلّيات، وإمّا بأصل الهوية.

ويشير عليه السلام إلى عمدة الآداب، وهي: كما أنّك تعبد الله في الظّاهر وتدّعي العبودية فاعبده في السرّ أيضًا حتّى تسري العبوديّة السريّة القلبيّة إلى الأعمال الجوارحيّة أيضًا ويكون العمل والقول نقشًا على الباطن والسرّ، وتسري حقيقة العبوديّة إلى جميع أجزاء الوجود الظاهريّ منها والباطنيّ، ويحظى كلٌّ من الأعضاء بحظّ من التوحيد ويوصل اللسان الذاكر الذكر إلى القلب وينقل القلب الموحّد المخلص التوحيدَ والإخلاصَ إلى اللسان ويطلب العبد الربوبية من حقيقة العبودية ويخرج من عبادة النفس ويوصل ألوهية الحقّ إلى القلب.

وليعلم أنّ ناصية العباد بيد الحقّ تعالى، ولا يقدرون على التنفّس والنظر إلا بقدرة الحقّ تعالى ومشيئته وهم عاجزون عن التصرّف في مملكة الحقّ بجميع أنواع التصرّفات، وإن كان تصرّفًا تافهًا، إلّا بإذن وإرادة ذاته المقدّسة كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[3].

(1) الامام جعفر الصادق عليه السلام، مصباح الشريعة، ص 93 – 94.
(2) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 361 – 362.
(3) سورة القصص، الآية 68.

فإذا أوصلت هذه اللطيفة إلى القلب يكون شكرك للحقّ على الحقيقة ويسري الشّكر إلى أعضائك وأعمالك.

فكما أنّ اللسان والقلب لا بدّ أن يكونا مترافقين في طريق العبوديّة، ففي هذا التوحيد الفعليّ أيضًا لا بدّ أن يكون صدق اللسان موصولًا بصفاء سرّ القلب؛ لأنّ الحقّ جلّ وعلا هو الخالق ولا مؤثّر غيره. وجميع الإرادات والمشيئات ظلّ إرادته ومشيئته الأزلية السابقة»(1).

وباختصار، فإنّ التشهّد اللساني مع التوجّه القلبيّ إلى حقيقة ما يقوله حول التوحيد والرسالة من شأنه أن ينقل هذه الحالة الظاهريّة إلى القلب. حتّى إذا صار القلب ذاكرًا بذكر اللسان انتقل من مرحلة التبعيّة إلى مرحلة القيادة، فلا يذكر اللسان بعدها شيئًا إلّا بأمر القلب.

إنّ التشهّد اللساني هو تلقين وتفهيم للقلب في المرحلة الأولى. ومع حضور القلب ورفع الموانع سرعان ما تسري الحقيقة الظاهرة إلى الباطن.

يقول الإمام الخميني قدس سره:

«ثم إنّ العبد بعد آداب الشهادة بوحدانية الحقّ وألوهيته يتوجّه إلى المقام المقدّس للعبد المطلق والرسول الخاتم. وعليه أن ينتبه إلى تقدّم مقام العبودية على الرسالة؛ لأنّ قدم العبودية مقدّمة لجميع مقامات السالكين، والرسالة شعبة من العبوديّة، وبما أنّ الرسول الخاتم عبدٌ حقيقيّ فانٍ في الحقّ، فإطاعته إطاعة الحقّ والشّهادة بالرّسالة موصولة بالشّهادة بالوحدانيّة، والعبد السّالك لا بدّ أن يراقب نفسه ألّا يقصّر في طاعة الرسول التي هي طاعة الله لئلا يُحرم من بركات العبادة، وهي الوصول إلى جناب القدس ومحلّ الأنس بمساعدة الوليّ المطلق، وليعلم أنّه لن يطأ المحفل المقدّس ومقرّ الأنس بدون إعانة وليّ النعم والرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم»(2).

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 362.
(2) م.ن، ص 363.

ولا ننسى بأنّ الشهادة بالرسالة في التشهّد الصلاتي تكون مسبوقة بالشهادة بالعبودية لأعظم خلق الله تعالى. كلّ ذلك تأكيد على أنّ أعلى المقامات لا يمكن بلوغها دون سلوك طريق العبودية الحقّة لله تعالى.

كما إن إعانة الرسول الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم مشروطة بطاعته، كما قال عز من قائل: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾[1]. فالذين يمنون النّفس بالحصول على شفاعته وشفاعة أهل بيته دون أن يسلكوا طريق طاعته أو يسيروا على درب تبعيّته، إنّما يعيشون الوهم والظنّ الذي لا يغنيهم عن الحقّ شيئًا.

(1) سورة آل عمران، الآية 31.

المفاهيم الرئيسة

1. التشهّد في ثلاث مواضع: الأذان والإقامة والتشهّد.
2. الشّهادة بالوحدانيّة هي تذكّر العبد أنّ حقيقة الصلاة هي حصول التوحيد الحقيقي.
3. التشهّد في بداية الصلاة (الأذان) وفي آخر الصّلاة معناه أنّ السّفر يكون من الله وإلى الله (فالسّير كلّه هو سير في مدارج التّوحيد).
4. الشهادة في أوّل الصلاة تعبدّية وفي آخرها تحقّقيّة.
5. التوّحيد هو عدم رؤية مؤثّر في الوجود إلّا الله، والخروج من التعلّق بما سواه.
6. تثبيت حالة التّوحيد في القلب يحصل بالتوجّه في جميع المقامات إلى هذا المقصد.
7. الشّهادة بالرّسالة إشارة إلى أنّه لا يمكن سلوك طريق التّوحيد إلّا بمعونة الوليّ الكامل، وينبغي لهذا التوجّه أن يكون حاضرًا في جميع المقامات، ولا تُنال معونته إلّا بطاعته.
8. الرجوع إلى الوليّ هو رجوع إلى الله.
9. في التشهّد خطورة ادّعاء التحقّق والرجوع إلى الكثرة بلا احتجاب.
10. النّجاة من هذا الخطر يكون بنظر السّالك إلى ذلّ نفسه واعترافه بقصوره وتقصيره.

الدرس السادس والثلاثون

آداب السلام

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يتعرَّف إلى معنى السّلام وحقيقته.

2 . يوضّح العلاقة بين السلام ومظهرية الوحدة في الكثرة.

3 . يبيّن علامات السّلام الحقيقيّ وكيفية تحقّقه.

تمهيد

السلام اسم من أسماء اللّه تعالى، يدلّ على فيضه الذي به تسلم الموجودات من أرجاس إبليس، هذا العدوّ المبين الذي لا همّ له سوى منع تحقّق إرادة اللّه في كلّ العوالم.

وقد جعل اللّه سبحانه الصلاة وسيلة لنشر السلام وإفشائه، بدءًا من النفس، وانطلاقًا من أولياء اللّه تعالى وانتهاءً بجميع الخلق.

السلام أكبر أعداء إبليس اللعين. هذا العدوّ المبين الذي يسعى لإثبات مقولة ﴿يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾[1]، ليؤكّد أنّ الإنسان لا يمكن أن يستحقّ مقام الخلافة الإلهيّة.

بواسطة السّلام تتأمّن كلّ مقوّمات انطلاقة الإنسان نحو جميع مراتب الكمال والأسماء الحسنى.

فعندما يأمن الإنسان من أخيه الإنسان يستطيع أن يتعاون معه، فتتضافر جهود الجميع ويتشاركون في رحلة البحث عن الحقيقة وإقامة القسط والعدل في العالم كلّه.

هكذا نتعلّم من الصّلاة أعظم معاني الحياة، وهكذا نبدأ من الصّلاة لنصنع حياة مليئة بالمعاني الروحية والإنسانية السامية.

حقيقة السلام

إذا استطاع السّالك أن يصنع من الصّلاة معراجًا لنفسه، وأتمّ فيها ما ينبغي من معاني الوصال والاتّصال، فإنّ الصّلاة ستكون رحلة يعبر فيها الأسفار الأربعة: من الخلق إلى الحقّ، ومن الحقّ إلى الحقّ، ومن الحقّ إلى الخلق في رحلة العود من مبدأ الوجود، ثمّ بالخلق إلى الحقّ آخذًا بأيدي من يشاء إلى الحقّ.

---

(1) سورة البقرة، الآية 30.

تعلّمنا الصلاة كيف يكون الرجوع إلى الخلق. فما لم يتحقّق السلام بيننا وبين العباد، لا يمكن أن يقبلوا بصحبتنا؛ لأنّ قلوب العباد وحشيّة، تنفر بسرعة لما فيها من شح. «**والناس أعداء ما جهلوا**»، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام[1].

ولا يحصل الرّجوع إلى الخلق بحقّ إلّا بعد السّلام المطلق مع ربّ الخلق؛ لأنّ في الوصول إلى الحقّ المتعال فرصة معرفة حاجات الخلق واستعداداتهم ورغباتهم وما يصلحهم ويفسدهم. فمن عرف الله عرف كلّ شيء. ومن صار عالمًا بالعلّة أصبح عالمًا بالمعلول حكمًا.

ولا شكّ بأنّ غاية المعرفة بالله إنّما تتحقّق في ظلّ الفناء عن الذّات وإدراك العجز والفقر المطلق الذي هو معرفة النفس. وفي السجود تعبير أكبر عن هذه الحقيقة، بل لا يوجد ما يعبّر عن حقيقة الخلق مقابل الحقّ مثل السجود.

فمن كان له السجود بالحقيقة، حصل له الفناء الذي هو مقدّمة المعرفة وروحها. وهذا هو العبد الذي يقدر على أن يكون مسالمًا لأولياء الله وعباده الصّالحين، ومن ثمّ بقية الخلق أجمعين.

يقول الإمام الخميني قدس سره: «اعلم أنّ العبد السّالك إذا رجع عن مقام السّجود الذي يكون الفناء سرّه، وحصلت له حالة الصحو والانتباه، ورجع من حالة الغيبة عن الخلق إلى حال الحضور، فيسلّم على الموجودات سلام من رجع من السفر والغيبة»[2].

السلام ومظهرية الوحدة في الكثرة

يقول الإمام الخميني قدس سره: «ففي ابتداء الرّجوع من السّفر يسلّم على النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأنّه بعد الرّجوع من الوحدة إلى الكثرة، فأوّل حقيقة هي تجلّي حقيقة الولاية «**نحن الأوّلون السّابقون**»[3]، ثمّ يتوجّه إلى أعيان سائر الموجودات بطريق التفصيل والجمع»[4].

إذا أدرك السّالك حقيقة الوحدة والتّوحيد، فلا يرى بعدها موجودًا إلّا في مظهريّة الحقّ؛ لأنّ كلّ كائن إنّما هو ظهور عظمة الله وأسمائه.

(1) السيد الرضي، نهج البلاغة، ص 501.
(2) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 366.
(3) راجع: العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج15،ص15.
(4) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 366.

جميع الكائنات هي مظاهر الأسماء الإلهيّة، ولا يمكن أن يكون ثمّة موجود ولا ينطق عن هذه الحقيقة.

لا يتحقّق شهود هذا المعنى إلّا بعد مشاهدة التوحيد التي تحصل بالفناء في اللّه ونفي الغيريّة والسوى.

فإذا كانت الموجودات آيات الحقّ المتعال، فالسّالك سيرى الشّعاع شعاعًا إذا شاهد شمس الحقيقة. ومن لم يرَ الشّمس سيحسب الشّعاع مستقلًّا وقائمًا بذاته، بل سيرى كلّ موجود ظاهرًا بذاته ويظنّ أنّ نوره ينبع من نفسه!

عندما نلتفت إلى الشّمس بغيبة الكائنات ندرك أنّ كلّ ضياء إنّما كان منها؛ ولولاها لما ظهر أحد.

ولا شكّ بأنّ أوّل من يظهر بهذا المعنى هو من كان له المظهريّة الأتمّ؛ أي من كان له شرف انعكاس النور الأعظم فيه، وهو رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم،

ثمّ عباد اللّه الصالحون،

ثمّ بقيّة الكائنات،

السلام الحقيقي

يقول الإمام الخميني قدّس سرّه: «ومن لم يكن في صلاته غائبًا عن الخلق، ولم يسافر إلى اللّه، فالسلام بالنسبة إليه بلا حقيقة، وليس إلّا لقلقة لسان»[1].

تكون الصلاة بالنسبة للمحجوبين ادّعاء، ويجب عليهم أن يبدّلوا الدعوى إلى حقيقة، وهذا ما لا يحصل إلّا بجعلها سفرًا ومعراجًا من خلال مراعاة آدابها التي هي شواخص السّفر وعلاماته، بل وقود الرّحلة ومطيّتها.

دور الصلاة المعنوية أن تخرجنا من الاحتجاب الذي حصل بسبب ظنّنا بأنّ الخلق مستقلّون بأفعالهم وذواتهم ووجودهم.

أعظم الاحتجابات هي التي تحصل بسبب حاجتنا إلى الناس واعتبارنا أنّهم يغنوننا.

والصلاة ترينا حقيقة فقر الكائنات وضعفها واحتياجها، بل قيامها باللّه تعالى.

(1) الخميني، روح اللّه الموسوي، معراج السالكين، ص 366.

هذا هو الفناء عن الخلق، وهذا هو معنى الغيبة عنهم، وبه يتحقّق السفر إلى اللّه تعالى، وهناك يحصل الحضور الأعظم، وفي المحضر المقدّس نتعرّف إلى الحقيقة التي هي سريان التوحيد في كلّ شيء، ونرى الخلق هذه المرّة في لباس الحقّ ومظاهره، فنعيش معهم في سلام!

يقول الإمام الخميني قدس سره: «فالأدب القلبي للسلام مرتبط بالأدب في جميع الصلاة. وإذا لم يحصل له في هذه الصلاة ، التي هي حقيقة المعراج ، عروج، ولم يخرج من بيت النفس، فلا سلام له»[1].

وعلامة حصول السلام هي السلامة من تأثير الشيطان والنفس الأمّارة، اللذين هما منشأ جميع الأوهام والأباطيل. وأسوأ آفاتهما توهّم أنّ الخلق قائمون بذواتهم، وأنّهم مؤثّرون دون اللّه. الأمر الذي يحصل منه الطّمع والاحتياج إليهم أو الخوف منهم. فمن قال في صلاته السّلام علينا، ولم يكن آمنًا من تصرّفات الشيطان اللعين والنفس الأمّارة فهو مدّع. وإذا لم يدرك قبح ادّعائه ليستره بالاستغفار والاعتراف بالعجز والتقصير وطلب ستّارية الحقّ تعالى، فهو كاذب أو مستخفّ بحرمة الصّلاة ومحضرها العظيم؛ لهذا يقول الإمام الخميني قدس سره: «وأيضًا إذا حصلت له السّلامة من تصرّفات الشيطان وتصرّفات النفس الأمّارة في هذا السّفر ولم يكن القلب عليلًا طوال هذا المعراج الحقيقيّ، فسلامه حقيقيّ، وإلّا فلا سلام له»[2].

أجل، من يمكن ألّا يكون السّلام بحقّه ادّعاء فهو رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأنّه حقّق جميع مراتب السّلامة، وصار مظهرًا تامًّا للاسم السّلام، فيقول الإمام قدس سره:

«نعم، السلام على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بناء على ذلك سلامٌ حقيقيّ؛ لأنّه صلى الله عليه وآله وسلم في هذا السّفر المعراجيّ وفي هذا السّير إلى اللّه صعودًا ونزولًا متّصف بالسّلامة، وفي جميع السّير خالٍ وبريء من تصرّفات غير الحقّ كما، أشرنا إليه في السورة المباركة ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾[3]»[4].

---

(1) الخميني، روح اللّه الموسوي، معراج السالكين، ص 366.
(2) م.ن.
(3) سورة القدر، الآية 1.
(4) الخميني، روح اللّه الموسوي، معراج السالكين، ص 366.

حديث في معنى السّلام ومراتبه

«عن مصباح الشريعة، قال الصادق عليه السلام: «**معنى السّلام في دبر كلّ صلاة الأمان.**

أي من أدّى أمر الله وسنّة نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم خاشعًا منه قلبه، فله الأمان من بلاء الدنيا وبراءة من عذاب الآخرة.

والسلام اسم من أسماء الله تعالى، أودعه خلقه ليستعملوا معناه في المعاملات والأمانات والإضافات وتصديق مصاحبتهم فيما بينهم وصحّة معاشرتهم،

وإذا أردت أن تضع السلام موضعه، وتؤدّي معناه فلتتقّ الله.

وليسلم منك دينك وقلبك وعقلك، ولا تدنّسها بظلمة المعاصي.

ولتسلم حفظتك من أن تبرمهم (تبرُمهم: تضجرهم)، ولا تملّهم وتوحشهم منك بسوء معاملتك معهم. ثمّ صديقك ثمّ عدوك. فإنّ من لم يسلم منه من هو الأقرب إليه فالأبعد أولى. ومن لا يضع السّلام مواضعه هذه، فلا سلام له ولا تسليم (سلّم) وكان كاذبًا في سلامه وإن أفشاه في الخلق»[1]،[2].

يشرح الإمام الخميني قدس سره هذا الحديث قائلًا:

«يقول الإمام الصادق عليه السلام: معنى السلام عقيب الصلاة هو الأمان؛ بمعنى أنّ من أدّى الأوامر الإلهيّة والسّنن النبوية بالخشوع القلبيّ فيأمن من بلاء الدنيا وعذاب الآخرة؛ أي يأمن من التصرّفات الشيطانية في الدنيا؛ لأنّ أداء الأوامر الإلهيّة بالخشوع القلبيّ موجب لقطع تصرّف الشيطان: إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر... ثمّ يشير عليه السلام إلى سرّ من أسرار السّلام، ويقول: السّلام اسم من أسماء الله تعالى أودعه الموجودات، وهذه إشارة إلى مظهريّة الموجودات للأسماء الإلهيّة...

ولا بدّ للعبد السالك أن يظهر هذه اللطيفة الإلهيّة التي أودعت واختفت في باطن ذاته وخميرته ويستعملها في جميع المعاملات والمعاشرات والأمانات والارتباطات ويشير بها إلى مملكة باطنه وظاهره ويستعملها في المعاملات مع الحقّ ودين الحقّ تعالى لئلّا يخون الوديعة

---

(1) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج5، ص 25 - 26.

(2) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 366 - 367.

الإلهيّة، فتسري حقيقة السّلام إلى جميع قواه الملكيّة والملكوتيّة، وفي جميع عاداته وعقائده وأخلاقه وأعماله لتسلم نفسه من جميع التصرّفات. وعرّف عليه السلام التقوى طريقًا لتحصيل هذه السلامة. وليُعلم أنّ للتقوى مراتب ومنازل:

1. فتقوى الظاهر هي حفظ الظاهر من القذارات وظلمة المعاصي القالبية، وهذه هي تقوى العامّة...
2. وتقوى الباطن هي حفظه وتطهيره عن الإفراط والتفريط وعن التجاوز عن حدّ الاعتدال في الأخلاق والغرائز الروحية، وهذه تقوى الخاصة.
3. وتقوى العقل حفظه وتطهيره عن استعماله في العلوم غير الإلهيّة، (والمراد من العلوم الإلهيّة ما يكون مرتبطًا بالشرائع والأديان الإلهيّة وجميع العلوم الطبيعيّة وغيرها من أجل معرفة مظاهر الحقّ تكون إلهيّة، وإن لم تكن لأجل ذلك فليست كذلك، وإن كانت من مباحث المبدأ والمعاد)؛ وهذه تقوى أخصّ الخواص.
4. وتقوى القلب حفظه عن مشاهدة وذكر غير الحقّ، وهذه تقوى الأولياء»[1].

ويُفهم من شرح الإمام الخمينيّ قدس سره لمراتب التقوى أنّ آفات الشيطان الكبرى والتي تمنع الإنسان من تحقيق السّلام في نفسه مع الله ومع الخلق هي:

الذنوب والمعاصي التي تمثّل اعتداءً واضحًا على الجوارح.

والأخلاق الرّذيلة التي تؤدّي إلى مرض النّشأة البرزخية.

والأوهام والأباطيل التي تتلبّس لبوس الحقيقة، وتضفي على نفسها صبغة العلوم.

ورؤية الغير مقابل الحقّ تعالى. وهو معنى شهودها في الاستقلال لا في الاستظلال. فإذا لم يبقَ في القلب سوى الحقّ تعالى، وصار شهوده لكلّ شيء في عين شهود الحقّ، ورأى الخلق بنور الحقّ ومظهريّته، فقد حقّق الخلوة مع الله وهي مجالسة الحقّ تعالى؛ ولهذا يقول الإمام الخميني قدس سره: «والمقصود من الحديث الشريف الذي يقول الحقّ تعالى فيه: «**أنا جليس من جالسني**»[2]، هو هذه الخلوة القلبيّة. وهذه الخلوة هي أفضل الخلوات، والخلوات الأخر

---

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 367 - 368.

(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج95، ص 377.

مقدّمة لحصول هذه الخلوة»[1].

فإنّ تفريغ القلب من همّ الدنيا الذي ينشأ منه جميع المعاصي القالبية والظاهرية، سيكون مقدّمة لتفريغه وتخليته من رذائل الأخلاق ومفاسدها. ومن سلُم قلبه من هذه الهموم سيرى الدّنيا في وجهها الأرضيّ لا التملّكيّ، فيعرف حينها مسؤوليّاته تجاهها. ولن تكون علومه لأجل السّيطرة عليها وتسخيرها لمآربه وأغراضها الدنيّة. فإذا تحقّق هذا السلام في العالم صارت الأرض مشرقة بنور ربّها تعطي أهلها في كلّ شيء علمًا صحيحًا.

يقول الإمام الخميني قدس سره:

«فمن اتّصف بجميع مراتب التّقوى يسلم دينه وعقله وروحه وقلبه وجميع قواه الظاهرة والباطنة، وتسلم حفظته الموكلة به، ولا تملّ ولا تضجر ولا تستوحش منه.

ومن كان بهذه الصفة تكون معاملاته ومعاشرته مع صديقه وعدوّه بطريق السلامة، بل ينقطع جذر العداوة من باطن قلبه، وإن كان الناس يعادونه.

ومن لم يكن سالمًا في جميع المراتب، فهو محروم من فيض السّلام بمقدار عدم سلامته وقريب من أفق النفاق بمقدار ذلك، نعوذ بالله منه، والسلام»[2].

---

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 368.

(2) م.ن، ص 368.

المفاهيم الرئيسة

1. الصلاة معراج المؤمن إلى الله: من الخلق إلى الحقّ، ومن الحقّ إلى الحقّ، ومن الحقّ إلى الخلق، وبالخلق إلى الحقّ.
2. حتى يتمّ السفر الرابع ينبغي أن يكون الإنسان في سلام مع خلق الله حتى يقبلوا بصحبته.
3. الرجوع إلى الخلق بحقّ يحصل بعد السلام المطلق مع ربّ الخلق.
4. السّلام المطلق مع الحقّ يحصل بالفناء عن الذات.
5. الفناء عن الذات يتحقّق بالسجود.
6. إذا ما تمّ السجود الحقيقي حصل الفناء، فيتحقّق السلام مع أولياء الله وعباده الصالحين.
7. مع حصول الفناء تحصل مشاهدة التوحيد (أنّ جميع الخلق مظاهر عظمة الله وأسمائه).
8. في ابتداء الرّجوع من السّفر أول من يتمّ السّلام عليه هو النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأنّه المظهر الأتمّ لعظمة الله وأسمائه، ومن ثمّ على عباد الله الصالحين، ومن ثمّ على باقي الموجودات.
9. ما دام الإنسان محتجبًا لن يرى الموجودات ظلّ أسماء الله وصفاته.
10. تأدية الصلاة مع مراعاة آدابها، من شأنه أن يخرجنا من هذا الاحتجاب ويرينا فقر الكائنات.
11. عندما يرى السّالك فقر الموجودات يفنى عنها، ويحصل السفر الحقيقيّ إلى الله تعالى والحضور الأعظم في المحضر المقدّس، فنرى الخلق في لباس الحقّ ويحصل السلام.
12. علامة حصول السلام الخروج من تأثير الشيطان والنفس الأمارة.

13. الخروج من سلطة الشيطان والنفس الأمّارة يكون بالتزام التقّوى في جميع مراتبها: تقوى الجوارح وحفظها عن ارتكاب المعاصي، تقوى الباطن بحفظه عن تجاوز حدّ الاعتدال، تقوى العقل بحفظه عن استعماله بالعلوم غير الإلهيّة، وتقوى القلب بحفظه عن مشاهدة غير الحقّ.

14. الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم هو الوحيد الذي استطاع أن يحقّق جميع مراتب السلامة، فأصبح مظهرًا تامًّا للاسم السّلام.

الدرس السابع والثلاثون

التسبيحات الأربعة وأسرارها وآدابها

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يتعرَّف إلى معنى كلّ ركن من الأركان الأربعة للتسبيح وأسراره وآدابه.

2 . يبيّن أهميّة القنوت ودوره وآدابه.

3 . يوضّح معنى التعقيب ودوره في جبران نقصننا وتقصيرنا.

تمهيد

مـا مـن فعل أو قول في الصّلاة إلا ويتضمّن أدبًا من آداب العبوديّة التي هي روح السّلوك إلى اللّه تعالى.

كلّ أعمالنا، ما لم تنطلق من دافع تحقيق العبودية، ولم تؤدِّ إلى العبودية، فلا قيمة لها.

ليست العبودية في جوهرها سوى الانسجام النفسيّ والعمليّ التامّ مع أعظم حقيقة في الوجود وهي حقيقة الربوبية.

من عرف ربّه حقًا، لا يمكن إلّا أن يتّخذه ربًّا ويتشرّف ويعتزّ بعبوديّته له صدقًا.

الصلاة عبادة جامعة؛ لأنّها شملت كلّ مفردات العبودية بصورة فريدة ومذهلة.

من اتّخذ الصلاة معراجًا للوصول إلى اللّه تعالى، أوصلته بأسرع الطّرق وأيسرها؛ فهي قربان كلّ تقيّ.

وفي الصّلاة أذكار أربع تُعرف بالتسبيحات؛ لأنّها في مقام التنزيه. وكلّ ذكر فيها يؤدّي دورًا عظيمًا في تثبيت روح العبودية في القلب، من خلال تثبيت عجز الممكن وذلّ المخلوق وضعفه ولا شيئيّته مقابل عظمة الخالق ومجد الإله وكبريائه.

مثل هذا الذكر التنزيهيّ له أربعة أركان بحسب كلام الإمام الخميني قدس سره، وهي:

التّسبيح

«التسبيح هو التنزيه عن التوصيف بالتحميد والتهليل»[1].

«وليُعلم أنّ التّحميد والتّهليل، حيث إنّهما متضمّنان للتّوحيد الفعليّ وفيهما شائبة التّحديد والتنقيص، بل شائبة التشبيه والتخليط، فيلزم العبد السالك أن يجعل نفسه في حصن

(1) الخميني، روح اللّه الموسوي، معراج السالكين، ص 370.

التسبيح والتنزيه الحصين، ليتهيّأ للورود فيه؛ ويفهّم باطن قلبه أنّ الحقّ جلّت عظمته منزّه عن التعيّنات الخلقية والتلبّس بملابس الكثرات، كي يتنزّه وروده في التّحميد عن شائبة التكثير»[1].

كلّ من يحمد الله قد يقع في شائبة التّحديد حين يقارن محامد الله بمحامد الخلق، وإن كان في مقام نفي التحديد. ولأنّ العبد في موقع حمد الله تعالى قد يرى نفسه حامدًا بينما الحمد في الفعل ليس إلّا لله تعالى؛ لهذا لا بدّ أن ينزّه حمده عن هذا والتّشبيه أيضًا.

ولأنّ العبد قد يشبه محامد الله وكمالاته بكمالات خلقه، فيحتاج إلى التّسبيح كذلك.

ولأنّ العبد قد ينسب العيوب إلى الله في مقام التوحيد احتاج إلى التسبيح أيضًا.

فكلّ شيء يرجع إلى الله تعالى دون عيب أو شوب نقص. وإنّما النقائص من مرتبة التعيّنات الخلقيّة ومن عالم الخلق، ثمّ يقول الإمام قدس سره:

«وهو من المقامات الشاملة، والعبد السّالك لا بدّ أن يتوجّه إليه في جميع العبادات ويحفظ قلبه عن دعوى التوصيف والثناء على الحقّ. ولا يظنّن أنّ في إمكان العبد القيام بحقّ العبوديّة فضلًا عن القيام بحقّ الربوبية الذي انقطعت عنه أعين آمال كمّل الأولياء وتقاصرت عن ذيله أيدي الأعاظم من أصحاب المعرفة (خذ أفخاخك واذهب، فالعنقاء لا يصطادها أحد)، فلهذه الجهة قالوا إنّ كمال المعرفة لأهل المعارف عرفان عجزهم»[2].

لا يقتصر التسبيح على موضع أو مقام خاص، بل ينبغي أن يكون حال العبد في كلّ أحواله. ومن ترك التسبيح سقط، وكلّ شيء إنّما يسير بهذه الحقيقة. وإذا كان لنا من بقاء فذلك من سعة رحمة الله وتفضّله. ومن مظاهر رحمة الله تعالى أنّه أجاز لنا بالورود إلى هذه المقامات رغم قصورنا وعجزنا عن القيام بحقيقة الأمر؛ لهذا يقول الإمام قدس سره:

«نعم، حيث إنّ الرحمة الواسعة للحقّ جل وعلا شاملة لنا نحن العباد الضعاف، فرخّص لنا نحن المساكين بالدّخول إلى جناب خدمته بسعة رحمته. وتفضّل بإجازة الورود في مثل هذا المقام المقدّس المنزّه الذي انقصمت ظهور الكروبيين عن الدنّو منه.

وهذا من أعظم تفضّلات وأيادي الذات المقدّسة لوليّ النعمة على عباده يعرف قدره

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 371.
(2) م.ن، ص 370.

أهل المعرفة والأولياء الكمّل وأهل الله على قدر معرفتهم.

وأمّا نحن المحجوبون المتأخّرون عن كلّ مقام ومنزلة، والمحرومون البعيدون عن كلّ كمال ومعرفة فعنه غافلون كلّيًا. والأوامر الإلهيّة - وهي في الحقيقة أفضل النعم العظيمة غير المتناهية - نحسبها من التكلّف والكلفة ونقوم بها بالضجر والكسالة.

ومن هذه الجهة حرمنا وحجبنا عن نورانيّتها بالكلّية»[1].

التحميد

«وهو مقام التوحيد الفعلي الذي يناسب حال القيام ويناسب القراءة أيضًا؛ فلهذا كانت هذه التسبيحات في الركعتين الأخيرتين قائمة مقام الحمد، والمصلّي مختار أن يقرأ الحمد مكانها.

ونستفيد التوحيد الفعليّ كما ذكرنا في الحمد من حصر الحمد بالحقّ تعالى،

وتقصر يد العبد عن المحامد بالكلية

ونوصل إلى سامعة القلب: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾[2]،

ونذيق ذائقة الروح حقيقة ﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[3].

ونضع رؤية النفس وحبّها تحت قدمي السّلوك، كي نصل إلى مقام التّحميد ونخلّص القلب من مشقّة تحمل ثقل منّة الخلق»[4].

عندما نحمد أو نمدح فنحن نثني، وهذا فعل من الأفعال. لكنّ التحميد الحقيقي يعني ألّا ننسب أيّ فعل للمخلوقين؛ لأنّ كل فعل إنّما هو فعل الله تعالى، فعلينا أن ننزّه الحقّ تعالى عن تحميدنا أيضًا!

التهليل

«وله مقامات، أحدها: مقام نفي الألوهية الفعليّة عن كلّ ما سوى الله، وهو عبارة أخرى عن لا مؤثّر في الوجود إلا الله، وهذا يؤكّد حصر التحميد، بل يوجب الحصر ويسبّبه؛ لأنّ

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 370.
(2) سورة الحديد، الآية 3.
(3) سورة الأنفال، الآية 17.
(4) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 371.

مراتب الوجود الإمكانية ظلّ حقيقة وجود الحقّ جلّت قدرته، وهي الربط المحض، وليس لشيءٍ منها وجه من الاستقلال والقيام بنفسه؛ فلهذا لا يصحّ أن يُنسب التأثير الإيجاديّ إليها بوجه؛ لأنّ اللازم في التأثير الاستقلال في الإيجاد والاستقلال في الإيجاد مستلزم للاستقلال في الوجود.

وبعبارة أهل الذوق حقيقة الوجودات الظلّية ظهور قدرة الحقّ في المرائي الخلقيّة. ومعنى لا إله إلا الله مشاهدة فاعليّة الحقّ وقدرته في الخلق ونفي التعيّنات الخلقيّة وإفناء مقام فاعلية وتأثير الخلق في الحقّ»[1].

كلّ تأثير يرجع إلى القدرة، والقدرة ترجع إلى الوجود. فما لم يكن الموجود مستقلًّا في وجوده، لا يمكن أن يكون مستقلًّا في تأثيره، لهذا يقول الإمام الخميني قدس سره:

«ومن مقامات التهليل نفي المعبود غير الحقّ، فلا إله إلا الله، أي لا معبود سوى الله. وبناءً على هذا يكون مقام التهليل نتيجةً لمقام التحميد؛ لأنّه إذا انحصرت المحمدة في ذات الحقّ المقدّسة فالعبوديّة أيضًا تنزل حملها في ذلك المقام المقدّس وتنتفي جميع عبوديات الخلق للخلق، وكلّها لرؤية المحمدة. فكأنّ السّالك يقول: لأنّ جميع المحامد منحصرة بالحقّ فالعبوديّة تنحصر به أيضًا، وهو المعبود؛ وتتحطّم الأصنام بأجمعها. وللتهليل مقامات أُخر لا تناسب هذا المقام»[2].

فلا يستحقّ العبادة إلّا من كان بالحمد موصوفًا؛ ولا محمود في الوجود على نحو الاستقلال إلا الله، فلا معبود سواه، وكلّ محمود غيره فبِه، ولولا نسبته إليه لما كان مستحقًّا لأي محمدة.

التكبير

«وهو أيضًا التكبير عن التّوصيف، فكأنّ العبد في بدء وروده في التحميد والتهليل ينزّه الله عن التوصيف، وبعد الفراغ منه أيضًا ينزهّه ويكبّره عنه، حتّى يكون تحميده وتهليله محفوفًا بالاعتراف بالتقصير والتذلّل.

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 371.

(2) م.ن، ص 372.

ولعلّ التكبير في هذا المقام هو التكبير عن التحميد والتهليل؛ لأنّ فيه شائبة الكثرة كما ذكر.

ولعلّ في التسبيح تنزيهًا عن التكبير، وفي التكبير تكبيرًا عن التنزيه لتسقط دعاوى العبد تمامًا، ويتمكّن في التوحيد الفعليّ، ويصبح مقام القيام بالحقّ ملكة في قلبه، ويخرج عن التلوين، وتحصل له حالة التمكين»[1].

يدور ذكر اللّه حول المعرفة. وتدور المعرفة حول الوصف. ولمّا كان الوصف عنه ممتنعًا، لاستحالة إحاطة الممكن بالواجب كان كمال الإخلاص له نفي الصّفات عنه. وكانت غاية المعرفة العجز عن المعرفة. فحقيقة الذكر هي التوجّه إلى هذه الحقائق التي تجتمع في التسبيح والتكبير لتعين السالك على عدم تجاوز حدّ العبودية.

وبمعرفة بعض معاني التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير يصبح السالك مستعدًّا للقيام بآدابها، وهي كما يقول الإمام الخميني قدس سره:

«والعبد السالك لا بدّ أن يحصّل في قلبه من هذه الأذكار الشريفة (التي هي روح المعارف):

1. حالة التبتّل والتضرّع والانقطاع والتذلّل،
2. ويعطى لباطن القلب صورة الذكر بكثرة المداومة،
3. ويمكّن في باطن القلب حقيقة الذكر،

حتّى يكون القلب متلبّسًا بلباس الذكر وينزع عن نفسه لباسه وهو لباس البعد.

فيصير القلب إلهيًّا حقّانيًّا، وتتحقّق فيه حقيقة وروح هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ﴾[2]»[3].

(1) الخميني، روح اللّه الموسوي، معراج السالكين، ص 372.
(2) سورة التوبة، الآية 111.
(3) الخميني، روح اللّه الموسوي، معراج السالكين، ص 372.

الآداب القلبيّة للقنوت والدعاء

1. معنى القنوت وحقيقة الباطنية:

يقول الإمام الخميني قدس سره: «القنوت، وهو حال المناجاة والانقطاع إلى الحقّ في خصوص الصلاة التي كلّها إظهار العبودية والثناء. وفي هذه الحالة، فإنّ ذات الحقّ المقدّسة جلّ وعلا فتحت باب المناجاة والدعاء على العبد خاصة، وشرّفه بهذا التشريف»[1].

ويقول قدس سره: «وبالجملة، مقام القنوت في نظر الكاتب كمقام السجود، فذاك توجّه وإقبال على ذلّ العبودية وتذكّر مقام عزّ الربوبية، وهذا إقبال على عزّ الربوبية وتذكّر عجز العبودية وذلّها.

وهذا بحسب مقام المتوسّطين، وأمّا بحسب مقام الكمّل فكما إنّ السجود مقام فناء العبد وترك الغير والغيرية، فالقنوت مقام الانقطاع إلى الحقّ وترك الاعتماد على الغير، وهو روح مقام التوكّل.

وبالجملة، حيث إنّ القيام مقام التوحيد الأفعالي وهذا التوحيد يتمكّن في الركعة الثانية ففي القنوت تظهر نتيجته فيقدم العبد كشكول التسوّل إلى الحقّ وينقطع عن الخلق ويفرّ منهم»[2].

فتارة يكون القنوت توجّهًا، وأخرى يكون تعبيرًا. ولا شكّ بأنّ من تحقّق بالمقامات تصبح الأفعال عند ظهور ما في باطنه من حقيقة المقام.

«أيّها العزيز، إنّ القنوت هو غسل اليد من غير الحقّ، والإقبال التامّ على عزّ الربوبية ومدّ اليد الخالية وسؤال الغني المطلق، وفي هذه الحالة من الانقطاع فإنّ الكلام عن البطن والفرج وذكر الدنيا منتهى النقصان وتمام الخسران»[3].

إذا استحضر العبد السالك مقام ربّه، ورأى ذلّ نفسه وفقره، فلا يمكن أن يطلب من الله تعالى ما لا يليق بهذا المحضر المقدّس. فافرض أنّك وفدت على غنيٍّ كريم ذي ثروة هائلة، فهل يصحّ في منطق الأدب أن تطلب منه القليل أو الحقير، وهل يقبل هذا الكريم أن تسأله ما لا يليق بشأنه.

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 374.
(2) م.ن، ص 375.
(3) م.ن، ص 374.

وافرض أنّك وفدت على عالم جليل ذي وفرة في العلم والتحقيق، فهل يليق أن تسأله مسألة شرعية يمكنك تحصيل الإجابة عنها من أيّ أحد؟

ألا يُعدّ هذا السؤال من سوء الأدب وضعف الوجدان؟! لهذا كان أعظم الآداب في الدّعاء أن تبدأ بالثناء على الله، وأن تدعو كما كان أولياء الله تعالى يدعون، يقول الإمام الخميني قدس سره:

«أيا روحي، حيث إنّك الآن بعدت عن وطنك وهجرت مجاورة الأحرار وابتُليت بهذه الدار المظلمة ذات التعب والمحن الكثيرة، فلا تنسج حول نفسك كدود القزّ.

أيا عزيزي، إنّ الله الرحمن قد خمّر فطرتك بنور المعرفة ونار العشق، وأيّدها بأنوار كالأنبياء والأولياء، فلا تطفئ هذه النار بتراب الدنيا الدنيّة ورمادها، ولا تكدّر ذاك النور بكدورة التوجّه إلى الدنيا وظلمتها، وهي دار الغربة، فإنّك إذا توجّهت إلى الوطن الأصلي وطلبت الانقطاع إلى الحقّ من الحقّ وعرضت عليه حالة هجرانك وحرمانك بقلبٍ موجع وأظهرت حال مسكنتك واضطرارك وابتلائك، فيدركك الإمداد الغيبيّ وتنال المساعدة الباطنية وتجبر النقائص؛ إذ من عادته الإحسان ومن شيمته التفضلّ.

وإذا قرأت في القنوت من فقرات المناجاة الشعبانية لإمام المتّقين وأمير المؤمنين وأولاده المعصومين عليهم السلام، وهم أئمّة المعارف والحقائق، وخصوصًا قوله عليه السلام: «**إلهي، هب لي كمال الانقطاع إليك...**»[1] إلى آخره، فاقرأه بحال الاضطرار والتبتّل والتضرّع، لا بقلبٍ ميّت كقلب الكاتب، فهو أنسب كثيرًا لهذه الحال»[2].

2. أحكام القنوت:

يقول الإمام الخميني قدس سره: «اعلم أنّ القنوت من المستحبات المؤكّدة التي لا ينبغي تركها بل الأحوط الإتيان به؛ لأنّ بعض الأصحاب قال بوجوبه، وظاهر بعض الروايات أيضًا الوجوب، وإن كان الأقوى في الصناعة الفقهية، عدم الوجوب كما هو مشهور بين العلماء الأعلام.

(1) ابن طاووس، علي بن موسى، اقبال الأعمال، ج2، ص 687.

(2) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 374 – 375.

وهو على هذه الكيفية الخاصّة المتعارفة بين الإمامية (رضوان الله عليهم)؛ بمعنى أنّه متقوّم برفع اليد حذاء الوجه وبسط باطن الكفّين نحو السّماء والدّعاء بالمأثور أو غير المأثور.

ويجوز الدّعاء بكلّ لسان، عربيًّا كان أم غير عربيّ، والعربيّ أحوط وأفضل»[1].

3. أفضل قنوت في الصلاة:

يقول الإمام الخميني قدس سره: «وقال الفقهاء: أفضل الأدعية فيه دعاء الفرج، ولم يرَ الكاتب دليلًا فقهيًّا معتدًّا به للأفضلية، ولكن مضمون الدّعاء دالّ على أفضليته التامّة؛ لأنّه مشتمل على التهليل والتسبيح والتحميد، وهي روح التوحيد كما بيّنا. وهو مشتمل أيضًا على الأسماء الإلهيّة العظمى كالله والحليم والكريم والعليّ والعظيم والربّ، وهو أيضًا مشتمل على ذكر الرّكوع والسّجود، وهو مشتمل أيضًا على أسماء الذات والصّفات والأفعال، وهو مشتمل أيضًا على مراتب تجلّيات الحقّ جلّ وعلا، وهو مشتمل أيضًا على السلام على المرسلين، وإن كان الأحوط تركه، ولكن الأقوى جوازه، وهو مشتمل أيضًا على الصلاة على النبيّ وآله عليهم السلام. فكأنّ هذا الدّعاء باختصاره مشتمل على جميع الوظائف الذكريّة للصّلاة، ويمكن إثبات أفضليّته بقول الفقهاء رضوان الله عليهم، إمّا بالتسامح في أدلّة السنن، وإن كان للكاتب فيه تأمّل، وإمّا بالكشف عن دليلٍ معتبر لم يصلنا كما هو مبنى الإجماع في نظر المتأخّرين.

ومن الأدعية الشريفة التي لها فضل عظيم، وهو مشتمل أيضًا على آداب مناجاة العبد الحقّ. ومشتمل على تعداد العطايا الكاملة الإلهيّة الذي يناسب حال القنوت، وهو حال المناجاة والانقطاع إلى الحقّ مناسبة تامّة، وبعض المشايخ العظام رحمه الله كان مواظبًا ومداومًا عليه تقريبًا، وهو دعاء «**يا من أظهر الجميل**»[2]. وهو من كنوز العرش وتحفة الحقّ تعالى لرسول الله، ولكلّ من فقراته فضائل وثواب كثير، كما في توحيد الشيخ الصدوق رحمه الله»[3].

---

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 373.

(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج2،ص 578.

(3) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 373 - 374.

آداب القنوت

يقول الإمام الخميني قَدِّسَ سِرُّهُ: «والأفضل للعبد السالك في أدب العبودية أن يراعي في حال القنوت:

1. أدبَ المقام الربوبي المقدّس،
2. ويراقب أدعيته لتكون مشتملة على تسبيح الحقّ تعالى وتنزيهه، ومتضمّنة لذكر الحقّ وتذكّره.
3. ويكون ما يطلبه من الحقّ تعالى في هذه الحالة الشّريفة من سنخ المعارف الإلهيّة وفتح باب المناجاة والأُنس والخلوة والانقطاع إليه.
4. ويحترز عن طلب الدنيا والأمور الحيوانية الخسيسة والشهوات النفسانية كي لا يعتريه الخجل في محضر الأطهار فيصبح بلا حرمة، ووقار في محضر الأبرار»[1].

في التعقيب وآدابه القلبيّة

يقول الإمام الخميني قَدِّسَ سِرُّهُ: «على العبد السالك أن يتفكّر في تعقيب الصلاة في نقصه وعبادته وغفلاته في حال الحضور، وهي بنفسها ذنب في مذهب العشق والمحبّة. ويتوجّه إلى حرمانه من حظوظ الحضور والمحضر المقدّس للحقّ جل جلاله، ويجبره بالمقدار الميسور في التعقيبات التي هي فتح باب آخر الرحمة من الحقّ تبارك وتعالى، ويوصل هذه الأذكار الشريفة إلى القلب ويحيي بها قلبه فلعلّه تختم خاتمته بالحسن والسعادة»[2].

جعل اللّه التعقيب لأجل الاعتراف بالتقصير وجبرانه ببثّ شجونه. ولمّا كانت صلاتنا مقرونة بالتقصير دومًا فالأحرى أن نعقّبها بما يمكن أن يجبر حالنا.

ولأنّ الصلاة وصال، ولأنّ الوفادة على الغنيّ المطلق، فالأدب يقتضي أن نمدّ يد الحاجة إليه بعد كلّ صلاة. وقد ورد في الأحاديث الشريفة أنّ من صلّى ولم يسأل ربّه فقد جفاه.

---

(1) الخميني، روح اللّه الموسوي، معراج السالكين، ص 374.

(2) م.ن، ص 377.

«وهو من المستحبات المؤكّدة، ويكره تركه أيضًا، ويتأكّد استحبابه في الصبح والعصر»[1].

لعلّ تأكّد استحباب بعد صلاة الصبح والعصر؛ لأنّهما وقتا انقلاب الأحوال والشروع في أحوال جديدة.

بعض التعقيبات المأثورة

يقول الإمام الخميني قدس سره:

«والتعقيبات المأثورة كثيرة، منها:

التكبيرات الثلاثة الاختتامية والمشايخ العظام يواظبون بأن يرفعوا أيديهم في كلّ تكبيرة منها إلى حذاء الأذن، ويبسطون باطن كفّهم حذاء القبلة كالتكبيرات الافتتاحية، وإثباتها مشكل، وإن أمكن استفادة رفع اليد ثلاث مرات من بعض الروايات، ولعلّه يكفي رفع اليد والتكبير ثلاثاً وقراءة دعاء: «لا إله إلا اللّه وحده» إلى آخره.

وإذا كان رفع اليد مستحبًّا كما يواظب عليه المشايخ فهو تمكين للأسرار التي ذكرناها. ولعلّه إشارة إلى طرد صلاته وعباداته لئلّا يتطرّق العجب ورؤية النفس إلى قلبه.

والتكبيرات الثلاثة لعلّها إشارة إلى التكبير عن التوحيدات الثلاثة التي هي مقوّمة روح كلّ الصلاة، فالأدب القلبيّ لهذه التكبيرات هو أن يطرد المصلّي في كلّ رفع لليدين توحيدًا من التوحيدات الثلاثة ويكبّر وينزّه الحقّ جلّ وعلا عن توصيفات نفسه وتوحيداته، ويعرض عجزه وذلّته وقصوره وتقصيره في المحضر المقدّس للحقّ جلّ وعلا.

ونحن ذكرنا في رسالة سرّ الصلاة الأسرار الروحية لهذه التكبيرات، وذكرنا رفع اليد على نحو لطيف في تلك الرسالة، وهو من ألطاف الحقّ تعالى لهذا المسكين وله الشكر والحمد.

ومن جملة التعقيبات الشريفة، تسبيحات الصديقة الطاهرة عليها السلام التي علّمها رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم لتلك المعظّمة، وهي أفضل التعقيبات. وفي الحديث «**أنّه لو كان شيء أفضل منه لنحله رسول الله فاطمة** عليها السلام»[2].

---

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 376.

(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج3، ص 343.

وعن أبي خالد القماط، قال: سمعت أبا عبد اللّه عليه السلام يقول: «**تسبيح فاطمة عليها السلام في كلّ يوم، في دبر كلّ صلاة أحبّ إلي من صلاة ألف ركعة في كلّ يوم**»[1].

والمعروف عند الأصحاب في ترتيبها: التكبير أربعاً وثلاثين مرّة، والتحميد ثلاثًا وثلاثين مرّة، والتسبيح ثلاثًا وثلاثين مرّة، ولا يبعد أن يكون هذا الترتيب أفضل لا المتعيّن، بل الإنسان مخيّر في التأخير والتقديم في التحميد والتسبيح، بل لعلّه مخيّر في تأخير التكبير وتقديم التسبيح أيضًا، ولكنّ الأفضل والأحوط هو الترتيب المشهور.

وآدابها القلبيّة هي التي ذكرت في التسبيحات الأربعة، والزائد عليها: أنّ هذه الأذكار حيث إنّها وردت بعد الصلاة والتسبيح فيها هو التكبير والتنزيه عن القيام بحقّ العبودية، وفي التكبير أيضًا تنزيه وتكبير عن اللياقة للعبادة لمحضر قدسه، وأيضًا تنزيه وتكبير عن المعرفة وهي غاية العبادة[2].

وفي تحميد تسبيحات الصديقة عليها السلام يثبت هذه المحمدة، وهي القيام بالعبودية. للهوية الإلهيّة أيضًا، ويراها ويعدّها من توفيق وتأييد الذات المقدّسة وحولها وقوّتها، ويوصل حقائق هذه الأمور إلى سرّ القلب ويذيق الفؤاد سرّ هذه اللطائف ليحيي القلوب بذكر الحقّ، ويجد القلب الحياة الدائمة بالحقّ»[3].

خصوصية استحباب بعد تعقيب صلاة الصبح

يقول الإمام الخميني قدس سره: «وحيث إن الصبح افتتاح الاشتغال بالكثرات والورود على الدنيا، ويواجه الإنسان مخاطر الاشتغال بالخلق والغفلة عن الحقّ فيحسن للإنسان السّالك اليقظان أن يتوسّل بالحقّ تعالى في ذلك الوقت الدقيق للورود في هذه الدار المظلمة وينقطع إلى حضرته، فإذا رأى نفسه غير وجيه في ذلك المحضر الشريف فيتوسّل بأولياء الأمر وخفراء الزمان وشفعاء الإنس والجان؛ أي الرسول الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة المعصومين عليهم السلام، ويجعل تلك الذوات الشريفة شفيعًا وواسطة.

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج3، ص 343.

(2) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 376 – 377.

(3) م.ن، ص 377 – 378.

وحيث إنّ لكلّ يوم خفيرًا ومجيرًا، فإنّ يوم السبت متعلّق بالوجود المبارك لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويوم الأحد لأمير المؤمنين عليه السلام، ويوم الاثنين للإمامين الهمامين السبطين عليهما السلام، ويوم الثلاثاء للحضرات السجاد والباقر والصادق عليهم السلام، ويوم الأربعاء للحضرات الكاظم والرضا والتقيّ والنقيّ عليهم السلام، ويوم الخميس للعسكريّ عليه السلام، ويوم الجمعة لوليّ الأمر عجل الله فرجه الشريف.

فيناسب أن يتوسّل بعد صلاة الصبح للورود في هذا البحر المهلك الظلمانيّ والمصيدة المهيبة الشيطانية بخفراء ذلك اليوم ويسأل الحقّ تعالى رفع شرّ الشيطان والنفس الأمّارة بالسوء بشفاعتهم؛ فإنّهم مقرّبون لجناب القدس ومحارم خلوة الأنس ويجعلهم وسائط في الإتمام وقبول العبادات الناقصة والمناسك غير اللائقة، فالحقّ تعالى شأنه كما جعل محمدًّا صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته وسائط الهداية، وعيّنهم الهداة لنا، ونجّى الأمّة ببركاتهم من الضّلالة والجهل، فيرمّم بشفاعتهم قصورنا، ويتمّم نقصنا، ويقبل إطاعتنا وعباداتنا غير اللائقة، إنّه وليّ الفضل والإنعام.

والتعقيبات المأثورة مذكورة في كتب الأدعية، فلينتخب ما يناسب حاله، ويتمّ هذا السفر الشريف بالخير والسعادة»[1].

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 378.

المفاهيم الرئيسة

1. تشتمل التسبيحات الأربعة على معانٍ وأسرار تدور حول معرفة الله وتوحيده.
2. لعلّ سرّ تسميتها بالتسبيحات من جهة أنّها سباحة العبد وسياحته إلى الله.
3. وقد يكون السرّ في كونها جميعًا متضمّنة لتنزيه الحقّ تعالى عن ذكر العبد.
4. القنوت تعبير عن فتح باب العبد وتشريفه في مقام القرب.
5. لولا القنوت لكانت الصلاة كلّها ثناء الربّ على ذاته.
6. أفضل القنوت ما يليق بمقام الربّ.
7. التعقيب فتح باب جبران التقصير والقصور.
8. التعقيب دليل سعة رحمة الحقّ تعالى.

الدرس الثامن والثلاثون

منهج الاعتدال

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يتعرّف إلى أصول منهج الاعتدال في السّير والسّلوك إلى الله تعالى.

2 . يدرك خطورة وعاقبة الإفراط والتفريط في المعنويات، وخطورة إنكار ظاهر الشريعة الإسلامية.

3 . يبيِّن وجوب تطهير القلب من الأوهام من خلال رعاية مقامي الظاهر والباطن.

تمهيد

تحمل عبارات الإمام قدس سره في مجال شـروط السّـير والسّـلوك الكثير من التشـدّد، فهو يؤكّد في مناسـبات عديدة على أنّ بقاء شـيء من الإنيّة في باطن السّـالك سـيحرمه بالكامل من شرف الحضور ومن مقام القرب.

ومـن عـرف معنـى الإنيّـة يتعجّب كيـف أنّ الإمـام يجعل مثل هـذا الذنب، الـذي لا يعرف النـاس عنه شيئًا، بهذا المستوى من التّأثير! وكأنّ الإمام نسي كلّ أنواع الكبائر الموبقة، ولم يعد همّه سوى هذا الأمر العميق، الذي يقول عنه من عرفه أنّه من حسنات الأبرار، وإن كان من سيّئات المقرّبين.

ويؤكّد الإمام قدس سره أيضًا على أنّه «ما لم تحصل التّقوى القلبيّة من الأمور التي ذكرناها لـن تحصل التّقـوى الروحيّة السـرّيّة الحقيقيّة. وجميع مراتب التّقـوى مقدّمة لهذه المرتبة، وهو ترك غير الحقّ. ومادام في السّالك بقيّة من الأنانية، فلن يتجلّى الحقّ على سرّه»[1].

وفي الوقت نفسـه، ومع كلّ هذا التشـدّد، فإنّ للإمام كلمات كثيرة تبيّن مدى سـعة رحمة الله تعالى ومدى سهولة الوصول إليه، فكيف نجمع ما بين الكلامين؟ وهل هناك تناقض في فكر الإمام ونهجه؟

الأمّة الوسط ومنهج الاعتدال

ينقسـم النـاس فيما يرتبط بالمعنويّات والعرفان الإسـلاميّ إلى ثلاث طوائف أساسـيّة، إفراطيّة، ومفرطة ومعتدلة.

---

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 87.

يذكر الإمام قدس سره في معرض الحديث عن شروط السّير والسّلوك أنّ على السّالك أن يتخلّص من الأنانية بالكامل حتّى يحصل له القرب والحضور. لكنّه في الوقت نفسه يبيّن أنّ هذه الوظيفة لا تعني أنّ الله تعالى لا يمكن أن يجذب العبد إليه دفعةً واحدة.

فإذا أراد السّالك أن يصل إلى مقام القرب، وينال الجذبة الرّبوبيّة، فعليه أن يراعي تلك الشّروط الشديدة للسّير المعنويّ، ولا ينبغي أن ينسى أنّ لله تعالى جذبة تعادل عبادة الثقلين. وهي الجذبة التي يقطع السّالك بفضلها مسيرة ألف شهر في ليلة واحدة.

وانطلاقًا من هذا التشدّد والتّساهل، يلفت الإمام أنظارنا إلى فائدة تعليميّة مهمّة، فيقول: «وأهل الحقيقة يلتفتون ممّا ذُكر إلى نكتة تعليميّة ومطلب مهم، والجهل به منشأ لكثير من الضّلالات والغوايات وللتخلّف عن سلوك طريق الحقّ، ولا ينبغي لطالب الحقّ الجهل به ولا يجوز له الغفلة عنه؛ وهو أنّ السّالك وطالب الحقّ لا بدّ أن يبرئ نفسه من الإفراط والتفريط اللذين يكونان في بعض جهلة أهل التصوّف وبعض الغافلين من أهل الظاهر حتّى يمكنه السّير إلى الله»[1].

الإفراط عند بعض الصوفية

لأنّ بعضهم يعتقد كما يقول الإمام قدس سره: «أنّ العلم والعمل الظاهريين القالبيين حشو وهما للجهّال والعوام، وأنّ الذين هم أهل السرّ والحقيقة وأصحاب القلوب وأرباب السابقة الحسنى لا يحتاجون إلى هذه الأعمال! وأنّ الأعمال القالبية لأجل حصول الحقائق القلبيّة والوصول إلى المقصد. فإذا وصل السالك إلى المقصد فالاشتغال بالمقدّمات تبعيد والاشتغال بالكثرات حجاب!»[2].

الإفراط في المعنويّات يؤدّي إلى التفريط بالأمور الظاهريّة. وهذه الطائفة تتظاهر بأنّ وصولها إلى أوج المعنويّات يغنيها عن الاهتمام بظواهر الأمور، وتدّعي بأنّ الأحكام الظاهريّة ليست سوى وسيلة لنيل حظوظ الباطن، فإذا تحقّقت حياة القلب ونال الباطن مبتغاه، لم يعد للوسيلة من معنى.

---

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 87 – 88.

(2) م.ن، ص 88.

التفريط من أهل الظّاهر

وحول الطّائفة الثانية يقول الإمام الخميني قدس سره: «والطائفة الثانية قامت في قبال هذه الطائفة فوقعوا في جانب التفريط، وأنكروا جميع المقامات المعنوية والأسرار الإلهيّة، وما خلا محض الظاهر والصورة والقشر أنكروا كلّ شيء، ونسبوها إلى التخيّلات والأوهام...

وما يزال النزاع والمجادلة والمخاصمة بين الطائفتين، كلٌّ يرى الآخر على خلاف الشريعة»[1].

ولمّا رأت جماعة من المتديّنين مدى إفراط جماعة الصوفيّة أنكروا عليهم كلّ شيء. وهذا من طغيان العداوة والشنآن، ولم يلتفتوا إلى الكثير من الحقّ في كلامهم أو فعلهم؛ فصار النزاع والمجادلة دينهم بدل أن يكون الحقّ مقصدهم؛ لهذا يقول الإمام الخميني قدس سره: «والحقّ أنّ كلتا الطّائفتين قد تجاوزت الحدّ ووقعت في الإفراط والتفريط. ونحن أشرنا في رسالة سرّ الصلاة إلى هذا الموضوع، وفي هذا المقام أيضًا نبيّن حدّ الاعتدال الذي هو الصراط المستقيم»[2].

منهج الاعتدال

«فليُعلم أنّ المناسك الصورية والعبادات القالبية ليست لمجرّد تحصيل الملكات الروحانية الكاملة والحقائق القلبيّة، بل هي إحدى ثمراتها.

فعند أهل المعرفة وأصحاب القلوب تكون جميع العبادات عبارة عن إسراء المعارف الإلهيّة من الباطن إلى الظّاهر ومن السرّ إلى العلن.

وكما أنّ نعمة الرحمة الرحمانية، بل الرحيمية منبسطة على جميع النشآت الإنسانية القلبيّة والقالبية، ولكلّ من المراتب حظّ من النّعم الإلهيّة الجامعة، فلكلٍّ منها حظ ونصيب من ثناء الحقّ وشكر النعمة الرحمانية والرحيمية للواجب المطلق.

وما دام للنفس حظّ من النشأة الصورية الدنيوية، ولها من حياة المُلك نصيب، فهذا يعني أنّ بساط الكثرة لم ينطوِ بالكامل، وأنّ حظوظ الطبيعة ما زالت موجودة.

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 88.

(2) م.ن.

وكما أنّ قلب السّالك إلى اللّه ينبغي ألّا يكون مشغولًا بغير الحقّ، كذلك صدره وخياله وملك الطّبيعة فيه لا ينبغي أن ينفقه في غير الحقّ، حتّى يكون للتّوحيد والتقديس في جميع النشآت قدمٌ راسخ.

وإذا كان للجذبة الرّوحيّة في ملك الطّبيعة نتيجة غير التعبّد والتّواضع للحقّ، ففي النفس بقية من الأنانية. وسير السّالك إنّما هو في جوف بيت النّفس، وليس إلى اللّه»[1].

إنّ همّ أهل المعرفة الذين تحقّقوا بحقائق الربوبية أن يُسرّوا هذه المعاني إلى عالم الظاهر. ولعلّ هذا هو أحد أهمّ أسباب جعل الخلافة في الأرض لمن تعلّم الأسماء كلّها. فخليفة اللّه هو الذي يقدر على جعل الأرض منوّرة بنور أسماء اللّه تعالى.

ولا يمكن لهذا الخليفة أن يحقّق هذا المقصد ما لم يكن ظاهره هو متنورًا بهذه الأسماء ومتحقّقًا بهذه الحظوظ؛ لهذا قال الإمام الخميني قدس سره:

«وغاية سير أهل اللّه هي أن تكون الطّبيعة وملك البدن منصبغة بصبغة اللّه. ولعلّ إحدى مراتب وبواطن الحديث الشريف الذي يحكي عن لسان الحقّ تعالى شأنه، حيث يقول: **«أنا اللّه وأنا الرحمان، خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته»**[2]، هي قطع الطّبيعة التي هي أمّ الأرواح عن موطنها الأصليّ، أمّا وصلها فهو ترويضها وإرجاعها إلى موطن العبودية.

وفي الحديث عن أبي عبد اللّه عليه السلام، قال: **«استوصوا بعمّتكم النخلة خيراً؛ فإنّها خُلقت من طينة آدم»**[3]، وهذا الحديث يشير إلى الرحميّة التي ذكرناها»[4].

فعالم الطبيعة الذي يتجلّى في الإنسان بظاهره وفي ملك البدن، هو من مراتب الوجود الإلهيّ الذي ينبغي أن يكون خاضعًا للّه. ولو أنّ العبد رضي بأن تكون هذه المملكة خاضعة لغير اللّه تعالى، ففي قلبه شائبة من عصيان اللّه؛ ويعني ذلك أنّ قلبه ليس فانيًا في اللّه ولا منصبغًا بصبغة اللّه كما ادّعى.

---

(1) الخميني، روح اللّه الموسوي، معراج السالكين، ص 88 - 89.
(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج47، ص 212.
(3) الشيخ الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج25، ص 145.
(4) الخميني، روح اللّه الموسوي، معراج السالكين، ص 89.

خطورة إنكار الظاهر

يقول الإمام الخميني قدس سره: «وبالجملة، إخراج مملكة الظاهر من موطن العبودية، وإرسالها على رسلها من غاية الجهل بمقامات أهل المعرفة ومن تسويلات الشيطان الرجيم؛ فإنّه يصدّ كلّ طائفة عن الحقّ تعالى بطريقٍ خاص»[1].

ويقول قدس سره في معرض التنبيه إلى خطورة إنكار ظواهر الشريعة: «والعارف بالله والعالم بالمقامات لا بدّ له أن يراعي جميع الحقوق الباطنية والظاهرية ويوصل إلى كلّ صاحب حقّ حقّه ويطهّر نفسه من الغلوّ والتقصير والإفراط والتفريط، ويزيل عن نفسه قذارة إنكار صورة الشريعة الذي هو في الحقيقة تحديد، ويزيل عن نفسه خباثة إنكار باطن الشريعة الذي هو تقييد. وكلاهما من الوساوس الشيطانية، ومن خبائث ذلك اللعين، حتى يتيسّر له طريق السير إلى الله والوصول إلى المقامات المعنوية»[2].

خطورة إنكار المقامات

«كما إنّ إنكار المقامات وسدّ طريق المعارف التي هي قرّة عين أولياء الله عليهم السلام وتحديد الشرائع الإلهيّة بالظاهر الذي هو حظّ الدنيا وملك النفس ومقام حيوانيّتها والغفلة عن الأسرار والآداب الباطنية للعبادات التي توجب تطهير السرّ وتعمير القلب وارتقاء الباطن، كلّ هذا هو من غاية الجهالة والغفلة...

وكلٌّ من هاتين الطائفتين بعيدٌ عن طريق السعادة والصراط المستقيم للإنسانية، ومطرودٌ من مقامات أهل المعارف»[3].

تطهير القلب من الأوهام

لهذا، يجب أن يطهّر السّالك قلبه من تلك الأوهام، كما يقول الإمام الخميني قدس سره: «فإزالة أخباث الأوهام الفاسدة المانعة من القرب إلى الله ومن معراج المؤمنين هي إحدى مراتب إزالة الخبث. وإنّ من معاني جامعية النبوّة الخاتمية ومقاماتها، بل من دلائل

(1) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 89.
(2) م.ن، ص 90.
(3) م.ن، ص 89 - 90.

الخاتمية أنّه في جميع المقامات النفسية قد أعطى جميع حقوقها وحظوظها من جميع شؤون الشريعة. وكما إنّه في معرفة شؤون الربوبيّة جلّت عظمته عُرّف الحقّ سبحانه في العلوّ الأعلى والدنوّ الأدنى بمقام الجامعيّة، وقال: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾[1]، و ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾[2] إلى آخره، «**ولو دليتم بحبل من الأرضين السفلى لهبطتم على الله**»[3]، ﴿فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ﴾[4]، إلى غير ذلك ممّا قاله ويحصل به للعارف بالمعارف الإلهيّة والمجذوب بالجذبات الرحمانية طرب ملكوتي ووجد لاهوتي.

كذلك فقد أسرى التوحيد العمليّ القلبيّ إلى آخر مراتب أفق الطّبيعة وملك البدن، ولم يحرم موجودًا من حظّ معرفة الله»[5].

فرعاية أحكام الظاهر وسيلة الوصول إلى مقام الباطن، ومن نال حظوظ الباطن لا شك بأنّه سيراعي شؤون الظّاهر؛ لأنّ حياة الباطن ستتجلّى في كلّ نشآته.

ومن عرف حقيقة النفس ومراتبها، وعلاقة كلّ مرتبة بما دونها لا يمكن أن يفصل بين النشآت.

اختتام ودعاء[6]

كان من المناسب أن نتمّم هذه الرسالة بذكر الموانع المعنويّة للصلاة من قبيل الرياء والعجب وأمثالهما، ولكن بما أنّا ذكرنا في كتاب الأربعين في شرح بعض الأحاديث شرحًا لهذه الموضوعات.

والآن، بسبب كثرة الاشتغال وتشتّت القوى الفكرية أعتذر عن هذه الخدمة؛ فلذا أختم هذه الأوراق مع الاعتراف بالنقص والتقصير وأطلب من أهل النظر الطّاهر العفو عن الخطأ، وأنا المحتاج إلى دعاء الخير منهم والنفس الكريم لهم.

---

(1) سورة الحديد، الآية 3.
(2) سورة النور، الآية 35.
(3) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج55، ص 107.
(4) سورة البقرة، الآية 115.
(5) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 90.
(6) الخميني، روح الله الموسوي، معراج السالكين، ص 379 - 380.

إلهنا، أنت الذي ألبستنا نحن العبيد الضعفاء لباس الوجود بالتفضل والعناية ومحض الرحمة والكرامة من دون أن سبق خدمة وطاعة منا أو حاجة منك إلى عبوديتنا وعبادتنا، وشرّفتنا بأنواع النعم الروحانية والجسمانية وأصناف الرحمات الباطنية والظاهرية من دون أن يتطرّق من عدمنا خلل في قدرتك وقوّتك أو أن يزيد بوجودنا شيء على عظمتك وحشمتك. فالآن، وقد فار منبع رحمانيتك وتشعشعت عين شمس جمالك الجميل وأغرقتنا في بحار رحمتك ونوّرتنا بأنوار الجمال، فاجبر أيضًا نقائصنا وخطيئاتنا وذنوبنا وتقصيراتنا بنور التوفيق الباطني، والمساعدة والهداية السرية وأخلص قلوبنا التي كلّها تعلّق من التعلّقات الدنيوية، وزيّنها بالتعلّق بعزّ القدس.

إلهنا، إنّه لا يحصل من طاعتنا نحن الأقلّين بسط في مملكتك، ولا يعود إليك نفع من عذاب المذنبين وإيلامهم، ولا يحصل من العفو والرحمة للساقطين نقصان في قدرتك، فالعين الثابتة للخاطئين طالبة للرحمة وفطرة الناقصين طالبة لتماميتهم، فعاملنا باللطف العميم، ولا تنظر إلى سوء استعدادنا...

«**إلهي، إن كنت غير مستأهل لرحمتك، فأنت أهل أن تجود علي بفضل سعتك... إلهي، قد سترت عليّ ذنوبًا في الدنيا، وأنا أحوج إلى سترها عليّ منك في الآخرة... إلهي، هب لي كمال الانقطاع إليك، وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك، حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور، فتصل إلى معدن العظمة**»[1].

---

(1) ابن طاووس، علي بن موسى، إقبال الأعمال، ج2، ص 686 - 687.

المفاهيم الرئيسة

1. رعاية الشروط والآداب المعنوية شرط لنيل الحياة المعنوية.
2. المهم أن يكون السالك شديد الاهتمام برعاية هذه الشروط.
3. إهمال الشروط تحت أيّ حجّة مانع من الوصول إلى المعاني القلبيّة.
4. إنّما ينال حظوظ الباطن من كان شديد العناية بأحكام الظاهر.
5. رعاية الظاهر وسيلة من جهة، وتعبير من جهة أخرى.
6. الإفراط في المعنويّات يعني إهمال الأحكام الظاهرية.
7. التفريط بالمعنويات يعني إهمال الحقائق والآداب المعنوية.
8. إنّما حصل الإفراط والتفريط بسبب روح الجدال والمراء بين المسلمين.
9. مقصد أهل الله هو إسراء الحقائق الغيبية في ملك الطبيعة.

مركز نون
للتأليف والترجمة

مركزُ نـون، مـنْ مؤسَّساتِ جمعيَّةِ المعارفِ الإسلاميَّةِ، يـختصُّ بتخطيطِ البرامجِ والمتونِ التعليميَّةِ والثقافيَّةِ، وتـألـيفِ وإعــدادِ الـمـتـونِ التعليميَّةِ والثقافيَّةِ الـعـامَّـةِ، مُراعياً القواعدَ المنهجيَّةَ والبحثيَّةَ والتربويَّةَ، وحِفظَ الأصالةِ الإسلاميَّةِ.

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
AL - MAAREF ISLAMIC CULTURAL ASSOCIATION
لبنان ـ بيروت ـ المعمورة ـ الشارع العام
تلفون: 471070 1 961+ فاكس: 476142 1 961+
www.almaaref.org.lb
Email:info@almaaref.org.lb

1046004

DBOUK 03 336218